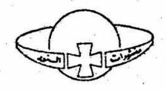

دكتور
عماد برسوم
٧
آباء الكنيسة




منشورات
النور

إسحق السرياني



نسكيات

نقله الى العربية الأب اسحق عطالله
بالتعاون مع معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي
في البلمند

منشورات النور
١٩٨٣

•آباء الكنيسة•

١ - الآباء الرسوليون

٢ - الحياة في المسيح — لنقولا كاباسيلاس

٣ - السلّم الى الله — ليوحنا السلّمي

٤ - في الكهنوت، احاديث عن الزواج، الرسائل الى اولمبيا — ليوحنا الذهبي الفم

٥ - فصول في الصلاة والحياة الروحية — لإفاغريوس البنطي و مرقس الناسك

٦ - أقوال الآباء الشيوخ

٧ - نسكيات — لاسحق السرياني

الفهرست



كلمة المترجم

أمسكني بكتفي وقال لي : أجئت إلى هنا من بلاد حافلة بالآباء القديسين قد أخرجت لكم البار إسحق السرياني لتتعلم أصول الحياة الرهبانية ؟ . « نعم أيها الأب القديس ، لكن خبرة آبائنا قد انتقلت إلى عندكم ، وقد جئت لأفتش عنها في هذا المكان » . هذا ما قاله لي راهب آثوسي أثناء لقائي به .

لم أكن أعرف إلاّ القليل عن القديس إسحق ، قبل ذلك اللقاء . فوعدته بأني سأباشر بمطالعته ، وطلبت منه أن يصلّي من أجلي لكي يفتح الله حدقة ذهني لكي أفهمه . فقرأته مرة واثنتين وثلاثة ، ثم عدت إليه وسألته إذا كان يبارك مشروع ترجمته إلى العربية ، فأجابني : إلى متى تنتظر ؟

شرعت بالترجمة ، فبدأت معها الصعوبات تجابهني ، ليس فقط من حيث اللغة ولكن من حيث المعاني وخاصة العميق منها . غير أن المعاني لا تخرج إلى النور إلاّ إذا كانت الخبرة الروحية عميقة . كانت الحيرة تتغلب عليّ في أكثر الأحيان ، لأنه لم تكن لي الجرأة الكافية على الذهاب إلى ذاك الأب ليشرح لي المعاني الغامضة . لكني عندما سمعته مرة يسألني عن سير العمل ، للحال تشجعت ، وأخذت أترقّب الفرص لزيارته حتى أسأله عن الغوامض التي كنت أصادفها .

كان شرحه لتلك الغوامض بعيداً عن كل روح فلسفي . كان يستخدم الأسلوب الصوري النابع من خبرته العميقة التي تستقي من الينبوع ذاته الذي استقت منه خبرة القديس إسحق ، ألا وهو الروح القدس . وكنت أشعر ، أثناء حديثه معي ، وكأن القديس إسحق نفسه يكلمني .

فقد كان يبرز المعنى الغامض بكلمة الروح لا بالكلمة الحرفية ، لأن الحرف لا يستطيع أن يعبّر عن ملء الروح ، كونه ليس سوى رمزاً للروح الذي يظل غامضاً بالنسبة لمن ليس عنده خبرة الروح .

عزيزي القارىء ، لا تستغرب إذا استوقفتك بعض المعاني الغامضة لدى قراءتك هذا الكتاب . وأود أن يكون موقفك من هذا الكتاب ومن أي كتاب آبائي آخر ، موقف من يطلب المعرفة والفهم الروحيين ، لا موقف من يحكم فيه .

إن الآباء كتبوا بإلهام الروح ولا يقدر أحد منّا أن يفهمهم إلاّ بالإلهام نفسه . وللحصول على هذا الإلهام يجب أن نصلّي أولاً ونطلب شفاعتهم محاولين الاقتداء بسيرتهم قدر المستطاع ، لكي ينغرس في نفوسنا الشوق إلى فضائلهم . عندئذ يمكننا أن نقتلع الأهواء من نفوسنا وأن نبتعد عن كل ما يشوّش أفكارنا من الأمور الدنيوية الزائلة .

فالآباء ليسوا بشعراء أدبيين ولا بفلاسفة يتشدقون بأمور مجرّدة لا تمس الحقيقة بشيء ، ولا بكتّاب أخلاقيين يحددون أصول التصرف الانساني في المجتمع ، لكنهم رجال علماء في الروح عرفوا الله لأنهم عاشوا معه وعاينوه ولمسوه . لهذا جاء تعبيرهم عن هذه الخبرة بلغة بسيطة ومحدودة جداً . وهذه اللغة ، بالنسبة لذلك العالم الروحي اللامحسوس ، تبقى مقصّرة عن وصفه الوصف الكامل . لهذا فالأدب والفلسفة والعلم لا يمكنها أن تكشف الحقيقة المحجوبة وراء الكلمة إلاّ لذاك الذي اتحد بالله واستنار بنوره .

إن التقليد الكنسي - والآباء ركيزة أساسية فيه - يشمل الكتاب المقدس ، حسب مفهوم الكنيسة الشرقية وليس العكس ، لأن الآباء هم الذين حددوا النصوص الكتابية وميّزوها عن الكتب الأخرى غير الأصيلة . لذلك أضحى الآباء المرجع الأساسي لفهم صحيح للكتاب المقدس . وفصل الكتاب عن الآباء يقودنا مباشرة إلى التفرد بالرأي ، وبالتالي إلى فهمه بمقتضى أهوائنا الشخصية .

لذلك من يقرأ الآباء ويقتدي بهم ، يتقدس ذهنه ويصبح تفكيره كتفكيرهم

دون أن يفقد مقوّمات شخصيته وذاتيته ، إنما على غرار « ليكن فيكم فكر المسيح » . وإذا منحه الروح شيئاً جديداً لا يكون هذا الشيء مخالفاً لما هو عند الآباء ، وإنما يكون منسجماً معه انسجاماً كلياً مهما كان جديداً .

فالآباء إنجيل حي معاش ، كُتب بدم وجهاد . فإذا فقدنا الانجيل ، نجده فيهم كتاباً وروحاً معاً . لذا فالسير على خطاهم هو لنا خير ينبوع نرتشف من روحه ونبلغ الهدف المنشود الذي هو الاتحاد بالله .

وإذا لم نفهم عمق الآباء ، فلنصلِّ ونطلب شفاعاتهم . وهذا ينجينا من الكبرياء ، لأن من يدنو منهم باستعلاء لا ينال شيئاً البتة . أمّا من يدانيهم باتضاع ، فيغتني من كنوزهم .

أمنيتي وغايتي من ترجمة هذا الكتاب السامي ، إلى العربية ، لغة الضاد ، هما أن يستفيد محبّو الله من تعاليمه السماوية ويقتنوا لأنفسهم ذخائر روحية تساعدهم على التيارات العصرية المادية والفكرية الهدّامة المنتشرة في أرجاء هذا العالم والرامية إلى تذليل الانسان واستغلاله وتقييد حريته الغالية التي منحه إياها الله .

الأب اسحق عطاالله



المقالات الروحية

المقالة الأولى

في الزهد وفي السيرة الرهبانية

بدء الفضيلة مخافة الله . ويقال إن المخافة تتولد من الإيمان وتُزرع في القلب عند انقطاع الذهن عن التشتت بالعالم وضبط أفكاره الشاردة وتثبيتها في التأمل بالتجديد المستقبلي (للعالم) (apokatastasis) .

الابتعاد عن أمور الدنيا والبقاء في ناموس النور ، أي في السبل المستقيمة المقدسة[1] ، كما سمّاها المرنم وأشار إليها بالروح ، هما أفضل أسس للفضيلة . قلّما يوجد إنسان يستطيع الصمود أمام الأكرام ، ولعله يستحيل وجوده وإن كانت أحواله كأحوال الملائكة . ذلك أن الانسان سريع التحوّل .

+ بداية طريق الحياة هي تأمل الذهن بصورة مستديمة في أقوال الله والعيش في الفقر ، لأن الارتشاف من أقوال الله يساهم في إكمال الفقر ، واللاقنية تسهّل التأمل في أقوال الله . هذان الأمران ـ التأمل والفقر ـ يساعدان على ارتفاع بنيان الفضائل بسرعة . فلا يمكن لأحد أن يقترب من الله ما لم يبتعد عن العالم أولاً . ولا أعني بالابتعاد ، الابتعاد الجسدي ، بل الابتعاد عن أمور العالم . لذلك فالفضيلة تكمن في إفراغ الذهن من العالم . لا يمكن للقلب الحصول على الهدوء والتحرر من الخيال ما دام فعل الحواس سارياً حتى في أقل الأمور الدنيوية . ولا يمكن قمع الأهواء الجسدية وإزالة الأفكار السيئة بدون الصحراء . فإذا لم تصبح النفس سكرى بالإيمان بالله ، بفعل قوة إحساسها ، فلن تستطيع أن تشفي الضعف الذي

(١) أي الوصايا الإنجيلية . أنظر المزمور ١١٢ .

13.2.04

في الحواس ، ولا أن تدوس بقوةِ المادةَ المنظورة التي تشكل حاجزاً أمام أمورها الداخلية ، ولا أن تحس برأي سلطتها الذاتية . فثمر الاثنين - سكر النفس بالإيمان بالله وشفاء الحواس من الضعف - هو الحرية . فبدون الأول - السكر - لا يتم الثاني - الشفاء - ، وبثبات الثاني تتقيد الثالثة (المادة) كما بلجام .

عندما تزداد النعمة في الانسان يصبح احتقار الموت سهلاً عليه وذلك لتوقه إلى البرّ . فيجد في نفسه أسباباً كثيرة تدعوه إلى احتمال الضيقات خوفاً من الله ، وتصبح الأشياء المؤذية للجسد والتي تجلب للطبيعة آلاماً مفاجئة ، محتقرة في عينيه ، منذ الآن ، إذ تقارن بالمرجوات . لا نستطيع معرفة الحقيقة بدون التجارب . إننا نتأكد ذهنياً من هذا الأمر عندما نرى الله يعتني عناية عظيمة بالإنسان . لأنه ما من أحد ليس تحت عناية الله ، وخاصة أولئك الذين يبتغون وجهه ويحتملون الآلام من أجله ، إلاّ ويرى ذلك بوضوح . عندما يتفاقم فقدان النعمة في الإنسان تنعكس أمامه كل الأمور السابق ذكرها ، وتصبح عنده المعرفة في مجال الفحص والتدقيق أعظم من الإيمان ، إذ لا تعود ثقته بالله هي المسيطرة في كل عمل من أعماله ولا عناية الله هي التي تشغل تفكيره . إن مثل هذا الإنسان توقعه الشياطين الرديئة باستمرار في فخاخ كهذه بتصويب نبالها عليه في الخفاء .

"إن مخافة الله هي بدء حياة الإنسان الحقيقية . وهذه المخافة لا يمكنها الاستمرار في النفس ما دامت مشتتة في أمر من أمور العالم ." إن لذة الله تتبدد أثناء عمل الحواس ، لأن المعاني الداخلية المرتبطة بحواسها تتعلق بالأحاسيس (الخارجية) التي تخدمها ."

تردد القلب يولد الجبن في النفس ، أمّا الإيمان فيقوي عزمها حتى أثناء تقطيع الأعضاء . فما دام حب الجسد قد تغلّب عليك فلن تقدر أن تكون شجاعاً وخالياً من الفزع أمام الأمور الكثيرة التي تعاكس جسدك المحبوب .

من يرغب في الإكرام لا يمكنه النجاة من أسباب الحزن . لن يوجد إنسان يستطيع ذهنه أن يبقى ثابتاً في ما يفكر به عند تبدل الأوضاع . فإذا كانت الرغبة تتولد - كما يقال - من الحواس ، فليخرس إذاً أولئك الذين يعتقدون إنه من الممكن الحفاظ على سلام الذهن وسط التشتت .

العفيف ليس كل من يظن أن الأفكار القبيحة كفّت عنه أثناء المعركة والجهاد فقط، بل هو الذي جعل مشاهدة ذهنه عفيفة بيقين قلبه كي لا ينجذب بصورة قبيحة نحو أفكار سمجة . ومتى شهدت له جودة ضميره شهادة أمينة من خلال رؤية العينين ، يصبح الحياء مثل ستار مسدل فوق سريرة أفكاره ، كالعذراء التي تصون طهارتها بالإيمان بالمسيح .

+ لا شيء يمكنه أن يردع الذكريات الماضية القبيحة ، وأن يطرد الذكريات المتحركة والثائرة على الجسد والتي تلهبه وتسبب له الاضطراب ، مثل الغوص بشوق في الكتاب المقدس وكشف معانيه العميقة ، فعندما تغوص الأفكار مفتشة بلذة عن الحكمة المذّخرة في أقواله ، الحكمة التي تبرز بقوة الإعلان الكامن فيها ، ينسى الإنسان العالم وكل ما فيه ، ويمحو الذكريات التي تحمل له صوراً حيّة عن العالم . وبالإضافة إلى ذلك فإنه كثيراً ما يتحرر من أفكار تراود طبيعته بمقتضى الضرورة والعادة . أمّا النفس فإنها تكون في حالة ذهول تسببها لقاءات جديدة تنبع من أسرار بحر الكتاب المقدس .

أمّا إذا كان الذهن معرضاً لتيار المياه ، أي لتيار بحر الكتاب المقدس ، ولم يتمكن من الغوص إلى أعماق معانيه ليدرك كامل كنوزه ، فيكفيه عندئذ التأمل فيها بشوق حتى يربط أفكاره جيداً بإحدى معجزاته ويمنعها من الإسراع باتجاه طبيعة الجسد ، كما قال أحد المتوشحين بالله . لأن القلب يعجز عن تحمل الشرور التي تجابهه من الداخل والخارج . تعلمون أن الفكر القبيح ثقيل . لذلك إذا لم يهتم القلب بالمعرفة فلن يستطيع تحمل اضطراب ثورة الجسد .

وكما أن الثقل يمنع ميلان الميزان عند هبوب الريح ، هكذا الحياء والخوف يمنعان ميل الفكر إلى هنا أو هناك . وكما أن فقدان الخوف والحياء يُسبب تشتتاً في الذهن ، هكذا يكون الحال بالنسبة للسلطة الذاتية (الحرية) ، فإنها أحياناً كثيرة تكون سبباً لاضطراب ميزان الذهن ، إذ يبتعد الخوف عن النفس . هكذا أيضاً الفكر المثقل بخوف الله والحياء لا يتأثر بسهولة بما يهزه .

+ حكّم ذاتك وضع خوف الله أساساً لمسيرتك ، تبلغ باب الملكوت خلال أيام قليلة ، دون أن تجعل طريقك مستديرة .

استخلص زبدة الأقوال أثناء مطالعتك الكتاب المقدس ، لكي تتعمق وتدرك بمعرفة كبيرة غور المعاني المقدسة . إن الذين هدت النعمة الإلهية حياتهم إلى النور يشعرون دائماً بوجود شعاع عقلي يتخلل الآيات المكتوبة ويضيء الذهن ويجعله يميّز بدقة المعاني الأساسية الكبيرة عن الأقوال السطحية ، تمييزاً روحياً شفافاً .

+ الإنسان الذي يقرأ النصوص المهمة بلا مبالاة يجف قلبه وتخمد فيه تلك القوة المقدسة التي تمنح القلب مذاقاً حلواً وتساعد النفس على الفهم بطريقة عجيبة .

كل شيء يميل عادة إلى جنسه ، والنفس ، إذ لها قسم روحي ، فإنها عندما تسمع كلاماً يحمل قوة روحية تتقبله بحرارة . ولكن هذا لا يعني أن كل شيء يقال بطريقة روحية ويحتوي في الوقت نفسه على قوة عظيمة ، يمكنه أن يوقظ كل إنسان ويدعوه إلى التأمل . إن الكلام عن الفضيلة يحتاج إلى قلب فارغ من الأرضيات ، ومن التحدث عنها . فالإنسان الذي يشقى ذهنه في الأمور الزائلة لا تحرك فكره أعمال الفضيلة فلا يتشوق إليها ولا يهتم باقتنائها . التحرر من المادة يسبق اتحادنا بالله ، ولو ظهر هذا الاتحاد أحياناً كثيرة متقدماً في بعض الأمور ، وكأنه شوق يغطي شوقاً ، بمقتضى تدبير النعمة . إن نظام تدبير الله يختلف عن نظام عامة الناس + أمّا أنت فحافظ على نظام عامة الناس ، فإذا أدركتك النعمة فليكن ما يكون وإلاّ فسر في طريق عامة الناس ، التي يسير عليها كل منهم على حسب قدرته ، واصعد إلى البرج الروحي .

كل شيء يُفعل في المشاهدة (الثاوريا) ويتمم بموجب الوصية المختصة به ، لا يُرى أبداً بأعين الجسد . وكل شيء يتمم بالعمل هو مركّب . لأن الوصية واحدة لهذين الأمرين، أي للمشاهدة والعمل، ذلك لأن هناك متجسمين وغير متجسمين ، إلاّ أن تركيب الاثنين واحد . إن الأعمال التي وظيفتها التطهير لا تمنع تذكر الزلات السالفة ، بل تستمد الحزن من الذهن عن طريق التذكر . ومن هنا يصبح مفيداً انتقال التذكر إلى الذهن . ولهذا فاقتباس الفضيلة من ناحية النفس يمتاز عن اقتباسها من ناحية الجسد . كل شيء يزيّنه الاعتدال الذي بدونه تتحوّل الأمور النافعة إلى أمور مضرّة .

أتريد أن تشترك بذهنك وتحصل على لذة الحس غير المستعبدة للحواس الجسدية ؟ اتّبع الرأفة ، لأنه إذا صارت في داخلك ترتسم فيك صورة ذلك الجمال المقدس الذي وسمت به . إن شمولية الرأفه (أي المحبة) تجعل النفس شريكة الألوهة ومتحدة بمجد بهائها دون توسط زمن ما (أي فجأة) .

الاتحاد الروحي هو ذكر غير محصور ، يشتعل في القلب بشوق حار متواصل ، مستمداً قوته من إتمام الوصايا لتوطيد ارتباطه بها ، وهذا الاتمام ليس سيئاً ولا طبيعياً[1] . لأنه بحفظ الوصايا يجد مادة لتركيز المشاهدة الروحية تركيزاً حقيقياً . وبهذا يصير القلب في ذهول مقفلاً حواسه المزدوجة (الجسدية والنفسية) .

لا يوجد طريق آخر يمكنه أن يقود الإنسان إلى المحبة الروحية ، التي ترسم صورة الله غير المنظورة ، إذا لم يبدأ أولاً بعمل الرأفة الذي نوه به ربنا عن كمال أبيه . فقد أوصى مطيعيه أن يضعوها أساساً للكمال (متى ٥ : ٤٨ ولو٦ :٣٦) .

"الكلام النابع من الخبرة هو غير الكلام المنمق" بدون خبرة الأشياء لا تستطيع الحكمة أن تزيّن أقوالها ، ولا أن تتكلم على الحقيقة دون أن تعرفها . لا يمكن لأحد أن يظهر أسرار الفضيلة وهو يجهل خبرة عملها جهلاً تاماً . الكلام النابع من الخبرة خزانة الرجاء . أمّا الحكمة العارية من العمل فهي وديعة الخزي .

+ وكما أن الماء الذي يرسم به الفنان على الجدران لا يطفىء ظمأه ، وكما أن الأحلام التي يشاهدها النائم لا تستطيع إرواءه مهما كانت جميلة ، هكذا يكون مصير الكلام العاري من العمل . من يتكلم على الفضيلة من خلال خبرته يعطي السامع كمن يعطي أموالاً من تعبه الخاص . ومن يزرع مما يملكه من التعليم في آذان السامعين ويفتح فاه بجرأة ويكلم أولاده الروحيين ، يفعل مثل يعقوب الشيخ الذي قال ليوسف العفيف : « وأنا قد أعطيتك سهماً علاوة على اخوتك وهو الذي أخذته من الأموريين بسيفي وقوسي » (تك ٤٨ : ٢٢) .

الحياة الزمنية يرغبها كل إنسان يحب أن يعيش حياة دنسة ، وبالتالي كل من

(١) الاتمام السيء هو الحاصل على أساس الهوى ، أمّا الطبيعي فهو الحر فيّ .

فقد المعرفة . لقد قيل بصدق : « إن الخوف من الموت يحزن الرجل الذي يؤنبه ضميره ، أمّا الذي عنده شهادة صالحة في ذاته ، فإنه يتوق إلى الموت كما إلى الحياة » . لا تحسب ذاك الذي يستعبد عقله للجبن والخوف حباً بهذه الحياة حكيماً حقيقياً ، واعتبر كل الخيرات والسيئات التي تحصل للجسد أحلاماً ، لأنك بذلك تتحرر منها ، ليس فقط عند ساعة الموت وإنما قبل مجيئه في أكثر الأحيان . فإذا كانت متصلة بنفسك فاعتبر أنها ملك لك في هذه الحياة وأنها سترافقك في الدهر الآتي . فإذا كانت حسنة فافرح واشكر الله بعقلك ، أمّا إذا كانت سيئة فاحزن وتنهد عليها ، واسع إلى التحرر منها ما دمت في الجسد ، واكتم كل صلاح يتحرك فيك عقلياً ولا تعلم به أحداً ، لأن المعمودية والإيمان أصبحا وسيطين لك عند الله ، وهما اللذان دعاك بهما ربنا يسوع المسيح إلى الأعمال الصالحة . فله المجد والإكرام والشكر والسجود إلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الثانية

في
الزهد في الدنيا والابتعاد عن الدالة على الناس

عندما نرغب في مغادرة الدنيا والتغرب عن أهل العالم ، فلا شيء يفصلنا عنها ويميت فينا الأهواء ويحرك الأمور الروحية ويحييها ، مثل النوح وتوجّع القلب الصائر بتمييز ، لأن الشخص المحتشم يقتدي بتواضع المحبوب[1] .

لا شيء يجعلنا نسير مع العالم وأهل العالم ونرافق المعربدين والسكارى ويفصلنا عن كنوز حكمة الله ومعرفة أسراره أكثر من الضحك والتشتت . لقد اختبرت فكرك أيها العزيز فأرجوك ، بمحبة ، أن تتحفظ من تأثيرات العدو كي لا يفقدك المزاح حرارة محبة المسيح ، الذي ذاق المر على الصليب من أجلك ، وبدل أن تقتني نفسك حلاوة التأمل والدالة على الله ، يملأها المزاح بخيالات كثيرة ويجعلها أسيرة الأحلام ، ليس فقط أثناء النوم بل وفي اليقظة أيضاً . إن رائحة هذه الأحلام كريهة لا يستطيع أن يحتملها ملائكة الله القديسون ، وبالتالي تصبح أنت عثرة للآخرين وشوكة لذاتك .

اضغط على ذاتك واقتد بتواضع المسيح لكي تزيد سعير النار التي أنزلها عليك ، والتي بها يُقتلع منك كل تحرك دنيوي من شأنه أن يميت الإنسان الجديد ويدنس ساحات الرب القدوس القدير . أتجرأ مثل القديس بولس وأقول : « إننا هيكل الله » (١ كور ٣ : ١٦) . إنه طاهر ، فلنطهّر هيكله حتى يشتهي السكنى فيه ، فلنقدسه لأنه هو قدوس ، ولنزيّنه بكافة الأعمال الصالحة الشريفة ، ولنبخره ببخور راحة مشيئته بالصلاة القلبية النقية التي لا يمكن اقتناؤها وسط الضوضاء

---

(١) أي الله .

العالمية المستمرة . بهذا تظلل النفس غمامة مجده ويسطع نور عظمته داخل القلب ، فيمتلىء جميع سكان بيت الله فرحاً ومجداً . أمّا عديمو الحياء فيبادون بلهيب الروح القدس .

أنّب ذاتك دائماً يا أخي وقل : ويحي أيتها النفس الشقية ، لقد حان أوان انحلالك من الجسد ، فلماذا تتنعمين بهذه الأشياء التي ستغادرينها اليوم وتحرمين من مشاهدتها إلى الأبد؟ انتبهي لما هو آت وفكّري بماذا فعلت وكيف؟ ومع من قضيت أيام حياتك ، ومن هو الذي قَبِلَ تعبَ أعمال فلاحتك ؟ ومن هو الذي فرّحته عندما كنت تصارعين ليخرج للقائك يوم انتقالك ؟ من فرّحت في مسيرك حتى تستريحي في مينائه ؟ من أجل من تعبت حتى يستقبلك عند خروجك ؟ في أي حقل اشتغلت ومن الذي سيدفع لك الأجرة عند غروب شمس حياتك ؟

إفحصي ذاتك يا نفسي وانظري في أي أرض سيكون نصيبك . إن كنت قضيت عمرك في الحقل الذي يثمر مرارة لفعلته فاصرخي ونادي بتنهد وغمّ ، لأن هذا يسر الله أكثر من الذبائح والمحرقات . فليفض فمك بأصوات العويل التي يسر بها الملائكة القديسون . ادهني خدّيك بدموع عينيك لكي يستريح فيك الروح القدس وينقيك من دنس شرّك ، استغفري الرب بالدموع لكي يُقبل إليك . تشفعي إلى مريم ومرتا لكي تعلماك أصوات (أي أنغام) النوح . واصرخي إلى الرب :

صلاة[1] - أيها الرب يسوع المسيح إلهنا ، يا من بكيت على لعازر وذرفت دموع الحزن والشفقة عليه ، إقبل دموع مرارتي ، واشف آلامي بآلامك ، طبّب جروحي بجروحك وقدس دمي بدمك ، طيّب جسدي بطيب جسدك المحيي . يا من شربت المر من أعدائك ، حلّ نفسي من المر الذي سقانيه العدو . يا من بُسط جسدُك على عود الصليب ، اجذب إليك فكري المجذوب من الشياطين . يا من أمال رأسه على الصليب ، أرفع إليك رأسي الذي عيّره المعاندون . يا من سُمّرت يداه الكليتا القداسة على الصليب ، أعدني إليك من هاوية الهلاك

(١) عنوان وضعه المترجم .

كما وعد فمك الكلي القداسة . يا من قبل اللطم والبصاق على خديه من المجدّفين ، نقِّ وجهي المدنس بالآثام ، ولتهدني إليك نفسك التي سلّمتها إلى الآب على الصليب . ليس لي قلب متوجع ليفتش عنك . ليس لي توبة ولا خشوع ليعيدا الأولاد إلى ميراثهم . ليس لي ، يا سيد ، دمع معزٍّ . لقد أظلم فكري بهموم الحياة ولا يستطيع أن يحدق إليك بتوجع . برد قلبي من كثرة التجارب ولم يعد بإمكانه أن يحمى بدموع محبتك . لكن أنت ، أيها الإله الرب يسوع المسيح ، يا كنز الصالحات ، هبني توبة كاملة وقلباً متوجعاً لكي أخرج في طلبك . لأني بدونك غريب عن كل صلاح ، فاعطني إذاً نعمتك ، أيها الصالح أنت الذي أخرجك الآب من أحضانه أزلياً بلا زمن . فلتتجدد فيّ ملامح صورتك . قد تركتك فلا تتركني . قد انفصلت عنك فلا تهملني ، بل ادخلني إلى مرعاك واحصني مع خراف رعيتك المختارة ، وأطعمني معها من عشب أسرارك الإلهية التي مسكنها القلب النقي حيث يشاهد إشراق إعلاناتك الذي هو تعزية وراحة لأولئك الذين جاهدوا من أجلك في الشدائد وصبروا على الجلدات المتنوعة . عسى أن نستحق هذا الإشراق بنعمة مخلصنا يسوع المسيح ومحبته للبشر في جميع الدهور ، آمين .



المقالة الثالثة

في ترك العالم وفي وجوب عدم الخوف وفي تشديد القلب بالثقة بالله والتشجع بالإيمان الوطيد به لأن الله حافظنا وسورنا

إذا وجدت نفسك أهلاً لمغادرة الدنيا والذهاب إلى السكينة[1]، التي أحمالها خفيفة في ملكوت حريتها ، فلا تدع الخوف يغرقك ، كعادته ، في أفكار متعددة ومتقلبة ، بل ثق بأن حارسك معك وتيقن من خلال معرفتك أنك أنت وكل الخليقة تخضعون لسيد واحد يحرك ويهز ويهدىء ويدبر الكل بإيماءة واحدة . واعلم أنه لا يمكن لعبد أن يؤذي رفيقه دون إرادة مدبِّر الجميع وموجههم . فانهض حالاً وتشجع . فإذا كانت الحرية قد أعطيت للبعض فاعلم أنها لم تعط لهم في كل شيء ، لأنه لا الشياطين ولا الوحوش الضارية ولا الناس الأشرار يمكنهم أن يتمموا مآربهم في الفساد والإهلاك إلاّ بإرادة مدبر الكون . وإن سمح لهم بذلك ، فإنه يضع لهم حداً ، لأنه لو تركهم يمارسون حريتهم كلها لما بقي جسد حي . لأن الرب لا يدع الشياطين والبشر يتسلطون على خليقته ويفعلون بها ما يشاؤون . إذاً ، خاطب نفسك دائماً وقل : عندي ملاك حارس يحميني ولا يمكن لأحد من المخلوقات أن يقف بوجهي إن لم يؤذن له من فوق . ثق أنهم لا يستطيعون أن يظهروا أمام عينيك ولا يجسرون أن يدنوا من مسمعك بأصوات تهديداتهم ، لو لم يؤذن لهم من فوق ، من السماوي ، وإلاّ لما كانوا استخدموا هذه الطريقة بل فعلوا ما أرادوا .

(1) ترجمة كلمة «Hesychia» ، وهي عبارة تستعمل كثيراً في الأدب النسكي وتعني السكون والهدوء والراحة والسكوت والعزلة وتشير إلى الحياة في الصمت والعزلة المكرّسة لله وحده (الناشر) .

وقل لنفسك أيضاً : إن كانت مشيئة سيدي أن يتسلط الأشرار على مخلوقاته فلا سبيل لك أن ترفضي ذلك بل كوني مثل عبد لا يرضى مخالفة سيده . بهذه الطريقة تمتلىء فرحاً أثناء التجارب لأنك تعلم وتدرك جيداً أن إرادة السيد تدبر توجّهك . ثبِّت قلبك في الرب وثق به ولا تخش لا من خوف ليلي ولا من سهم يطير في النهار ، لأن إيمان البار بالله يجعل الحيوانات الضارية أنيسة كالنعاج .

وإذا قلت : إني لست باراً لأكون متوكلاً على الله ، فاعلم أنك خرجت إلى البرية الملأى بالشدائد من أجل عمل البر وصرت مطيعاً لمشيئة الله . واعلم أن تعبك سيكون باطلاً إذا كابدت هذه الأتعاب كلها ولم تقدِّم أحزانك كذبيحة حب لله ، وإن كان الله لا يريد أتعاب الناس . هذا الأمر يميّزه جميع الذين يحبون الله ويصبرون على الضيقات حباً به . لأن الذين ارتضوا أن يعيشوا بالمسيح يسوع بمخافة الله يتحملون الضيقات ويصبرون على الاضطهادات ، أمّا هو فيجعلهم أسياداً على كنوزه الخفية .

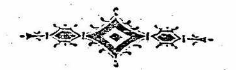
في التقدم الناتج عن احتمال التجارب بشجاعة وفرح

قال أحد القديسين : كنت حزيناً بسبب التجارب فزرت أحد النساك الشيوخ الأجلاء وكان مريضاً طريح الفراش ، فبعد أن قبّلته جلست بجانبه وقلت له : صلّ من أجلي أيها الأب لأن تجارب الشياطين تحزنني كثيراً . ففتح عينيه وقال لي : انتبه يا بني ، إن الله لا يسمح أن تجرَّب لأنك ما تزال شاباً . فقلت له : إني شاب ولكن تجاربي تضاهي تجارب الرجال الأقوياء . فقال : إن الله يريد أن يجعلك حكيماً . فقلت : كيف يكون ذلك وأنا أذوق الموت كل يوم ؟ أجاب : تمهل يا بني إن الله يحبك وسيهبك نعمته . ثم استأنف (وكان النوم يحاربه) : إعلم ، يا بنيّ ، إن حربي مع الشياطين دامت ثلاثين سنة ، ففي العشرين الأولى لم أحظ بأي عون أمّا في السنة الخامسة والعشرين فبدأت أحس بالراحة هذه الراحة التي أخذت تزداد شيئاً فشيئاً حتى ثبتت في الثلاثين بشكل لم يعد بإمكاني أن أدرك حدودها . ثم قال : عندما أنهض للصلاة نادراً ما أستطيع إتمام تسبيحة واحدة منها ، لأنني أصير في ذهول إلهي لا أشعر معه بالتعب إطلاقاً حتى ولو وقفت ثلاثة أيام متتالية . فانظر أي راحة يجلب عمل المجاهد مع الزمن .

في أن حفظ اللسان لا يوقظ النفوس نحو الله وحسب بل يساهم في العفة أيضاً

قال لنا أب كان يأكل مرتين في الأسبوع : لا أستطيع أن أحفظ قانون صومي المعتاد إذا تكلمت مع أحد بل أضطر لكسره . ففهمنا من ذلك أن حفظ اللسان لا يرفع الذهن نحو الله وحسب بل إنه يعطي قوة عظيمة أيضاً لإتمام الأعمال الظاهرة التي تصير بواسطة الجسد ، وينير الذهن في أعماله الخفية كما يقول الآباء . لأن حفظ الفم إذا مارسه أحد بمعرفة يرفع الضمير نحو الله . وقد اعتاد هذا القديس كثيراً على سهر الليالي . وقال إذا قضيت ليلة بكاملها واقفاً حتى الصباح فإنني بعد أن أستريح من الترتيل وأنهض من النوم أكون في النهار التالي مثل إنسان ليس من هذا العالم فلا تخطر على بالي أي أفكار أرضية ولا أعود بحاجة إلى إتمام القوانين المحددة ، بل أصير في انخطاف طوال النهار .

ثم أضاف : بعد أربعة أيام من الصيام لم أذق خلالها شيئاً حضّرت الطعام ، وقبل أن أباشر بتناوله نهضت لأصلّي صلاة المساء في ساحة القلاية ، وكانت الشمس ما تزال عالية ، فبدأت بتسبيحة واحدة ثم أخذت بالصلاة ولبثت على تلك الحالة لا أعلم ما جرى لي إلى أن أشرقت الشمس في النهار التالي وأحسست بحرارتها تلفح وجهي وتحرقه فعاد إليّ فكري وعلمت أنني في نهار آخر . فشكرت الله على نعمته التي يدفقها على الناس بغزارة وعلى العظمة التي يؤهل لها الذين يبتغونه . فله المجد وحده والجلال إلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الرابعة

في شوق الدنيا

قال الرب : لا يستطيع أحد أن يقتني محبة الله وشوق الدنيا في الوقت نفسه ، ولا يستطيع أن يكون في شركة مع الله وهو شريك العالم ، ولا أن يهتم بالله وهو منغمس في الإهتمامات الدنيوية (متى ٦ : ٢٤) . عندما نهمل أعمال الله بدافع المجد الباطل أو من أجل سد حاجات الجسد ، عندئذ نترك ، نحن الذين أخذنا على عاتقنا أن نعمل أعمال ملكوت السموات ، تلك الأمور الروحية ونسعى وراء غيرها ناسين ما قد وعدنا به الرب بأننا إذا جعلنا اهتمامنا كله بملكوت السموات فلن يحرمنا من حاجات الجسد ، بل ننالها كلها لأنه لن يتركنا نهتم بمثل هذه الأشياء (متى ٦ : ٣٣) . فإذا كان الله يهتم بالطيور التي لا نفس لها والتي خلقت من أجلنا ، فهل يهملنا نحن؟ كلا ، لأن من يهتم بالروحيات ، أو بقسم منها ، تُهيّأ له الجسديات في أوانها دون أن يهتم أو يتعب في سبيلها . أمّا من يهتم بالجسديات أكثر مما ينبغي فهو ينفصل عن الله رغماً عنه . لكن إذا اهتممنا بالجهاد في سبيل ما يتمجد به اسم الرب فعندئذ يهتم هو أيضاً بالاثنين كليهما (بالجسديات وبالروحيات) وذلك بمقدار جهادنا .

أمّا نحن فلا ينبغي أن نجرِّب الله في الجسديات تاركين عمل نفوسنا ، بل أن نوجِّه أعمالنا كلها نحو رجاء المستقبلات . لأن من يكرِّس ذاته لعمل الفضيلة حباً بخلاص نفسه ويرغب في اتمامها ، لن يهتم بالجسديات بعد ذلك سواء توفرت له أم لا . إن الله يتخذ من هذه الجسديات وسيلة لامتحان ذوي الفضيلة ويسمح بتجربتهم في كل مكان ، فيصيبهم بأجسادهم ، كما حصل لأيوب ، ويجلب لهم الفقر ويوقعهم بين أيدي أناس أشرار ويضربهم في ممتلكاتهم لكن لا يسمح أن تمس نفوسهم بسوء . عندما نسير في طريق البر ونحب حياة الفضيلة لا بد أن تصادفنا احزان ، فتمرض أجسادنا ونشقى ونتبدل . فمن يتصرف بسببها وفق هواه

سيجلب له هذا التصرف هلاك الجسد وهلاك النفس وبالتالي الدينونة . أمّا إذا سار في طريق البر متوجهاً نحو الله ، بصحبة زملاء يشبهونه ، فلن تستطيع تلك الأحزان أن تبعده عن الطريق التي اختارها ، بل إنه يتقبل كل شيء بفرح ودون فحص ويشكر الله الذي افتقده بهذه النعمة لأنه من أجله قد استحق أن يجرّب وبذلك شارك الأنبياء والرسل والقديسين الآخرين في آلامهم التي صبروا عليها في سبيل تلك الطريق (البر) ولم يفحصوا الشدائد ليعلموا هل هي من البشر أم من الشياطين أم من الجسد ، عالمين أنها لا يمكن أن تتم بدون إرادة الله . إن هذا كله يحصل ليكون عند الانسان حافزاً لعمل البر ، لأنه لا يمكن لله إلاّ أن يفتقد بالتجارب ذاك الذي يتمنى أن يكون بقربه لأجل الحقيقة . ولا يقدر المرء أن يستحق هذه العظمة ويمتلىء فرحاً ويتمتع بهذه الإلهيات إذا لم ينعم عليه المسيح بالدخول في التجارب . إن الإستعداد للألم من أجل الرجاء بالله أمر عظيم جداً ، مما جعل القديس بولس يسميه ، فجأة ، موهبة عندما قال : « لأنه أنعم عليكم أن تتألموا من أجل المسيح لا أن تكتفوا بالايمان به » (فل١ : ١٩). وهذا ما تحدث عنه القديس بطرس في رسالته : « ولو تألمتم في سبيل الحق ، فهنيئاً لكم! لأنكم أصبحتم شركاء في آلام المسيح » (١ بط٣ :١٤). عليك ألاّ تفرح وانت في السعة وألاّ تحزن وأنت في الشدة بل اعتبر هذه الأمور غريبة عن سبل الله لأن طريقه يطأها الصليب والموت منذ دهور وأجيال . فإذا اعتقدت أنك تستطيع سلوك طريق الرب بدون التجارب فاعلم أنك تسير خارجها وبعيداً عنها وعلى غير خطى القديسين وانك إنما ترسم طريقاً خاصة بك وتسير عليها بدون ألم .

+ طريق الله صليب يومي . لم يصعد أحد الى السماء براحة . إننا نعلم إلى أين يؤدي طريق الراحة وأين ينتهي . أمّا من يكرّس نفسه لله من كل قلبه فلن يتركه الله بدون اهتمام ، بل يجعله يهتم من أجل الحقيقة . وعندئذ يُدرك أن الأحزان المرسلة إليه ليست سوى دليل عناية الله به .

إن الذين يُمتحنون بالتجارب باستمرار لا تدعهم عناية الله يسلمون إلى أيدي الشياطين بالكلية ، خاصة إذا كانوا يقبّلون أرجل الإخوة ويسترون زلاتهم ويخفونها كما لو كانت زلاتهم هم .

من يتشوّق إلى حياة الفضيلة ويريد أن يبقى فكره خالياً من همـوم التجارب ، يفقد خبرة هذه الطريق . إن الأبرار لم يحصلوا على الخبرة بصبرهم الإرادي عند جهادهم في الأعمال الصالحة وحسب ، بل بصبرهم الكرهي، عند جهادهم العظيم ضد التجارب التي امتحنوا بها . لأن النفس التي تخشى الله لا تخاف من أي شيء يؤذي الجسد فهي تضع رجاءها على الله من الآن وإلى دهر الداهرين ، آمين.



المقالة الخامسة

في الإبتعاد عن الدنيا وعن كل ما يعكر الذهن

إن الله منح الناس كرامة عظيمة إذ حباهم علماً مزدوجاً[1] وفتح لهم كل الأبواب المغلقة على مصراعيها ليلجوا إلى معرفة الخلاص . أتريد شاهداً أميناً على هذه الأقوال؟ أدخل الى ذاتك فتنجو من الهلاك[2] . أمّا إذا أردت أن تعرف ذلك من الخارج أيضاً فلديك معلّم[3] آخر وشاهد يقودك إلى طريق الحق بأمان .

الذهن المشوش لا يقدر أن ينجو من النسيان . والحكمة لا تفتح بابها لمثل هذا . من يستطيع أن يدرك بمعرفة صحيحة مصير الأشياء وأين ستكون نهايتها لن يحتاج إلى معلم آخر يرشده إلى الزهد بالدنيويات . إن الناموس الطبيعي الذي أعطاه الله للانسان في البداية هو رؤية خليقته ، أمّا الناموس المكتوب فقد أضيف بعد المعصية .

من لا يبتعد بإرادته عن أسباب الأهواء تجذبه الخطيئة رغماً عنه . أسباب الخطيئة هي : الخمرة ، النساء ، الغنى ، البدانة . إنها ليست خطايا بذاتها ، ولكنها تجعل الطبيعة تميل بسهولة نحو الخطيئة . لذلك يجب على الإنسان أن يصون نفسه منها بجد . إذا تذكرت ضعفك بصورة دائمة تظل محافظاً على ذاتك ضمن السور بأمان . الفقر عند الناس أمر ممقوت ، أمّا النفس المتعجرفة القلب والذهن المشتت فممقوتان لدى الرب كثيراً . الغنى عند الناس شرف ، أمّا الشرف عند الله فهو النفس المتواضعة .

إذا أردت أن تبدأ بعمل صالح فهيّء نفسك أولاً للتجارب التي ستعترضك

---

(١) المعرفة الطبيعية التي منحها الله للإنسان والمعرفة المكتسبة بواسطة الناموس .

(٢) ربما من الضلال.

(٣) المخلوقات الطبيعية.

ولا تتردد البتة ، لأن العدو ، عادة ، عندما يرى أحداً قد باشر سيرة صالحة بإيمان حار يعترضه بتجارب متنوعة ومرهبة ليرعبه ويبرّد عزمه الصالح حتى يفقد حرارته نلا يتمكن من تحقيق ما يرضي الله . إن العدو لو كان يملك قوة كبيرة كهذه لما استطاع أحد أن يفعل الخير . لكن الله يسمح له بذلك ، كما تعلّمنا من يعقوب الصدّيق . أمّا أنت فاستعدّ بشجاعة لمجابهة التجارب المعاكسة للفضائل وبعد ذلك ابتدىء بها ، لأنك إذا لم تتأهب لهذه المجابهة فستبتعد عن عمل الفضائل .

الإنسان الذي يشك في أن الله يعينه على العمل الصالح يخاف من ظله ، وفي زمن البحبوحة والوفرة يبقى جائعاً ويمتلىء تشويشاً حتى في بيته الهادىء. أمّا الذي يتوكل على الله فيتشدد قلبه وتظهر كرامته أمام جميع الناس ويُمتدح من قبل أعدائه .

وصايا الله تفوق كنوز العالم بأسره ، ومن يقتنيها يجد الله . من يجعل همه في الله على الدوام يكون له خزانة ، ومن يشتهي وصاياه تصبح الملائكة السماوية مرشدته . أمّا الذي يخاف من الخطايا فيقطع المسيرة المخيفة بدون عثرة ، فإذا أدركه الظلام وجد النور مشرقاً في داخله . الرب يحفظ خطوات من يخشى الخطايا ، وعند انزلاقه تدركه رحمة الله . من يحسب خطاياه صغيرة يقع في خطايا اسوأ منها ويدفع جزاءها سبعة أضعاف . إزرع الإحسان بتواضع تحصد رحمة في أوان الدينونة . لا تستطيع أن تستعيد الصلاح إلاّ بالابتعاد عما أفقدك إياه . أنت مدين لله بمثقال فلن يقبل منك جوهرة بدلاً عنه . إذا فقدت عفتك ، مثلاً ، فلن يقبل الله منك إحساناً ما دمت مصراً على غيّك ، لأنه يطلب منك قداسة الجسد . إنك قد وطدت النفس على ترك العالم ، بسبب مخالفتك الوصية ، فلماذا تحارب من أجل أمور أخرى؟

قال القديس افرام : لا تقاوم حرارة شمس الصيف بملابس الشتاء . هكذا كلٌ منّا يحصد ما قد زرعه ، وكل داء يداوى بدوائه . فإذا كان داء الحسد متسلطاً عليك فلماذا تحارب النوم؟ ما دامت الهفوة في أوان الزهر فاقلعها قبل أن تنمو وتنضج . لا تتهاون بالخطيئة وإن بدت لك صغيرة ، لأنها ستظهر لك فيما بعد سيدة عديمة الإنسانية ، تقودك أمامها مثل عبد أسير . إذا قاومنا الهوى عند نشأته نقوى عليه بسرعة .

من يتحمل الظلم بفرح ، مع أنه قادر على صده ، يقبل التعزية من الله لإيمانه به . ومن يصبر على التهمة يصل إلى الكمال ويتعجب منه الملائكة القديسون ، لأنه لا توجد فضيلة أعظم وأصعب منالاً منها .

لا تثق بقوتك قبل أن تجرِّب وتجد أنك ثابت . هكذا اختبر نفسك في كل شيء ، واكتسب لها إيماناً مستقيماً لتدوس الاعداء ، واحفظ ذهنك بدون تشتت ، ولا تثق بقوتك كي لا تقع في ضعف الطبيعة فتعرف ضعفك بسقوطك . لا تثق بمعرفتك لئلا يعترضك العدو ويوقعك في الفخ بمكر . كن وديعاً في كلامك فلا تتعرض للإهانة أبداً . كن حلو الشفتين فتكسب الجميع أصدقاء لك . لا تدع لسانك يفتخر بأعمالك لئلا تخزى ، لأن كل ما يفتخر به الإنسان يسمح له الله بالسقوط فيه حتى يتعلم التواضع . لذلك ينبغي أن تُسلِّم كل شيء إلى سابق معرفة الله ولا تثق بعدم تبدل الأشياء في هذه الدنيا .

وإذا بلغت إلى هذه الحالة ، ارفع نظرك الى الله لأن ستره وعنايته يحيطان بالناس جميعاً ، ولكن لا يراه أحد سوى الذين طهّروا ذواتهم من الخطيئة وتأملوا فيه على الدوام . إن عناية الله تظهر لهؤلاء بشكل خاص عندما يدخلون في تجربة كبيرة من أجله . انهم يحسّون بهذه العناية كما لو كانوا يرونها بأعينهم الجسدية وذلك حسب قدرة كل منهم وحسب الظروف التي تحصل فيها التجربة . ذلك ليحث المجاهدين على الشجاعة كما فعل مع أيوب ويشوع بن نون والفتية الثلاث وبطرس وسائر القديسين . كانت هذه العناية تظهر لهم بشكل انسان حتى تشجعهم وتثبتهم في حسن العبادة . أمّا إذا اعتقدت أن هذه الأمور قد أعطيت للقديسين بطريقة تدبيرية وأنهم قد أُهّلوا لهذه الرؤى بشكل خاص فلا ضير أن تتخذهم مثالاً .

إن الذين جاهدوا بشجاعة من أجل المسيح بالقوة المعطاة لهم ، سواء كانوا جماعات أم أفراداً ، وتحمّلوا بأجساد ترابية التمشيط بالحديد والعذابات المتنوعة التي تفوق الطبيعة ، قد استحقوا رؤية الملائكة القديسين علانية بغية إظهار شجاعتهم وخزي أعدائهم . فليعلم كل انسان أن عناية الله تتدفق بسخاء على الذين يتحملون من أجله كل التجارب والضيقات ، لأنه بمقدار ما كان القديسون

يتشجعون بمثل هذه المشاهد ، كان المضادون يحاربونهم بغضب وجنون من أجل ثباتهم .

عناية ١

فهل ثمة حاجة أن نتكلم على النساك الذين غادروا العالم وتغربوا عنه وحرثوا البرية وجعلوها مسكناً للملائكة؟ ولكن لا بأس : إن الملائكة كانت تزورهم دوماً وتتعجب من سيرتهم ، وكانت تتعاون معهم ويجاهدون سوية كما لو كانوا خداماً لسيد واحد . هؤلاء النساك لم يفارقوا البرية كل حياتهم وعاشوا في الجبال والكهوف وثقوب الارض حباً بالله ، واقتدوا بالملائكة وتخلوا عن الأرضيات حباً بالسمويات ، فكان من العدل ألاّ يخفي الملائكة القديسون رؤيتهم عنهم . لقد كانوا يتممون مشيئاتهم كلها ، ويظهرون لهم من حين إلى آخر ويعلّمونهم كيف ينبغي أن يعيشوا وأحياناً يوضحون لهم الغامضات ، وأحياناً أخرى كان القديسون يسألونهم عما يجب فعله ، وكانوا يهدونهم إذا ضلّوا الطريق وينقذونهم من السقطات في التجارب ، وينتشلونهم من السقطات المفاجئة والمخاطر الداهمة (حيّة ، صخرة ، فجوة أو ضربة حجر) . كانوا يظهرون لهم علانية عندما يحاربهم العدو ، قائلين لهم إنهم قد أرسلوا لمساعدتهم من أجل تشديدهم وتقويتهم وتعزيتهم . لقد كان الملائكة يشفونهم بصلواتهم وكانوا يشددون أجسادهم الهزيلة من كثرة الصوم بطريقة تفوق الطبيعة ، إمّا بلمسة أو بكلمات أو بالطعام من خبز وغيره . كانوا يكشفون لبعضهم يوم انتقالهم وللآخرين كيفية الإنتقال . هذا كله لنعلم محبة الملائكة القديسين لنا واعتناءهم التام بالأبرار . فكما يعتني الأخوة الكبار بالصغار هكذا تعتني الملائكة بنا . لقد سردت كل هذا لكي يعلم كل انسان أن الرب قريب من جميع الذين يدعونه بالحق (مز ١٤٤ : ١٨) وأنه يعتني كثيراً بأولئك الذين يسلّمون ذواتهم له ويتبعونه بكل قلوبهم ويعملون مرضاته .

إذا كنت تؤمن أن الله يعتني بك ، فلا تشغل نفسك بأمور زمنية ولا بحاجات الجسد . وإذا كنت لا تؤمن بذلك وبالتالي تنصرف إلى حاجاتك مستغنياً عنه فأنت أشقى الناس . فلماذا تعيش اذن؟ هذا إذا كنت تعيش! ضع على الرب همك وهو يعولك (مز ٥٤ : ٢٣) ولا ترهب أي شيء يأتي عليك (ام ٣ : ٢٥) .

كرّس نفسك لله تعش مرتاح الفكر . لا تقدر النفس أن تتحرر من تشوش الأفكار بغير اللاقنية ، وبغير سكينة الحواس لا تستطيع أن تحس بسلام الذهن . لا يقدر أحد أن يقتني حكمة الروح بغير التجارب ، وبغير المطالعة بكد لا تعرف حكمة المعاني . اقتناء الأسرار الخفية يتم بصفاء الأفكار ، والنفس تتشجع في مواجهة التجارب بالثقة المرفقة بالإيمان . يقدر القلب أن يرجو الله باقتناء خبرة العناية الإلهية الفعالة ، أمّا الشركة مع المسيح فلا تحصل إلاّ بتذوق النفس آلامهُ بمعرفة .

+ رجل الله هو من مات عن حاجاته الضرورية لرأفته الكثيرة . من يرحم فقيراً تتلقفه عناية الله ومن يفتقر من أجل الله يجد كنوزاً لا تفرغ .

الله ليس بحاجة إلى أحد ، لكنه يسر عندما يرى أحداً يريح صورته (الانسان) ويكرمها حباً به . إذا طلب أحد شيئاً خاصاً بك فلا تقل في قلبك : سأبقيه لنفسي من أجل راحتي وسيرزقه الله حاجته من مكان آخر . إن هذه الأقوال هي من شيمة الظالمين الذين لا يعرفون الله . الإنسان الصالح العادل لا يعطي كرامته لآخر ولا يدع أوان النعمة يمضي بدون عمل . الإنسان الفقير يعطيه الله لأنه لا يترك أحداً ، أمّا أنت فبطردك المحتاج أقصيت نعمة الله عنك ، ورفضت الكرامة التي منحك إياها . عندما تعطي إفرح وقل : المجد لك يا الله لأنك أهّلتني أن أجد انساناً أريحه . أمّا إذا لم يكن لك شيء تعطيه فافرح أيضاً شاكراً الله وقل : أشكرك يا الله لأنك أعطيتني هذه النعمة وهذه الكرامة أن أفتقر من أجل اسمك ، وأهّلتني لتذوّق الشدة التي في طريق وصاياك ، والتي ذاقها قديسوك في المرض والفقر أثناء سيرهم على هذه الطريق .

عندما تمرض قل هنيئاً لمن أهّله الله أن يُمتحن في الأمور التي يرث بها الحياة ، لأن الله يفتقد الإنسان بالأمراض من أجل صحة النفس . قال أحد القديسين (وهذا ما سجّلته أنا) : كان أحد الرهبان لا يتعبد لله بطريقة مرضية ولا يجاهد بنشاط من أجل خلاص نفسه ، بل كان متهاوناً في نسكه وفي ممارسة الفضائل ، فافتقده الله بالسقوط في التجارب كي لا يتخلف ويميل الى الأسوأ . فالله ينزل التجارب على المتهاونين والكسالى حتى يشغلهم ، بالتفكير بها ، عن الأمور

الباطلة . إنه يفعل ذلك دائماً مع محبيه لكي يؤدّبهم ويعلّمهم حكمته ومشيئته . وعندما يتضرعون إليه لا يستجيب لهم بسرعة وينتظر حتى يتلاشوا ليتعلموا أن التجارب التي تصيبهم هي نتيجة كسلهم وإهمالهم . لقد كتب : « فحين تبسطون أيديكم احجب عينيَّ عنكم وإن اكثرتم من الصلاة لا أستمع لكم » (اش ١ : ١٥). هذه الأقوال وإن كانت موجهة إلى شعب معيّن إلاّ أنها تخص أولئك الذين يتركون طريق الرب .

إننا نؤمن أن الله رحيم ، فلماذا لا يسمع لنا ويستجيب طلبتنا عندما نقرع ونتضرع إليه باستمرار؟ الجواب نأخذه من النبي : « إن يد الرب لا تقصر عن خلاصنا وأذنه لا تثقل عن سماعنا ، لكن آثامنا فرّقتنا عنه وخطايانا حجبت وجهه عن السماع » (اش ٥٩ : ١ -٢) . أمّا أنت فاذكر الله كل حين حتى يذكرك عندما تسقط في الخطيئة .

إن طبيعتك أصبحت قابلة للأهواء ، وتجارب هذه الدنيا تفاقمت ، والشرور ليست بعيدة عنك بل تنبع منك وتجري تحت قدميك ، فلا تخرج من المكان الذي تقيم فيه ، لأن الله سوف يحررك من التجارب متى يشاء . فكما أن الرموش قريبة من بعضها ، هكذا التجارب قريبة من الناس . لقد دبّر الله هذه الأمور بحكمة من أجل منفعتك ، لكي تقرع بابه بإلحاح ويُغرس ذكره في قلبك بالخوف من الضيقات ، وتقترب منه بالصلاة ويتقدس قلبك بذكره الدائم ، وعندما تطلبه ويسمعك تعلم أنه هو الذي أنقذك ، وتدرك جيداً أنه هو الذي جبلك وهو الذي يعتني بك ويحفظك ، وقد صنع لك عالمين[1] : أحدهما يعلّمك ويؤدبك في هذا الزمن والآخر يكون بيتاً أبوياً وميراثاً إلى الأبد . إن الله لم يخلقك معزولاً عن المحزنات ، حتى إذا اشتهيت الالوهة لا ترث ما ورثه ايوسفورس الذي أصبح فيما بعد شيطاناً بترفعه[2] . ولم يخلقك بدون ميل وحركة حتى لا تكون مثل الطبيعة الجامدة فتصبح الخيرات غير مفيدة لك وخالية من المكافأة نظير الحسنات الغريزية عند الحيوانات . وإذاً فإن التجارب تعلّم الجميع أن يعرفوا

(١) هذا العالم وعالم الملكوت.

(٢) الله لا يعطي الانسان الفضيلة بدون تعب لئلا يسقط في الكبرياء ويصبح جاحداً لعطايا الله ومحارباً إياه مثل ايوسفورس رئيس ملائكة الشياطين.

بسهولة مقدار المنفعة والتواضع والشكر الواجب لله .

إن الجهاد ، سواء كان في سبيل الخير أم لاجتناب الشرور ، متوقف علينا . لذلك فالإكرام والهوان اللذان ينتجان عنهما مرتبطان بنا . الهوان يجلب لنا الخوف بسبب الخزي ، أمّا الإكرام فيدفعنا إلى تأدية الشكر لله والتقدم في الفضيلة . إن الله قد سمح لنا بهذه التأديبات الكثيرة وجعلنا قابلين للضيقات والخوف حتى لا نقع في الراحة الكاملة فننسى الرب الهنا ونحيد عنه ونقع في عبادة كثرة الآلهة ، كما سقط كثيرون ممن كانوا شبيهين بنا وكابدوا الأحزان التي كابدناها ، إلاّ أنهم سقطوا في لحظة واحدة لغرورهم بالسلطة الدنيوية والغنى الزائل ، ولم يكتفوا بعبادة كثرة الآلهة ، بل تجاسروا على الله نفسه بطريقة حمقاء . من أجل ذلك سمح لنا بالضيقات كي لا نغضبه بابتعادنا عنه فيطردنا من أمام وجهه بالقصاص . وإذا كان ثمة من لا يتجاسر على تصديق ما ذكرته ، فليعلم أن هناك أموراً أخرى كثيرة لم أذكرها ، كالكفر والتجاديف الأخرى التي تنشأ عن رفاهية العيش وعدم الخوف من الخزي . لهذا فإن الله ينمّي ذكره في قلبنا بالآلام والمحزنات ، ويجعلنا نخشى المضادين حتى نستيقظ ونقرع باب تحننه . وقد غرس فينا محبته لكي ينقذنا من هذه الأمور ومن أسبابها ، وقرّبنا من كرامة البنوة بعد أن بذل محبته لنا وأرانا غنى نعمته وعظمتها . فمن أين لك أن تعرف عناية الله واهتمامه لو لم تصادفك أمور مضادة؟ لا يمكن أن تزداد محبة الله في النفس إلاّ بهذا ، أي بإدراك مواهبه وتذكر كثرة عنايته . هذه الخيرات التي تقتنيها بالمحزنات تعلّمك الشكر . فاذكر الله إذاً لكي يذكرك هو على الدوام فتنال منه كل غبطة . لا تنسه بتشتتك في الأمور الباطلة ، لئلا ينساك أيام حروبك . كن مطيعاً له وقت الراحة لكي تحظى بالدالة عليه عند الشدة بالصلاة القلبية المستمرة .

طهّر ذاتك أمام الرب محتفظاً بذكره في قلبك حتى لا تفقد الدالة عليه أثناء دخولك اليه ، بسبب ابتعادك الطويل عن ذكره ، لأن الدالة على الله تقتنى بالهذيذ المستمر والصلاة الكثيرة . العلاقة مع الناس والبقاء معهم يتمّان بالجسد ، أمّا العلاقة مع الله فتتم بتذكر النفس والإنتباه في الطلبات وبتضحية الذات . الحفاظ الطويل على ذكره يؤدي إلى دهش وتعجب من وقت لآخر : « ولتبتهج

قلوب ملتمسي الرب » (مز ١٠٤ : ٣) . اطلبوا الرب أيها المعاقبون وتشددوا بالرجاء . التمسوا وجهه بالتوبة وتقدسوا بقداسة وجهه ، وتطهروا من خطاياكم . أسرعوا إلى الرب يا أيها الذين تحت طائلة الخطيئة ، لأنه قادر أن يغفر الخطايا ويصفح عن الزلات . لقد قال بواسطة النبي : « قل لهم حي أنا يقول السيد الرب ليست مرضاتي بموت المنافق لكن بتوبة المنافق عن طريقه فيحيا » (حز ٣٣ : ١١) وأيضاً : « بسطت يديّ النهار كله نحو شعب عاص يسلكون طريقاً غير صالح وراء أفكارهم » (اش ٦٥ : ٢) و« توبوا إليّ أتب عليكم قال رب الجنود » (ملا ٣ : ٧) و« إذا ارتد البار عن برّه وصنع الاثم فإنه يموت به . وإذا تاب المنافق عن نفاقه وأجرى الحكم والعدل فإنه يحيا بهما »(حز ٣٣ : ١٨ - ١٩) . لماذا ؟ لأن الخاطىء لن يبقى في خطيئته إذا تاب ورجع إلى الرب . والبار لن ينقذه برّه إذا خطىء وبقي مصراً على خطيئته . لقد قال الله لإرميا : « خذ لك درج كتاب واكتب فيه كل الكلام الذي كلّمتك به على اسرائيل وعلى يهوذا من أيام يوشيا إلى هذا اليوم لعلّ آل يهوذا يسمعون بجميع الشر الذي فكرت أن أصنعه بهم فيرجعوا كل واحد عن طريقه الشرير فأعفو عن إثمهم وخطيئتهم » (ار ٣٦ : ٢ - ٣) . وفي كتاب الأمثال يقول : « من كتم معاصيه لم ينجح ومن اعترف بها وأقلع عنها يرحم » (ام ٢٨ : ١٣) . وبلسان اشعياء يقول : « التمسوا الرب ما دام يوجد ادعوه ما دام قريباً . ليترك المنافق طريقه والاثيم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى الهنا فإنه يكثر العفو . فإن أفكاري ليست كأفكاركم وطرقي ليست كطرقكم » (اش ٥٥ : ٦ - ٨) ، و « أميلوا مسامعكم وهلمّوا إليّ ، اسمعوا فتحيا نفوسكم » (اش ٥٥ : ٣) ، و « إن شئتم وسمعتم تأكلون طيبات الأرض » (اش ١ : ١٩) . فمتى حفظت طرق الرب وعملت مشيئاته عندئذ ضع رجاءك عليه وادعه ، لأنك عندما تصرخ إليه سيجيبك : ها انني حاضر قربك .

عندما تداهم الظالم تجربة يفقد ثقته بالله فلا يتضرع إليه ولا يتوقع منه الخلاص ، لأنه في أيام الراحة كان بعيداً عنه . قبل أن تبدأ الحرب استعن بالحلفاء ، وقبل أن تقع في المرض أطلب الطبيب . قبل أن تداهمك الشدائد صلّ الى الله تجده وقت الحزن ويستجيب لك . قبل أن تنزلق توسل اليه وتضرع ، وقبل

أن تبدأ الصلاة هيىء الوعود ، أي غنائم الصلاة . سفينة نوح صنعت وقت السلام ، لكن أخشابها زرعت قبل مئة سنة . غضب الرب هلاك للظالمين ، أمّا الأبرار فستر لهم .

فم الظالم يقفل بالصلاة ، لأن توبيخ ضميره يفقده الدالة على الله . القلب الصالح يفيض بدموع الفرح أثناء الصلاة . الذين أماتوا العالم في داخلهم يتحملون التجارب، أمّا الذين يحيون للعالم فلا يقدرون أن يتحملوا الظلم . هؤلاء ، إمّا أنهم يتحركون بدافع المجد الباطل فيغضبون ويضطربون بلا وعي ، وإمّا أنهم مستحوذون بالحزن . آه، ما أصعب اقتناء فضيلة كهذه ، وما أعظم مجدها عند الرب ! من أراد نيل هذه الفضيلة ، أي تحمل الظلم بطول أناة ، يحتاج إلى بعد وتغرب عن الأهل والأقرباء ، لأنه من المستحيل نيلها في الوطن . فاحتمال ألم هذه الفضيلة وسط الاخصّاء هو من شيمة الأقوياء العظام الذين مات العالم فيهم ، وفقدوا كل رجاء في التعزيات الحاضرة .

كما تدنو نعمة الله من المتواضع ، هكذا تقترب المصائب الصعبة من المتكبر . عينا الرب على المتواضعين لكي يفرحهم . أمّا وجهه فعلى المتكبرين لكي يذهم . المتواضع يقبل الرحمة من الله دائماً ، أمّا متصلب القلب وقليل الإيمان فتعتريهما العثرات . اتّضع أمام كل الناس فترتفع فوق رؤساء هذا الدهر . بادر الجميع بالتحية والسجود تُكرّم أكثر ممن يحملون هدايا من الذهب الخالص .

اتّضع ترَ مجد الله في داخلك ، لأنه حيث ينبت التواضع ، من هناك ينبع مجد الله . إذا جاهدت في أن تُهان علانية يمجدك الله ويُظْهر مجدهُ في قلبك . كن محتقَراً في عظمتك ولا تكن عظيماً في حقارتك . جاهد في أن تُحتقر تمتلىء من كرامة الله . لا تطلب إكراماً وأنت مثخن بالجراح من الداخل . احتقر الإكرام تُكرّم ، ولا تطلبه لئلا تهان . من يطلب الإكرام يهرب منه ، ومن يهرب منه يتعقبه فيصير بتواضعه واعظاً لكل الناس . إذا كنت تحتقر ذاتك من أجل الحقيقة ، عندئذ يسمح الله لكل خليقته أن تمدحك وتفتح لك باب مجده ، وتقرظك ، لأنك تكون على صورته ومثاله بالحقيقة .

من ذا الذي شاهد إنساناً متألقاً بفضائله ، مزدري بمظهره بين الناس ،

مشرقاً بحياته ، حكيماً بمعرفته ، متواضعاً بروحه ؟ مغبوط من هو متواضع في كل شيء لأنه سيرتفع . من يتضع في كل الأمور ويتذلل أمام الله ، يمجده . من جاع وعطش من أجل الله ، يسكره بخيراته . من تعرّى من أجل الله ، يلبسه لباس المجد وعدم الفساد . من افتقر من أجله يعزّيه بغناه الحقيقي . حقّر ذاتك من أجله ، يكثر مجده فيك كل حياتك دون أن تعلم . اعتبر نفسك خاطئاً تتبرّر في حياتك كلها . كن جاهلاً في حكمتك ولا تظهر حكيماً في جهالتك . فإذا كان التواضع يسبب الرفعة للبسيط والجاهل ، فكم بالأحرى هو شرف للكبار والعظام ؟

اهرب من المجد الباطل تتمجد . خف من الكبرياء تتعظم ، لأنه لا المجد الباطل أعطي لبني البشر ولا التكبر لجنس النساء . إذا كنت قد رفضت بإرادتك كل أمور الحياة فلا تخاصم أحداً على شيء البتة . إذا كنت قد رذلت المجد الباطل فاهرب من طالبيه . اهرب من القنية ومن محبيها . ابتعد عن التبذير والمبذرين . اهرب من الفجور والفجّار ، لأنه إذا كان التذكر البسيط لهذه الأشياء يدغدغ الذهن ، فكم بالأحرى رؤيتها والعيش بقربها ؟ اقترب من الأبرار تقترب من الله بواسطتهم . عاشر المتواضعين يعلّموك أحوالهم . فإذا كانت رؤيتهم نافعة إلى هذا الحد فما بالك بتعليم أفواههم ؟

أحبب الفقراء كيما تنال الرحمة بهم . لا تقترب من المخاصمين حتى لا يضطروك إلى الخروج من سكينتك . لا تشمئز من نتانة المرضى ، وخاصة الفقراء منهم ، فإنك تملك جسداً مثلهم . لا تضرب متضايقي القلب فتُجلد بعصاهم وتبحث عن معزين فلا تجد . لا تهزأ بالمعاقين لأننا سنذهب متساوين إلى الجحيم . أحبب الخطأة وابغض أعمالهم ، ولا تحتقرهم بسبب نقائصهم حتى لا تجرَّب بما هم مجرّبون به . أذكر أنك شريك في الطبيعة الأرضية واصنع الخير مع الجميع . لا تخاصم من هم بحاجة إلى صلاتك ولا تحرمهم من أقوالك اللينة المعزية كي لا يهلكوا فتُطلب نفوسهم منك . اقتد بالأطباء الذين يعالجون الآلام الحارة بالأدوية المبردة والآلام الباردة بالأدوية الحارة .

+ أضغط على ذاتك ، حتى إذا التقيت بقريبك أكرمته فوق ما يستحق . قبِّل

يديه ورجليه وامسكهما بكل احترام وضعهما على عينيك وامدحه حتى بما ليس فيه . وعندما يفارقك قل عنه كل خير وكرامة ، لأنك بهذه الطريقة تجذبه نحو الخير وتضطره ، بمدحك ، إلى الخجل فتزرع فيه بذور الفضيلة . وأمّا أنت فتعتاد الخير وتكتسب ميزة حسنة لنفسك وتقتني تواضعاً كثيراً وتصبح قادراً على اكتساب الفضائل الكبرى دونما تعب . فقريبك إذا كانت فيه بعض النقائص وأكرمته يقبل منك الشفاء بسهولة لخجله من صنيعك نحوه . اتخذ هذا الأسلوب لأنه شريف ويلائم الجميع . لا تُغضب أحداً أو تحسده ، لا على إيمانه ولا على أعماله الشريرة ، بل تجنب أن تؤنِّب أحداً أو توبِّخه على شيء ، لأن لنا ديّاناً في السماء لا يحابي أحداً . أمّا إذا شئت أن ترجعه إلى الحقيقة فاحزنْ من أجله وقل له ، بدموع ومحبة ، كلمة واحدة أو اثنتين ، ولا تتقد عليه بغضبك كي لا يرى فيك اشارة العداوة ، لأن المحبة لا تعرف الغضب أو الغيظ أو التوبيخ المشحون بالهوى . دليل المحبة والمعرفة هو التواضع الذي يولده الضمير الصالح بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والعزة مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة السادسة

في منفعة الهرب من العالم

إن الجهاد وسط المغريات شديد وصعب جداً . إن اقتراب الإنسان من الأسباب التي تثير الحروب والجهادات سيشمله بالخوف ويسقط بسرعة مهما كان جبّاراً وقوياً ، وسيشعر بالتالي أنه يحارب الشيطان وجهاً لوجه . إن بقاء الإنسان قرب المغريات التي يرهبها قلبه يجعله عرضة لهجمات العدو ويتسبب في هلاك نفسه ، لأن المعاشرات الدنيوية إذا استهوت النفس تصبح عثرة دائمة لها . لقد أدرك آباؤنا القدماء الذين سلكوا هذه الطريق أن الذهن لا يمكنه أن يكون ثابتاً على حالة واحدة وبالتالي لا يستطيع أن يصون نفسه بالإحتراس من كل ما يمكن أن يؤذيه . لذلك تشاوروا بحكمة واتشحوا بعدم القنية سلاحاً يغنيهم عن جهادات كثيرة ـ لأن الفاقة تبعد الإنسان عن زلات كثيرة ـ وذهبوا إلى البرية بعيداً عما يسبب الأهواء ، حتى لا يجدوا أثناء الضعف أسباباً تؤدي بهم إلى السقوط . أعني بالأسباب : الغضب ، الشهوة ، الحقد والمجد ، لأن هذه الأهواء وغيرها تنخفض حدتها في البرية . لذلك جعلوا الصحراء حصناً لهم وسوراً وتمركزوا فيها مثل برج لا يُقهر . وهكذا استطاع كل منهم أن يتمم جهاده بهدوء حيث لا تجد الحواس سبباً لتتحالف مع العدو الذي يصارعنا من خلال اقترابنا من الأشياء المؤذية ، لأن الموت في الجهاد خير من الحياة في السقوط[1] .

---

(١) لأنه من الأفضل لنا أن نموت مجاهدين من أن نحيا ونحن في السقوط.

المقالة السابعة

في رتبة المبتدئين وأحوالهم وما يتعلق بهم

إن نظام العفة المحبوبة لدى الله يكمن في عدم تمادي العينين بالنظر إلى هنا وهناك بل التطلع نحو الأمام دائماً ، والابتعاد عن الكلام البطال والإكتفاء بما هو ضروري فقط ، والقناعة بالملابس البسيطة الضرورية للجسد ، وتناول المآكل وسيلة لتغذية الجسد وليس للشراهة ، إذ التناول من كل الأطعمة بكمية قليلة أفضل من التمييز بينها والشبع من الأفضل منها . أعظم الفضائل التمييز . لا تتناول خمراً وأنت وحيد ، أو إذا لم تكن مريضاً أو ضعيفاً . لا تقاطع المتكلم ولا تقاومه كمن يخلو من الأدب ، بل كن رصيناً مثل الحكيم . أينما حللت اعتبر نفسك أصغر الحاضرين وخادماً لإخوتك . لا تعرّ عضواً من أعضائك أمام أحد ، ولا تلمس جسد أحد ولا تدع أحداً يلمس جسدك إلاّ عند الضرورة . اهرب من الدالة هربك من الموت . كن عفيفاً عند النوم لئلا تبتعد عنك القوة الحامية . وإذا استطعت فلا تترك أحداً يرى مكان رقادك . لا تبصق أمام أحد ، وإذا فاجأك السعال وأنت على المائدة أدر وجهك إلى الوراء واسعل . كلّ واشرب بتعفف كما يليق بأولاد الله .

لا تمد يدك لأخذ شيء من أمام الآخرين بوقاحة . إذا جالسك غريب فادعه مرة ومرتين لتناول الطعام ، ثم حضّر له المائدة بترتيب ودون اضطراب واجلس معه باحتشام ودون أن تكشف أي عضو من أعضائك . عندما تتثاءب استر فمك لئلا يراه الآخرون ، وإذا حبست نَفَسك يزول التثاؤب . إذا دخلت إلى قلاية رئيسك أو صديقك أو تلميذك احفظ عينيك حتى لا ترى شيئاً مما هناك . أمّا إذا ألحّ عليك فكرك فاحذر أن تطيعه وتفعل ذلك ، لأن الذي يفقد حياءه في هذه الأمور هو غريب عن الزي الرهباني وعن المسيح الذي منحنا إياه . لا تلتفت إلى الأمكنة التي يخبىء فيها صديقك أمتعة قلايته . افتح بابك واغلقه بهدوء وكذلك باب زميلك .

لا تدخل على أحد فجأة ، بل اقرع من الخارج وإذا سمعت آمين فادخل بورع .

لا تسرع في مشيك إلاّ إذا اضطرتك الحاجة . كن مطيعاً للجميع في كل عمل صالح ، ولا ترافق محبي القنية ، أو محبي الفضة ، أو الدنيويين لئلا تقع في عمل شيطاني . تكلم مع الجميع بلطف وانظر إلى الجميع بتعفف، ولا تملأ عينيك من منظر أحد الناس . إذا كنت سائراً في الطريق فلا تسبق الذين أكبر منك ، وإذا سبقت رفيقك فانتظره قليلاً حتى يصل اليك ، لأن من يتصرف بعكس ذلك هو جاهل ويشبه الخنزير الذي لا ناموس له . إذا تكلم رفيقك مع أحد في الطريق انتظره ولا تضطره إلى السرعة ، لأن القوي في مثل هذه الحالات يستدرك الضعيف ويقترح عليه الإستراحة .

لا توبّخ أحداً على ذنب بل انسب كل شيء إلى نفسك واعتبر ذاتك سبب ذلته . لا تتحاشى أو تتهرب من أي عمل حقير ، بل ادّه بتواضع . إذا اضطررت إلى الضحك لا تتهرب منه لكن لا تدع أسنانك تظهر . إذا اضطررت أن تتكلم مع نساء فأشح بوجهك عنهن وتكلم على هذا الشكل . تجنّب الراهبات تجنبك النار واهرب من ملاقاتهن ورؤيتهن والكلام معهن هربك من فخ الشيطان، حتى لا يبرد قلبك من محبة الله ويتدنس بأوحال الأهواء. واعتبر نفسك غريباً عنهن حتى ولو كن أخواتك بالجسد. تحفّظ من الاختلاط مع ذويك وأقاربك لئلا يبتعد قلبك عن محبة الله. اهرب من دالة الشبان وملاقاتهم هربك من صحبة الشيطان. وليكن خليلك وكليمك ذاك الذي يخاف الله ويسهر على نفسه دائماً ، فقيراً في قلايته لكنه غني بأسرار الله. أخفِ عن الجميع أسرارك وأفعالك وحروبك. لا تجلس قرب أحد بدون قلنوسة إلاّ عند الضرورة. أخرج وتمم حاجتك الضرورية بعفة وخوف الله كأنك ماثل بورع أمام ملاكك الحارس. أرغم نفسك على تطبيق هذه الأمور حتى الموت وإن لم يرض بها قلبك.

خير لك أن تشرب سماً زعافاً من أن تأكل مع امرأة[1] ، وإن كانت أمك أو أختك . خير لك أن تسكن مع تنين من أن تنام مع شاب حتى لو كان أخاك بالجسد . وإذا قال لك أحد أكبر منك في الطريق : هلمّ نرتل فلا تقاومه ، أمّا إذا

(١) كلام موجّه إلى الرهبان المبتدئين.

لم يقل لك شيئاً فاصمت بلسانك وسبّح الله في قلبك . لا تقاوم أحداً على شيء ولا تتشاجر ولا تكذب ولا تحلف باسم الرب إلهك . خير لك أن تُحتقر من أن تحتقر أحداً . خير لك أن تكون مظلوماً من أن تكون ظالماً . خير أن تزول الأمور الجسدية مع الجسد من أن تتأذى النفس . لا تدخل مع أحد في محاكمة ، بل اقبل أن تعاقب وأنت بريء . لا تتمنّى شيئاً دنيوياً لنفسك . اخضع لمدبريك ورؤسائك لكن ابتعد عن الإختلاط بهم ، لأن الإختلاط فخ يطبق على المتهاونين ويقودهم إلى الهلاك .

أيها الشره ، يا من تسعى لإرضاء جوفك ، خير لك أن تجعل من بطنك جمراً مشتعلاً من أن تأكل من أطايب رؤساء الدنيا الشهية . أغدق رحمتك على الجميع وكن خجولاً أمام الكل . صن نفسك من الثرثرة لأنها تطفيء الحركات الروحية التي غرسها الله في القلب . اهرب من الجدل العقائدي هربك من الأسد . لا تجادل أحداً فيها ، لا من أبناء الكنيسة ولا من الغرباء . لا تمر بجانب ساحات المغضوبين أو المتشاجرين لئلا يمتلىء قلبك من الغضب ويتغلب ظلام الغباوة على نفسك . لا تساكن متكبراً لئلا ينتزع من نفسك فعل الروح القدس فتصبح مسكناً لكل هوى رديء . أيها الانسان ، إذا حفظت هذه الوصايا وانصرفت إلى التأمل في الله عندها ترى نفسك نور المسيح مشرقاً فيها بالحقيقة ولا يعتريها ظلام إلى الأبد . فلله المجد والعزة إلى أبد الدهور ، آمين .



المقالة الثامنة

في نظام التمييز الدقيق

انتبه لذاتك دائماً ، أيها العزيز، وانظر سير أعمالك والشدائد التي تصادفك وراقب مكان قفرك الذي تقيم فيه ودقة ذهنك وحدّة معرفتك ومدى حياة سكينتك الطويلة المصحوبة بالأدوية ، أعني بالأدوية التجارب المرسلة اليك من قبل الطبيب الحقيقي بغية شفاء إنسانك الداخلي، بواسطة الشياطين أو الأمراض أو أوجاع الجسد أو بأفكار نفسية مخيفة ، إمّا بتذكر أهوال مزمعة أن تحصل في الآخرة ، أو بوخز حرارة النعمة أو بالدموع اللذيذة وفرح الروح . يجب أن تشاهد بوضوح من خلال هذه الأمور كلها أن جرحك قد ابتدأ يتعافى ويلتئم . فإذا حصل ذلك يجب أن تتساءل : هل ابتدأت الأهواء تضعف ؟ ولكي تحصل على الجواب اتخذ من هذه الأمور علامة وادخل إلى ذاتك باستمرار ، وانظر أياً من الأهواء أصبح ضعيفاً، وأياً منها زال وانسلخ بالكلية، وأياً منها ابتدأ بالخمود - بسبب صحة النفس وليس بسبب الإبتعاد عن الأسباب - ، وأياً منها أخضعته النفس للذهن . انتبه أيضاً إلى جرحك المتقيّح ولاحظ إذا كانت فيه بداية نمو جسد حي يبشر بسلامة النفس . وانتبه إلى لجاجة الأهواء ، ولاحظ إن كانت جسدية أو نفسية أو مركبة ومختلطة ، وهل تتحرك في الذاكرة بطريقة مبهمة لضعفها ، أم تثور على النفس بضراوة ؟ أو هل تثور كمن له سلطان أم تترقب بطريقة لصوصية ؟ وكيف يمكن للذهن المتسلط على الحواس أن يتنبه لها ؟ وإذا شنّت عليه حرباً وهاجمته هل ينبغي له أن يحاربها ويذلها بقوته أم يتغاضى عنها ويهملها ؟ لاحظ أخيراً أياً من الأهواء القديمة زالت وأي أهواء جديدة نبتت .

إن الأهواء تتحرك عادة بالصور أو بالحس دون الصور ، أو بالذاكرة دون

همجس[1] أو ثوران ، ويمكن معرفة حالة كل نفس من التدقيق في هذه التحركات .

فإذا كانت الأهواء القديمة لا تزال تزعجك فهذا يعني أنها لم تمح منك بالكلية ، لأن الحرب لا تزال قائمة في النفس بالرغم من الظن أن النفس قوية أمامها . وهذا مطابق لما جاء في الكتاب : « ولما سكن الملك في بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه »(٢ملو ٧ :١)، هذا لتعلم أنه لم يتكلم على هوى واحد بل عليها كلها ، أهواءه الطبيعية وأهواءه الشهوانية والنفسية وأهواء حب المجد الذي يصور الأشخاص ويتخيلهم ويندفع وراءهم بفعل الرغبة . وكذلك الحال بالنسبة لهوى محبة الفضة. فإن النفس عندما تشترك فيه سرياً يصوّر لها في الذهن صورة محبة المال عن طريق جمع الثروة ، وإن لم تفعل يقودها إلى التفكير بالغنى ويزرع فيها شوق اقتنائه مع أشياء أخرى .

الاهواء لا تحارب دائماً بالهجوم ، فثمة أهواء تري النفس ضيقات وشدائد ، كالإهمال والضجر والحزن ، التي لا تحارب النفس بالهجوم ولا بالراحة بل تضع عليها ثقلاً . قوة النفس تختبر بالإنتصار على الاهواء التي تحاربها بالهجوم . لهذا يجب على الإنسان أن تكون لديه معرفة دقيقة لكي يحس ، في كل خطوة يخطوها ، ويدرك أين وعلى أي أرض أصبحت نفسه ، أعلى أرض حاران أم خارج الاردن ؟[2]

وهل المعرفة النابعة من نور نفسك كافية لتميّز بها هذه الأمور ؟ أم أنك لا تزال تميّز بغموض لافتقادك إلى المعرفة؟ هل ابتدأ فكرك يتنقى؟ هل أخذ التشتت يتوارى عن الذهن أثناء الصلاة؟ وما هو الهوى الذي يسبب هذا التشتت ؟ هل تتظلل نفسك بالهدوء والوداعة والسلام التي تولدها السكينة عادة في الذهن ؟ هل يختطف الذهن دائماً ، دون إرادته ، إلى ذكريات اللامتجسمين التي لا يمكن للحواس تفسيرها ؟ هل يلتهب فيك فرح فجائي يسكت اللسان ؟ هل تنبع من قلبك لذة ، من نوع آخر ، تجذب الذهن بكليته ؟

هناك أيضاً نعيم وابتهاج ينسكبان على الجسد من وقت لآخر بحال

(١) الصوت الخفي الذي يسمع ولا يفهم أو كل ما خطر بالبال ووقع في القلب.
(٢) حاران ارض النقاوة والطهارة . خارج الاردن ارض الاهواء.

لاشعورية ويجعلان اللسان الجسدي عاجزاً عن وصفها إذ يعتبر الإنسان الارضيات كلها خبثاً ورماداً . هذا الإبتهاج هو غير تلك اللذة النابعة من القلب والتي ذكرناها سابقاً لأنها تتخلل الذاكرة أثناء الصلاة والمطالعة والتأمل المستمر حيث يصبح الذهن حاراً بالمشاهدة الطويلة. أمّا الإبتهاج المقصود فلا علاقة له بهذه الأمور لأنه يحصل أحياناً كثيرة أثناء القيام بعمل ثانوي، خاصة في الليالي عندما يكون الانسان بين اليقظة والنوم ، كأنه نائم وليس بنائم ، وكأنه يقظ و ليس بيقظ . فعندما يأتيه ذلك النعيم ويسري في أوصاله يظن ، في تلك اللحظة ، أن هذا الأمر ليس سوى ملكوت السموات .

راقب إذا كانت نفسك قد اكتسبت قدرة على مقت الذكريات الحسية بقوة الرجاء الذي يسيطر على النفس ، تلك القوة التي تضبط الحواس الداخلية بحال لا تفسَّر . لاحظ إذا كان قلبك قد استيقظ دون أن تأسره الأمور الأرضية ولا الإهتمام بها ، بل التأمل المستمر في مخلصنا المقرون بالعمل الدائم .

اقتن معرفة خاصة لفهم هذه الأمور عندما تحس بها ، لأن الهدوء المستمر والثابت من خلال العمل الروحي المتواصل يجعل النفس تتذوق هذه الأمور بسرعة . والذي يهملها يفقدها ولا يستعيدها إلاّ بعد زمن طويل وبصعوبة ، لأنه بهذه المعرفة يستطيع الإنسان أن يتجاسر ويقول متشجعاً بشهادة ضميره ، ما قاله بولس المغبوط : « وأنا على يقين أن لا الموت ولا الحياة ، ولا الحاضر ولا المستقبل ولا شيء في الخليقة يقدر أن يفصلني عن محبة المسيح »(رو ٨ : ٣٨) . وأكثر من ذلك فلا ضيقات الجسد ولا ضيقات النفس ولا الجوع ولا الإضطهاد ولا العري ولا التوحد ولا الحبس ولا الخطر ولا السيف ولا ملائكة الشيطان أنفسهم ولا قواته المحتالة بطرق شريرة متنوعة ولا المجد الباطل بهجومه ولا الوشايات ولا التعييرات بلطماتها الصائرة بلا سبب تقدر أن تفصلني عن محبة المسيح .

فإذا كنت ، أيها الأخ ، لا ترى بحال من الأحوال ما إذا كانت نفسك تزداد من هذه الصفات أو تنقص فاعتبر أن أتعابك وشدائدك وسكينتك كلها باطلة حتى ولو كنت تجترح العجائب بيديك وتقيم الأموات لأن عجائبك شبيهة بالأموات . حرِّك نفسك اذن من الآن وتضرع إلى مخلص الجميع أن يزيل الستار عن باب قلبك

ويبدد من الفلك الداخلي عاصفة الأهواء الداجية ويؤهلك لرؤية أشعة النهار فلا تبقى جالساً كالميت في الظلمة إلى الدهر .

إن السهر الدائم مع القراءة والمطانيات المتوالية لا تؤخر عطاء هذه الخيرات للمجدّين . والذي يجد المواهب إنما يجدها بهذه الأمور . والذين يرغبون فيها عليهم أن يصبروا في السكينة وفي العمل فيها ، ولا يتركوا ذهنهم يلتصق بشيء ولا بإنسان سوى بأنفسهم ، وأن يهتموا بالعمل الداخلي الذي يمكّنهم أن يجدوا إحساساً صحيحاً يتعرفون بواسطته على حقيقة أنفسهم .

من يبق في السكينة يختبر خيرية الله ولا يحتاج إلى تفكير كثير . أمّا نفسه فتنجو من السقوط في داء عدم الإيمان الذي يصيب من يشكّون في الحقيقة لأن شهادة الذهن أقوى حجة من كثرة الكلام الخالي من الخبرة .

أمّا إلهنا فله المجد والجلال إلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة التاسعة

في نظام السيرة الرهبانية

إن قهر النفس في العمل يولِّد الحرارة اللامحدودة التي تلتهب في القلب بشكل تذكرات حارة تجول في الذهن وهو لا يعرفها سابقاً . والعمل والاحتراس يصقلان الذهن بحرارتها ويمنحانه بصيرة تلد الأفكار الحارة التي ذكرتها وهي مشاهدة النفس العميقة المعروفة بالثاوريا. المشاهدة تولِّد الحرارة التي تسبب فيضان الدموع. والدموع تكون ذات منفعة قليلة في البداية، أي أنها تبقى يوماً واحداً ثم تنقطع، لكنها تعود بعد ذلك بشكل دائم. بواسطة الدموع الدائمة يحل في النفس سلام الأفكار، وبسلام الأفكار ترتفع النفس إلى طهارة الذهن. ومن طهارة الذهن يقبل الإنسان إلى مشاهدة أسرار الله، لأن الطهارة كامنة في السلام من الحروب. بعد ذلك يبلغ الذهن إلى مشاهدة إعلانات وآيات، كما جرى لحزقيال النبي. هذه الإعلانات والآيات تقرِّب النفس من الله ومراحلها ثلاث[1] .

---

(١) المراحل الثلاث هي : ١ ـ قهر النفس في العمل أي الجوع ، المطالعة ، السهر الهادىء.
٢ ـ المشاهدة.
٣ ـ الحرارة التي يتولد منها الدمع الدائم .

أمّا الآيات الثلاث التي رآها حزقيال فهي (حز ١ : ٤) :

(١) الريح العاصفة من الشمال .
(٢) الضياء الذي حولها .
(٣) النحاس اللامع في الوسط . فالريح تمثل قهر النفس في العمل لأنها تهب من الشمال وينتج عن ذلك أن العمل الجسدي يتطلب جهداً وصبراً . لقد قال الرب عن ملكوت السموات إنه يغتصب اغتصاباً . والضياء يمثل الرؤية . فماذا يتمنى الإنسان أن يشاهد في الرؤية سوى الله الذي هو نور : « أنا نور العالم » (يو ٨ : ١٢) . أمّا النحاس اللامع فيمثل حرارة النعمة السماوية التي تلهب القلب بشكل يفوق الطبيعة وتملأ النفس بالشوق والمحبة الإلهية ، وهذا ما حصل لكليوباس ورفيقه عندما كانا ذاهبين إلى عمواس : « أما كان قلبنا يحترق في صدرنا حين حدثنا في الطريق وشرح لنا الكتب المقدسة؟ » (لو ٢٤ : ٣٢) .

أولى هذه المراحل هي النية الصالحة نحو الله ، وأعمال السكينة الثابتة على أنواعها . هذه الأنواع تتولد من الانقطاع الطويل عن الأمور الدنيوية والابتعاد عنها ، ولا حاجة لذكرها بالتفصيل لأنها معروفة من الجميع . ومع ذلك وبما أن عرضها لا يضر القراء فلن أتوانى عنها . إنها : الجوع ، المطالعة ، السهر بهدوء طول الليل وذلك حسب قدرة كل واحد ، كثرة المطانيات التي يُفترض عملها خلال ساعات النهار كما في الليل . علينا أن نعمل ثلاثين مطانية كل مرة على الأقل ثم نسجد للصليب الكريم ونستريح . ومن يريد أن يضيف إلى هذا القانون فليفعل قدر استطاعته ، فهناك من يقضون ثلاث ساعات في ترداد صلاة واحدة[1] وهم منبطحون بوجوههم على الأرض لكي يحافظوا على هدوء ذهنهم دون ضغط أو تشتت . فالصلاة والمطانيات يظهران غزارة غنى الصلاح وغنى النعمة التي تمنح لكل إنسان حسب درجة استحقاقه .

أمّا الصلاة الأخرى وكيفية الاستمرار بها خلواً من الضغط فلا أرى من العدل أن أظهر رتبتها لا قولاً ولا كتابة ، لأن القارىء إذا لم يفهم سيظن أن كل ما كتب عنها غامض . أمّا إذا فهم المكتوب فسيحقر الكاتب لعدم معرفته ترتيب الأمور ، فيحصل لوم في الحالة الأولى وسخرية في الثانية . فأجد نفسي غريباً عنها كما قال الرسول عن الذي يرغب بالتنبؤ . إن الذي يريد معرفة هذه الأمور عليه أن يسلك الطريق التي رسمتها سابقاً ويحافظ على عمل الذهن . وعندما يتمم هذه الأمور بالعمل سيتعلم وحده ويصبح بغير حاجة إلى معلم . فقد قيل : اجلس في قلايتك وهي وحدها تعلمك كل شيء .



(١) ربما صلاة الرب يسوع : « أيها الرب يسوع المسيح ابن الله ، ارحمني » .

المقالة العاشرة

في كيفية حفظ جمال السيرة الرهبانية وكيفية إتمام تمجيد الله

يجب أن تكون أعمال الراهب وتصرفاته نموذجاً لمنفعة كل من ينظر إليه ، حتى إذا ما رأى أعداء الحقيقة فضائله الكثيرة ساطعة فيه ، مثل أشعة الشمس ، يقرون رغماً عنهم أن للمسيحيين رجاء حقيقياً وطيداً فيتهافتون عليه من كل حدب وصوب كملجأ لهم . وعندئذ يرتفع قرن الكنيسة على أعدائها ، ويتحرك كثيرون غيرة بفضائل الراهب فيخرجون من العالم . أمّا هو فيوقره الجميع احتراماً لجمال سيرته ، لأن الحياة الرهبانية فخر لكنيسة المسيح .

يجب أن تكون سيرة الراهب حسنة من جميع جوانبها . أي أن يكون مترفعاً عن الأمور الدنيوية ، محافظاً على اللاقنية بدقة ، مزدرياً الجسد كلياً ، صائماً صوماً نزيهاً ، باقياً في السكينة ، محافظاً على نظام حواسه ، حارساً نظره ، قاطعاً كل نزاع فيما يختص بأمور هذه الدنيا ، قليل الكلام ، نقياً من الحقد ، بسيطاً بتمييز ، سليم القلب بفهم ولباقة ورشاقة ، عالماً أن الحياة الحاضرة تافهة وسريعة الزوال وان الحياة المستقبلة قريبة وحقيقية وروحية . على الراهب أيضاً أن يكون مجهولاً من كل إنسان ، غير مرتبط بجماعة ولا متحداً بأحد . ويجب أن يكون محافظاً على هدوء السكينة ، أن يهرب دائماً من الناس ، ويداوم على الصلوات والمطالعة باستمرار . أن لا يحب الإكرام ولا يفرح بالدعوات ولا يرتبط بهذه الحياة . أن يصبر على التجارب بشجاعة ويتحرر من الرغبات الدنيوية ومن الفحص والتذكر بأمورها . أن يهتم بالوطن الحقيقي والتأمل به على الدوام . أن يكون وجهه مقطباً وذابلاً ودامعاً في الليل والنهار . وأعظم منها كلها أن يحفظ عفته وأن يبتعد عن الشراهة وعن الصغائر والكبائر . فهذه هي فضائل الراهب الشاهدة على أنه مات عن العالم كلياً واقترب من الله .

يجب علينا إذن أن نقتني هذه الفضائل ونهتم بها على الدوام . أمّا إذا سألنا أحد لماذا حددنا كل هذه الفضائل بالتفصيل ولماذا لم نتكلم عليها بشكل عام فنجيبه : إن ما كان ينبغي قوله في هذا الموضوع قد قيل ، فالذي يهتم بحياته عليه أن يفتش في نفسه عن هذه الفضائل فإذا وجد أنه بحاجة إلى إحداها أو أنه مقصر في غيرها فعليه أن يتخذ من هذا المنهج وسيلة لتذكيره. فإذا اقتبسها تعطى له معرفة الفضائل الأخرى التي لم أذكرها ويصبح أداة يتمجد به اللهُ أمامَ الناس القديسين ويهيىء لنفسه مكاناً للراحة قبل خروجه من هذه الحياة . أمّا الهنا فله المجد إلى دهر الدهور ، آمين .



المقالة الحادية عشرة

في أنه يجب على عبد الله الذي أمات العالم وخرج في طلب الله أن لا يخاف ويتوقف عن البحث لئلا تفتر حرارته المتولدة من الشوق إلى الإلهيات ومن التفتيش عن أسرارها لأنه من عادة الخوف في مثل هذه الظروف أن يشوش الذهن بتذكر الأهواء

يمر الإنسان بثلاث مراحل : مرحلة المبتدئين فالمتوسطين ثم الكاملين . فالذي لا يزال في المرحلة الأولى تكون حركة ذهنه متأثرة بالأهواء وإن كان عقله يميل نحو الصلاح . أمّا الذي بلغ المرحلة المتوسطة فيكون تارة في الهوى وطوراً في اللاهوى ، لأن الأفكار اليمينية (الإيجابية) واليسارية (السلبية) تتحرك فيه بشكل متواز ، وكما قيل سابقاً فهو تارة يفيض بالنور بكليته وطوراً بالظلام . فإذا توقف عن المطالعة المستمرة سينجرف وراء الأهواء دون شك ، لأن مطالعة الكتب المقدسة والتأمل بمعانيها الإلهية تلهب فيه ، قدر استطاعته ، أفعال الحق وتحفظه من الخارج والداخل وتنمّي أعماله . إذن يجب أن يغذي حرارته الطبيعية بالمطالعة وأن لا يهمل البحث والتفتيش فيها ، وعندئذ تبقى الأهواء بعيدة عنه وتكون المطالعة وسيلة لتغذية الأفكار ولجمها كي لا تميل إلى اليسار . فإذا حفظ نفسه بشوق وطلب من الله بصبر وصلاة متوجعة ، فإنه يستجيب ويفتح الباب له ، خاصة من أجل تواضعه ، لأن الأسرار لا تكشف إلاّ للمتواضعين . وإذا مات على هذا الرجاء دون أن يشاهد تلك الأرض عن قرب ، فإن ميراثه سيكون مع الأبرار القديسين القدماء ، الذين كان عندهم رجاء بلوغ الكمال ولم يروه ، حسب القول الرسولي (عب ١١ : ٣٩) لأنهم عملوا كل حياتهم على الرجاء ثم

رقدوا . فماذا يمكننا أن نقول إذا لم يستطع الإنسان الدخول إلى أرض الميعاد التي ترمز إلى الكمال - أي إدراك الحقيقة الجلية بمقدار ما تسمح له قوته الطبيعية - ؟ وهل الشك في عدم الدخول إلى أرض الميعاد هو الذي يمنعه من التقدم في حياته الروحية ويبقيه في الصف الأخير مما يجعل ميله يتوجه نحو اليسار ؟ وهل يبقى في ذلّ الصف الأخير الذي لا يسمح له بالدخول إلى أرض الميعاد أم يجب عليه الإرتقاء إلى الصف المتوسط الذي ذكرته ؟ إن الإنسان إذا شاهد أرض الميعاد كما في مرآة وليس بأم عينه وظل يترجاها من بعيد فلا شك أنه بهذا الرجاء قد انضم إلى مصاف آبائه . أمّا إذا لم يستحق النعمة الكاملة التي يهجس بها على الدوام ويحياها بملء ذهنه ويشتهيها ، وإذا لم يستحقها في هذه الحياة فإنه إذا طرح الأفكار الرديئة فبالرجاء وحده يخرج من هذا العالم وقلبه مليء بالله .

التحلي بالتواضع حسن ومفيد ، لأن تأمل الذهن اللامتجسد (المجرد) في شوق الله يدفعه إلى فهم الكتب المقدسة ويقي النفس من الأفكار السيئة التي تنبع من الداخل ، ويثبت الذهن في تذكر الخيرات المستقبلة حتى لا يتكاسل ويسقط في الخمول ويفكر بالأمور الدنيوية بدل الأمور السامية ، لأن تفكيره في الأمور الدنيوية سيؤدي إلى فتور حركاته العجيبة الحارة فيسقط في شهوات باطلة حيوانية .

أمّا إلهنا فله المجد .



المقالة الثانية عشرة

في كيفية ثبات الراهب المميّز في السكينة

إسمع أيها العزيز ، إذا كنت لا تريد أن تكون أعمالك فارغة وأيامك بطّالة وخالية من الربح الذي ترجوه فادخل إلى السكينة بتمييز دون أن تأخذ برأي أحد كي لا يحدث لك ما حدث لكثيرين قبلك . ثبت هدفك في ذهنك كي تكون أعمال سيرتك موجهة كلها نحوه .

أطلب المعرفة ممن هم أخبرُ منك ، ولا تكفَّ حتى تتروض بكافة مناهج أعمالها . كلما خطوت خطوة إفحصها وعاين إن كنت سائراً على الطريق أو خارجاً عنها . لا تعتقد أن سيرة السكينة الحقيقية تتم بالأعمال الخارجية وحدها .

إذا كنت تشتهي أن تصل إلى هدف محدد بخبرتك ، ينبغي أن تكون في نفسك دلائل وإشارات سرية تحدد لك كل خطوة تخطوها لتعرف إذا كنت على طريق الآباء أو على ضلال العدو . وإليك بعض التعليمات التي يجب أن تتبعها حتى تصبح حكيماً في معرفة طريقك : إذا رأيت وأنت في السكينة أن ذهنك يقدر على التفكير بحرية في الأمور الإيجابية (اليمينية) ويستطيع ممارسة سلطته بعيداً عن أي ضغط خارجي ، فاعلم أن سكينتك مستقيمة . إذا كنت تصلّي بطرق مختلفة وذهنك بعيد عن التشتت بقدر الإمكان وحدث أن توقف لسانك عن التسبيح فجأة ، واسدل وشاح الصمت على نفسك رغماً عنها ، واستمر كذلك ، فاعلم أنك تتقدم في السكينة ، وأن الوداعة أخذت تتضاعف فيك ، لأن السكينة وحدها بدون فضيلة أخرى أمر مذموم . السيرة الخالية من الفضائل يعتبرها ذوو الحكمة والتمييز كعضو وحيد منفصل عن شركة الأعضاء الأخرى . إذا شاهدت الدموع تنهمر من مقلتيك طوعاً ، وتسقط على خديك وتغسلهما ، ونفسك تجول في أفكار وتذكرات ورؤ ى ، فاعلم أن دلائل خرق الجدار وتحطيم المعاندين قد

بدأت تظهر . إذا وجدت أحياناً أن ذهنك يُعَمَّدُ في داخلك على خلاف المعتاد ، دون أن تكون أنت المدبر ، ويبقى على تلك الحالة فترة ، ثم أحسست أن أعضاءك أخذت تتلاشى ، كما لو أصيبت بمرض ثقيل ، وسيطر السلام على أفكارك طويلاً ، فاعلم أن الغمامة أخذت تظلل خيمتك[1] .

أمّا إذا أمضيت فترة طويلة في السكينة ولاحظت في نفسك أفكاراً تمزقها وتتسلط عليها وتجرفها رغماً عنها ، ثم تقود الذهن دائماً إلى تذكر الأعمال التي اقترفتها النفس ، وتجعله مولعاً بحب استقصاء الأمور الباطلة ، فاعلم أنك تتعب في السكينة باطلاً وأن نفسك تعيش في التشتت معرضة للأسباب الخارجية الناجمة عن إهمال الواجبات الداخلية الروحية ، لا سيما السهر والمطالعة . في هذه الحالة عد بسرعة واصلح سيرتك .

لا تتعجب عندما تفحص ذاتك في تلك الأيام فلا تجد فيها السلام ، بسبب إزعاج الأهواء . فإذا كان جوف الأرض يحافظ على حرارة الشمس بعد غروبها ، والأدوية والطيوب تظل رائحتها منتشرة في الهواء بعد إفراغها بزمن طويل ، فماذا تكون حال الأهواء ؟ إنها تشبه كلاباً اعتادت لحس الدم في الملحمة ، فإذا منعت عنها ، وقفت عند الأبواب نابحة ، ولا تفارقها حتى تستنزف قوتها الغريزية الأولى بكاملها .

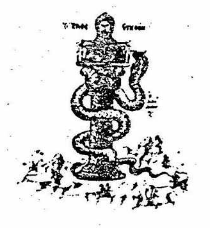
عندما يبدأ التهاون بالتسرب إليك بطريقة لصوصية ، وتبدأ نفسك بالرجوع إلى الوراء ، وسط الغمام ، ويوشك البيت أن يمتلىء بالظلام ، تبدأ الدلائل التالية بالظهور : تحس أنك قليل الايمان ، تطمع في الأشياء المنظورة ، تضعف ثقتك ، تشك في قريبك ، لا تكتفي بذم كل إنسان أو كل ما تصادفه بفكرك وحواسك بل تذم خالقه المتعالي أيضاً . يتسرب إليك الخوف على الجسد ويسبب لك صغر النفس مما يجعلها تخاف حتى من ظلها . إن الايمان هنا ليس الايمان الذي يشكل أساساً للإعتراف عند الجميع ، بل تلك القوة العقلية التي تدعم القلب بنور الذهن ، وتولد في النفس ، بشهادة الضمير ، ثقة كبيرة بالله ، فلا تهتم بذاتها من بعد ، بل تضع اهتمامها على الله في كل شيء . وهكذا يكون

(١) الغمامة ترمز إلى الروح القدس والخيمة إلى القلب .

عدم إيمانك قد كشف لك الإيمان .

أمّا إذا تقدمت نحو الأمام فستجد في نفسك العلامات التالية الواضحة : +
تتقوى بالرجاء في كل شيء ، تصبح غنياً بالصلاة ، لا تفارق المادة المفيدة ذهنك في كل شيء تصادفه ، تحس بضعف الطبيعة البشرية ، وهكذا يصبح بإمكانك أن تتقي الكبرياء من جهة ، وألاّ تبالي بنقائص القريب من جهة أخرى . عندئذ يتولد فيك شوق الخروج من الجسد بالتشوق المزمع أن تواجهه في المستقبل . ثم تواجه بروح العدالة كل الضيقات التي تصادفك ، الظاهر منها والخفي ، ويصبح كل شيء قريباً منك وواضحاً بدقة وبعيداً عن الغرور . وبهذا تقدم الاعتراف والشكر على كل شيء . هذه العلامات من ميراث اليقظين والحريصين والعائشين في السكينة والتائقين إلى بلوغ تمام السيرة .

أمّا الكسالى فليسوا بحاجة إلى أدلة دقيقة كهذه لتقيهم السقطات لأنهم بعيدون عن الفضائل الخفية . عندما تبدأ إحدى هذه الفضائل بالبزوغ في نفسك ، فكرٍ في تلك اللحظة وراقب اتجاه ميولك فتدرك حالاً إلى أية فئة تنتمي . عسى أن يمنحنا الله المعرفة الحقة ، آمين .



المقالة الثالثة عشرة

في فائدة الانقطاع عن الاهتمامات لمن يعيش في السكينة، وفي ضرر الدخول والخروج من القلاية

كثيرُ الاهتمامات لا يستطيع أن يصبح وديعاً وهادئاً، لأن الحاجات الضرورية تضنكه وتجعله مجبراً على التفكير فيها والاهتمام بها فيتبدد هدوء سكينته. لذلك يجب على الراهب أن يقف أمام وجه الله ويحدق إليه دائماً بنظر ثابت (إذا كان يريد أن يحصِّن ذهنه وينقيه مما يجوب فيه من حركات صغيرة)، وأن يتعلم الهدوء في تبديل وتمييز الأفكار الداخلة إليه والخارجة منه. إن اهتمامات الرهبان الكثيرة تدل على تراخي استعدادهم لإتمام وصايا المسيح، وتظهر عيوبهم تجاه الأمور الإلهية.

لا تفتش عن النور في نفسك إذا لم تنزع عنك الاهتمامات، ولا عن صفاء وهدوء إذا كانت حواسك متراخية. إذا وجدت بعض الاهتمامات فلا تزدها حتى لا يصيب التشتت ذهنك أو صلاتك، لأنك بغير الصلاة المستمرة لا تقدر أن تقترب من الله. أمّا إذا اشغلت ذهنك بأمر ما بعد تعبه في الصلاة فإنك تسبب له التشتت.

إن الدموع ولطم الرأس والتمرغ في الصلاة بحرارة من شأنها أن توقظ حدة الحلاوة في القلب وتجعله يتطاير نحو الله باختطاف ممدوح صارخاً: «ظمئت نفسي إلى الله إلى الإله الحي، متى سآتي إليك وأرى وجهك؟» (مز ٤١: ٣). إن من يشرب من هذه الخمر ثم يحرم منها، يستطيع أن يشعر بالتعاسة التي خيّمت عليه أكثر بكثير من الذي لم يتذوقها.

ما أقبح الظمأ إلى رؤية الناس والتحدث إليهم للعائشين في السكينة. إنه،

أيها الإخوة ، أقبح من مغادرتها بكثير . فكما أن الجليد إذا سقط بقوة على رؤوس النباتات النضرة يجففها ويتلفها ، هكذا تجفف الأحاديث مع الناس ، مهما كانت قصيرة ومفيدة ، أزهار الفضائل المفرعة حديثاً في ربوع السكينة والتي تحيط ببساطة ونعومة بنبتة النفس المغروسة على مياه التوبة . وإذاً فإن الأحاديث مع الناس تتلف جذور الذهن التي بدأت تفرع نبات الفضائل . فإذا كان الحديث يؤذي نفوس الرهبان القادرين على ضبط ذواتهم والذين أصبحت عيوبهم صغيرة فكم بالأحرى سيؤذي نفوس الرهبان الأميين والجهلاء ، حتى لا أقول الدنيويين . لأنه كما أن الإنسان الشريف المكرم إذا سكر ونسي نسبه ، يهان منصبه وتنتهك كرامته بسبب أقواله المستغربة المتولدة من الخمر ، هكذا عفة النفس ، فإنها تعكّر برؤية الناس وأحاديثهم ، فينسى الراهب طريقة حفظها ، ويمحي من ذهنه مفهوم هدف الإرادة ، وينزع منه أساس أحواله الروحية الممدوحة .

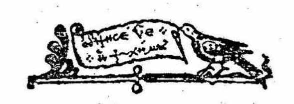
إن الأحاديث وحب الظهور تجربتان للعائش في السكينة ومجرد الاقتراب منهما بغية الرؤية أو السمع يكفي لتبريد وتعكير ذهنه وتشويش الأمور الإلهية في داخله . فإذا كانت هذه البرهة القصيرة تستطيع أن تسبب للراهب العفيف ضرراً كهذا فما بالك باللقاءات المستمرة والعوائق المزمنة . إن البخار الذي يصعد من البطن إلى العقل يمنع الفكر من قبول المعرفة الإلهية ويغطيه مثلما يغطي الضباب المتصاعد من الأرض الرطبة الفلك . فالمتكبر لا يعلم انه يسير في الظلام وانه يجهل معنى الحكمة . وكيف سيعرف ذلك ما دام موجود في الظلام؟ إن فكره المظلم يستكبر على الجميع مع أنه أحقر الكل وأضعفهم ولا يقدر أن يتعلم طريق الرب . لهذا يخفي الله عنه إرادته لأنه لا يريد أن يسير في طريق المتواضعين . أمّا إلهنا فله المجد إلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الرابعة عشرة

في التغيير والتحوّل الحاصلين للذين يسيرون في طريق السكينة التي رسمها الله

إن من يوطن النفس على العيش في السكينة ، يجب أن يكون مستعداً لإتمام أعمالها ونظامها طيلة حياته . حين يحصل تشويش داخلي يظلم النفس ويحرمها من التعزية الروحية مدة من الزمن ، وعندما يتبدد نور النعمة الداخلية بسبب غيوم الأهواء ، ويغطي الذهنَ ضبابٌ غير عادي ، كما يحدث عادة في نظام السكينة كما أعطي من النعمة الإلهية ، فلا يضطرب فكرك ولا تسلم أمرك بداعي الجهل بل اصبر وطالع في كتب المعلمين وارغم نفسك على الصلاة فتأتيك المعونة دون أن تعلم . لأنه كما أن الضباب الذي يغطي وجه الأرض ينقشع ببزوغ الشمس ، هكذا سحب الأهواء المحيطة بالنفس، تتبدد بالصلاة ، فيستضيء الذهن بنور التعزية والبهجة ، النور الذي يتولد في ذاكرتنا ، خاصة إذا توفرت له المادة من الكتاب المقدس واليقظة التي تصقل الذهن . إن المطالعة المستمرة في كتب القديسين تملأ النفس بالعجب غير المدرك وبالبهجة الإلهية . أمّا إلهنا فله المجد إلى دهر الدهور ، آمين .



المقالة الخامسة عشرة

في الهادئين : بداية معرفة خطواتهم في عمل السيرة في البحر اللامتناهي ، وفي إمكانية أملهم بقطف ثمار تعبهم

لا تشك فيما سأقوله لك ولا تسخر من أقوالي السابقة كإنسان حقير ، لأن الذين سلّموني إياها هم على حق . والحق أقول لك بهذه الأقوال وبغيرها .

إذا لم تبلغ مرحلة الدموع فلا تظن أنك حققت شيئاً في عمل سيرتك وإن استطعت أن تتعلق برموش عينيك ، لأن خفاياك[1] لا تزال تخدم أمور العالم أي أن سلوكك شبيه بسلوك أهل الدنيا ولا تزال أعمال الله تتم من خلال الإنسان الخارجي . أمّا الإنسان الداخلي فلا يزال عقيماً ، لأن ثماره لا تبدأ إلاّ بالدموع . إذا بلغت إلى بلد الدموع ، فاعلم أن ذهنك قد خرج من أسر هذا العالم وثبّت قدميه في طريق الدهر الجديد وابتدأ يتنسم هواءه الجديد العجيب . وهكذا تبدأ الدموع بالانهمار لأن ولادة الطفل الروحي قد حانت . وتسرع النعمة الإلهية ، أم كل شيء ، لتطبع في النفس بحال سرية ، الصورة الشريفة التي تؤهلها لمشاهدة نور الدهر الآتي . ومتى حان وقت الولادة تبدأ أمور ذلك الدهر بالارتكاض داخل الذهن كما يرتكض الجنين في بطن أمه حيث يتغذى . وفي هذه الحالة ، إذا لم يتحمل الذهن ما يحصل لأنه لم يتعوّد عليه ، فإنه يثير الجسد نحو بكاء ممزوج بحلاوة العسل . وبمقدار ما يتغذى الطفل من الداخل تزداد الدموع غزارة . إن رتبة هذه الدموع تختلف عن الدموع التي تحصل للهادئين في فترات متقطعة وتكون تعزية لهم لأنهم يعيشون في السكينة مع الله ، وتفتقدهم أثناء المشاهدة أو المطالعة أو في الصلاة والابتهال . إن رتبة الدموع التي أتكلم عليها هنا لا تفارق الباكي لا في الليل ولا في النهار .

---

(١) الحواس الداخلية .

إن حقيقة أحوال الدموع تتم في السكينة حيث تتحوّل عينا الانسان إلى نبع ماء خلال سنتين أو أكثر ، ثم يدخل إلى سلام الأفكار ، ومنه إلى الراحة التي تحدّث عنها القديس بولس وذلك بمقدار ما تستوعبه الطبيعة (عب ٤ : ٣) . وبالراحة يبدأ الذهن بمعاينة الأسرار . ثم يُعْلِنُ له الروحُ القدس أسرار السمويات ، فيسكن الله فيه محركاً ثمر الروح . بهذا يعي الراهب بطريقة غامضة ان الطبيعة الداخلية تتقبل التغيير الآتي في تجديد الأشياء كلها .

لقد كتبت هذه الأمور لأتذكرها أنا أولاً وليتذكرها كل من يقرأ هذا الكتاب . ولقد نلتها من تأمل الكتاب المقدس ومن أفواه تقول الحقيقة ، ومن خبرتي الضئيلة ، حتى أنال المعونة بصلوات الذين سيكسبون منها فائدة ، لأن التعب الذي بذلته في سبيلها ليس بقليل .

واسمع ما أقوله لك أخيراً ، وقد تعلمته من فم غير كاذب : عندما تلج وطن سلام الأفكار ستجف دموعك الغزيرة ثم تبدأ بالإنسكاب باعتدال وفي الأوقات المؤاتية . هذه هي ، بإيجاز ، الحقيقة الصادقة التي تؤمن بها الكنيسة .



المقالة السادسة عشرة

في حالات الفضائل

إن النسك (الرياضة الروحية Askisis) هو أم التقديس ، منه يتولد التذوق الأول لمعرفة أسرار المسيح ، وهذا التذوق يدعى الرتبة الأولى لمعرفة الروح . لا ينخدعنّ أحد ويتخيلنّ أن هذا سحر لأن النفس الدنسة لا تستطيع الصعود إلى الملكوت الطاهر ولا الإتحاد بأرواح القديسين . توّج جمال عفتك بالدموع والأصوام والتوحد في السكينة . إن قليلاً من الضيق خير من إتمام عمل كبير خال من الشدّة ، لأن تحمل الضيق ، طوعاً وبمحبة ، يبرز صدق الإيمان . أمّا عمل الراحة فيصير بالضمير الفاسد . لقد امتُحن القديسون بالضيقات لا بالراحة ، لأن العمل الصائر بدون تعب هو منطق أهل الدنيا الذين يعملون الإحسان ظاهرياً ولا ينتفعون به شيئاً (متى ٦ : ٤) . أمّا أنت ، أيها المجاهد ، يا من تقتدي بآلام المسيح فجاهد في نفسك لتستحق تذوق مجده . لأننا إذا تألمنا معه فسنمجد معه أيضاً ، ولا يتمجد الذهن مع يسوع إلاّ بتألم الجسد من أجله . من يحتقر المجد البشري يؤهَّل لمجد الله بالجسد وبالنفس معاً . إن مجد الجسد هو طاعة الله بتعقل[1] ، أمّا مجد الذهن فهو مشاهدة الله الحقيقية . الطاعة مزدوجة : بالعمل وبالتعبيرات ، لأنه عندما يتألم الجسد يتألم القلب أيضاً . إذا كنت لا تعرف الله فلا يمكنك أن تحبه ، ولا يمكنك أن تحبه إذا لم تشاهده . إن مشاهدة الله تحصل من معرفتنا له ، فالمعرفة تسبق المشاهدة .

† صلاة: أهّلني يا رب أن أعرفك وأحبك ، لا بالمعرفة الكامنة في تشتت الذهن أو

(١) الدليل على أن الطاعة سبب المجد واضح من أقوال مخلصنا يسوع المسيح التي يشهد لها الرسول بولس في رسالته الى فيلبي (٢ : ٨). أمّا طاعة الله بتعقل فتعني ، أمّا «مجد الجسد خضوع لله »وأمّا الطاعة تأتي بالتعقل أي بالعقل ، لأن ذوي العقول السليمة والكاملة ، البعيدة عن اضطرابات الأهواء هم الذين يطيعون الوصايا الالهية . وقد قال داود المرنم أيضاً : « فهمني فأتعلم وصاياك » .

الصائرة بالخبرة ، بل بتلك المعرفة التي بها يراك الذهن ويمجّد طبيعتك ، والتي تسلبه حس الدنيا .
أهّلني أن أتحرر من إرادتي التي تولّد لي التخيلات ، لكي أراك على الدوام رؤية تفوق الطبيعة ، من خلال ذهني المتحرر من الأفكار المتنوعة التي رفعتها على الصليب رغماً عنها .
زد محبتك فيّ لكي أترك العالم منجذباً بعشقك . حرّكني لأدرك تواضعك الذي تصرفت بحسبه حين كنتَ في العالم بالجسد الذي اتخذته من أعضائنا بواسطة العذراء القديسة مريم ، حتى إذا ما تذكرت تواضعك على الدوام أستطيع أن أتقبل حقارة طبيعتي بلذة .

هناك طريقتان للصعود على الصليب : الأولى صلب الجسد ، والثانية الارتقاء الى المشاهدة (الثاوريا). فالأولى تتم بالتحرر من الأهواء ، والثانية بفعل الروح القدس . لا يقدر الذهن أن يطيع ما لم يخضع له الجسد أولاً . فمملكة الذهن كامنة في صلب الجسد ، ولا يقدر أن يطيع الله إذا لم تخضع له الحرية أولاً .
صعب على الإنسان أن يرتقي إلى العلاء إذا بقي مبتدئاً وعمره كعمر الطفل . يقول سفر الجامعة : « ويل لك أيتها المدينة إذا كان ملكك شاباً » (جا ١٠ : ١٦) . من يخضع ذاته لله لن يكون بعيداً عن إخضاع الكل له . ومن يعرف نفسه تعطى له معرفة الكل ، لأن معرفة الذات هي ملء معرفة الكل . بطاعتك يخضع الكل لك . عندما يسود التواضع فيك تخضع نفسك لك ، ومعها يخضع الكل ، وعندئذ ينبع سلام الله في قلبك . أمّا إذا بقيت غريباً عن التواضع ، فلست عرضة للأهواء وحسب ، بل للنوائب أيضاً . فلا تكف يا رب أن تدعونا إلى التواضع ، إذا لم نتواضع بالحقيقة . إن التواضع الحقيقي وليد المعرفة ، والمعرفة الحقيقية وليدة التجارب .

المقالة السابعة عشرة

في تفسير حالات الفضيلة و في قوة وميزة كل منها

إن الفضيلة الجسدية الصائرة في السكينة تنقي الجسد من مادة الأهواء . أمّا فضيلة الذهن فتخلّص النفس من الهواجس الغليظة السمجة ، حتى لا تفكر بها بدافع الهوى بل تواظب على مشاهدتها الذاتية[1] . هذه المشاهدة تساعدها على إفراغ الذهن وتدعى المشاهدة اللاهيولية التي هي الفضيلة بعينها ، لأنها ترفع الذهن عن الأرضيات وتقرّبه من مشاهدة الروح الأولى ، وتوحده بالله وبرؤية مجد الذي لا يوصف ، وتجعله يفكر بمعاني عظمة الله وتفصله عن هذا العالم وعن إحساسه به . هذه الحالة تثبتنا في الرجاء الذي أُعدّ لنا وتعطينا يقيناً به . هذه هي الثقة التي تكلم عنها بولس (غلا ٥ : ٨) أي اليقين الذي يبتهج به الذهن عقلياً من جرّاء الرجاء الموعودون به . فما هي هذه الأشياء ؟ وما هي حالة كل منها ؟ فاسمع :

إنها السيرة الجسدية التي تتم بحسب الله ، وهي تتم بممارسة أعمال الفضيلة الظاهرة بغية تنقية الجسد . هذه الأعمال تساعد الراهب في تنقية جسده من الأدناس . أمّا سيرة الذهن فهي عمل القلب الذي يتم بتذكر الدينونة بدون انقطاع ـ أي بعدل الله وأحكامه ـ وهي أيضاً صلاة القلب المستمرة وتذكر عناية الله واهتمامه بالعالم فردياً وجماعياً ، وهي الحفظ من الأهواء والوقاية منها ، ومنعها من التسرب إلى المكان السري الروحي . هذا هو عمل القلب . إنه يعرف أيضاً بسيرة الذهن ويدعى عملاً نفسياً ، به يصقل القلب ويفصل عن شركة الحياة الزائلة التي بخلاف الطبيعة . وهكذا يبدأ بالإدراك فيتأمل في المخلوقات المحسوسة التي

---

(١) عندما تتنقى النفس تصبح مشاهدتها نقية وتعاين الأشياء بمنظار رؤيتها الداخلية الأصيلة وليس بدافع ميلها الخارجي المتأثر بالهوى.

خلقت من أجل حاجة الجسد ونموه وكيف يأخذ الجسد منها قوة عناصره الاربعة[1] .

أمّا السيرة الروحية فهي العمل بدون اشتراك الحواس الذي كتب عنه الآباء وقالوا إن أذهان القديسين عندما تمارس هذا الزهد ، تنفصل عنها الرؤية الأقنومية[2] وتزول منها الكثافة الجسدية وتتحول مشاهدتها إلى مشاهدة عقلية ثم يسهل الإرتقاء إلى معرفة السيرة الرهبانية التي تتصف بكل وضوح بالعجب أمام الله . هذه هي الحالة العظمى للخيرات المستقبلة التي تمنحها لنا الحريةُ الأزلية في الحياة بعد الموت ، حيث لن تتوقف الطبيعة البشرية عن العجب من الله ، بسبب توقفها كلياً عن التفكير بالمخلوقات ، لأنه لو كان في الله شيء شبيه بالمخلوقات لأخذ الذهن يميل تارة إلى الله وطوراً إلى شبيهه ، فجمال المخلوقات ، كل المخلوقات ، سيكون في التجديد المستقبلي للعالم أدنى من جمال الله بكثير . فهل يقدر الذهن في مثل تلك الحال أن يبتعد عن مشاهدة الجمال الإلهي ؟ هل يقدر أن يحزنه الموت أو ثقل الجسد أو تذكر الأهل أو حاجات الطبيعة أو المصائب أو المشادات أو التشتت المفاجيء أو تقصي الطبيعة أو تراكم العناصر أو جدال مع انسان آخر أو ضجر أو تعب جسدي شديد ؟ كلا . إن هذه الأمور التي هي من نتاج هذا العالم ستزول كلها في ذلك الدهر عندما يزول قناع الأهواء (الجسد) عن عيني الذهن ويشاهد مجد الله بذهول . لو لم يضع الله حداً للإنسان في هذه الأمور - أي حداً لمشاهدته من خلال الكائنات - لظل سابحاً فيها، ولو سمح له أن يتمتع بها طيلة حياته لما استطاع الإبتعاد عن مشاهدتها . فإذا كانت هذه حال الأمور هنا فكيف ستكون هناك ، حيث لا وجود للأشياء الوسيطة وحيث الفضيلة لا نهاية لها ؟ يا للعجب كيف أننا من خلال الأشياء نستطيع الولوج إلى المساكن السماوية إذا كنا أهلاً لها في حياتنا !

فهل يستطيع الذهن إذاً أن يخرج من تلك المشاهدة العجيبة الإلهية ويبتعد عنها منشغلاً بأمور أخرى؟ ويل لنا لأننا لا نعرف ماهية نفوسنا ، ولا نعي السيرة التي دعينا إليها ، ولا ندرك مدى ضعف الحياة ولا أحوال العائشين فيها ، ولا

(١) الأرض الغذاء والماء والهواء والحرارة.
(٢) الرؤية الأقنومية هي الرؤية بالحس أي بالجسد .

شدائد هذه الدنيا ، ولا هذا العالم نفسه ، ولا شروره ، بل نعتبر تعزياته أمراً مهماً .

صلاة: يا أيها المسيح الإله ، القدير وحدك ، طوبى لمن وضع آماله في قلبه فأتت معونته منك . أنت يا رب حوّل وجهنا عن هذا العالم وأمله إلى شوقك لكي نعاينه كما هو ، فلا نثق بالظل كأنه حقيقة . فإذا جددتنا يا رب جدد نشاط ذهننا قبل الموت لكي نعرف ساعة الخروج وكيفية دخولنا وخروجنا من هذا العالم ، فنتمم أولاً العمل الذي دعينا اليه في هذه الحياة حسب إرادتك ثم نرجو بفكر مليء بالثقة قبول العظائم التي أعدتها لنا محبتك في أوان التجديد الثاني حسب مواعيد الكتاب ، هذه العظائم التي يبقى ذكرها محفوظاً بالإيمان في الأسرار .

في تطهير الجسد والنفس والذهن

تنقية الجسد تعني تطهيره من الأدناس الجسدية . وتنقية النفس هي التحرر من الأهواء الخفية الكامنة في الذهن . أمّا تنقية الذهن فتكمن في إعلان الأسرار ، حيث يتنقى من كل ما يقع تحت الحس بطريقة هيولية (مادية) . فالأولاد رغم أنهم أنقياء بالجسد وخالون من الهوى بالنفس ، ليسوا أنقياء بالذهن ، لأن طهارة الذهن هي الإستمرار التام في المشاهدة السماوية التي تعمل خارج الحواس بتأثير القوة الروحية لذلك العالم السماوي المجمّل بالعجائب المدهشة التي لا تحصى والتي تقوم بخدمتها اللامنظورة القوات العقلية داخل الإعلانات الإلهية المستمرة والمتغيرة بصورة دائمة .

المقالة الثامنة عشـرة

في مقياس المعرفة ومقاييس الإيمان

ثمة معرفة تسبق الإيمان وأخرى تتولد منه . فالتي تسبقه تكون معرفة طبيعية أمّا المتولدة منه فهي معرفة روحية . المعرفة الطبيعية تميّز بين الخير والشر بالفطرة دون تعلّم ويكون تمييزها طبيعياً وقد غرسها الله في الطبيعة الناطقة وهي تزداد وتنمو بالتعلم ولا يخلو منها أحد . إن قوة هذه المعرفة الطبيعية الكامنة في النفس الناطقة تظهر في التمييز بين الخير والشر المتحركين باستمرار .

المحرومون من هذا التمييز هم أدنى من الطبيعة الناطقة ، أمّا الذين يتحلّون به فهم في حالة جيدة طبيعية ولا ينقصهم شيء مما حبا به الله الطبيعة إكراماً لمخلوقاته الناطقة . الذين فقدوا هذا التمييز يعيّرهم النبي قائلاً : « كان الإنسان في كرامة فلم يفهم فماثل البهائم » (مز ٤٨ : ١٣) . كرامة الطبيعة الناطقة هي التمييز بين الخير والشر . أمّا من فقدوه فقد شبّههم ، بحق ، بالبهائم التي لا فهم لها ولا نطق ولا تمييز . بالتمييز يمكننا إيجاد طريق الله وهذه هي المعرفة الطبيعية التي تسبق الإيمان ، بها نقدر أن نميّز الخير من الشر وأن نقبل الإيمان . إن قوة الطبيعة تشهد على أنه ينبغي للإنسان أن يؤمن بالذي أخرجها إلى الوجود ، وأن يؤمن أيضاً بأقوال وصاياه ويعمل بها . ومتى بدأ العمل بها وتقدم في تطبيقها تتولد فيه المعرفة الروحية التي قلنا إنها تتولد من الإيمان .

إن المعرفة الطبيعية تقنعنا بأن نؤمن بالله الذي أبدع الأشياء كلها . فإذا آمنا يتولد فينا خوف الله الذي يرغمنا على التوبة والعمل . وهكذا تعطى المعرفة الروحية للإنسان فيتذوق الأسرار ويولد فيه إيمان المشاهدة الحقيقية . إن المعرفة الروحية لا تتولد ببساطة من الإيمان السطحي الرخيص ، بل الإيمان هو الذي يلد خوف الله . ومع بداية فعل الخوف فينا تتولد المعرفة الروحية التي تحدّث عنها القديس يوحنا الذهبي الفم وسمّاها إعلان الخفيات قائلاً : « إذا كانت إرادة

الانسان مسيَّرة بخوف الله وتفكيره مستقيماً ينال عندئذ إعلان الخفيات » .

إن مخافة الله لا تلد المعرفة الروحية لأنه يستحيل أن يتولد من الطبيعة شيء ليس موجوداً فيها ، وإنما تعطى هذه المعرفة كهبة إلهية من خلال خوف الله . فإذا دققت في عمل الخوف تجد أن التوبة هي المعرفة الروحية التي ذكرناها ، والتي نلناها في المعمودية كعربون ونناها الآن كهبة من خلال خوف الله . المعرفة الروحية هي حس المستورات ، فعندما يحصل الإنسان على الإدراك الحسي لهذه الأمور اللامنظورة والفائقة السمو ، ينال هوية المعرفة الروحية . ويتولد من هذا الحس إيمان آخر ، لا يناقض الإيمان الأول بل يؤكده ، ويسمّون هذا الايمان إيمان المشاهدة ، حيث ينتهي عنده مجال السمع ويبدأ مجال المشاهدة التي هي أكثر ضمانة منه .

إن هذه المواهب تتم كلها بفعل المعرفة الطبيعية التي تميّز الخير من الشر ، وهي البذار الصالح للفضيلة ، فإذا طمرناها بإرادتنا المحبة للذة نخسرها كلها ، ويلحق بالمعرفة الطبيعية وخز دائم في الضمير وتذكر غير منقطع للموت ونوع من الهمّ يولّد عذاباً مدى الحياة . ثم يحصل تحوّل ويبدأ الحزن والعبوس وخوف الله والحياء الطبيعي والحزن على الخطايا السابقة والنشاط الجدّي والتأمل في السبيل العام (الموت) والإهتمام بتأمين لوازمه والتضرع إلى الله بنوح لنجتاز حسناً من هذا الباب الذي هو معبر الطبيعة البشرية برمتها ، ومن ثم الزهد بالدنيا والجهاد الكثير في سبيل الفضيلة . هذه الأمور توجد كلها ضمن حدود المعرفة الطبيعية . فليقارن اذن كل واحد أعماله بها ، لأنه عندما يجد نفسه في وسطها يعلم أنه يسير في الطريق الطبيعية . وعندما يتجاوزها ويبلغ إلى المحبة يكون قد فاق حدود الطبيعة ، ويفارقه الجهاد والخوف والتعب والشقاء في كل شيء . هذه الأمور الأخيرة كلها هي وليدة المعرفة الطبيعية وهي ستبقى في نفوسنا إذا لم نطمر المعرفة بإرادتنا المحبة للذة ، وسنبقى عائشين فيها حتى تحررنا منها المحبة . إذن فليفحص كل واحد نفسه ويقارنها بما ذكرنا ليعرف إذا كان يسير في الأمور المخالفة للطبيعة أو في الأمور التي بحسب الطبيعة أو في الأمور التي تفوق الطبيعة . فإذا لم يكن في الثالثة ولا في الثانية فهو إذاً مرمي في تلك التي بخلاف الطبيعة .

أمّا إلهنا فله المجد إلى دهر الداهرين ، آمين .

المقالة التاسعة عشرة

في الإيمان والتواضع

أتريد أن تجد الحياة أيها الإنسان الحقير؟ احفظ الإيمان والتواضع داخل نفسك، لأنك بهما تجد الرحمة والمعونة وتسمع أقوالاً إلهية في قلبك، ويرافقك ملاكك الحارس في الظاهر وفي الخفاء. فإذا أردت أن تقتني هذه الأمور فاسلك أمام الله ببساطة لا بمعرفة. ميزة الإيمان البساطة، أمّا التقصي والمعارضة فهما ميّزتا التكبّر الذي يبعد الإنسان عن الله.

عندما تقترب من الله بالصلاة كن بفكرك مثل النملة وزحافات الأرض والدودة والصبي الألثغ ولا تتكلم أمامه عن أي شيء بمعرفة. اقترب من الله بفكر الطفل، وسر أمامه لكي تستحق عنايته الأبوية التي تشبه عناية الآباء ببنيهم. قيل: «الرب يحفظ الأطفال» (مز ١١٤: ٦). الطفل يقترب من الحية فيمسكها ويضعها على عنقه ولا تؤذيه. يسير عارياً في أوان الشتاء بينما الآخرون يلبسون ويتلحفون ومع ذلك يدخل البرد أعضاءهم، أمّا هو فيجلس في البرد والجليد والصقيع ولا يتألم، لأن جسده البريء متسربل بلباس آخر غير منظور منحته إياه العناية الإلهية التي تحفظ أعضاءه النضرة فلا يمسها سوء.

هل آمنت أن هناك عناية خفية تنقذ الجسد الناعم المعرض للأذى بسهولة، بسبب ضعفه ولين عرقه، وتحميه من الضربات عندما يحيط به المضادون؟ واعلم أيضاً أنه حينما يقال إن الرب يحفظ الأطفال فلا يقصد الأطفال بالجسد وحسب بل أولئك الحكماء الذين في العالم أيضاً، الذين تخلوا عن معرفتهم واتخذوا الحكمة الوافرة الخفية سنداً لهم وصاروا أطفالاً بإرادتهم وتلقنوا الحكمة التي لا تُقتبس بالوسائل العلمية. وقد تكلم بولس الإلهي بصدق إذ قال: «من كان منكم يعتقد أنه رجل حكيم بمقاييس هذه الدنيا، فليكن أحمق ليصير حكيماً»

(١ كور ٣ : ١٨). فاطلب من الله أن يمنحك البلوغ إلى مستوى الإيمان . وإذا شعرت بطراوته في نفسك فاعلم أن لا شيء يمنعك عن المسيح ، لكنك معرّض للوقوع أسير الأشياء الأرضية إذا صعب عليك أن تنسى هذا العالم السقيم وذكرياته .

صلِّ بلا ملل وتضرع بحرارة واطلب باجتهاد كثير حتى تنال الحماية ، واحذر أن تتراخى فيما بعد ، واعلم أنك ستستحقها إذا أرغمت ذاتك على وضع همك لدى الله بإيمان واستبدلت عنايتك الذاتية بعنايته . وعندما يرى أنك قد آمنت به بفكر طاهر أكثر من إيمانك بنفسك ، وأنك أرغمت ذاتك على الرجاء به أكثر من رجائك بنفسك فسيظللك بتلك القوة ، وتدرك عندئذ إدراكاً حسياً أكيداً ما حلّ فيك ، أي تلك القوة التي يحس بها كثيرون فيعبرون وسط النار دون وجل ويمشون على المياه دون خوف . لأن الإيمان يقوّي حواس النفس ويجعلها تحس بوجود كائن غير منظور يحثها على عدم الإكتراث للمشاهد المخيفة والمشاهد التي لا تستطيع الحواس أن تتحملها .

لا تعتقد أن كل من يملك المعرفة الدنيوية يستطيع اقتناء المعرفة الروحية . هذا مستحيل كما يستحيل على كل الذين يتمرسون بها تمرساً دنيوياً أن يستشعروا بها بواسطة الحواس . فإذا شاؤوا الإقتراب منها والوقوف إزاء عقلها الذي يشبه عقل الطفل ، قبل أن ينكروا المعرفة الدنيوية وكل ما يتعلق بها من مناهج معقدة ، فلن يستطيعوا ، لأن الإعتياد على المعرفة الدنيوية والتفكير المتبع فيها يشكلان مانعاً كبيراً أمامهم عليهم أن يطرحوه جانباً . إن معرفة الروح بسيطة ، ولا يمكنها أن تسطع في الأفكار الدنيوية (النفسية) . فإذا لم يتحرر الذهن من الأفكار الكثيرة ويبلغ إلى بساطة الطهارة ، فلن يستطيع أن يتذوق المعرفة الروحية .

هذه هي رتبة المعرفة التي تمكن الإنسان من تذوق نعيم الحياة المستقبلة وتجعله يستهجن الأفكار الكثيرة . أمّا المعرفة الدنيوية (النفسية) فلا تستطيع معرفة شيء مما يمكن للذهن البسيط أن يدركه بسهولة ، ما لم تستخدم طرقاً كثيرة في التفكير ، كما جاء في الانجيل : « إن كنتم لا تتغيرون وتصيرون مثل الأطفال ، فلن تدخلوا ملكوت السموات » (متى ١٨ : ٣). أمّا إذا كان هناك كثيرون ممن لا

يستطيعون أن يبلغوا هذه البساطة ، فإن أملنا ثابت بأن أعمالهم الصالحة ستكفل لهم مكاناً في ملكوت السموات ، كما يستدل من تطويبات الأناجيل حيث يبيّن لنا الرب أن الطرق كثيرة والسبل متنوعة ، فكل طريق يسير فيه الإنسان ويبلغ مستوياته كلها ، متجهاً نحو الله ، سيقوده حتماً إلى ملكوت السموات الذي يفتح الله أبوابه على مصراعيها له ولأمثاله .

لا يقدر أحد أن يقبل هذه المعرفة الروحية ويدرك بالتالي نعيم ملكوت السموات المدعو مشاهدة روحية ، ما لم يرجع ويصبح مثل الطفل . وهذه المشاهدة ليست كائنة في أعمال الفكر ، بل يمكن تذوقها بالنعمة ، ولا يمكن أن يسمع بها غير الإنسان الطاهر ، لأن اقتناءها لا يحصل بالعلم . فإذا بلغت ، يا بني ، إلى طهارة القلب بالإيمان ، تلك الطهارة التي تتم في السكينة والبعد عن الناس ، ونسيت معرفة هذا العالم ، لدرجة ان تفقدَ إحساسك بها ، فستصادف أمامك المعرفة الروحية فجأة ودون أن تبحث عنها ، كما قال الرب ليعقوب : « اقم عموداً وصب عليه زيتاً تجد كنزاً في حضنك » (تك ٢٨ : ١٨) . أمّا إذا تقيّدت بالمعرفة الدنيوية (النفسية) فلا بد أن أقول لك إنه لأسهل أن تُحل من العقالات الحديدية من أن تُحل منها ، وإنك لستَ بعيداً عن فخاخ الضلال ، ولن تحصل على الدالة والثقة بالرب ، وإنك ستظل سائراً على حد السيف بصورة دائمة ، ويستحيل عليك أن تتخلص من الحزن . اعترف أمام الله وتضرع إليه ببساطة حتى تسلك أمامه سيرة صالحة ، وتصبح بدون هم ، لأنه كما أن الظل يتبع الجسد هكذا الرحمة تتبع التواضع . فإذا كنت تريد أن تسير على هذه الطريق فلا تمدّ يداً للأفكار السقيمة . وإذا أحاطت بك كل الأضرار والشرور والمخاطر التي تسبب لك الرعب فلا تهتم بها ولا تحسب لها حساباً .

إذا آمنت بالرب القادر على حفظك فلا تهتم بل قل لنفسك : إن الذي سلّمته ذاتي يكفيني في كل شيء ، ولم أعد أنا المدبر لحياتي بل هو . وعندئذ تشاهد عجائب الله بالفعل وترى أنه قريب دوماً لانقاذ الذين يخافونه ، وأن عنايته تشملهم دائماً بحال غير منظورة . يجب ألاّ تشك في وجود حارسك الكائن معك بحجة أنه لا يُرى بالأعين الجسدية ، مع العلم أنه يمكن أن يُعْلَن للأعين الجسدية بغية تشجيعك .

عندما يتجرد الإنسان من كل معونة منظورة وكل رجاء بشري ويتبع الله بإيمان وقلب نقي تتبعه النعمة حالاً وتكشف له قوتها بمساعدات متنوعة . تريه معونتها أولاً من خلال الأشياء الظاهرة التي يحتاجها الجسد ، حتى يتمكن من إدراك قوة عناية الله به بشكل أفضل ويتأكد من الخفيات بإدراك الظاهرات ، مما يتوافق مع طفولة عقله وسلوكه البسيط . وهذا يعني أن حاجته تهيأ دون أن يهتم بها ، كما أن المعونة تنقذه من أضرار كثيرة مداهمة ، وتقيه أحيانا كثيرة من ظروف خطرة يجهلها وتقصيها عنه بأعجوبة كبيرة دون أن يحس بها ، وتصونه كما تصون الدجاجة فراخها ساترة إياها بجناحيها كي لا يمسها ضرر ، وتريه بعينيه كيف أنه كان موشكاً على الهلاك لكنه مع ذلك حفظ وبقي بغير أذى .

ولا تكتفي نعمة المعونة بالظاهرات بل تدرِّبه أيضاً في الأمور الخفية وتكشف له مكائد الأفكار والمعاني الصعبة غير المدركة . فيسهل عليه إدراكها ومعرفة تسلسلها وكشف خداعها . ويعرف أيضاً الأفكار التي تلتصق به ، وكيف أنها تتوالد من بعضها وتهلك النفس ، فتتخذل أمام عينيه كل مكائد الأبالسة وقواعد أفكارها وتمنحه فهماً لمعرفة المستقبلات ، وتشرق في قلبه البسيط نوراً خفياً لإدراك قوة معاني الأفكار الدقيقة في كل شيء ، وتريه كما بأصبع المصائب التي كانت مزمعة أن تحل به لو لم يستدركها . وهكذا يعي أن كل شيء ، كبيراً كان أو صغيراً ، يجب أن يطلب من خالقه بالصلاة .

ومتى ثبّتت النعمة الإلهية عقله في هذه الأمور كلها وجعلته يثق بالله ، يبدأ في الدخول في التجارب التي تبدأ قليلة ثم يسمح الله أن تتكاثر إذا كان باستطاعته احتمال قوتها . وفي أثناء هذه التجارب تأتيه المعونة الإلهية بصورة حسية لتشجيعه حتى إذا تروض بها تدريجياً يقتني الحكمة متكلاً على الله ومزدرياً أعدائه . لأنه بدون التجارب لا يمكن لأحد أن يقتني الحكمة أثناء الحروب الروحية ، ولا أن يعرف من الذي يعتني به ، ولا أن يحس بإلهه ويتوطد في الإيمان به سرياً . هذه كلها يحس بها بسبب قوة التجربة الآتية عليه .

أمّا إذا رأت النعمة الإلهية ان الانسان أخذ يتعظم بفكره ويتكبر ، فإنها تسمح بدخوله في التجارب فوراً وبشكل أقوى وأشد لكي يعرف ضعفه ويلجأ إلى

الله بتواضع . وبذلك يبلغ الإنسان مرتبة الرجل الكامل ويرتفع إلى المحبة بالرجاء والإيمان بابن الله . إن محبة الله للإنسان عجيبة ، فهو لا يظهر قوته التي تخلص الإنسان إلاّ عندما يكون وسط التجارب التي تقطع منه الرجاء . إن الانسان لا يقدر إطلاقاً أن يعرف قوة الله وهو في الراحة والرفاهية . والله لا يظهر قوته بصورة حسية إلا في مكان السكينة والقفر ، وفى أمكنة خالية من الحديث والضوضاء التي يحدثها الناس .

لا تستغرب ظهور الشدائد الصعبة والقوية المحيطة بك من كل الجوانب عند بداية اكتساب الفضيلة، لأنها لا تُعَدّ فضيلة التي لا تُمتحن في الصعوبات . إن وجود الصعوبات تجعل الفضيلة فضيلة كما قال القديس يوحنا . أمّا الفضيلة التي تحصل بالراحة فممقوته . قال الراهب مرقص المغبوط : إن كل فضيلة تتم حسب وصية الروح تدعى صليباً . « فكل من أراد أن يحيا في المسيح يسوع حياة التقوى أصابه الإضطهاد » (٢ تيم ٣ : ١٢) ولقد قال : « من أراد أن يتبعني ، فلينكر نفسه ويحمل صليبه يتبعني » (مر ٨ : ٣٤) ، « فالذي يخسر حياته في سبيلي وسبيل البشارة يخلصها » (مر٨: ٣٥) . لهذا استدرك الأمر وتخلَّ عن الراحة وضَعْ الصليب أمامك لكي تأخذ الموت على عاتقك ، وادفع نفسك إلى السير وراءه .

إن الزهد هو من أشد الأمور وأقواها . إنه لا يعرف الغلبة لا من اليمين (المسرات) ولا من اليسار (المحزنات) . لا يوجد أكثر جرأة من الذي يصمم بفكره على قطع آماله من هذه الحياة ، فبهذا لا يتجاسر أحد من أعدائه على مقاومته ، ولا تستطيع شدة أن تردّه عن هدفه ، لأن الضيق على أنواعه أدنى من الموت بالنسبة لمن عزم على قبوله . إذا صممت على هذا العمل وعلى احتمال الحزن تستطيع أن تحقق ما تشتهيه في كل زمان ومكان ، وأن تصبح جريئاً ومتيقظاً في مقاومة الصعوبات ، فتزول منك الأوهام المجزعة والمرهبة المتولدة من الأفكار المشوشة من كثرة الراحة ، وتبدو لك المصاعب والمشاق التي تعترضك سهلة . وسترى أحياناً كثيرة أن تلك الأمور التي كنت تظنها مؤذية مفيدة لك ، وأنه لن يصادفك شيء مضر بعد .

أنت تعلم أن رجاء الراحة يبعد الناس دوماً عن تذكر الصالحات والفضائل ومقومات الأمور العظيمة، حتى أن الذين يعيشون حياة الجسد في هذا العالم لا يمكنهم أن يصلوا إلى تمام مرادهم إلاّ إذا وطنوا النفس على احتمال المصاعب. وبما أن الخبرة هي الشاهد على ذلك فلا ضرورة للإقناع بالكلام. منذ بداية الأجيال كلها لم يستطع شيء أن يجعل الناس ضعفاء أمام الغلبة ومحرومين من الأشياء السامية مثل رجاء الراحة، والانسان لا يزدري ملكوت السموات إلاّ لرجائه الزهيد بالراحة الدنيوية، ولا يعاني من هذا فقط بل هناك مصائب قاسية وتجارب شديدة تهاجم كل انسان يتمسك بإرادته ويسيّر أفكاره بها لأن رغباته ستتحكم به.

هل يجهل أحد أن الطيور لا تسقط في الفخ إلاّ إذا رجت الراحة ودنت منها؟ أفلا تعتقدون أن معرفتنا لا تنقص عن معرفة الطيور في الأمور الخفية، سواء كانت أشياء أم أحداثاً مخبأة أم أمكنة مجهولة أم أي شيء من الأشياء التي يتخذها الشيطان وسيلة ليخدعنا من البداية بحجة الراحة؟ لقد حدت قليلاً عن الهدف الذي حددته في بداية كلامي وهو أننا يجب أن نضع الضيق نصب أعيننا في كل عمل نباشر به في طريقنا المؤدية إلى الرب وأن نثبت برغبة نهاية هذا الضيق كما بدأ[1].

يزمع الانسان أن يقوم بأحد الأعمال من أجل الرب ولكنه يتساءل: هل هناك راحة في العمل الذي سأقوم به؟ هل يمكنني أن أتمه بسهولة ودون تعب؟ هل في الأمر ضيق يؤلم الجسد؟ ألا يعني هذا أننا نفتش عن الراحة في الأعلى وفي الاسفل؟ ما هذا الكلام أيها الانسان؟ تريد الصعود إلى السماء واقتناء ملكوتها والشركة مع الله والراحة المغبوطة والشركة مع الملائكة والحياة الأبدية، وتسأل ان كان في هذا الطريق عمل؟ يا للعجب! إن الذين يبتغون خيرات هذا العالم الزائل يغامرون بحياتهم عبر أمواج البحر الهائلة ويجتازون الطرق الصعبة بجرأة، ومع ذلك لا يقولون إن هناك مشاقاً أو حزناً في العمل الذي يريدون إنجازه، أمّا نحن فنتحدث عن الراحة في كل مكان. لكن إذا صممنا على اتباع طريق الصليب باستمرار فسندرك عندئذ أن الأحزان الأخرى أخف من أحزانه.[2]

---

(١) يجب أن يرافقنا الضيق من البداية الى النهاية.

(٢) حزن الصليب يقودنا إلى التضحية بالنفس من أجل محبة الله والقريب. («نفسي حزينة حتى الموت») بينما الأحزان التي تسببها الضيقات والتجارب هي أسهل من حزن الصليب.

إن من لا يثق بما ذكرت لا يمكنه الإنتصار في الحرب أو نيل الاكليل الزمني أو تحقيق رغبته بيده (حتى وإن كان جديراً بالمدح) أو القيام بخدمة أحد الأمور الإلهية أو تحقيق احدى الفضائل الممدوحة ، ما لم يمقت أعمال الضيق ويطرد عنه الفكر الذي يدفعه إلى الراحة التي تلد الإهمال والبطالة والخوف وتسبب الارتخاء .

عندما يكون الذهن غيوراً في الفضيلة فلن تتمكن الأعمال الغريبة الصعبة الطارئة ، ولا القوة الطبيعية المحدودة أن تتغلب على حواسه الظاهرة (النظر ، السمع ، الشم ، الذوق ، اللمس) . فعندما يتحرك الغضب الطبيعي مثلاً تُمقت الحياة الجسدية بما يفوق مقت النفايات . وعندما يحتدم القلب بغيرة الروح يتوقف الجسد عن الحزن في الشدائد وعن الجزع من المخاوف ، ويقف الذهن إلى جانبه محارباً كل التجارب ومقاوماً إياها بصلابة الفولاذ . أمّا نحن فلتكن غيرتنا كغيرة الروح كما يشاء يسوع ليطرد عنا كل إهمال يمكن أن يؤدي بعقولنا إلى التواني . إن الغيرة تلد الشجاعة وعزة النفس ونشاط الجسد . فهل للشياطين قوة قادرة على مقاومة النفس عندما تشتعل غيرتها الطبيعية العنيفة ؟ ويقال أيضاً إن الرغبة ابنة الغيرة ، وإن الغيرة عندما تبذل قوتها في سبيل العمل توطد النفس وتطرد عنها الخوف الناجم عن كل قوة مضادة لها . حتى أكاليل الإعتراف نفسها التي ينالها المجاهدون والشهداء أثناء صمودهم هي من عمل الغيرة والرغبة الناتجتين عن قوة الغضب الطبيعي الذي يرفع عنهم ألم الحزن الشديد أثناء العذابات . عسى أن يهبنا الله رغبة كهذه لنرضيه ، آمين .



الوشاح الذي ارتداه الخالق يكون قد ارتدى المسيح نفسه ، لأن الوشاح الذي ظهر به لخليقته وتصرف فيه ، أحب أن يُلبِسَه لانسانه الداخلي ويظهر به على عبيده الذين تشبه بهم ، فتزيّن به عوض لباس المجد والكرامة الخارجي . إن الخليقة الناطقة تسجد باكرام وصمت للانسان الذي تراه متشحاً بهذا الوشاح كما تسجد لسيدها الذي رأته يرتديه ويتصرف فيه . أيّ خليقة لا تحترم رؤ ية المتواضع ؟ إن تلك الرؤ ية الملأى بالقداسة ظلت ممقوتة عند الجميع حتى ظهور مجد التواضع الذي رأيناه وأشرقت عظمته أمام أعين العالم ، وأصبح مكرماً في كل مكان يُرى فيه . وبفضله أصبحت الخليقة أهلاً لرؤ ية خالقها وصانعها ، وصار من الصعب ، حتى على أعداء الحقيقة ، أن يحتقروا التواضع وإن كان صاحبه أفقر الخلائق إطلاقاً . فالذي يتعلمه ينال الكرامة كمن يحصل على الاكليل والبرفير .

المتواضع لا يبغضه ولا يوبخه ولا يحتقره أحد ، لأن سيده يحبه . يحب الجميع والجميع يحبونه ويشتهونه في كل مكان ، وحيثما وُجد ينظرون إليه كملاك نوراني ويقدمون له الاكرام. وإذا تكلم فالحكيم والمعلم يصمتان تاركين الكلام له . أعين الجميع تراقب فمه منتظرين الكلام الخارج منه . كل انسان يترجى أقواله كأنها أقوالُ الله . اقوالُه قصيرةً مثل أقوال الحكماء الصائبة . كلامه لذيذ في مسمع الحكماء أكثر من العسل في الحلق . فهو كإله عند الجميع وإن كان بسيطَ الكلام وزريَّ المنظر .

من يحتقر المتواضع ولا يعتبره انساناً حياً فكأنه يفتح فاه يجدف على الله . مهما احتقرته الخليقة علانية تبقى كرامته محفوظة . المتواضع يدنو من الوحوش الضارية وإذ تراه بأعينها تصبح أنيسة وتقترب منه كأنه سيدها وتهز رؤ وسها وتلحس يديه ورجليه ، لأنها تشم فيه تلك الرائحة التي كانت تنبعث من آدم قبل المعصية (عندما اجتمعت حوله في الفردوس وأطلق عليها أسماءها) والتي انتزعت منا ، غير أن يسوع جددها فينا وأعادها لنا بحضوره الذي عطّر الجنس البشري .

يقترب من الزحافات القاتلة ، فإذا لمسها تزول حالاً قساوتها المريرة القاتلة ، فيفركها بيده كالجرادة . يقترب من الناس فينظرون إليه كما الى الرب . حتى الشياطين تصبح بقربه مثل التراب رغم قوتها ومرارتها واستعلائها . شرُّها

يبطل ، حبائلُها تتمزق ومكائدُها تحبط .

لقد بيّنا عظمة التواضع الإلهي وقوته الخفية ، وسنحاول الآن تبيان هويته ومتى يصبح الإنسان أهلاً لقبوله بالكلية ، كما سنحاول تمييز الإنسان البسيط من الإنسان الذي استحق التواضع الحقيقي .

التواضع قوة خفية يحصل عليها القديسون الكاملون بعد تمام سيرتهم ، ولا تعطي النعمة هذه القوة إلاّ للكاملين في الفضيلة ، وبمقدار ما تستوعب الطبيعة البشرية . الفضيلة تشمل الكل في ذاتها ، فلا يمكن لأحد أن يعدّ متواضعاً بشكل اعتباطي ، لأن المتواضعين هم الذين استحقوا هذه الرتبة التي تكلمنا عنها .

إن المتواضع ليس ذلك الإنسان الرؤوف الهادىء الفهيم الوديع بطبيعته ، بل هو ذاك الذي بلغ إلى حالة التواضع . المتواضع في الحقيقة هو من يملك في سريرته شيئاً جديراً بالعظمة ولا يفاخر به بل يعتبر نفسه تراباً . والمتواضع أيضاً ليس ذلك الذي يتذلل ، بتذكر سقطاته وزلاته ، وينسحق قلبه ويتضع ذهنه التكبر ، وإن كان هذا العمل ممدوحاً ، لأن فكر الكبرياء لا يزال قائماً فيه ، ولم يحصل بالتالي على التواضع ، إنما يحاول الإقتراب منه بالوسائل المتنوعة . المتواضع الكامل هو الذي يكون بغنى عن الوسائل والأسباب العقلية في تواضعه . فهو الذي اقتنى التواضع بصورة كاملة طبيعية ، كمن يقتبل بدون جهد موهبة عظيمة تفوق كل خليقة وطبيعة ، ويرى ذاته مثل خاطىء وحقير ومرذول . وهو الذي يدخل إلى أسرار الطبائع الروحية كلها ، لأن كماله في الحكمة والدقة يفوق الخليقة ، ومع ذلك يعتبر نفسه جاهلاً ، وتكون هذه حالة قلبه دون أي تكلف .

سؤال : هل يمكن أن يغيّر الإنسان طبيعته ويصبح متواضعاً على هذا الشكل؟

لا تشكّ في ذلك . إن قوة الأسرار الموجودة في أعمال الفضائل هي التي تكمّل هذه الأمور فيه . وهي القوة عينها التي قبلها الرسل المغبوطون بشكل ناريّ (اع ١ : ٤) ومن أجلها أوصاهم المخلص ألاّ يبرحوا اورشليم حتى ينالوها من العلاء . أورشليم هي الفضيلة ، والقوة هي التواضع ، أمّا القوة التي من العلاء فهي

المعزي أي الروح القدس . وهذا ما قيل عنه في الكتاب الإلهي : إن الأسرار تعلن للمتواضعين . إن روح الاعلانات هذا ، الذي يكشف الأسرار لا يُؤهِّلُ لقبوله إلاّ المتواضعون . لقد قال أحد القديسين ان التواضع يكمِّل النفس بالرؤى الإلهية . فلا يتجاسرنَّ أحدٌ ويدّعي أنه قد بلغ مرتبة التواضع لمجردِ فكرٍ تخشعٍ يخطر بباله من وقت لآخر ، أو بسكب قليل من العبرات ، أو بصلاح سواء كان من طبيعته أم ناله بالجهاد ـ لأن الجهاد الذي يساعد على معرفة الأسرار بملئها يساعد على صيانة الفضائل أيضاً ـ أو بأية أعمال أخرى تشابهها ولها صلة بهذه الموهبة .

إن كمال التواضع هو أن يتغلب الانسان على الأرواح المضادة وألاّ يدع شيئاً من أعمال الفضائل دون أن يتمّمه ،ويكتسبه ، وأن ينتصر على الأعداء ويذلّل حصونها كلها بشخصه . ثم عليه أن يحس أن الروح قد قبل الموهبة كما يقول الرسول : « إن الروح يشهد مع أرواحنا » (رو ٨ : ١٦). طوبى لمن اقتنى التواضع لأنه يغمر حضن يسوع ويقبّله في كل لحظة.

أمّا إذا تساءل انسان : ماذا افعل لأقتني التواضع ، وكيف أصير أهلاً للحصول عليه ؟ فإنني بعدما غصبت نفسي وحسبت أنني ملكته وظننت أن الأفكار المعاكسة لا تجول في ذهني ، عدت وسقطت في اليأس من جديد .(١)

نجيب هذا المتسائل : « يكفي التلميذَ أن يكون مثل معلمه والخادمَ مثل سيده » (متى ١٠ : ٢٥) . أنظر إلى الذي أوصى بالتواضع وإلى الذي اقتناه ، وعاين الطريقة التي أتبعها للحصول عليه وتشبَّه به ، لأنه هو الذي قال : « إن سيد هذا العالم سيجيء ولا سلطان له عليّ » (يو ١٤ : ٣٠) . أرأيتَ كيف أنه بكمال الفضائل كلها يمكن اقتناء التواضع ؟ فلتكن فينا غيرةُ الذي أوصى : « للثعالب أوكار ، ولطيور السماء أعشاش ، أمّا ابن الانسان فلا يجد أين يسند رأسه »(متى ٨ : ٢٠) ، والذي مجّده جميع الذين بلغوا الكمال والقداسة ، في كافة الأجيال مع الآب الذي أرسله والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين ، آمين .

---

(١) اليأس هنا هو الرادع عن الكبرياء وليس الذي يقود إلى الانتحار والهلاك . إن الشيطان لا يترك فرصة إلا ويستغلها . فالمتواضعون بالحقيقة يتخذون اليأس سلاحاً ضد الشياطين كلما حاولت مدحهم .

المقالة الحادية والعشرون

في ما يفيد الإنسان في اقترابه من الله
وما يقدم له المساعدة بطريقة سرية
وما يقوده إلى التواضع

طوبى لمن يعرف ضعفه ، لأن هذه المعرفة تصبح أساساً وجذراً وبداية لكل صلاح . فعندما يعلم أحد بضعفه ويحس به إحساساً حقيقياً ، يضبط نفسه ويشد ارتخاءها ، هذا الإرتخاء الذي يشوّش المعرفة ، ويجعل لنفسه حصناً منيعاً . لا يقدر أحد أن يحس بضعفه ما لم يسمح له بالتجربة ، سواء في ما يؤلم الجسد أم النفس ، وإذ يقارن معونة الله بضعفه يدرك عظمتها . أمّا إذا رأى أن أساليبه ووقايته وإمساكه لنفسه وحفظها لا تعطيه الثقة ، أو أن قلبه ليس فيه سلام بسبب الخوف والرعب ، فليعلم أن هذا دليل حاجته إلى معين آخر . لأن قلبه يدل على وجود خوف يصارعه في الداخل ويشير إلى نقص فيه يدل على أنه لا يقدر أن يعيش وحده بثقة ، فمعونة الله هي التي تخلصه (مز ١٢٠ : ٢) . فإذا أدرك الإنسان أنه يحتاج إلى المعونة الإلهية عليه أن يضاعف صلواته . وبمقدار ما يضاعفها يزداد قلبه تواضعاً ، لأن من يطلب ويسأل يتواضع رغماً عنه : « القلب المنسحق والمتواضع لا يرذله الله» (مز ٥٠) . وما دام القلب فاقداً التواضع فلا يمكنه أن يتوقف عن التشتت ، لأن التواضع يضبط القلب . عندما يصبح الإنسان متواضعاً تحيط به الرحمة حالاً ، ويحس قلبه بالمعونة الإلهية ، لأنه يجد قوة مليئة بالثقة تتحرك فيه . ومتى أحسّ الإنسان بالمعونة الإلهية ، أي بحضور قوة مساعدة ، يمتلىء قلبه بالإيمان ويدرك أن الصلاة ملجأ وعون وينبوع خلاص وكنز ثقة وميناء منقذ من العاصفة ونور للذين في الظلام وستر في التجارب وسند للضعفاء ومعونة عند اشتداد المرض ودرع منقذ في الحرب وسهم مصوّب ضد الأعداء . وببساطة ان باب كل هذه الصالحات هو الصلاة . منه يدخل الإنسان ويتمتع بنعيم صلاة الإيمان . أمّا قلبه

فيبتهج بالثقة بالله متخلياً عن التصلب السابق وعن الكلام السخيف . فإذا أحس بهذه الصالحات جيداً يقتني الصلاة في نفسه مثل كنز . ومن شدة البهجة والفرح تتحوّل صلاته إلى أصوات شكرية . لقد عيّن كلمة الله لكل شيء صلاةً مناسبة، فالصلاة التي نرفع بها الشكر هي فرح ويعني بها الصلاة المتسامية بالمعرفة الإلهية التي يمنحها الله لنا(١) . فالإنسان في هذه الحالة لا يصلّي بتعب وشقاء كما في السابق ، أي قبل تحسسه النعمة ، بل يصلّي بفرح قلبي وإعجاب معبّراً عن ذلك بحركات شكرية متواصلة وركعات لا توصف . فلكثرة معرفته الإلهية وإعجابه ودهشه من النعمة الإلهية ، يرفع صوته فجأة مسبّحاً وممجداً الله ورافعاً إليه الشكر ومحركاً شفتيه بدهش شديد .

إن من بلغ هذا المستوى ، بالحقيقة وليس بالخيال ، وحصل على معلومات كثيرة من خلال تجاربه ، يفهم ما أقول ولا يعارضني . فلينقطع هذا الإنسان منذ الآن عن تذكر الأمور الباطلة وليقف أمام الله مصلّياً على الدوام بخوف وثبات ورعدة لئلا يحرم من معونته .

ان هذه الخيرات كلها تتولد في الإنسان نتيجة إحساسه بالضعف ، لأنه لشدة حنينه إلى معونة الله يقترب منه و يصلّي امامه بصبر وثبات . وبمقدار ما تصبو نفسه إليه يقترب الله منه مغدقاً عليه نعمه ولا يرفعها عنه بسبب كثرة تواضعه ، كالارملة التي كانت تصرخ امام القاضي طالبة انصافها . ان الإله الرؤوف يرفع النِعَمَ عنه احياناً حتى يقربه منه ، فإذا شعر بالحاجة ووقف منتظراً الاله مفيضَ النعم استجاب له في الطلبات التي لا يقدر احد ان يخلص بدونها ، أمّا الأخرى فيمسكها عنه . احياناً يطرد عنه سعير العدو ويبعده واحياناً يسمح له بالتجربة ليقترب منه، كما ذكرت سابقاً، فيتأدب ويكتسب خبرة من التجارب. وكما يقول الكتاب: «ان الرب ترك أمماً كثيرة كي لا يقضي عليها ، ولم يسلمها إلى يدي يشوع

---

(١) الصلاة ثلاثة أنواع:

١) تسبيحية: «سبحي يا نفسي الرب» (مز ١٤٥)

٢) شكرية: «اعترفوا للرب فإنه صالح» (مز ١١٧)

٣) ابتهالية: «ارحمني يا الله كعظيم رحمتك» (مز ٥٠) .

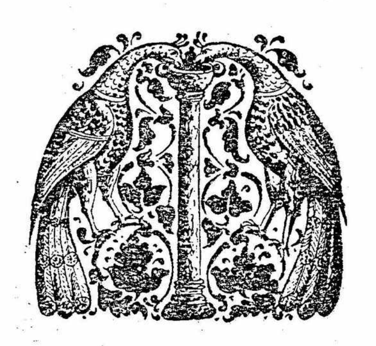
بن نون حتى يؤدِّب بها ابناء اسرائيل وتكون لهم مثلاً ليتعلموا الحرب»(قضاة ٣: ١ - ٤). ان البار الذي لا يعرف ضعفه يضع اموره على حد السيف ويكون معرضاً للسقوط بحيث لا ينجو من الأسد المفسد، اي من شيطان الكبرياء. ومن لا يعرف ضعفه ينقصه التواضع. ومن ينقصه التواضع ينقصه الكمال الذي يحرر الانسان من الخوف، لأن مدينته لم تؤسس على أعمدة حديدية ولا على صفائح نحاسية[1] أي على التواضع. لا يقدر أحد أن يقتني التواضع ما لم يقتن مناهجه التي نعرف انها سحق القلب ومقت فكر الكبرياء، لأن العدو يفتش أحياناً كثيرة عن أثر علّة ليُميلَ الانسانَ نحوه. ان عمل الإنسان بدون التواضع لا يكون كاملاً. وبالتالي لا يوضع ختمُ الروح على حريته بل يظل عبداً وعمله لا يتخطى مرحلة الخوف. ولا يمكن لأحد أن يصلح عمله بدون تواضع ولن يتأدب بدون تجارب ولن يبلغ إلى التواضع بدون تأديب.

ان الله يسمح للقديسين بالتواضع وانسحاق القلب لكي يصلّوا بألم ويقتربوا منه لأنهم يحبونه. قد يرهبهم بأهواء طبيعية وانزلاق في ذكريات دنسة عاطلة، وقد يمتحنهم بتعييرات واهانات ولطمات بشرية أو بأسقام وامراض جسدية أو بفقر وعوز وقد يجرِّبهم بخوف من الآلام الشديدة والتخلي أو بحرب شيطانية ظاهرة، وهي كلها تكون لهم حافزاً للتواضع حتى لا يسقطوا في نعاس التهاون. المجاهد يعاني من هذه الأشياء لسببين: إمّا لأنه يجد نفسه ضعيفاً امامها أو لأنه يخاف من المستقبل. فالتجارب اذاً مفيدة للناس. ولا اقصد بهذا الكلام أنه ينبغي على الإنسان أن يتهاون بإرادته أمام الأفكار الشريرة حتى يجد بها حافزاً إلى التواضع، أو أن يجاهد ليدخل في تجارب أخرى، بل أقصد بذلك أن يكون أثناء قيامه بعمل الصلاح متنبهاً صاحياً وأن يحفظ نفسه وأن يفكر أنه مخلوق وانه سهل التحوّل. كل مخلوق يحتاج إلى قوة الله العاضدة، وكل من يحتاج إلى عضد الآخر هو ضعيف بالطبيعة. ومن يعرف ضعفه يحتاج بالضرورة إلى التواضع حتى ينال حاجته من القادر على العطاء. لو عرف الإنسان ضعفه وأدركه منذ البداية لما تهاون. ولو لم يتهاون لما نام وأُسْلِم إلى أيدي مضايقيه ليوقظوه من جديد.

---

(١) يرمز النحاس الى التواضع لمرونته.

ينبغي على من يسير في طريق الله أن يشكره على كل ما يصادفه ، وأن يلوم نفسه ويحقرها عالماً ان السماح بالسقوط ليس إلاّ دليل تهاونه ، وأنه يحتاجه ليستيقظ عقله من الكبرياء . فعليه ألاّ يرتعد ويهرب من ميدان الجهاد، بل ان يلوم نفسه حتى لا يكون الشرُّ فيه مزدوجاً لأن الله الذي يُفيض العدلَ منزهٌ عن الظلم . فله المجد إلى دهر الدهور، آمين.



المقالة الثانية والعشرون

كيف نضع رجاءنا على الله ومن يجب عليه ان يفعل ذلك ومن الذي يرجو عن جهل وغباوة

ثمة رجاء إلهي يصير بالايمان القلبي الصالح المرتكز على المعرفة والتمييز. وثمة رجاء آخر كاذب يصير بالإثم. إن الإنسان الذي لا يهتم بالأشياء الزمنية بل يلقي همه على الرب ليل نهار، دون أن يهتم بشيء دنيوي ويصرف كل اهتمامه في سبيل الفضائل والأمور الإلهية، فيهمل تأمين المأكل والملبس لنفسه، ولا يكترث بمكان ايواء جسده، ولا بأي شيء آخر، مثل هذا يضع رجاءه على الرب بمعرفة حقيقية، لأنه يعلم ان الله يهيء له كل ما يحتاج اليه. هذا هو الرجاء الحقيقي الحكيم. هذا الإنسان من حقه أن يضع رجاءه على الله، لأنه صار عبداً له ومهتماً بعمله الإلهي بإخلاص وبدون تهاون، مهما كانت الأسباب. ومن حقه أن يَظهر اهتمام الله له بشكل خاص، لأنه حفظ وصيته القائلة: « اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه وهذا كله يزاد لكم » (متى ٦ : ٢٣) وأيضاً: « لا تهتموا بأجسادكم » (رو ١٣ : ١٤)، لأننا إذا تبعناها يصبح العالم مثل عبد ويُعِدُّ لنا كلَ شيء، ويَسمعُ لاقوالنا دون تردد مثل اسياد، ولا يقاوم ارادتنا. مثل هذا الإنسان لا ينصرف إلى الإهتمام بالحاجات الجسدية حتى لا يتخلف عن مثوله الدائم في حضرة الله، ولا يهتم بشيء آخر بل يحاول أن يكون بعيداً عن كل الاهتمامات الصغيرة والكبيرة التي من شأنها ان تقوده إلى اللذة والتشتت، وذلك خوفاً من الله، مع العلم أنه سيحصل على كافة ضرورياته بطريقة عجيبة دون ان يهتم بها.

أمّا الإنسان الذي يتشوش قلبه بالأمور الأرضية ويستمر في أكل التراب مع الحية ولا يهتم بالأمور التي ترضي الله، بل يشقى مضنكاً نفسه بكافة الأمور الجسدية، بطالاً عن كل فضيلة، محباً للأحاديث المتواصلة والتشتت الفارغ، متعللاً

بعلل شتى . مثل هذا الإنسان لا شك انه بعيد عن الصلاح بسبب الخمول والبطالة ولا يلجأ إلى الله إلاّ إذا اشتد عوزه وضاقت أحواله وابتدأ يجني ثمار مآثمه . عندئذ يقول ، وقلبه يراوغ : لأتكلنّ الآن على الله وهو يزيل عني الهموم ويمنحني الراحة . فيا جاهل ، انك إلى هذه الساعة لم تذكر الله ، بل ما زلت تشتمه بأعمالك ويُجدَّفُ على اسمه بين الأمم بسببك كما كتب (رو ٢ : ٢٤) . فكيف تتجاسر أن تفتح فمك وتقول : اني اضع رجائي عليه وهو يعينني ويعولني ؟ اناس مثل هؤلاء يقرّعهم الله بفم نبيّه ويقول : « انهم يلتمسونني يوماً فيوماً ويرومون معرفة طرقي كأنهم أمة تعمل بالبر ولم تهمل حكم الهها . يسألونني عن أحكام البر ويرومون التقرب إلى الله » (اش ٥٨ : ٢) . منهم هذا الجاهل الذي لم يدنُ من الله حتى بفكره ، ولم يرفع اليه يديه بثقة إلاّ عندما أحاطت به الضيقات . مثل هذا الإنسان يحتاج إلى تأديب بالنار لأنه لم يفعل شيئاً يؤهله للرجاء بالله . فهو يستحق التأديب من اجل اعماله السيئة واهمال واجباته . صحيح أن الله يحتمله لأنه رحيم وطويل الاناة ولكن لا تنخدع ولا تنس منهج سلوكك ولا تقل انك تضع رجاءك على الله لأنك سوف تتأدب . ما لم تقتن عملاً ما يدل على ايمانك به فلا تمد قدميك إلى البطالة وكأنك تعمل اعمال الله ، ولا تقل اني أؤمن بالله وهو قادر ان يمنحني كل ما احتاج اليه ، ولا ترم نفسك في البئر بغباوة وذكرُ الله بعيد عنك بالكلية ، وبعد أن تقع فيه تقول اني متوكل عليه وهو ينقذني . لا تضلّ أيها الجاهل . ان التعب من أجل الله والعرق في عمل الوصايا يسبقان الإتكال على الله (الرجاء). فإذا كنت تؤمن بالله فحسناً تفعل ، لكن الإيمان يحتاج إلى أعمال . والرجاء لا يظهر جلياً إلاّ أثناء اتمام الفضائل واحتمال المشقات . أتؤمن أن الله يعتني بمخلوقاته وأنه قدير على كل شيء؟ فليكن إيمانك مقروناً بالعمل المناسب وعندها يُستجاب لك . فلا تحاول ان تقبض على الهواء بكفك ، أي أن تقتني الإيمان بدون الأعمال.

قد يسلك الإنسان طريقاً فيها حيوان مفترس أو أناس قتلة دون علمه ، لكن عناية الله تنقذه إمّا بتأخيره عن السير بأسباب متنوعة حتى يعبر الحيوان أو بلقائه أحداً ورجوعه عن تلك الطريق . وقد يتفق أن يصادف حية مؤذية متربصة بقرب الطريق دون أن يراها ، فالله الذي لا يسمح بتسليمه إلى هذه التجربة يجعل

الحية تتحرك فجأة وتهرب من ذلك المكان أو تزحف امامه ، وعندما يراها يتمكن من التحفظ والنجاة منها . وهكذا ينجّيه الله لكثرة رحمته ، وإن كان بسبب خطاياه الخفية التي يعلمها وحده ، غير مستحق لهذه العناية . وقد يحصل سقوط بيت او حائط او صخرة ، فعند تدحرجها تحدث ضجة كبيرة ، فإذا كان هناك اناس يجلسون قرب مكان الحادث فإن الله يأمر ملاكه - قبل وقوع الحادث ، لأنه محب للبشر - ان يحفظ المكان الذي يجلسون فيه سالماً حتى مغادرتهم ، أو أن يخرجهم بإحدى الوسائل كي لا يقع احد تحت الردم . وسرعان ما تتساقط الحجارة فور مبارحتهم المكان . أمّا إذا ادركت احداً منهم فإنه يحفظه من الاذى مظهراً عظمة قوته التي لا تحدّ .

هذه الأمور وما شابهها تدل على عناية الله الشاملة . فالبار لا تفارقه أبداً ، أمّا الناس الباقون فقد امرهم الله ان يدبروا شؤونهم بتمييز، أي أن يوفّقوا بين العناية والمعرفة ، لأن البار لا يحتاج إلى هذه المعرفة في ادارة شؤونه بل يستعيض عنها بالايمان الذي يهدم كل ارتفاع متشامخ امام معرفة الله (٢ كو ١ : ٥) . ولا يخاف بالتالي من أي شيء مما ذكرناه سابقاً ، كما كتب : « أمّا الصديقون فكشبل يطمئنون » (أم ٢٨ : ١) بل يتجرأ على كل شيء بالإيمان ، ليس كمن يجرّب الرب ، بل كمن ينظر إليه وهو متسلح بالروح القدس . وبمقدار ما يزداد اهتمامه بالله فإنه يجعل الله يقول له : « اكون معه في الحزن فأنقذه وامجده واملأ أيامه بالغبطة وأريه خلاصي »(مز ٢٠ : ١٥ - ١٦). لا يقدر الراهب الخمول المتكاسل ان يحصل على الرجاء في أعماله ، بعكس الراهب الذي يبقى مع الله دائماً في كل شيء ويدنو منه بالأعمال الصالحة ، ويرفع نظر قلبه إلى نعمته بلا انقطاع كما قال داود : « كلّت عيناي من الرجاء بإلهي» الذي له المجد والسجود إلى الدهور ، آمين .

المقالة الثالثة والعشرون

في محبة الله ، الزهد والراحة في الله

+ ١ - ان النفس التي تحب الله لا تجد الراحة إلاّ فيه . فاستدرك نفسك وتحرر من كل رباط خارجي لتتمكن من ربط قلبك بالله ، لأن التحرر من المادة يسبق الارتباط بالله . الطفل لا يعطى خبزاً إلاّ بعد ان يفطم عن الحليب ، والإنسان الذي يبتغي الإتساع في الإلهيات يجب ان يتغرب أولاً عن الدنيا ، كما يتغرب الطفل عن ذراعي امه وثدييها. العمل الجسدي يسبق العمل النفسي كما سبق التراب النَفَسْ التي نفخها الله في آدم . من لا يقتني العمل الجسدي لا يقدر أن يقتني العمل النفسي لأن الثاني يتولد من الأول كما تتولد السنبلة من حبة الحنطة العارية ، والذي لا يملك عملاً نفسياً يفتقر إلى مواهب روحية .

٢ - إن آلام الدهر الصائرة من أجل الحقيقة لا تقارَنُ بالنعيم المعدُ لأولئك الذين يشقون في طلب الصالحات . فكما ان اغمار السرور تلي الزرع المروي بالدموع ، هكذا الفرح يلي الشقاء الصائر من أجل الله . الخبز المغموس بالعرق يبدو لذيذاً للمزارع ، والأعمال التي تتم في سبيل البر تَلذُّ القلب المحتوي معرفة المسيح . احتمل الذل والتحقير بطيبة خاطر لكي تحصل على الدالة على الله . الانسان الذي يحتمل كل كلام قاس يوجَّه إليه ، دون أن يكون مذنباً ، يوضع على رأسه إكليل من شوك ويكون مغبوطاً لأنه سينال اكليل عدم الفساد في يوم آت .

٣ - من يهرب من المجد الفارغ بمعرفة يقتني في نفسه حس الدهر الآتي . من يقول انه ترك العالم ثم يتشاجر مع الناس من أجل حاجة من الحاجات ، كي لا يخسر ما يوفر له الراحة ، هو كفيف بالكلية ، لأنه يبرهن من جهة على أنه ترك الجسد كله بإرادته ، بينما يخاصم من جهة أخرى من أجل عضو واحد . من يهرب من راحة هذه الحياة يبدأ ذهنه بمراقبة الدهر الآتي ، أمّا المتعلق بحب القنية فهو عبد

الأهواء . لا تظن أن محبة القنية محصورة في كسب الذهب والفضة فقط، بل انها تشمل كل ما يمكن ان يقيّد ارادتك . لا تمدح من يشقى بالجسد ويهمل حواسه ، أي الذي لا يضبط سمعه وفمه وعيونه . اذا عزمت ان تدبر حاجاتك عن طريق الاستعطاء فدرّب نفسك ألاّ تطلب الحق في أشياء أخرى ، كي لا تكون عاملاً بيد ومبذراً باليد الثانية ، لأن هناك حاجة إلى تأمين الضروريات ، أمّا هنا فالحاجة إلى قلب رحب. اعلم ان مسامحة المذنبين هي من عمل البرّ. وبذلك سترى الهدوء والابتهاج يحيطان بذهنك من كل جهة. إذا اجتزت طريق البرّ فستلتصق بالحرية في كل شيء.

٤ ـ تحدّث أحد القديسين عن هذا الموضوع فقال : إن المحسن إذا لم يصر باراً يبقى كالأعمى. أمّا أنا فأقول إنه يجب على المحسن ان يعطي الآخر مما جمعه بكده وتعبه وليس مما جمعه بالكذب والظلم والمداهنة . وإذا اردت ان تزرع في حقل الفقراء فازرع مما لك . أمّا اذا اردت ان تزرع من زرع الغرباء ، فاعلم انه سيكون أشد مرارة من الزؤان . اعتقد أن المحسن إذا لم يتخطى احسانه حدود عدله فليس بمحسن . أي أن المحسن لا يكفيه أن يعطي الناس من خاصته فقط بل عليه أنْ يحتمل بفرح ظلم الآخرين له وهو يحسن اليهم . فعندما يَغْلِبُ البرّ بالرأفة لا يكلَّلُ باكليل الذين في الشريعة ، بل باكليل الكاملين الذين في الانجيل . لأن إعطاء الفقراء من الأشياء الخاصة وكَسْوَ العراة ومحبة القريب كالنفس والنهي عن الظلم والكذب ، أمور يعلّمها الناموس القديم . أمّا ملء التدبير الانجيلي فيأمرنا : « من طلب منك شيئاً فأعطه ، ومن أخذ ما هو لك فلا تطالبه به» (لو ٦: ٣٠) . فعلينا ألاّ نحتمل الظلم بفرح وحسب بل أن نضحّي بأنفسنا من أجل أخينا . هذا هو الرؤوف بالحقيقة وليس الذي يحسن إلى أخيه بالعطاء المادي فقط ، بل من يحترق قلبه على أخيه إذا سمع أو رأى شيئاً يحزنه . والرؤوف أيضاً هو الذي يتحمل الضرب دون مقاومة مخافة أن يحزن قلب أخيه .

٥ ـ أكرم عمل السهر لتَجدَ نفسُكَ تعزيةً . داوم على المطالعة في السكينة لكي يتوجّه ذهنُكَ إلى عجائب الله دائماً . أحببْ الفقر بصبر لكي يحفظَ ذهنك من التشتت . امقت السعة لكي تُحفَظَ افكارك بلا اضطراب . ابتعد عن الإهتمام بامور الدنيا الكثيرة وركّز اهتمامك على نفسك لكي تخلصها وتؤمّن لها السلام الداخلي .

أحبب العفة كي لا تُخذل امام الله عند الصلاة . اقتن الطهارة في اعمالك لكي تَسْطَع نفسك في الصلاة ويلتهب ذهنك فرحاً عند تذكرك الموت . احترس من الصغيرات كي لا تسقط في الكبيرات . لا تتراجع عن عملك كي لا تخذل إذا وقفت بين زملائك ، ولا تكن بدون زاد كي لا يتركوك وحيداً في نصف الطريق . تمّم اعمالك بمعرفة كي لا تكون متخلفاً طوال الطريق . كن حراً في تصرفاتك حتى تنجو من التشوش (الدوار) . لا تربط حريتك بأسباب التنعم كي لا تصبح عبداً للعبيد. أحبب الثياب الرثة في كسائك كي تقضي على افكار الكبرياء الصادرة عن قلبك، لأن من يحب الزينة لا يمكنه اقتناء أفكار متواضعة ، فالقلب يتأثر بالصور الخارجية كما يتأثر بالأمور الداخلية.

٦ ـ هل يقدر أحد أن يقتني ذهناً نقياً وهو محب للثرثرة ؟ وهل باستطاعة أحد أن يقتني أفكاراً متواضعة وهو يسعى وراء مجد الناس؟ وبالتالي من يستطيع أن يكون نقي الذهن ومتواضع القلب وهو فاجر فاسد الأعضاء؟ لا أحد، لأن الذهن عندما تجذبه الحواس ، يأكل معها من طعام الوحوش (الأهواء). أمّا إذا جذب الذهنُ الحواس فإنها تتناول معه من طعام الملائكة .

٧ ـ التواضع يليه الإمساك والحياء ، امّا المجد الفارغ فهو خادم الفسق من ناحية وصنيعة الكبرياء من الأخرى . ان التواضع يقود إلى المشاهدة ويزيّن النفس بالعفة ، بسبب الحياء النابع منه باستمرار . امّا المجد الباطل فإنه يسبب الإضطراب المستمر وتشوش الأفكار نتيجة تضارب اموره ، ويجمع كنوزاً رديئة ويدنِّس القلب. وإذ يتدنس القلب تفسد فيه مشاهدة طبائع الأشياء فينشغل الذهن بالخيالات الرديئة البشعة . لكن التواضع[1] ينكمش بسبب مشاهدة الله بطريقة روحية ويدفع صاحبه إلى التمجيد .

٨ ـ لا تقارن الذين يصنعون العلامات والآيات والقوات في العالم بالذين يعيشون في السكينة بمعرفة. أحبب بطالة السكينة اكثر من إشباع الجياع في

(١) هنا يشخص التواضع ويصف حالته اثناء المشاهدة الألهية . المتكبر لا يخجل من شيء مهما كان نوعه ، امّا المتواضع فيضع عينيه في الأرض ولا يجسر على التطلع الى احد، لأنه يكون في حالة مشاهدة داخلية دائمة.

العالم ، وإرجاع امم كثيرة إلى السجود لله ، لأنه أفضل لك ان تتحرر من رباط الخطيئة من أن تحرر عبيداً من نير العبودية . خير لك ان تتصالح مع نفسك ، باتفاق الثالوث الذي فيك ، من ان تصالح المتخاصمين بتعليمك . قال غريغوريوس : «حسن ان نتكلم عن الله لكن الأحسن ان ننقي ذواتنا من اجله» . خير لك ان تكون ألثغ اللسان ولديك المعرفة والخبرة، من ان تتدفق التعاليم من ذهنك بغزارة . وخير لك ان تهتم بإنهاض نفسك الساقطة في الاهواء بحثّها على التفكير في الأمور الإلهية ، من ان تُنهض الأموات .

٩ ـ كثيرون اجترحوا آيات وأقاموا أمواتاً وجاهدوا في ارجاع الضالين واهتدى بشر كثيرون إلى معرفة الله على ايديهم ، لكنهم بعد ذلك سقطوا في اهواء دنسة مرذولة فانتحروا وصاروا عثرة لكثيرين بأعمالهم المفضوحة . هذا دليل مرض نفوسهم لأنهم لم يهتموا بمعالجتها بل اسلموا ذواتهم إلى خضمّ هذه الدنيا ليشفوا نفوس الآخرين وهم المرضى ، فخسروا نفوسهم وفقدوا رجاءهم بالله ، لأن حواسهم الضعيفة لم تستطع مجابهة لهيب اهواء اولئك الذين يكون فجورهم عادة بطريقة شرسة (الشياطين) . لقد كانوا بحاجة إلى صيانة تمنعهم من رؤية النساء ومن الراحة وقنية الفضة ومن الرئاسة والترفع على الآخرين .

١٠ ـ خير لك أن تكون في عيون الناس قروياً لقلة معرفتك بالجدل من ان تُعتبر من الحكماء لوقاحتك . افتقر من أجل التواضع ولا تغتن من أجل الوقاحة . وبّخ الذين يخالفون معتقدك بقوة فضائلك لا بأقوالك المتأرجحة . سدّ افواه المتمردين وسكّن وقاحتهم بوداعتك وهدوء شفتيك . وبّخ الفاسقين بنزاهة سلوكك وحواس عديمي العيب بحشمة نظراتك .

١١ ـ اعتبر نفسك غريباً كل حياتك واينما حللت لكي تنجو من الأذى الناتج عن الدالة . اعتبر نفسك جاهلاً ، لا تعلَم شيئاً ، لكي تُرفع عن اللوم إذا احترت في تأييد الواحد دون الآخر . عوّد فمك على البركة لئلا تَشْتم ، لأن الشتيمة تولِّد الشتيمة والبركة تولِّد البركة . احسب نفسك بحاجة إلى التعلّم في كل شيء فتُعتبر حكيماً كل حياتك . لا تعلّم احداً شيئاً لم تتعلمه بعد، لئلا تخزى عندما ينكشف نفاقك بسلوكك . أمّا إذا كلّمت احداً بشيء مفيد فافعل لكن كلّمه كتلميذ لا

كمعلّم ذي مرجع وجرأة* ثم استدرك ذاتك للحال بالدينونة مظهراً انك ادنى منه ، وذلك لكي تظهر للسامعين اسلوب التواضع وتحثهم على سماع اقوالك ، فيبدأون العمل ، وتكون مكرماً في عيونهم . وإذا كان بإمكانك فتكلم بدموع حتى تستفيد انت نفسك وتفيد السامعين وتكون نعمة الله معك .

+ ١٢ - إذا كنت قد اقتنيت نعمة الله وأهلت للتمتع برؤ ية احكامه ومخلوقاته المنظورة - الرؤ ية التي هي الرتبة الأولى للمعرفة - فتهيّأ وتسلّح ضد روح التجديف . لا تقف في هذا المكان بدون سلاح لئلا يقتلك المتربصون والمضلّون . لتكن اسلحتك الدموع والصوم الدائم . احترس من قراءة تعاليم الهراطقة لأنها تمد روح التجديف بالسلاح فيحاربك . عندما يكون بطنك مليئاً لا تحاول استقصاء الأمور والمعاني الالهية لئلا تندم فيما بعد . افهم هذا جيداً . ان معرفة اسرار الله لا تدرك عندما يكون البطن مليئاً . طالع باستمرار وبلا ملل كتب المعلمين التي تتكلم عن العناية الالهية ، لأنها تقود الذهن إلى مشاهدة نظام مخلوقات الله ومعرفة اعماله ، وتقوّيه وتؤ هّله لاقتناء معان نيّرة من معانيها الشفافة وتقوده إلى ادراك مخلوقاته بوضوح . طالع ايضاً الاناجيل التي وضعها الله لمعرفة المسكونة كلها لكي تتزوّد بقوة عنايته التي تشمل كافة الاجيال ويغرق ذهنك في عجائبه . هذه المطالعة تساعدك على تحقيق هدفك . فلتكن قراءتك لها في مكان قفر ، بعيد عن كل شيء . تحرر من الإهتمام الكثير بالجسد ومن الأشياء التي تسبب الاضطراب حتى تتذوق نفسُك طعمَ اللذة النابعة من حلاوة الفهم التي تفوق كل حس ، وتظل متمتعة ما دامت مأخوذة بها . لا تساو أقوال ذوي الخبرة بأقوال المزيّفين الذين يرفضون الأقوال الالهية ، حتى لا تظل ماكثاً في الظلمة إلى نهاية حياتك ، وتحرم من فائدتها ، وتضطرب أثناء الحرب كمن غشّى عقلَهُ ظلام ، فتسقط في الحفرة وانت تظن انك فعلت خيراً[1] .

١٣ - إذا دخلت في أمر ما ولم تكن متأكداً منه ، فلتكن لك العلامات التالية : عندما تبدأ النعمة بفتح عينيك لتفهم رؤ ية الأشياء على حقيقتها ، تبدأ

(١) المعنى العام : لا تجعل اقوال ذوي الخبرة واقوال المزيفين في رتبة واحدة متساوية بدافع من حياتك زاعماً انك بهذا الأسلوب ترضي الجهتين.

عيناك حالاً بسكب الدموع الغزيرة التي كثيراً ما تغسل خديك . ثم تهدأ حرب الحواس وتتقلص في داخلك . إذا شاء أحد أن يعلّمك عكس ما أقول فلا تصدقه ولا تحاول التفتيش عن علامة أخرى في الجسد أشدّ وضوحاً من الدموع . أمّا عندما يرتفع الذهن عن المخلوقات فيتوقف الجسد عن الدموع وعن كل حركة وإحساس .

١٤ ـ عندما تجد عسلاً كُلْ منه باعتدال (ا م ٢٥ : ١٦) كي لا تتخم به فتتقيّأه . إن طبيعة النفس خفيفة وناعمة ، لأنها أحياناً ، عندما نتغيّر ، تشتهي الصعود لتتعلم ما هو فوق طبيعتها وأحياناً أخرى تدرك شيئاً من خلال مطالعة الكتب ومشاهدة الأشياء . فإذا سمح لها أن تقارن ذاتها بما قد رأته وأدركته وعلمت أنها أدنى منه وأقل رتبة فإن الخوف والرعب يستحوذان عليها فترجع مسرعة إلى مكانها الوضيع وَجِلَةً خجولة لتجاسرها على التفكير في الأمور العقلية التي تفوق طاقتها . ثم يتولد فيها بسبب الخوف نوع من الجبن يجعل التمييز يوقظ ذهن النفس ويذكّره بممارسة الصمت وعدم السقوط في القباحة لكي لا يهلك ، وألاّ يفتش عن الأمور السامية التي تتجاوز حدوده . أمّا إذا أُعطيت لك سلطة الإدراك فتعلّم الأسرار باحترام واسجد ومجّد واشكر بصمت . الإكثار من أكل العسل غير صالح (ام ٢٥ : ٢٧) وغير صالح أيضاً أن نتقصى الأقوال الالهية كثيراً حتى لا تضعف أبصارنا وتكلّ بالنظر إلى الأمور البعيدة التي لم نبلغ إليها بعد بسبب مشاق الطريق . فالذهن يشاهد أحياناً كثيرة خيالات شتى بدل الحقيقة ، وعندما يتعب من التفتيش ينسى هدفه ، كما قال سليمان : « الإنسان الخالي من الصبر يشبه مدينة بلا سور » (ام ٢٥ : ٢٨) . نقِّ نفسك أيها الإنسان وابعد عن الإهتمام بالأمور الخارجة عنك واسدل ستار العفة والتواضع أمام أفكارك وحركاتك فتجد بهما الحقيقة في داخلك لأن الأسرار تُكشف للمتواضعين .

١٥ ـ إذا شئت أن تنصرف إلى عمل الصلاة التي تنقي الذهن ، وإلى سهر الليالي حتى تقتني ذهناً مستنيراً ، فابتعد عن مشاهدة الدنيا واقطع الأحاديث ، ولا تقبل ، كما اعتمدت ، الأصدقاء في قلايتك بحجة عمل الخير ، بل اقبل الذين يشابهونك في آرائك وأحوالك ويشاركونك في السيرة . خَفِّ من التشويش الناتج

عن العلاقات النفسانية التي اعتادت التحرك رغماً عنك. وعندما يتوقف كل اتصال خارجي وينقطع بالكلية ، أقرن الصلاة بالرأفة فتجد نفسُك نور الحق. فبقدر ما يصفو القلب من الأشياء الخارجية يزداد فهمه ودَهَشُه من المعاني الإلهية، لأن من عادة النفس أن تنتقل بسرعة من علاقة إلى أخرى[1] ، هذا إذا جاهدنا وأظهرنا اهتماماً قليلاً. اعكف على مطالعة الكتاب المقدس وحياة القديسين التي تريك الطريق المؤدي إلى المشاهدة الدقيقة فتنتقل من علاقة إلى أخرى وإن لم تتذوق حلاوتها منذ البداية بسبب الإبهام المحيط بها.

١٦ - عندما تنهض لتصلّي وتتمم قانونك ستجد نفسك مأخوذاً بتأمل الكتب المقدسة التي طالعتها سابقاً بدل التأمل في الأمور الدنيوية التي رأيتها وسمعتها . ثم يتنقى ذهنك شيئاً فشيئاً كما جاء في الكتب . إن النفس تستعين بالمطالعة في صلاتها كما أنها تستنير بالصلاة أثناء المطالعة . وهذه المطالعة تكون مادة لحالة الصلاة وتقي النفس من التشويش الخارجي وتجعلها مستنيرة في الصلاة وبعيدة عن الملل والتشويش .

١٧ - إنه لأمر قبيح أن يفحص الأمور الروحية أناس جسديون شرهون . إنهم كالفاسقة التي تتحدث عن العفة . الجسد الذي يعاني مرضاً لا يرفض المآكل الدسمة ويمقتها . والذهن الذي يهتم بالدنيويات لا يمكنه الاقتراب من فحص الإلهيات . النار لا توقد بالحطب الأخضر ، والحرارة الإلهية لا تلتهب في القلب الذي يحب الراحة . الفاسقة لا تحفظ الوداد لشخص واحد والنفس المرتبطة بأمور كثيرة لا تثبت في التعاليم الإلهية . وكما أن الذي لم ير الشمس بعينه لا يمكنه أن يصف نورها ولا أن يحس به لمجرد السماع عنه ، هكذا أيضاً الذي لم يتذوق في نفسه حلاوة الأعمال الروحية .

١٨ - وزّع ما يفضل عن حاجتك اليومية على الفقراء ثم قدّم صلواتك بدالة ، أي تكلم مع الله كما يتكلم الابن مع أبيه ، لأنه لا شيء يقرّب القلب إلى الله مثل الإحسان ، ولا شيء يسكّن إضطراب الذهن مثل الفقر الإختياري . خير لك أن يدعوك الناس أمياً من أجل البساطة ، من أن يدعوك حكيماً وكامل الذهن من أجل المجد . وإذا كان أحد يمتطي جواداً ومدّ يده إليك يطلب إحساناً فلا تردّه

(١) من تشويش العلاقات النفسانية الى مشاهدة الإلهيات (الناشر)

فتظلمها . وينتج من هذا التشويش الخارجي أن النفس لا يعود بإمكانها مراقبة الحرب الخفية المتحركة عليها ، ولا السيطرة بواسطة الهدوء على الأفكار التي تهاجمها من الداخل ، لأنه عندما يوصد الإنسان أبواب المدينة ، أي الحواس ، يستطيع محاربة الأعداء المتربصين خارج الأبواب دون رهبة .

٢١ - طوبى لمن عرف هذه الأمور وثبت في السكينة ولم يقع في كثرة الأعمال ، بل حوّل الأعمال الجسدية كلها إلى تعب الصلاة ، وأيقن أنه لن ينقصه شيء مما يحتاجه ما دام يعمل مع الله واضعاً اهتمامه عليه ليل نهار ، لأنه من أجله فقط قد ابتعد عن العمل والتشتت . أمّا إذا كان أحد لا يقدر على الثبات بدون شغل يدوي فليشتغل متخذاً العمل عوناً له دون أن يطمع في الربح . هذا الحل يناسب الضعفاء لكنه يشوّش الكاملين ولقد اقترح الآباء العمل للفقراء والمتهاونين دون أن يعتبروه أمراً ضرورياً .

عندما يحرّك الله قلبك ويجعله خاشعاً من الداخل ، اعكف على عمل المطانيات المتواصلة والسجود ولا تدعه يهتم بشيء من الأمور التي تأمرك بها الشياطين . وحينئذ انتبه وتعجب مما سيصادفك . فلا شيء في الجهادات النسكية أعظم وأشدّ تعباً من أن يرمي الإنسان بنفسه أمام صليب المسيح - الأمر الذي تحسده عليه الشياطين - وأن يتضرع ليل نهار كالمقيّد اليدين إلى الوراء . أتريد ، أيها الإنسان ألاّ تبرد حرارتك وألاّ تفتقر إلى الدموع ؟ اتخذ هذا التدبير لنفسك وستكون مغبوطاً إذا اهتميت دائماً بما قلته لك ولم تطلب شيئاً آخر . عندئذ يشرق فيك النور من الداخل ويسطع برّك سريعاً ، وتصبح مثل فردوس مزهر وكنبع مياه لا ينضب .

٢٢ - انظر أية خيرات تأتي على الإنسان من الجهاد . عندما يكون راكعاً للصلاة ، باسطاً يديه نحو السماء ، ناظراً بوجهه إلى صليب المسيح ، مثبتاً أفكاره في الله ، متضرعاً إليه بخشوع . سرعان ما يتفجر في قلبه ينبوع من اللذة فتتلاشى كل أعضائه ، ويميل رأسه إلى الأرض ، وتتغيّر أفكاره ، ولا يعود بإمكانه عمل المطانيات بسبب الفرح الساري في جسمه كله . فانتبه أيها الإنسان إلى كل ما تقرأ ،

لأنك إذا لم تجاهد فلن تجد . وإذا لم تقرع بحرارة وتسهر عند الباب فلن يُفتح لك .

٢٣ ـ فمن هو الذي يشتهي عمل البرّ الخارجي عند سماعه هذه الأمور سوى ذلك الذي لا يستطيع البقاء في السكينة ؟ أمّا إذا كان أحد لا يستطيع أن يوفي السكينة حقها (لأن نعمة الله تريد أن يكون الإنسان داخل الباب) فعليه ألاّ يترك الطريق الأخرى كي لا يخسر طريقي الحياة كليهما[1] . ما لم يمت الإنسان الخارجي عن الأمور الدنيوية كلها ، لا عن الخطيئة وحدها بل عن كل عمل جسدي ، وما لم يمت الإنسان الداخلي عن الأفكار الرديئة وتضعف حركة الطبيعة الجسدية حتى لا تتحرك في القلب لذة الخطيئة ، فلن تتحرك فيه حلاوة روح الله ولن تتنقى أعضاؤه كل حياته ، ولن تلج إلى نفسه المعاني الإلهية ولن يدركها ولن يشاهدها . وما لم يطرح عن قلبه الاهتمام بالدنيويات ، عدا الحاجة الطبيعية الضرورية ، تاركاً للّه أن يهتم بها ، فلن تتحرك فيه النشوة الروحية ولن يحس بذلك الجنون الذي كان يتعزى به الرسول (١ كو ٤ : ١٠ ، وفيلبي ١ : ٢٢) .

٢٤ ـ لم أقل هذا لأقطع الرجاء ، لأن الإنسان إذا لم يبلغ الكمال فلن يؤهَّل لنعمة اللّه ، ولن يجد تعزية . عندما يزدري الإنسان الأشياء غير اللائقة ويبتعد عنها بالكلية ويتجه نحو الصالحات ، يحس بالمعونة بعد وقت قصير . وإذا جاهد قليلاً يجد تعزية في نفسه ، ويحظى بمغفرة زلاته ، ويؤهَّل للنعمة ، ويحصل على خيرات كثيرة . لكن كماله لن يعادل كمال ذاك الذي انفصل عن العالم ووجد في نفسه سر الغبطة الموجودة هناك وأدرك ذلك الشيء الذي جاء المسيح من أجله ، فله المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين ، آمين .

(١) حياة النسك وحياة الشركة .

المقالة الرابعة والعشرون

في الأدلة على محبة الله ونتائجها

محبة الله حارة بطبيعتها ، فإذا انسكبت على انسان بغزارة جعلت نفسه في حال انجذاب . ثم حولتها بشكل غير اعتيادي يتلاءم مع طبيعتها لأن الإنسان لا يقدر أن يسعها أو يتحملها . ان إشارات التحوّل هي الآتية : يصير وجه الإنسان نارياً وفرحاً ، وجسمه ملتهباً ، يفارقه الخوف والخجل ، يصبح في ذهول ، تفارقه القوة التي تضبط ذهنه فيصبح كمن لا عقل له ، يحسب الموت المخيف فرحاً ، يستمر ذهنه في التأمل بالأمور السماوية بلا انقطاع ، يتكلم وهو غائب كأنه غير مرئي وغير موجود ، تفارقه معرفته ورؤيته الطبيعيتان ، لا يحس بحركته بالشعور الطبيعي المعتاد ، كما هي الحال في الأشياء ، إن فعل شيئاً فلا يحس به بتاتاً ، لأن ذهنه يكون محلّقاً في المشاهدة ، يهدس بصورة دائمة كما لو كان يتحدث مع آخر .

هذه النشوة الروحية اختبرها الرسل والشهداء . الأولون عندما كانوا يجوبون العالم مجاهدين ومعيّرين ، والآخرون عندما كانت تقطّع اعضاؤهم وتهرق دماؤهم كالماء وكانوا يذوقون الأمرّين ولكنهم لم يقنطوا بل صبروا بشجاعة . وكانوا حكماء فحُسبوا كمن لا عقل لهم. وكانوا يضلّون في البراري والجبال والكهوف وثقوب الأرض متظاهرين بعدم الترتيب رغم كونهم متأنّتين . فأهّلنا يا الله أن نبلغ إلى جهالتهم .

في التواضع

لا تثق بنفسك قبل الدخول إلى مدينة التواضع ، وإن رأيت ذاتك مستريحاً من إزعاج الأهواء ، لأن العدو يخفي لك فخاً ، فانتظر بعد الراحة قدوم اضطراب وانزعاج كثيرين . وإذا لم تعبر دُور الفضائل فلن ترى استراحة في تعبك ولا راحة من الأعدا الكامنين لك قبل بلوغك دار التواضع المقدس . فأهّلنا يا رب لبلوغه بنعمتك آمين .

المقالة الخامسة والعشرون

في الصبر من أجل محبة الله ، وفي المعونة الكامنة فيها

كلما ازدرى الانسان هذه الدنيا واهتم بمخافة الله ، كلما اقتربت منه عنايته وأحس بمعاضدتها سرياً ، ومُنِح الأفكار النقية لكي يدركها . وبمقدار ما يحرم الانسان نفسه من الخيرات الدنيوية تتبعه رحمة الله وتحضنه محبته للبشر . فالمجد لإلهنا الذي يخلّصنا من الأمور اليمينية واليسارية ويجعلها سبباً لوجود حياتنا . فالذين يعجزون عن اقتناء الحياة بسبب ضعف إرادتهم يقودهم إلى الفضيلة بالأحزان الكرهية . فلعازر الفقير لم يكن محروماً باختياره من خيرات هذه الدنيا بل كان إلى جانب فقره مصاباً بالقروح في جسده ، وكان يعاني ألمينْ مُرّين أحدهما اسوأ من الآخر ، غير أنه أُهِّل لأحضان ابراهيم . الله قريب من القلب الحزين الصارخ اليه عند الشدة . فإذا حُرِم الانسان مرة من الأشياء المادية أو افتُقد بإحدى الضيقات (الله يعاملنا هكذا حتى يساعدنا كما يفعل الطبيب إذا رأى أن صحة المريض لا تستعاد إلاّ بعملية جراحية) فبقدر ما يعاني منها يتحنن الرب عليه .

عندما ترى أن شوق المسيح ، الذي يجعلك غير مكترث بضيقاتك نتيجة الفرح الذي فيه ، لا يسود فيك فاعلم أن العالم حيٌّ في داخلك أكثر من المسيح . وعندما ترى أن المرض والفاقة أو زوال الجسد أو الخوف مما يؤذيه تهز ذهنك وتبعدك عن فرح رجائك بالرب فاعلم أن جسدك هو الحي وليس المسيح حياً فيه . ويمكن القول ببساطة إن كل شيء مهما كان نوعه ، يشتد شوقه فيتغلب عليك ، هو الذي يحيا فيك . وإذا كانت الضروريات كلها متوفرة لديك ، وكان جسدك نشيطاً ولست تخاف من الأمور المعاكسة بل تقول إنك تستطيع السير بوضوح نحو المسيح فاعلم أن ذهنك مريض . أنا لا أطلق حكمي عليك لأدينك بل لتعلم مقدار فقرك إلى الكمال ، رغم أنك تعيش حياة الآباء القديسين الذين سبقونا . ولا تقل إنه لا

يوجد انسان قد ارتفع ذهنه عن الضعف عندما كان جسده غارقاً في التجارب والشدائد ، ولا سيّما إذا كان شوق المسيح فيه أقوى من الحزن المستولي على ذهنه . إني لن أذكر القديسين الشهداء لئلا أعجز عن الوقوف أمام لجة آلامهم وعن إدراك صبرهم ، النابع من قوة محبة المسيح ، الذي تغلب على الضيق القاسي وشوق الجسد . إن هذه الأمور ، بعظمتها ورؤيتها العجيبة ، تزعج الطبيعة البشرية لمجرد ذكرها ، فلنتركها جانباً .

أمّا الآن فلنعد إلى امتحان الفلاسفة الكفرة . لقد فرض أحدهم على نفسه قانون الصمت زمناً قصيراً ، فتعجب ملك الرومانيين حين سمع به وأراد أن يمتحنه فأمر بإحضاره . ولما رأى صمته أمام الأسئلة التي وجهها اليه ولم يجب عنها غضب وأمر بقتله ، لأنه لم يحترم عرشه ولا تاج مجده . أمّا هو فلم يخف بل حافظ على قانونه وأخذ يستعد للموت بهدوء . فأمر الملك عندئذ المنفّذين وقال لهم : اشهروا السيف عليه ، فإن خاف وكسر قانونه ، فاقتلوه ، أمّا إذا حافظ عليه فأعيدوه إليّ حياً . فلما اقتربوا من المكان المعدّ أخذ المنفّذون يضيّقون عليه ويرغمونه على كسر قانونه حتى ينجو من الموت . أمّا هو فكان يفكر : خير لي أن أموت مرة واحدة محافظاً على وعدي (الذي جاهدت في سبيله زمناً طويلاً) من أن أتّهَم بالخوف ويستهان بحكمتي وأعرِّض نفسي للذل إذا انصعت إليهم بسبب ضغطهم عليّ . ثم بسط نفسه أمامهم بهدوء ليقطعوه بالسيف . فلما علم الملك تعجب كثيراً وأطلقه باحترام.

هناك فلاسفة آخرون داسوا على الشهوة الطبيعية وسواهم صبروا على الأمراض بلا حزن ، وغيرهم أظهروا صبراً عظيماً في الشدائد والكوارث الهائلة . فإذا كان أولئك قد صبروا حباً بالمجد الفارغ والرجاء الباطل أفلا ينبغي علينا نحن الرهبان أن نتحمل ونحن المدعوون إلى الشركة مع المسيح ؟ فعسى أن نؤهَّل لهذه الشركة بصلوات سيدتنا والدة الإله الفائقة القداسة والدائمة البتولية مريم وجميع الذين أرضوا بالإعتراف والجهاد المسيحَ الذي له كل مجد وإكرام وسجود مع أبيه الذي لا بدء له والروح المساوي له في الأزلية والطبيعة والحياة الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين ، آمين.

المقالة السادسة والعشرون

في الصوم غير المنقطع والخلوة مع النفس وما ينجم عنهما ، وفي أن القديس اسحق تعلّم عيش هذه الأمور بمعرفة وتمييز

بعدما امتحنتُ زمناً طويلاً من اليمين واليسار وعانيتُ كثيراً من هاتين الجهتين ، وتلقيتُ من المعاند جراحاً لا تحصى ، وأهّلت سرياً لمعونات عظيمة ، اكتسبت خبرة هذه السنوات الطويلة وتعلّمت ، بالخبرة وبنعمة الله ، أن أساس الصالحات كلها واسترجاع النفس من سبي العدو، والطريق المؤدي إلى النور والحياة ، لا تحصل إلاّ بطريقتين : ضبط الذات في مكان واحد والصوم الدائم ، أعني وضع قانون لضبط البطن بحكمة والبقاء بتعقل بدون حركة والتفرغ الكامل للتأمل في الله . وعن هاتين الطريقتين تنجم الأمور التالية : إخضاع الحواس ، يقظة الذهن ، استئناس الأهواء الشرسة المتحركة في الجسد ، وداعة الأفكار ، استنارة حركات الذهن ، الإجتهاد في عمل الفضيلة ، التأملات السامية الدقيقة ، الدموع المدرارة المنسكبة كل حين ، ذكر الموت ، العفة الطاهرة البعيدة عن أي خيال يؤذي الذهن ، البصيرة الثاقبة في الأمور البعيدة ، فهم المعاني السرية العميقة التي يدركها الذهن بقوة الأقوال الإلهية والحركات الداخلية المتولدة في النفس ، الإفراز والتمييز بين الأرواح الشريرة والقوات الملائكية وبين الرؤى الحقيقية والخيالات الباطلة ، الحذر أثناء السير في الطرق والمسالك[1] الذي يقضي على الكسل والإهمال، إكتساب لهيب الغيرة الذي يدوس كل خطر ويتجاوز كل خوف والحرارة التي تمقت كل شهوة وتزيلها من الذهن وتولّد نسيان الأمور السالفة وغيرها . ولكي أعبّر بإيجاز أقول إنه بهاتين الطريقتين نأتي إلى حرية الإنسان الحقّة وفرح النفس والقيامة مع المسيح في الملكوت .

(١) لا بد من الانتباه الشديد أثناء السير في طريق الفضيلة .

من يهمل هاتين الفضيلتين لا يخسر كل ما ذكرناه سابقاً وحسب ، بل يصدّع أساس الفضائل كلها . فكما أن هاتين الفضيلتين هما بداية العمل الإلهي ورأسه بالنسبة للنفس فإنهما تصبحان ، عند من يحافظ عليهما بصبر ، الباب والطريق إلى المسيح . أمّا من يغادرهما ويتجاوزهما فإنه ينقاد إلى نقيضهما أي إلى الهذيان الجسدي والشراهة الخالية من الحشمة ، وهاتان الرذيلتان المضادتان تفسحان المجال أمام الأهواء فتتسرب إلى النفس .

مبدأ أولى الرذيلتين (الهذيان) هو حلّ الحواس من أربطة الحشمة فتنشأ المعاشرات غير اللائقة وغير المتوقعة ، والسقطات المتواترة ، واضطراب الأمواج الشديدة الناتج من المناظر ، واشتعال العينين الشديد الذي يسيطر على الجسد ويجعله سهل الإنزلاق بالفكر ، والأفكار الجشعة التي تقود إلى السقوط ، وفتور الشوق في العمل الإلهي ، وارتخاء تدريجي في تقدير أهمية السكينة وسمّوها مما يقود إلى ترك السيرة كلها ، وتجديد ذكرى الشرور المنسية ، وتعلّم أمور أخرى لا يؤمن بها ناتجة من رؤى متعددة سببها التنقل من مكان إلى آخر . أمّا الأهواء التي ماتت في النفس بفضل نعمة الله وزالت من الفكر بالنسيان فإنها تُطِلُّ برأسها من جديد وتُرغم النفس على خدمتها .وحتى أتحاشى ذكر الأمور الباقية وتعدادها أقول إن هذه الأمور يصادفها الإنسان نتيجة الرذيلة الأولى أي الهذيان وعدم البقاء في السكينة والصبر على شدتها . أمّا الرذيلة الثانية التي من شيمة الخنازير ، فماذا ينشأ عنها ؟ وما هو عمل الخنازير سوى أن تترك بطونها بلا قيد وتملأها بصورة مستمرة دون أن يكون لها وقت محدد لقضاء حاجتها كما هي الحال عند ذوي النطق . فماذا ينجم عن ذلك اذن؟ ألم حاد في الرأس ، ثقل شديد في الجسد مع تفكك الكتفين مما يولد اهمالَ العمل الالهي وتثاقلاً عن إتمام المطانيات والسجدات المعتادة ، ثم يلي ذلك ظلام وفتور في العقل ، اضطرابات تجعل الذهن غليظاً خالياً من التمييز ، ظلام داكن في الأفكار فغمام كثيف أسود يخيِّم على النفس كلها ثم ضجر شديد في كل عمل إلهي وخاصة أثناء المطالعة وذلك لعدم تذوق أقوال الله ، ثم بطالة عن الأشياء الضرورية وذهن نهم مشتت في كل الأرض ، خلط كثير محقون في جميع الأعضاء وخيالات دنسة في الليل مصحوبة بأشباح قبيحة وصور غير لائقة ملأى بالشهوات تجوز النفس وتنفذ مآربها بطريقة قذرة فيلطخ فراش ذلك الشقي وثيابه

ويدنس جسده بكثرة السيلانات السمجة التي تتدفق منه كما من نبع . وهذا لا يحصل في الليل وحسب بل في النهار أيضاً ، لأن الجسد الذي يفرز بصورة مستمرة يدنس الذهن ويؤدي به إلى إنكار العفة ، حيث أن حلاوة الإثارة تسري في أنحاء جسده بشكل مُلِحّ وملتهب على الدوام . وتراوده أيضاً أفكار مضلّة تصوّر الجمال أمامه وتثيره في كل وقت وتدغدغ ذهنه للتحاور معها فيتقبلها دون تردد . وعندئذ يغشي الظلامُ عقلَه فتتسلط عليه الشهوة . وهذا ما ذكره النبي حيث قال : « هذا كان اثمُ سدوم اختك ، الإستكبار والشبع من الخبز . . . » (حز ١٦ : ٤٩) . وقال أحد الحكماء العظام إن كل من يغذي جسده بالتنعم وضع نفسه في حرب . وإذا عاد إلى رشده وحاول ضبط نفسه فلا يستطيع لشدة ازدياد حرارة تحركات جسده ، لأن الإثارات والدغدغات أصبحت أمراً ضرورياً وملحاً فيه وجعلت النفس أسيرة لتنفيذ مآربها . أرأيت دقة هؤلاء الحكماء الكفرة ؟ ويضيف هذا الحكيم : إن رفاهية الجسد واعتياده النعومة والرخاوة منذ الصبا يجعل النفس قابلة للأهواء بشكل حاد ويضعها داخل حظيرة الموت ، مما يجعل الإنسان تحت دينونة الله .

إن النفس التي تهذّ دائماً بذكر الأمور المفيدة ، تستريح في حريتها وتقلل اهتماماتها ولا تندم على شيء بل تكبح أهواءها وتحفظ الفضيلة وتعتني بها وتنمّيها فتعيش في فرح وحياة صالحة وميناء خال من الخطر . فالتنعمات الجسدية لا تكتفي بتغذية الأهواء وتقويتها على النفس بل إنها تقلع النفس من جذورها ثم تلهب البطن بالنهم والبلبلة والفحشاء بأقصى حدودها وترغم النفس على القيام بحاجات الجسد قبل أوانها . فالمحارَب بهذه الأمور لا يستطيع أبداً تحمّل الجوع ولا أن يتسلط على ذاته لأنه وقع أسير الأهواء .

هذه هي ثمار الخزي الناجمة عن الشراهة ، أمّا ثمار الصبر والعيش في السكينة فتأتي قبلها . إن العدو ، الذي يعلم أوقات الحاجات الضرورية ، حين يرى الذهن مبلبلاً بتشتت العينين واستراحة البطن ، يسارع إلى حثنا على تصعيد الحاجة الطبيعية ويبث فينا أفكاراً وصوراً سيئة ، فإذا اشتد الصراع وقويت الأهواء على طبيعتنا فإنه يغرقنا في السقطات . لهذا ، كما أن العدو يعرف الأوقات ، علينا نحن أيضاً أن نعرف ضعفنا ومقدار قوة طبيعتنا ، أي أن نعترف بضعفنا أمام الهجمات والتحركات وأمام دقة الأفكار التي تظهر مثل الغبار الناعم ، وأن نقر

بعجزنا عن رؤية أنفسنا ومجابهة كل ما يصادفنا . المحنة القاسية التي يجرِّبنا بها العدو فيعرِّضنا للشقاء ، يجب أن تُحكِمنا فلا نرتمي بأنفسنا ونتمم رغبة الراحة فيهزمنا الجوع بل علينا ألاّ نتزحزح من مكاننا إلى مكان آخر تتوفر فيه أسباب الراحة ، وأن لا نفتش عن أسباب ودواع نبرر بها خروجنا من الصحراء مهما اشتد علينا الجوع وضاقت بنا الأحوال . هذه هي حيَل العدو الظاهرة . فإن صبرت في البرية فلن تُجرَّب لأنك لا ترى فيها نساء أو شيئاً آخر يؤذي سيرتك ولا تسمع أصواتاً غير لائقة .

« ما لك وطريق مصر لتشرب مياه شيحور » (إر ٢ : ١٨) . إفهم ما سأقول لك : اصبر على الأمور الصغرى وانتفع بخبرتها حتى لا يطالبك بالكبرى . اتخذ الصغيرات حداً فاصلاً بينك وبين المضاد لكي تتمكن من دحره فلا يغتنم الفرصة ويحفر لك حفراً كبيرة . فالذي لا يرضخ للعدو إذا طلب منه أن يخرج خمس خطوات خارج منسكه ، لا يمكن أن يقبل الخروج من البرية أو الإقتراب من القرية . ومن لم يقبل أن ينحني وينظر من نافذة قلايته لا يمكن أن يخرج منها . ومن يكتفي ، بعد جهد ، بتناول القليل من الطعام عند المساء لا يمكن أن تخدعه أفكاره بالأكل قبل الأوان . ومن يخجل أن يشبع من الأطعمة البسيطة فلن يشتهي الأطعمة الفاخرة . ومن لا يرضى أن يَرَى جسدَه لن ينخدع برؤية الجمال الغريب .

يتضح مما سبق أنَّ من يتهاون بالصغيرات يُغْلَب ، وبغلبته يُعطي حجة للعدو فيحاربه في الكبيرات . من لا يهتم بالحياة الزمنية ، التي لا أحد يعرف إذا كان سيبقى فيها يوماً واحداً ، لن يخاف من الشرور والضيقات التي تقوده إلى الموت العزيز عليه . هذا هو التمييز في الحرب ، فالحكماء لا يدعون أنفسهم تتورط في المعارك الكبيرة، بل يتخذون الصبر على الصغيرة حصناً لوقايتهم منها .

فالشيطان يجاهد أولاً في أن يبطل دوام اليقظة في القلب ثم يجعل الإنسان يزدري الصلاة المحددة والقانون الجسدي ، فيقع الفكر في الخمول وينقاد إلى تناول الطعام قبل أوانه وينساق وراء الأمور التافهة . وبعد أن يكسر قانون إمساكه

ينزلق إلى الشره والتبذير ، فيجد نفسه مغلوباً ويفقد حياءه فينظر إلى عري جسده أو إلى جمال عضو من أعضائه عندما يخلع ثيابه أو يخرج إلى قضاء حاجته ، أو يمد يده داخل ثيابه بجرأة ويلمس جسده كأنه لم يفعل شيئاً . ويصبح ذلك الذي كان يحفظ ذهنه بحرص ويحزن لأي أمر من هذه الأمور ، غير مكترث لفتح أبواب الهلاك الصعبة أمام وجهه . إنني أشبه الأفكار بالمياه ، إذا حصرت من كافة الجوانب تحفظ جيداً ، أمّا إذا خرج منها القليل فإنه يسبب انهياراً وخراباً للسد . ولما كان العدو يعرف هذا فإنه يقف لنا بالمرصاد منتظراً مداخل الحواس ليل نهار ليرى من أين تُفتح له ليدخل . فإذا رأى تهاوناً في أحد الأمور التي ذكرناها يرمينا هذا الكلب الغاش الوقح بنباله . إن الطبيعة تميل أحياناً بنفسها إلى حب الراحة والدالة والضحك والتشتت والتهاون وتصبح بذلك مصدراً للأهواء وخضماً من الإضطراب ، وأحياناً أخرى يكون العدو هو السبب في هذه الأمور . أمّا نحن فلنستبدل الأتعاب الكبيرة بالأتعاب الصغيرة التي نحسبها عدماً لأنها تقينا من أتعاب كثيرة وحروب مزعجة وجراحات كثيرة . فمن لا يسرع إذاً لإيجاد الراحة الحلوة بواسطة هذه الأتعاب الصغيرة ؟

أيتها الحكمة ، كم أنت عجيبة ، وكم تتوقعين الأمور كلها من بعيد ! مغبوط ذلك الذي وجدك لأنه تحرّر من تواني الشباب . من يتاجر بالأشياء الصغيرة ، أي من يهتم بها ، يعالج الأهواء الكبيرة بطريقة حسنة . أصيب أحد الفلاسفة بالخمول ثم استدرك نفسه للحال وعالجها . ورآه آخر وسخر به فأجابه : إني لا أخاف إلاّ الفتور ، لأن فتوراً صغيراً سرعان ما يسبب الأخطار الكبيرة . وهذا الأمر الذي حصل خارج النظام المعتاد ، وأصلحت نفسي منه سريعاً ، جعلني أنتبه ولا أتوانى حتى عن الأمور الحقيرة والصغيرة لأنه بذلك يكنز لنفسه راحة واسعة ويبقى متيقظاً للأمور المضادة فيقطع أسباب الحرب قبل وقوعها ويقضي على الحزن الكبير بصبره على الحزن الصغير .

إن الجهلاء يفضلّون قليلاً من الراحة الآنيّة على الملكوت البعيد ، غير عالمين أن احتمال العذابات في الجهاد هو أفضل من الراحة على سرير الملكوت الأرضي المحكوم عليه بالتواني . أمّا الحكماء فيفضلّون الموت على الملامة إذا ما فعلوا شيئاً

بدون انتباه . لذلك يقول الحكيم : كن منتبهاً ويقظاً في حياتك لأن النوم المتجانس مع الذهن هو صورة الموت الحقيقي . ويقول باسيليوس المتوشح باللّه : « من يتكاسل في أموره الصغيرة لا تنتظر نجاحه في الأمور الكبيرة » .

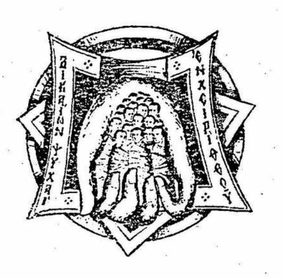
لا تتهاون بالأمور التي ترتكز عليها حياتك ، ولا تتراجع عن الموت من أجلها ، لأن صغر النفس هو دليل الضجر وأمُّهما معاً هي قلة الإيمان . أمّا محبة الجسد فدليل عدم الإيمان . ومن يمقت الاثنين يؤكد إيمانه بالله من كل نفسه ويترجّى الدهر الآتي .

لم يدنُ أحد من الله بدون جهادات وأخطار . إن جسارة القلب وازدراء المخاطر ينجمان ، إمّا عن قساوة القلب وإمّا عن الإيمان الشديد بالله . وقساوة القلب تتبعها الكبرياء ، أمّا الإيمان فيتبعه تواضع القلب . لا يقدر الانسان أن يقتني الرجاء بالله إلاّ إذا أتمّ قسماً من مشيئته أولاً ، لأن الرجاء بالله وشجاعة القلب يتولدان من شهادة الضمير . وبشهادة ذهننا الحقيقية نحصل على الثقة بالله . أمّا شهادة الذهن فهي أن يدين الضمير صاحبه على إهماله الواجب الذي كان إتمامه ممكناً ، فإذا كان قلبنا لا يديننا فهذا يعني أننا لا نملك دالة على الله . وتأتي الدالة من إنجاز الفضائل ومن الضمير الصالح . أمّا الإستعباد للجسد فأمر قاس ومن يحس قليلاً برجائه بالله يُعتق من خدمة هذا السيد القاسي (الجسد) .

في الصمت والسكينة

ينشأ الصمت الدائم وحفظ السكينة إمّا من تمجيد الناس أو من حرارة الغيرة أو من هذيذ داخلي إلهي يجذب الذهن إليه . فمن ليست فيه إحدى الحالتين الأخيرتين هو مصاب بمرض الأولى . الفضيلة ليست في إظهار الأعمال الكثيرة المتنوعة التي تتم بالجسد بل هي القلب الحكيم المرتكز على الرجاء . لأن الهدف الصحيح يضبط القلب في الأعمال التي ترضي الله . ويستطيع الذهن فعل الصلاح دون الأعمال الجسدية ، أمّا الجسد فبدون حكمة القلب لا يستفيد شيئاً مهما تعب . رجل الله لا يمكنه إلاّ أن يظهر محبته بالتعب والعمل حباً بالله عندما يمكنه

ذلك . لهذا فسيرة الأول - الذهن - تبقى دائماً في حالة يسر . أمّا سيرة الثاني - الجسد - فتكون حيناً في يسر وأحياناً في عسر . فلا تظنّنّ أن الإبتعاد المستمر عن أسباب الهوى أمر سهل . أمّا إلهنا فله المجد إلى دهر الدهور ، آمين .



المقالة السابعة والعشرون

في حركات الجسد

إن حركة أعضاء الجسد السفلى الخالية من الأفكار الحادة التي تتولد من اللذة القبيحة ، والتي تتحرك بحرارة وتجر النفس إلى الشقاء رغماً عنها ، ناتجة من تخمة البطن . لكن إذا كان البطن منتظماً من جهة المآكل واستمرت أعضاؤه السفلى تتحرك رغم الإرادة، فاعلم عندئذ أن الهوى يغلي داخل الجسد . في مثل هذه الحالة لا يوجد سلاح قوي وقاهر سوى الإبتعاد عن رؤ ية النساء لأن العدو لا يستطيع أن يؤثر فينا بأمور تستطيع طبيعتنا أن تتغلب عليها بقوتها . فلا تظنّ أن الطبيعة تنسى الأمور التي غرسها الله فيها لإكثار النسل البشري ولاختبار المجاهدين ، لكن الإبتعاد عن الأشياء يميت الشهوة في الأعضاء وبسبب النسيان واختفاء الحاجة فيها .

الأفكار التي تنجم عن الأمور البعيدة والتي تمر في الذهن مروراً عابراً وتحركه تحريكاً ضئيلاً جداً ، تختلف عن الأفكار الناشئة من رؤ ية المادة. هذه الأخيرة تنطبع بشكل يصعب نسيانه وتحرك الأهواء بسبب قربها من المادة وتغذي الانسان كما يغذي الزيت القنديل وتلهب الهوى الذي كان قد أميت ، وتهيّج بحر الجسد بتحريكها سفينة الذهن . أمّا الحركة الطبيعية الساكنة فينا والتي تتحرك بطريقة طاهرة فلا يمكنها أن تؤذي عفتنا ، لأن الله لم يهب الطبيعة قوة التغلب على الميل الحسن المتحرك إليه . فعندما يثور الإنسان بدافع الغضب أو الشهوة فإن هذا الثوران الذي يتعدى حدود الطبيعة وواجباتها ليس ناجماً عن القوة الطبيعية بل عن الدفعة التي نضيفها نحن إلى الطبيعة بإرادتنا . لأن كل ما صنعه الله هو حسن ومتزن . وبمقدار ما تحافظ الحركات الطبيعية فينا على اتزانها السليم بمقدار ما تبقى عاجزة عن إرغامنا على الخروج من الطريق ، لأنها تحرك الجسد ضمن نظامه الطبيعي . فلنعلم اذن أن الهوى الذي فينا هو شيء طبيعي محض لم يوضع للدغدغة والإزعاج وسد طريق العفة ، أو لكي يظلم الفكر أو لينقلنا من حالة

السلام إلى الغضب . فإذا حدث أن انجرفنا بالأشياء الحسية - التي يتخذها الغضب وسيلة للثوران - مثل الإكثار من المآكل أو الشراب ، أو الإقتراب من النساء وإمعان النظر فيهن والتحدث بأمورهن مما يشعل لهيب الشهوة ويحرك الجسد ، فإننا نُرغم على تحويل الوداعة الطبيعية إلى شراسة سواء بسبب تدفق أخلاط الجسد أو تنوّع المشاهد .

وقد يكون أحياناً تحرّكَ هذه الأشياء افتقاداً بسبب عجرفتنا ، غير أن هذه الحركة ليست مثل تلك . فالحروب التي يصادفها عامة الناس نسمّيها حروب الحرية . أمّا الحرب التي نُفتقد بها نحن فهي ناتجة عن عجرفتنا ، لأننا عندما نقضي زمناً طويلاً في الانتباه والصلاة والأتعاب ، ونظن أننا قد فعلنا شيئاً ، نُفتقد بها لكي تعلّمنا التواضع . أمّا الحروب الأخرى التي تفوق طاقتنا والتي لا تنتج من هذه الأسباب فهي وليدة التهاون ، لأن الطبيعة عندما تقبل ، عن طريق الشراهة ، أشياء محسوسة ليست ضرورية لها ، لا يعود بامكانها الحفاظ على نظامها بسبب ازدياد طاقتها . فمن يرفض الأحزان والشدائد بإرادته ، يرغم نفسه على حب الخطايا ، لأننا بدون الأحزان لا نستطيع النجاة من مراوغة العقل . فبمقدار ما تزداد الأوجاع تخف وطأة الحروب ، لأن الأحزان والمخاطر تقضي على هوى محبة اللذة ، أمّا الراحة فتغذيه وتنمّيه .

ويتضح من ذلك أن الله والملائكة يفرحون بالضيقات ، أمّا الشيطان وعماله فبالراحة . فإذا كانت وصايا الله تتم بالشدائد والضيقات ، ونحن نزدريها ، أفلا يعني هذا أننا نحتقر مُعطي هذه الوصايا عندما تتولد فينا الأهواء من الراحة؟ إننا بهذه الطريقة نبطل علّة الفضيلة أي الضيق والشدة. وبالتالي فإننا بمقدرا ما ندع راحتنا تتسع نكون قد أفسحنا المجال للأهواء. فالجسد إذا كان متضايقاً لا يستطيع أن يتشتت في الأمور الباطلة وإذا تحمل الأتعاب والشدائد بفرح يمكنه لجم أفكاره بقوة، لأن هذه الأفكار لا تَخْمُد إلاّ في الأتعاب. وعندما يتذكر الإنسان خطاياه الأولى ويؤدب نفسه من أجلها يسمح لله أن يعتني به ويريحه. يفرح الله عندما يرى الإنسان يفرض العقاب على نفسه عندما يخالف طريقه، وهذا دليل التوبة التي تريد إكرام الله له. وكل فرح لا ينشأ عن الفضيلة يثير في صاحبه بسرعة حركات الرغائب الشهوانية وليس الطبيعية. أمّا إلهنا فله المجد إلى دهر الداهرين، آمين.

المقالة الثامنة والعشرون

في سهر الليالي وكيفية إقامته

إذا أردت أن تباشر خدمة السهرانية بمؤازرة الله فافعل ما أقول لك : أحن ركبتيك حسب المعتاد ثم قم . لا تبدأ بالعمل حالاً بل صلّ وانتهِ من الصلاة واختم قلبك وأعضاءك بإشارة الصليب المحيي وابق صامتاً برهة من الزمن حتى تستريح حواسك وبعد ذلك ارفع تأملك الداخلي إلى الرب واطلب منه بحزن أن تقوى على ضعفك ، ويصبح هذيذك في المزامير وأفكارك القلبية مرضيين لمشيئته المقدسة ، ثم قل بهدوء صلاة قلبك على النحو التالي:

صلاة : أيها الرب يسوع المسيح إلهي ، يا من تفتقد خليقتك وتعلم أهوائي وضعف طبيعتي وقدرة خصمي ، أنت استرني وأنقذني من شرّه ، لأن قوته عظيمة وطبيعتي تعيسة وقوتي ضعيفة . فأنت إذاً أيها الصالح يا من تعرف ضعفي وتحمّلت أثقالي، احفظني من اضطراب الأفكار وتدفق الأهواء واجعلني أهلاً لهذا العمل المقدس حتى لا أفسد حلاوته بأهوائي ولا أكون أمامك جسوراً خالياً من الحياء .

يجب علينا بعد ذلك أن نسير في الخدمة بحرية تامة ، بعيداً عن أي فكر صبياني مشوِّش . وعندما نرى أن الصبح قد بدا ولم تنته خدمة السهرانية بعد ، يمكننا حذف تمجيد واحد أو اثنين من التماجيد المعتادة ، وذلك بإرادتنا ومعرفتنا ، حتى لا ندع شيئاً يبدّد حلاوة الخدمة ونعكر خدمة مزامير الساعة الأولى .

أمّا إذا كنت لا تزال داخل الخدمة ووشوشك فكرٌ يقول : اسرع قليلاً فالخدمة تطول ، فلا تكترث له . أمّا إذا ازداد ازعاجه لك فأعِدْ تمجيداً واحداً ، أو قدر ما تشاء ، وردّد المقاطع نفسها مرّات كثيرة بفهم كما اعتدت أن تفعل في الصلاة . وإذا ظلّ يزعجك ويضايقك فاترك الترتيل واركع وصلّ وقل : لا أريد

نزداد الكلام ، يا رب ، بل البلوغ إلى المساكن السماوية . وإنني على استعداد أن أسير لتوّي في كافة السبل التي تهديني إليها . إن الشعب الذي سبك العجل في البرية ظل تائهاً أربعين سنة يصعد الجبال وينزل الهضاب ومع ذلك لم يرى أرض الميعاد حتى من بعيد .

عندما تملّ من الوقوف أثناء السهرانية ، بسبب ضعفك وارتخائك أو بسبب طول الصلاة ، ويراودك فكر ما ، أو بالأحرى يكلمك الروح الرديء ، كما كلّم الحية ويقول لك : كفي ، أنت لا تستطيع الوقوف ، فقل له : لا ، بل سأجلس قليلاً أثناء قراءة كاثسما واحدة وهذا خير لي من النوم . وإذا سكت لساني ولم يتفوّه بالمزمور فذهني سيظل متأملاً بالله في الصلاة والهذيذ ، لأن اليقظة انفع لي من النوم . إن السهرانية لا تتم فقط بالوقوف وترتيب المزامير ، فهناك من يسهر في ترتيل المزامير طول الليل ، ومن يعمل مطانيات وصلوات خشوعية مع انحناءات إلى الأرض ، ومن يقضي الليل بالبكاء والدموع والنوح على الزلات ، (قيل عن أحد أولئك الذين انتقلوا عنا إن صلاته خلال أربعين سنة كانت عبارة واحدة : « أنا قد خطئت كإنسان أمّا أنت فاغفر لي كإله » وقد سمعه الآباء يردد هذه العبارة بحزن وكان يبكي دون انقطاع ، وبدل الخدمة كانت هذه صلاته ليلاً نهاراً) ، وهناك من يرتل قليلاً من المزامير عند المساء ويقضي بقية الليل في ترتيل الطروباريات ، ومن يقضي الليل في التمجيد والمطالعة ، وأخيراً من يقضي الليل كله واقفاً عندما يحاربه فكر الزنى .

أمّا إلهنا فله المجد والعزة إلى دهر الدهور ، آمين .



المقالة التاسعة والعشرون

في السبل التي تظهر للإنسان حلاوة أعمال سهر الليالي وتقرّبه إلى الله، وفي أن الذين يمارسون هذه الحياة يتغذون بالعسل كل أيام حياتهم

لا تظن أيها الانسان أنه يوجد في حياة الراهب عمل أعظم من سهر الليل . حقاً يا أخي أنه لعمل عظيم وضروري جداً للعفيف . فإذا لم يحصل للناسك تشتت واضطراب بالأشياء الجسدية واهتمام بالأمور الزائلة ، وظل محترساً من الدنيا ومحافظاً على نفسه ، بقي يطير بذهنه بسرعة ، كما لو كان له جناحان ، ويحلّق مرتفعاً إلى ملذة الله ويبلغ مجده بسرعة ويسبح في المعرفة التي تفوق العقل البشري بسبب خفته وشفافيته . لا تنظرنّ إلى الراهب الساهر بذهنه بتمييز كما تنظر إلى انسان ذي جسد ، لأن السهر هنا هو من عمل الملائكة حقاً . فالذين يسلكون هذه السيرة دائماً يستحيل على الله أن يدعهم دون مواهب عظيمة ، بسبب انتباههم ويقظة قلوبهم واهتمامهم بتوجيه أفكارهم نحوه . النفس التي تتعب في حياة السهر وتنجح فيها ، تحصل على عينين شاروبيميتين فتحدق بواسطتهما وترقب المشاهدة السماوية بصورة دائمة .

أعتقد أن من اختار لنفسه هذا التعب المضني الالهي بمعرفة وتمييز ، وقَبِل أن يحتمل هذا الثقل ، يستحيل عليه التراجع عن الجهاد في حقل المجد هذا ، وأن لا يصون نفسه أثناء النهار من اللقاءات والأحاديث والإهتمام بالأعمال ، حتى لا يُحرم من الثمار العجيبة والنعيم الكبير الذي يرجو جنيهما . وأقول بجرأة إن من يهمل هذا الأمر يجهل لأي سبب يتعب نفسه . فهو بالإضافة إلى حرمانه جسده من النوم

يرهق نفسه في قراءة المزامير الطويلة ويُشْقي لسانه ساهراً الليل كله . وإذا كان ذهنه يطوف خارج الترتيل والصلاة فإن تعبه باطل وهو يتمم واجباته بحكم العادة فقط . أمّا إذا اهتم - بدل اللقاءات والأحاديث والأعمال - بمطالعة الكتاب المقدس التي تقوي الذهن (لأنها قرينته ونوره) ، لوجد أنها تغذي الصلاة ، وتساعد على السهر ، وتهدي إلى السبيل المستقيم ، وتضاعف المشاهدة في الصلاة ، وتربط الذكريات خوفاً من التشتت في الأمور الباطلة ، وتغرس ذكر الله في النفس بلا انقطاع ، وترشد إلى طرق القديسين الذين أرضوا الله وتُكسِب الذهنَ حكمةً وشفافية ، وأن ثمر هذه الأعمال مليء بالخيرات .

فلماذا ، أيها الإنسان ، تفعل ما يضرّك ؟ إنك تقف الليل كلّه وتضنك ذاتك بالترتيل والتسابيح والطلبات . أفيصعب عليك الإحتراس قليلاً خلال النهار والإبتعاد عن الأصحاب لتؤهَّل لنعمة الله وتَرْبَح تعبك ؟ ولماذا تتعب إذا كنت ستزرع في الليل وتبدد في النهار ؟ لماذا تبدد اليقظة والصحو والحرارة التي حصلت عليها مضيّعاً تعبك باطلاً في أحاديث الناس المشوّشة دون سبب معقول ؟ إنك إذا جعلت عملك في النهار وهذيذك القلبي الحار استمراراً لتأملك الليلي ، ولم تضع بينهما أيَّ فاصل ستلتصق قريباً بصدر يسوع ، وإلاّ سيتضح أن سيرتك خالية من التمييز ، وإنك لا تعرف لماذا يجب على الرهبان أن يسهروا . أنت تظن أن هذه الأمور قد وُضعت من أجل التعب وليس لغاية أخرى تنجم عنها . فمن استحقّ ، بالنعمة ، أن يَعرف لماذا يُقاوِم المجاهدون النوم ، ويضغطون على طبيعتهم حتى يؤدّوا الصلوات كل ليلة بتيقظ أجسادهم وذكرياتهم ، يدركُ أهمية القوة الناتجة من صيانة النفس أثناء النهار ، ومَاهيّة العون الذي يُعطى للذهن خلال سكينة الليل ، وقوةَ السلطة على الأفكار ، ومقدارَ النقاوة التي يحصل عليها . ولأدرَك أيضاً أنه يُمنح الكثيرَ من الفضائل دونما تعب وإرهاق ، وأنه يكتسب شرف معرفة الأفكار بحرية . أمّا أنا فأعتقدُ أن الجسد إذا تلاشى بسبب ضعفه ولم يقدر على الصوم ، فإن الذهن يستطيع بواسطة السهر - دون غيره - أن يعيد للنفس حالتها ويهبُ القلب معرفةً لإدراك القوة الروحية ، إذا لم يتمادَ في الأحاديث خلال النهار .

فيا من ترغب الحصول على ذهن متيقظ بالله ، ومعرفةً للحياة الجديدة ،

أرجوك ألاّ تهمل حياة السهر طول حياتك لأنها هي التي تفتح عينيك لتشاهد مجد سيرتك وقوة طريق البر كله . أمّا إذا عاد إليك - معاذا الله - فكرُ تراخٍ مرسلٌ من معينك وولج اليك بقصد امتحانك (الله الذي اعتاد أن يفتقدك حتى تختبرَ تبدُّلك في هذه الأمور ، وتعلمَ إن كنت حاراً أو بارداً ، سواء بسبب ضعف الجسد أم لعدم قدرتك على تحمل التعب الذي اعتدت أن تكابده أثناء الترتيل والصلاة الشديدة والركعات الكثيرة التي كنت تقوم بها بصورة دائمة) ، فأرجوك بمحبة، إذا استحوذ عليك هذا الفكر واستحال عليك إتمام السهرانية ، أن تسهر ولو جالساً ، وتصلّي بقلبك ولا تَنَمْ ، بل حاول أن تَعْبُر الليل بكافة الطرق وأنت جالس تهذ بالمعاني الصالحة . فلا تقسّي قلبك وتظلمه بالنوم . إن حرارة النعمة الأولى والخفة والقوة التي فقدتها ستعود إليك لتملأك بالبهجة وشكر الله . إن الفتور والتثاقل يفتقدان الإنسان بقصد الإمتحان والخبرة ، فإذا تحرك بحرارة وضغط على نفسه ونفض عنه هذه الأمور تقترب منه النعمة ويعود كما كان ، وتفتقده قوة أخرى تخبّىء في طياتها كل خير وصلاح وكل صنف من أصناف المعونة . فعندما يتذكر تثاقله الأول ويقارنه بالراحة والقوة اللتين افتقدتاه وحولّتاه فجأة ، يتملكه الدهش والإعجاب ، ويقتني حكمةً تمكّنه من معرفة الضيق إذا حصل له مرة ثانية . فإذا لم يجاهد الإنسان في سنواته الأولى لا يستطيع اقتناء هذه الخبرة . أرأيتَ كم يصير الإنسان حكيماً عندما يوقظ نفسه ويصبر أثناء الحرب، شرط ألاّ تضعف طبيعة الجسد فتصبح الحرب إذ ذاك بدون فائدة؟ أمّا في ما عدا ذلك فحسن أن يَغصب الانسان نفسه .

عندما يُتمع جسدك بالإمساك والسهر والانتباه في السكينة ، وتحسّ بحدة هوى الفسق بصورة تخالف الطبيعة فاعلمْ انك تُجرَّب بداعي الكبرياء . عندئذ أمزج طعامك بالرماد والصق بطنك بالأرض وفتّش عن الأفكار التي تراودك واستقصِ تغيّرات طبيعتك وأعمالك التي تخالف الطبيعة ، حتى يرحمكَ الله ويرسل لك نوراً يعلّمك التواضع كي لا يتفاقم شرك . لكن علينا ألاّ نتوقف عن الجهاد والنشاط حتى نبلغ التوبة ونجد التواضع في داخلنا ويستريح قلبنا في الله ، الذي له المجد والعزة إلى دهر الداهرين ، آمين .

+

المقالة الثلاثـون

في شكر الله و في تعاليم و إرشادات هامة

إن من يشكر الواهب يحثه على عطايا أعظم . من لا يشكر على الصغيرات فهو في شكره على الكبيرات كاذب وظالم . من يمرض ويعرف داءه عليه أن يفتش عن الإستشفاء ، ومن يعترف بألمه يقترب من الشفاء ويبلغه بسهولة . القلب القاسي تزداد فيه الأوجاع ، والسقيم الذي يقاوم الطبيب يزداد ألمه . لا توجد خطيئة بدون مغفرة إلاّ التي بلا توبة ، ولا عطيّة بدون مزيد إلاّ التي بلا شكر . حصة الجاهل صغيرة في عينيه .

تذكّر أولئك الذين يمتازون عنك في الفضيلة لترى كم أنت أقلّ منهم . تذكّر دوماً الشدائد الصعبة التي يقاسيها أولئك أثناء الضيق والشقاء حتى تؤدّي الشكر اللائق لله على ضيقاتك الصغيرة والزهيدة وتتمكن من الصبر عليها بفرح . عندما يتغلّب عليك العدو بالضجر والإرتخاء ويربطك بشقاء أليم ويأسرك بفعل الخطيئة الشديد ، تذكّر في قلبك اجتهادك السابق ، وكيف كنت تهتم حتى بالأمور الصغيرة ، وافطن للجهاد الذي أظهرته وكيف كنت تندفع بغيرة ضد أولئك الذين كانوا يحاولون منعك من المسير . تذكّر أيضاً التنهدات التي سكبتها من أجل الزلات التي وقعت فيها نتيجة اهمالك ، وكيف أنك فزت عليها وحصلت على إكليل النصر . هذه الذكريات توقظ النفس كما من نوم عميق وتوشّحها بلهيب الغيرة وتنهضها من غرقها ، كما من بين الأموات ، وتعيدها إلى حالتها الأولى وتجدد نشاطها الحار ضد الشيطان والخطيئة .

تذكّر سقوط الأقوياء تتّضع بفضائلك . تذكّر الزلات القاسية التي سقط فيها كثيرون قديماً واستحقوا سمو الكرامة بعدما تابوا تكتسب شجاعة في توبتك . اضطهد نفسك يُطرد العدو بعيداً عنك . اجلب السلام لنفسك تستقبلك السماء

والارض بالسلام . اجتهد أن تدخل مخدعك السري تَرَ المخدع السماوي أيضاً ، لأن هذا وذاك واحد ، وبدخولك احدهما ترى الاثنين معاً . إنَّ سُلَّمَ ذلك الملكوت كائن في داخلك اي مخبأً في نفسك . تأمَّل خطيئتك بعمق تجد هناك مصاعد تستطيع الارتقاء بها[1] .

إن الكتاب اخبرنا ماهيّةَ الأمور في الدهر الآتي . فهل يمكننا أن نتمتع بها على أكمل وجه ما لم تتحوّل طبيعتنا ونخرج من هذا العالم ؟ لقد ارشدنا وحثّنا إلى اشتهاء أمور الدهر الآتي الجميلة ، المشوّقة المجيدة بقوله عنها : « الذي ما رأته عين ولا سمعت به اذن . . . » (١ كو ٢ : ٩) . وقد أنبأنا انّ الخيرات الآتية غير مدركة ولا تُشابهُ ما هو ارضي .

إن النعيم الروحي لا يكمن في حاجتنا إلى الأشياء المادية خارج النفس ، وإلاّ لكان « ملكوت الله فيكم » (لو ١٧ : ٢١) و« ليأت ملكوتك » (متى ٦ : ١٠) يعنيان شيئاً مادياً حسّياً نقتنيه في داخلنا عربوناً للنعيم السماوي . من الضروري أن يكون المُلْكُ شبيهاً بالعربون كما في مرآة وإن لم ينعكس فيها كما هو بالذات ، ومن الضروري أيضاً أن يكون الكلُّ شبيهاً بالبعض[2] . فإذا كانت شهادة مفسّري الكتاب صحيحة ، أي أن حس ملكوت السموات هو فعل الروح القدس ، فإن هذا الحس إذاً بعض من ذلك الكل .

+ محبُّ الفضيلة ليس من يعمل الخير بنشاط ، بل هو ذاك الذي يقبل السيئات ويتحملها بفرح . إن تحمل الشدائد من أجل الفضيلة لا يوازي قدرة الذهن ، عندما يختار المراد الصالح ، أثناء المضايقات والإثارة . وكل توبة كرهية لا يتدفق منها الفرح لا تحسب أهلاً للمكافأة .

أُستُرِ الخاطىء إذا لم يسبب لك ضرراً ، لأنك بهذه الطريقة تجعله يتشجع (على التوبة) ، أمّا أنت فترفعك رحمة سيدك . قوِّ الضعفاء وحزانى القلوب بكلامك ، وبمقدار ما تسخى يدك تعضدك يمين حامل الكل . كن شريكاً لحزانى

---

(١) الابن الشاطر عندما فكر بذنبه بعمق وجد مصاعد التوبة وعاد إلى أبيه .

(٢) الملك هو الملكوت السماوي والعربون هو الحياة مع المسيح في هذه الدنيا . الكل هو ملء الحياة الآتية والبعض هو الجزء الذي نعيشه مع المسيح في هذه الحياة .

القلب بصلاتك وبقلبك الشفوق فيفتح أمام طلباتك ينبوع الرحمة . أَضْنِكْ نفسك بالتضرعات أمام الله بقلب مفعم بالأفكار الصالحة والخشوع فيُحْفَظ ذهنك من الأفكار الدنسة حتى لا يُجَدِّف على طريق الرب بسببك . تفرَّغ دائماً لمطالعة الكتب الإلهية والتأمل فيها بفهم صحيح حتى لا تتدنس مشاهدتك بأمور غريبة بسبب بطالة ذهنك . لا تجرِّب ذهنك بأفكار قبيحة أو بأشخاص يثيرونك وأنت تظن أنهم لا يقوون عليك ، فالحكماء أظلمت أفكارهم بهذه الطريقة وأصبحوا جهالاً . لا تحتفظ باللهيب في حضنك إذا لم يكن عندك ضيقات أشد منه في جسدك[1] .

صعب على الشباب أن يُربط بنير القداسة دون ترويض . بَدْءُ ظلام الذهن - كلما بدت علامته في النفس - هو الكسل في الخدمة والصلاة، ولا سبيل لضلال النفس سوى الإنحراف عنهما . متى حُرِمت النفس من معونة الله تقع بسهولة بين أيدي أعدائها . ومتى أهملت النفس أعمال الفضيلة تجذبها الأمور المضادة . إن الإنتقال من مكان ما يعني بداية الطريق إلى المكان المعاكس ، فإذا كان من الرذيلة إلى الفضيلة عندها يبدأ الإنسان في عمل الفضيلة مهتماً بالأمور المفيدة للنفس ومزدرياً الأمور الدنيوية . أظهر ضعفك أمام الله دائماً فتنجو من تجربة الغرباء عندما تكون بعيداً عن ناصرك .

✝ عمل الصليب مزدوج بسبب ازدواج طبيعتنا . فالأول يتحمل الشدائد الجسدية ويتم بواسطة الجانب العاطفي للنفس ويدعى عملاً . والقسم الثاني كامن في عمل الذهن الدقيق وفي التأمل الإلهي وفي المثابرة على الصلاة وغيرها ويتم بواسطة القسم الرغائبي للنفس ويدعى مشاهدة (ثاوريا) . فالقسم الأول أي العمل ينقي الناحية العاطفية (الشهوة، الغضب الخ) للنفس بقوة الغيرة . أمّا القسم الثاني أي المشاهدة فتنقي طاقة المحبة التي في النفس، وهو الشوق الطبيعي الذي يصقل القسم العقلي للنفس . كل من يحاول القفز إلى المرحلة الثانية (المشاهدة) بدافع اللذة والعشق ،قبل أن يتروّض جيداً في المرحلة الأولى (العمل) يجلب عليه غضب الله لأنه لم يُمِتْ اولاً اعضاءه التي على الأرض ، أي أنه لم يَشْفِ ضعف أفكاره بالصبر والإهانات من أجل الصليب ، بل تجاسر على

---

(١) لا تجلب الحزن لنفسك إذا لم يكن هناك داعٍ لذلك.

تخيّل مجد الصليب بذهنه . وهذا ما تحدّث عنه القديسون القدماء عندما قالوا إن الذهن إذا حاول الصعود على الصليب قبل تحرر الحواس من الضعف يأتي عليه غضب الله . فالصعود الذي يجلب غضب الصليب لا يكمن في القسم الأول ، أي في الصبر على الشدائد ، الذي هو صلب الجسد بل في الصعود إلى المشاهدة الذي يمثل القسم الثاني ولا يتم إلاّ بعد شفاء النفس . فكل من يكون ذهنه مدنسا بالأهواء القبيحة ويسارع إلى تخيُّل الأمور السامية يكون قصاصه البكم ، لأنه لم ينقّ ذهنه أولاً بالشدائد وإخضاع شهوات الجسد ، لكنه ، لمجرد سماعه بهذه الأمور والقراءة عنها ، اتّجهَ نحو طريقٍ مليء بالضباب وسار مسرعاً وهو كفيف العينين ، لأن أصحاء البصر أنفسهم ، الذين يفيضون بنور النعمة ، هم في خطر ليل نهار ، رغم ان عيونهم تفيض بالدموع وصلاتهم لا تنقطع ، خوفا من الأسفار واللجج الصعبة التي تصادفهم والأشباح التي تتراءى لهم بمظهر الحقيقة الممزوجة بصور خدّاعة .

إن الأشياء الخاصة بالله ، تبادر إليك كما يُعتقد ، دون أن تشعر . نعم ، تبادر إذا كان المحلّ نظيفاً وليس وسخاً . فإذا لم تكن حدقة عين نفسك نظيفة لا تتجاسر على النظر إلى كرة الشمس حتى لا تحرم من البصيص الذي فيك - أي الإيمان البسيط والإعتراف التلبي والأعمال التي حسب قدرتك - وتطرح في مكان المعقولات الذي يعرف بالظلمة البرانية البعيدة عن الله ، والذي يمثل الجحيم فيكون مصيرك كمصير ذاك الذي تجاسر على الدخول إلى العرس بثياب رثة .

بالأتعاب والإحتراس تتجلى نقاوة الأفكار . وبنقاوة الأفكار ينبلج نور العقل الذي يهدي الذهن بالنعمة إلى المكان الذي لا سلطة للحواس فيه ، وحيث لا يعلّمون ولا يتعلّمون .

اعتبر أن الفضيلة هي الجسد وأن المشاهدة هي النفس ، وأن الاثنين هما انسان متحد بالروح مؤلف من قسمين حسيين . فكما أنه من المستحيل على النفس أن تدخل في صيرورة وولادة بدون نمو كامل لجميع أعضاء الجسد ، يستحيل أيضاً أن تدخل النفس إلى المشاهدة الثانية (التي هي روح الإعلان) كما ترتسم في الحشى المتقبل مادة الزرع الروحي دون إتمام عمل الفضيلة التي هي بيت التمييز الذي يقبل الاعلانات .

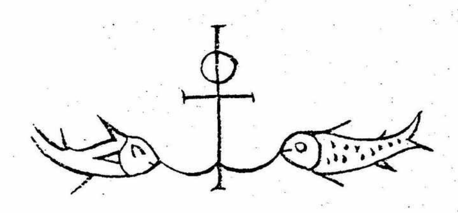
المشاهدة هي حس الأسرار الالهية الكامنة في الأشياء والأسباب . فعندما تسمع كلمة ابتعاد عن « العالم » أو إدراك « العالم » أو طهارة « العالم » عليك قبل كل شيء أن تعلم جيداً ، لا سطحياً بل بمعان عقلية ، ماذا تعني كلمة « عالم » ، ومن كم نوع تتألف . وعندئذ يمكنك أن تعرف نفسك ومقدار بعدها عن العالم واختلاطها به .

إن كلمة « عالم » تحمل معنى شاملاً وتضُمّ فيها الأهواء المعروفة . فإذا لم يدرك الانسان أولاً ما هو العالم ، لا يمكنه أن يعرف اعضاءه التي انفصلت عن العالم واعضاءه التي ما تزال مرتبطة به . كثيرون هم الذين انفصلوا عن العالم بعضوين أو ثلاثة وتحصّنوا بها معتقدين أنهم بهذه السيرة قد أصبحوا غرباء عن الدنيا ، ولم يفطنوا ولم يروا جلياً أنهم قد ماتوا عن العالم بعضوين فقط ولا تزال أعضاؤهم الأخرى تحيا للعالم في أجسادهم . والأهم من ذلك أنهم باتوا عاجزين عن معرفة أهوائهم مما أدى الى إهمال معالجتها .

العالم حسب النظرية المعروفة يسمّى تركيباً من حيث شموله الذي ينطبق على كل هوى بمفرده . فإذا أردنا أن نطلق اسماً على الأهواء بشكل عام نسمّيها عالماً ، وإذا أردنا أن نجزّئها ونطلق اسماً لكل منها على حدة نسمّيها اهواء . والأهواء هي ايضاً فروعُ لطرقِ استمراريةِ العالم ، وحيث تنتهي الأهواء تنقطع استمرارية العالم . أمّا الأهواء فهي التالية : حب الغنى وجمع اشياء شتى ، تنعم الجسد الذي منه تنشأ الدعارة ، الرغبة في الإكرام التي منها يأتي الحسد ، حب الرئاسة ، الانتفاخ بعظمة السلطة ، الزينة والإفتخار ، المجد البشري الذي يسبب الحقد ، الخوف على الجسد . فعندما تتوقف هذه الأهواء عن المسير يموت العالم . أمّا إذا بقي بعضها فيتأخر انتهاؤه . لقد ذكر أحدهم في حديثه عن القديسين أنهم كانوا أمواتاً وهم على قيد الحياة ، وهذا يدل على أنهم كانوا احياء بالجسد لكنهم لم يعيشوا بحسب الجسد . أمّا أنت فانظر في أيٍّ من هذه الأهواء تعيش فتعرف أيّ قسم منها يعيشُ للعالم وأيّ قسم قد انقطع عن العالم ومات فيك . وعندما تعلم ماهية العالم تستطيع أن تدرك ، من خلال تمييز هذه الأمور ، إن كنت قد تحررت منه أو أنك لا تزال مرتبطاً به . وحتى أتكلم بإيجاز أقول إن

العالم هو التفكير والسلوك بحسب الجسد ، والتحرر منهما هو الدليل على خروج الإنسان من العالم . وتغرُّبُهُ عن العالم يُعْرَف من سيرته الحسنة ومن تغيّر معاني ذهنه . إن كل ما ينبت (يخطر) في ذهنك من أشياء تجعله ينشغل في التفكير بها ، تساعدك على معرفة مستوى سيرتك . مثلاً ، ما هو الشيء الذي تتوق إليه الطبيعة دون تعب؟ وما هي الأفكار المتكرر والأفكار الموقتة؟ وهل بلغ الذهن إلى التفكير بالمعاني الروحية المجردة أم أنه لا يزال يفكر بطريقة مادية؟ وهل هذه الأفكار المادية مشحونة بالأهواء؟ إن الأختام التي تؤكد على صحة ما يتخيّله الذهن من أعمال على نحو لا إرادي هي الفضائل. ومنها يستمد، بلا مانع، حرارته ومقدرته على ضبط أفكاره في الهدف الصالح ليحوّلها إلى أعمال نسكية له. وهو ينجح في ذلك إذا لم يقم بها بدافع الهوى الخاطىء. وراقب ذهنك أيضاً حتى لا يبقى ضعيفاً أمام أختام الأفكار الخفية ، ذلك لكي يتضاعف فيه اللهيب الإلهي الذي يقطع منه الذكريات الباطلة.

هذه المعلومات القليلة التي وردت في هذا المقال تكفي لاستنارة الانسان إذا كان يعيش في السكينة منفرداً وتغنيه عن كتب كثيرة . إن خوف الجسد قوي في الإنسان الى درجة تجعله مكتوف اليدين أحياناً أمام الأعمال المجيدة والشريفة . لكن عندما يظهر خوف النفس يضعف أمامه خوف الجسد ويذوب بقوة لهيبه كما يذوب الشمع . أمّا إلهنا فله المجد إلى دهر الداهرين، آمين.



المقالة الحادية والثلاثون

في سموّ التمييز في السكينة وفي سلطة الذهن ومدى تحركه ضمن اشكال الصلاة وفي امكانية الطبيعة من حيث الصلاة

المجد لمن سكب مواهبه على البشر بغزارة والذي أهّلهم ، مع انهم جسديون ، أن يؤدّوا له الخدمة مع مصاف طبائع غير المتجسمين وأهّل طبيعة الترابيين للتكلم بأسرار كهذه ، وإن كانوا خطأة مثلنا وغير مستحقين لسماع أقوال كهذه . فقد فتح قلبنا المتحجر ، بنعمته ، لندرك هذه الأمور من خلال تأمل الكتاب المقدس وتعاليم الآباء الكبار . فإني ، شخصياً ، لم أستحق بجهادي الخاص أن أحصل على خبرة واحدة من آلاف الخبرات التي كتبتها بيدي ، وخاصة في هذا الكتاب الذي سأقدمه لحث نفوسنا واستنارتها وتنشيط أولئك الذين سيقرأونه إذا استيقظوا ودنوا منه برغبة .

ان اللذة التي تتولد من الصلاة هي غير المشاهدة الناتجة منها . فالثانية تفوق الأولى بمقدار ما يفوق الإنسان الراشد الشاب اليافع . أحياناً كثيرة تُستعذب الاستيخونات[1] في الفم ويعاد المقطع الواحد مرات عديدة دون ارتواء لدرجة يتعذر معها الإنتقال إلى استيخن آخر. وأحياناً أخرى تتولد من الصلاة مشاهدة تقطع الصلاة الشفوية ويصير الإنسان في ذهول، جسداً بلا نفس. هذه الظاهرة نسميها مشاهدة الصلاة وليست صورة خيالية كما يعتقد أولئك الجهلة. وفي مشاهدة الصلاة يوجد أيضاً مقياس وتمييز مواهب . وإلى هذا الحد تبقى الصلاة صلاةً ، لأن الذهن لم ينتقل بعد إلى حيث لا توجد صلاة - إلى ما هو أسمى من الصلاة - لأن حركات اللسان والقلب هم بمثابة مفاتيح للصلاة . وبعد الحركات

(١) قطع من المزامير.

يبدأ الدخول إلى المخادع السماوية . فليصمت هنا كل فم ولسان وكل قلب يكون مستودعاً للأفكار وليصمت الذهن حاكم الحواس الذي يشبه الطائر السريع الطيران الفاقد الخجل ، ولتتوقف كل أساليب الأفكار وليمكث فقط الباحثون لأن رب البيت قد حضر .



المقالة الثانية والثلاثون

في الصلاة النقية (تابع)

كما ان كل قوة الناموس والوصايا التي أعطاها الله للناس تتمّ بنقاوة القلب ، كما يقول الآباء ، هكذا تتمّ كل طرق الصلاة وأشكالها التي يستعملها الناس أثناء ابتهالهم إلى الله ، بحالة الصلاة النقية . فالتنهدات والركعات والإبتهالات القلبية والبكاء الحلو وكل أشكال الصلاة تتوقف سلطتها عند الصلاة النقية كما ذكرت . فعندما تبدأ الصلاة النقية ، وتجتاز كل الحدود ، لا يُسمح بعدها للذهن لا بالصلاة ولا بالحركة ولا بالبكاء ولا بالسلطة ولا بالحرية ولا بالإبتهال ولا بالشهوة ولا بأي رجاء آخر بملذات هذه الحياة أو الحياة الآتية . لذلك لا توجد أية صلاة بعد الصلاة النقية . فحركات الصلاة وأشكالها هي التي تحرك الذهن عادة ضمن هذا الإطار بقوة السلطة الذاتية ، ولذا لا تتم الصلاة بالحركات ، أمّا عندما يلج الذهن إلى حالة الحركات الروحية فإنه يتخلى عن الصلاة. الصلاة شيء والمشاهدة التي في الصلاة شيء آخر ، وإن كان أحدهما مرتبطاً بالآخر . تلك بذار ، أمّا هذه فأغمار سنابل ، منظرها مدهش لا يوصف يبهر عيون الحاصد عندما يراها سنابل مزهرة أفرعت من الحبات الصغيرة العارية التي رماها في الأرض . وهكذا يبقى في حقله منذهلاً عديم الحركة . كل صلاة هي ابتهال أو طلب أو شكرٌ أو تسبيح . فتّش إذن لتعلم إذا كانت إحدى أشكال الصلاة هذه قد دخلت إلى بلاد المشاهدة ، أو اسأل الذين تعلّموا على أيدي آباء يماثلونهم وتلقنوا الحقيقة من أفواههم ،وأمضوا حياتهم في هذه القضايا وأمثالها .

في الحقيقة : أسئلة وأجوبة

وكما انه لا يكاد يوجد بين الآلاف إنسان واحد أتمّ بعضاً من الوصايا والأمور المطلوبة وبلغ نقاوة النفس ، فإنه من الصعب أيضاً أن يوجد إنسان واحد

استحق الوصول ، بانتباه كثير ، إلى الصلاة النقية ، وهَدَمَ السور وحَظِيَ بذلك السر . إنهم قليلون جداً وقلّما تجد في كل جيل أكثر من واحد بلغ هذا السر بنعمة الله .

الصلاة طلبة واهتمام ورغبة إمّا في النجاة من تجارب هذا الدهر أو من عذاب الدهر الآتي أو لاقتناء ميراث الآباء . وبالطلبة يستمد الإنسان العون من الله . فضمن هذا الإطار إذن تنحصر حركات النفس . أمّا « نقاوة » الصلاة أو « عدم نقاوتها » فيظهران كما يلي :

إذا كان الذهن يستعد للقيام بإحدى هذه الحركات الذي ذكرناها ، والتصقت به فكرة غريبة أو وقع في تشتت ما ، عندئذ لا تسمّى الصلاة نقية ، لأن الذهن قد قدّم على مذبح الرب حيوانات غير طاهرة (القلب هو المذبح العقلي لله) . فإذا اعتقد أن هذه الصلاة غير النقية هي تلك التي سمّاها الآباء « الصلاة الروحية » بسبب عدم تعمقه في أقوالهم ، فهذا هو التجديف بعينه ، لأنه لا يوجد إنسان مخلوق يستطيع أن يقول إن الصلاة الروحية تميل إلى التفكير بالأمور الأرضية . فالصلاة التي تميل إلى الأسفل هي أدنى من الصلاة الروحية التي هي تحرّرٌ من الحركة . وإذا كان الإنسان قلّما يستطيع أن يصلّي بنقاوة ، فماذا نقول عن « الصلاة الروحية » ؟ لقد اعتاد الآباء القديسون أن يسمّوا الحركات الصالحة والأعمال الروحية صلاة . وكذلك جميع الذين استناروا بالمعرفة اعتادوا أن يرتّبوا جميع الأعمال الحسنة إلى جانب الصلاة . من هنا يتضح ان الصلاة شيء والأعمال شيء آخر . فالبعض يسمّي « الصلاة الروحية » سبيلاً وآخرون يسمّونها معرفة ، وغيرهم يدعونها مشاهدة عقلية . وهكذا ترى إنهم يبدلون الأسماء في القضايا الروحية لأن تحديد الأسماء وضبطها يتم بأدوات هذه الدنيا ، أمّا أمور الدهر الآتي فلا يمكن إيجاد أسماء حقيقية صحيحة لها ، بل هناك معرفة بسيطة تفوق كل تسمية ، وكل عنصر ، وكل شكل ، وكل لون وزيّ وكل ما له صلة بالأسماء المركبة . لذلك عندما ترتفع معرفة النفس عن العالم المنظور يستعمل الآباء هذه التسميات بطريقة حرة ليعبّروا بها عن حالات الصلاة . أمّا أسماء الصلاة الروحية فلا يعرفها أحد بالضبط ، ولكنهم يستخدمون تسميات وأمثال مختلفة لكي يثبتوا هذه المفاهيم النفسية التي تتولد منها ، كما قال أبونا في القديسين ديونيسيوس

الأريوباغي : « إن الأسماء التقريبية والأمثال والأقوال التي نستعملها متوقفة على الحواس » . لكن عندما تتحرك النفس نحو الالهيات بفعل الروح يبطل عمل الحواس وتبطل قوى النفس الروحية وتصبح مشابهةً للالوهة بالإتحاد اللامبدرك وتستنير حركاتها بشعاع النور العلوي .

فثق إذن ، أيها الأخ ، ان الذهن لا يستطيع تمييز حركاته إلاّ في الصلاة النقية . فإذا بلغها دون أن يرجع إلى الوراء أو يترك الصلاة ، عندها تصبح مثل وسيط بين أمرين : نفسي وروحي . فعندما يتحرك الذهن يشير إلى أنه ما زال في المجال النفسي . أمّا إذا اجتازه إلى المشاهدة فإنه يتوقف عن الصلاة . فالقديسون عندما يشف ذهنهم بالروح في الدهر الآتي لا يتقيدون بمراسيم الصلاة المعتادة ، بل يتمتعون بدَهَش المجد المسر والمبهج . وهذا ما يحصل لنا عندما يؤهَّل ذهننا للشعور بالغبطة الآتية فينسى ذاته وكل الأمور الدنيوية ويفقد حركته في كل شيء . وهكذا نستطيع القول والتأكيد على إن السلطة الذاتية هي التي توجّه كل فضيلة وكل خدمة صلاة ، سواء كانت بالجسد أم بالفكر ، وهي التي تحرك الذهن بواسطة الحواس التي يملكها . أمّا عندما تسود الذهن - مدبّر الحواس والأفكار - ارادة الروح وتدبيره فإن السلطة الذاتية تنتزع من الطبيعة ويصبح الذهن مقاداً لا قائداً . فأين الصلاة ، عندما تفقد الطبيعة سلطتها على ذاتها ، وتصبح مأسورة بسلطة أخرى ومقادة إلى حيث لا تعلم وغير قادرة على إدراك حركات ذهنها حسبما تشاء ؟ إنها تفقد إرادتها ولا تعرف بالتالي إن هي في الجسد أو خارجه حسب شهادة الكتاب (٢كو١٢ : ٢) . فالذي سُبي ولم يعد يعرف ذاته لا يمكن أن يصلّي . لهذا لا يجُدفَنَّ أحد ويقول متجاسراً إن الصلاة الروحية يمكن أن تُمارس . هذه الجرأة لا يمكن أن يقدم عليها إلاّ الذين يصلّون بتكبر ، أو الجهلة الذين يكذبون على أنفسهم ويدّعون إنهم يقدرون أن يصلّوا الصلاة الروحية عندما يشاؤون . أمّا المتواضعون والعقلاء فإنهم يرضون أن يتعلموا من الآباء وأن يعرفوا حدود الطبيعة ولا يحتملون أن يتجاسروا بفكرهم مثل هذه الجسارة .

سؤال : لأي سبب تسمّى هذه النعمة صلاة مع إنها ليست كذلك ؟

جواب : السبب هو أن هذه النعمة تنبع من الصلاة وتعطى للمستحقين

أثناءها . هذه النعمة المجيدة لا تجد فرصة للحلول إلاّ عند الصلاة لذلك تسمّى بإسمها ، ولأن الذهن لا يجد فرصة غيرها حتى ينقاد إلى تلك الغبطة ، كما يظهر من كتابات الآباء . فقد عرفنا كثيراً من القديسين الذين تذكرُ أخبارُ حياتهم إن أذهانهم كانت تُخطَفُ وهم يصلّون . وإذا سأل أحد : لماذا تحصل هذه المواهب العظيمة غير المنطوق بها في هذا الوقت فقط ؟ نقول : إن الإنسان في تلك اللحظة يكون مستعداً ومنضبطاً أمام الله ، راغباً ومنتظراً الرحمة أكثر من أي وقت آخر ، ولأن الصلاة هي الوقوف أمام باب المَلِك بغية السؤال ، وكل ما يُطلب في هذا الوقت يستمعه الرب . فهل يوجد وقت يكون فيه الإنسان مستعداً ومحترساً أكثر من هذا ؟ وهل وقتُ النوم هو المناسب ؟ أو وقت العمل ؟ أو عندما يكون الذهن مرتبكاً بالرغبة في الحصول على أحد الأشياء ؟ إن القديسين الذين لم يعرفوا البطالة ، لانشغالهم دائماً بالروحيات ، لم يكونوا مستعدين في كل حين للصلاة ، فقد كانوا يهتمون أحياناً ببعض أمور الحياة أو بتأمل المخلوقات أو بعض الأمور الأخرى المفيدة . أمّا في الصلاة فيجب أن تتجه مشاهدة الذهن إلى الله فقط، وأن تصوّب كل حركاته نحوه مقدمة له طلبات قلبية حارة باجتهاد مستمر . فالرضى الإلهي لا يفيض على النفس إلاّ إذا كانت مشغوفة بهذا الأمر الوحيد فقط . إن الكاهن إذ يستعد للصلاة ، حتى يرضي الله ، يضبط ذهنه ويتضرع كي يحل الروح القدس على الخبز والخمر الموضوعين على المذبح . ولقد ظهر الملاك لزخريا وقت الصلاة وبشّره بولادة يوحنا . أمّا بطرس فكان يصلّي على السطح في الساعة السادسة عندما رأى رؤيا دعته إلى هداية الأمم وذلك بواسطة السماط الذي دلّي من السماء واحتوى الحيوانات . وكورنيليوس ظهر له الملاك وهو يصلّي وأخبره ما هو مكتوب عنه . وكذلك يشوع بن نون كلّمه الله عندما كان يصلّي منطرحاً على الأرض . ورئيس الكهنة عندما كان يدخل إلى قدس الأقداس - مرة في السنة - ويسقط بوجهه على الأرض ، كان يسمع أقوال الله ، بمشاهدة رهيبة لا توصف ، من موضع الغشاء فوق التابوت ويتلقى الرؤى الإلهية المختصة بكل فرد من أبناء إسرائيل المجتمعين للصلاة في الخيمة الخارجية . فيا له من سر رهيب كان يتم آنذاك . إن هذه الرؤى التي ظهرت للقديسين لم تتمّ إلاّ في وقت الصلاة . فأيّ وقت أقدس وأكثر استئهالاً للحصول على المواهب من وقت الصلاة هذا حيث يتضرع الإنسان إلى الله ويتكلم معه ، قاهراً ذاته وضابطاً كل تحركاته وأفكاره ؟

وبعد أن يمتلىء قلبه بالله يفهم الأمور غير المدركة ، بواسطة الروح القدس الذي يتحرك في كل إنسان حسب وضعه الروحي ويتخذ من الصلوات التي يقوم بها حافزاً للإحتكاك به ، حتى إذا بلغ حالة الإنتباه تنعدم حركة الصلاة نفسها ويصبح الذهن في اختطاف وذهول فينسى مبتغاه الخاص وتسْبح حركاته في نشوةِ سُكْرٍ عميقة ويخرج من هذا العالم ولا يعود هناك تمييز بين النفس والجسد ولا ذكر لأي شيء آخر . وكما قال غريغوريوس الإلهي العظيم : «الصلاة هي طهارة الذهن وتتوقف عندما يختطفها الثالوث القدوس وعندما تدرك تلك الأمور التي تتولد منها في الذهن» . ويقول غريغوريوس أيضاً : «نقاوة الذهن هي تحليق في الأمور العقلية الصافية التي يسطع عليها نور الثالوث القدوس أثناء الصلاة » .

سؤال : متى يؤهَّل الإنسان لهذه النعمة ؟

جواب : يؤهَّل لها وقت الصلاة ، أي عندما يخلع الذهنُ الإنسان القديم ويلبسُ الجديدَ ، إنسانَ النعمة ، وعندما يرى نقاوته مشابهة للفلك السماوي الذي دعاه شيوخ إسرائيل « مكان الله » حين ظهر لهم على الجبل . ولهذا يجب ألاّ نسمّي هذه الموهبة والنعمة صلاة روحية ، بل وليدة الصلاة النقية التي يرسلها الروح القدس . عندها يتجاوز الصلاة ويجد ما هو أسمى منها ، فيتركها لعدم حاجته إليها بعد ، لأنه يصبح في انخطاف في الأمور غير المدركة التي تفوق أشياء العالم الزائلة ، ويصمت متجاهلاً كلَّ ما هو دنيوي . وهذا هو الجهل الذي تحدثت عنه سابقاً وقلت إنه يعلو على المعرفة . فمغبوط من أدرك هذا الجهل الذي هو وليد الصلاة وعسانا نؤهَّل له بنعمة ابن الله الوحيد الذي له المجد والكرامة والسجود ، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الثالثة والثلاثون

في كيفية الصلاة والطلبات وفي الأمور المفيدة التي توصل إلى الذكر الدائم الحاصلة أثناء المطالعة بتمييز واحتراس

إن الثبات على الرجاء بالله أثناء الطلب في الصلاة هو أحد جوانب نعمة الإيمان الحسنة . والثبات في الإيمان بالله لا يأتي من الاعتقاد الصحيح - الذي هو منبع الإيمان - بل أيضاً من النفس التي تشاهد حقيقة الله بقوة سيرتها .

عندما تجد الإيمان في الكتاب المقدس ممزوجاً بالسيرة الحسنة فلا تقل بعدها إن الاعتقاد المستقيم هو وحده أساس المشاهدة[1] لأن الإيمان الذي يعرِّفنا على الرجاء لا يمكن أن يدركه الذين لم يعتمدوا أو الذين فسدت أذهانهم. فيقين الإيمان يُعلَن لذوي النفس السامية الذين يتممون وصايا الرب كلّ بحسب مستواه.

إن التأمل المتواصل في الكتاب نور للنفس ، لأنه يطبع فيها ذكريات مفيدة تقيها من الأهواء وتثبت فيها الشوق نحو الله بالصلاة النقية ويمد أمامنا طريق السلام فنسير على خطى القديسين . علينا ألاّ نتراجع عن تلاوة المزامير حتى عندما لا يرافقها انتباه كبير وتخشع مستمر ، وكذلك في الصلوات وفي المطالعة كل ساعة .

لا ترفض ، عند الضرورة ، الأقوال الناتجة عن الخبرة وإن كان قائلها غير متعلّم . إن الكنوز الكبيرة التي يملكها ملوك هذه الأرض لا ترفض قبول فلس

(١) عندما تجد إنسانا بلغ المشاهدة فلا تنسب ذلك إلى صحة إعتقاده فقط ، بل إلى حسن سيرته ونشاطه أيضاً .

واحد ولو من متسول ، والأنهار الكبيرة لا تصبح كذلك إلاّ إذا انصبّت فيها السواقي الصغيرة .

في حفظ الذكريات

وإذا كان ذكر الصالحات يجدد فينا الفضيلة ، فإن تذكر الفجور يجدد في أذهاننا الشهوة العاطلة . وتذكُّرُ هذه الأمور يُظْهر تباينها وميزتها ويرسم في أفكارنا صورة واضحة تدلنا ، إمّا على رداءة تفكيرنا أو على سمو سيرتنا ، وتقوّي فينا الأفكار والحركات التي من اليمين أو من اليسار والتي يتأمل ذهننا بها في الخفاء . وبهذا التأمل تظهر ميزة سيرتنا أمام أعيننا على الدوام . وهذا ضروري . ليس العمل الباطل فقط هو الذي يؤذي صاحبه بل التأمل به أيضاً ، ثم التذكر الذي يكمِّل الاثنين . وليس عمل الفضيلة فقط هو الذي يساعد القائم به بل الخيال الذي يرتسم في الذهن أيضاً ثم تذكر الأشخاص القائمين بعمل الفضيلة .

إننا نعلم أن معظم الذين وصلوا إلى مرتبة الطهارة يؤهَّلون دوماً لمشاهدة بعض القديسين في رؤى ليلية ، تكون لهم في النهار وفي كل وقت مادة فرح دائم . فانطباعها في نفوسهم يولّد فيهم التأمل العقلي فيندفعون نحو عمل الفضائل بحرارة وشوق شديد . ويقال بأن الملائكة المكرمين يتخذون أشكال بعض القديسين المشرّفين الصالحين ثم يظهرونها للنفس في الأحلام لكي يفرحوها ويبهجوها ويعتنوا بها. أمّا في النهار فإنهم يحركون الأفكار لمشاهدتها بصورة مستمرة، فيسهل عليها العمل بسبب فرح القديسين . وهكذا هي الحال في الحروب ، فمن اعتاد التأمل بالسيئات تريه الشياطين ما قد اعتاد عليه . فهي تتخذ شكلاً وتري النفس خيالات مفزعة ، تأخذها من ذكريات النهار ، لكي تضعفها بهذه الرؤى المرعبة ، وتريها صعوبة حياة السكينة والوحدة .

أمّا نحن ، أيها الإخوة ، فلننتبه للذكريات حتى نعرف حالة النفس . وعلينا أن ندرك ونميّز تأملات ذكرياتنا لنعرف مع أي منها يجب أن نتحاور وأيّاً منها يجب طرده حال اقترابه من عقولنا . كما علينا أن نميّز هذه الذكريات لنعرف إذا كانت من الشياطين التي توقد الأهواء بالمادة الناجمة عن الشهوة أو الغضب ، أو أنها صادرة عن الملائكة القديسين الذين يمنحوننا علامة الفرح والمعرفة والذكريات التي توقظ

الحس عند اقترابهم منّا ، أو أنها ذكريات ناجمة عن حس الخطايا السالفة التي تولّد في النفس أفكاراً تميل بها إلى إحدى الجهتين (اليمين واليسار) . وهكذا نكتسب خبرة هذين الأمرين : المشاهدة والعمل - ونخصص صلاة لكل منها .

في المحبة

المحبة التي تبتغي شيئاً من الأشياء تشبه فانوساً صغيراً مشتعلاً يحافظ على نوره ما دام يُمَدّ بالزيت ، أو ساقية شتوية يقف جريانها بتوقف المطر . أمّا المحبة التي غايتها الله - ينبوع المحبة وحده - فإنها تشبه نهراً متدفقاً لا يتوقف جريانه ولا تشحّ مياهه أبداً .

كيف يجب أن نصلّي بدون تشتت

+ أتريد أن تتنعم بتلاوة المزامير وتحصل على فهم أقوال الروح التي تقرؤها؟ لا تكترث للكمية أبداً ، ولا تهتم بمعرفة الأوزان والألحان ، بل اتلُها كما تتلو الصلاة واترك استظهارها الذي اعتدت عليه . وافهم ما أقوله لك وما قيل قديماً : صلِّ كما تقرأ كتب من أرشدهم الله . وليكن ذهنك منتبهاً للتأمل في الآيات ، حتى تستيقظ نفسك بمعانيها العظيمة مندهشة من تدبير الله ، فتندفع أمّا إلى تمجيده أو إلى حزن مفيد لك . وإذا وجدت فيها ما هو مناسب للصلاة فاتخذه لأنه عندما يثبت الذهن فيه يزول عنك الغمام ، فلا سلام للذهن في عمل العبودية ولا تشويش ولا اضطراب في حرية الأبناء . إن التشويش من شأنه أن يزيل تذوّق الفهم والإدراك ويسلب المزامير معانيها كالعلقة التي تمتص الدماء من الأجساد فتقضي عليها .

لهذا نستطيع أن نسمّي التشويش مركبة الشيطان . فهو ، كالفارس ، يمتطي الذهن بشكل دائم ويمسك المقود ويُدخل النفس التعيسة حاملاً إليها كل أصناف الأهواء ويغرقها في التشويش . وأمر آخر يجب أن تنتبه إليه : لا تتل المزامير كمن يملي على آخر ، حتى لا تظن أن مطالعتك تزداد باستمرار ، فيبتعد عنك التخشع والفرح . كن كمن يتفوّه بكلماته الخاصة فتصير طلبتك مفعمة بالخشوع والفهم والتمييز ، مثل الذي يتقن عمله جيداً .

من أين يتولد الضجر والتشتت

يتولد الضجر من تشتت الذهن ، والتشتت من التوقف عن العمل والمطالعة ومن اللقاءات الباطلة أو من البطن المتخم .

يجب ألاّ نجادل الأفكار بل أن نرتمي بأنفسنا أمام الله

لا تجادل الأفكار التي يزرعها العدو فينا عادة واقطع حديثك معها متضرعاً إلى الله ، ينَلْ ذهنك حكمةً من النعمة . إن من يعرف هذه الحقيقة ينقذ نفسه من مشاق كثيرة ، وبإيجاده هذا السبيل القصير يقطع عنه كل تشتت في الطريق الطويل . إننا لا نقدر أن نجادل الأفكار التي تحاربنا وكثيراً ما تصيبنا بجراح يصعب شفاؤها في زمن قصير . فالذي يستعد لمجابهة الشياطين ، التي تحاربنا منذ ستة آلاف سنة [1]، بالحجج ، يعرِّض ذاته لضرباتها بما يفوق حكمته وفطنته بكثير . وهو ، وإن غلبها ، لن ينجو من تدنس ذهنه بقذارتها ورائحتها الكريهة التي ستظل في أنفه زمناً طويلاً . فالأفضل لك أن تقتني الخوف دائماً وتتحرر منها بالطريقة التي ذكرتها ، فلا معين في مثل هذه الأحوال سوى الله وحده .

في الدموع

الدموع التي تترقرق أثناء الصلاة هي دليل رحمة الله التي استحقتها النفس بتوبتها المقبولة ودليل دخولها روضة النقاوة . إذا لم تجرَّد الأفكار مما هو عابر ، ولم تنزع منها الأمل بهذه الحياة الدنيوية ، ولم يتحرك فيها ازدراء العالم ، لا تبدأ إعداد الذخائر الصالحة للخروج من العالم (الموت) . وإذا لم تتأمل النفس في نور الدهر الآتي ، لا تستطيع العينان سكب العبرات . فالدموع تأتي من التأمل السليم المنزَّه عن التشتت ، ومن الأفكار الكثيرة المتواصلة الثابتة ، ومن أقل ذكر حاصل في الذهن يسبب الحزن للقلب . بهذه الأفكار تكثر الدموع وتزداد شيئاً فشيئاً .

---

[1] أي منذ زمن السقوط (الناشر) .

في العمل اليدوي

عندما تنصرف إلى العمل اليدوي وأنت في السكينة ، لا تستغلّ وصية الآباء بدافع حبك للمال ، بل اشتغل قليلاً لتطرد عنك الضجر فلا يتشوش ذهنك . أمّا إذا كنت ترغب في زيادة العمل من أجل الإحسان ، فاعلم أن الصلاة أسمى رتبة منه . وإذا كان من أجل حاجات الجسد ، ولم تكن طمّاعاً ، فإن ما سيؤمّنه الله لك يكفي هذه الحاجات ، لأن الله لا يدع فعلته بحاجة إلى الأشياء الزمنية أبداً . ولقد قال : « اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه ، وكل هذا يُعطى لكم » (متى ٦ : ٣٣) .

قال أحد القديسين : إن نظام حياتك لا يكون بإشباع الجياع أو تحويل قلايتك نزلاً للغرباء . هذا نظام حياة أهل العالم الذين ينبغي عليهم القيام به كعمل صالح ، وليس نظام النساك الذين تحرروا من همّ كل ما هو منظور ، والذين يحافظون على نقاوة ذهنهم في الصلاة .



المقالة الرابعة والثلاثون

في السجدات (المطانيات) وقضايا أخرى

إذا دخلت حالة الانخطاف أثناء الصلاة الخالية من التشتت وتركت المزامير فلا تعتبر ذلك بطالة حتى وإن دام طويلاً . أحبب المطانيات في الصلاة أكثر من المزامير . وعندما تعطيك الصلاة يدها تعوّضك ما فات من الخدمة . وحين تعطي لك نعمة الدموع لا تعتبر تنعمك بها بطالة ، لأن نعمة الدموع كمال الصلاة .

إذا كان ذهنك مشتتاً وغير قادر على الصلاة ، ثابر على المطالعة ، واعلم أن الكتب ليست كلها مفيدة . أحبب السكينة أكثر من العمل ، وإذا كان بإمكانك فضّل المطالعة حتى على المزمور ، لأنها أمّ الصلاة النقية . لا تكن مهملاً أبداً ، واحذر التشتت دائماً . إن أساس السيرة الرهبانية هو الترنيم ، لكن إعلم أن الأعمال الجسدية أكثر إفادة من قراءة المزامير إذا كانت ستتلى بتشتت + حزن الذهن يفوق تعب الجسد . وإذا داهمك التهاون فاستيقظ وحرك غيرتك قليلاً ، لأن الغيرة توقظ القلب إلى حد كبير وتمنح معاني الأفكار حرارة . فالغضب أثناء الكسل يقوي الطبيعة ضد الشهوة الجسدية ويزيل الفتور من النفس . إن الكسل يحاربنا عادة لسببين : ثقل البطن أو كثرة الأشغال .

إن سير الأعمال بانتظام هو نور للعقل ، ولا شيء يضاهي المعرفة . فلتكن كل صلاة تقدّمها ليلاً أثمن من كل أعمال النهار. لا تثقل بطنك لئلا يتشوش ذهنك فتضطرب حين نهوضك في الليل وتنحلّ أعضاؤك وترتخي بكليتك شأن المرأة وتُظْلِم نفسك وتتعكر أفكارك فتمسي غير قادر على ضبطها أثناء قراءة المزامير بسبب الإدلهام المستحوذ عليك . وهكذا يفسد طعم الصلاة ولا يعود ترتيل المزامير - الذي اعتاد الذهن تذوقه بشهية عندما كان بهجاً وشفافاً - حلواً في فمك . وعندما يضطرب نظام الليل يتشوش الذهن في العمل أثناء النهار ، فيغدو سائراً في

العتمة ، محروماً من لذة المطالعة التي اعتاد عليها . وإذا انصرف إلى الصلاة أو المطالعة تنقضّ الظلمة على المعاني كالزوبعة ، لأن اللذة التي تمنح للنساك في النهار تتدفق على الذهن النقي من نور عمل الليل . وكل من لم يحصل على خبرة السكينة الطويلة لا ينتظرنّ أن يتعلم ويتقصى خيرات النسك وحدهُ وإن كان حكيماً عظيماً أو معلّماً ذا مآثر كثيرة .

+ إحذر أن يضعف جسدك أكثر من اللازم حتى لا يقوى عليك التهاون فتفتر نفسك وتفقد لذة عملها . يجب أن تَزِنَ سيرتك بدقة . فإذا كنت متّخماً تحفّظ قليلاً من دالتك . ليكن جلوسك عفيفاً عند قضاء حاجتك . كن عفيفاً ونقياً خاصة في نومك ، ولا تراقب فكرك وحسب بل أعضاءك أيضاً . احترس من الغرور إذا كنت تتقدم في سيرتك لأنه أمر خطير . أظهر للرب ضعفك وجهلك بكل جدّ أثناء الصلاة كي لا تسقط في تجربة رديئة لأن الترفّع يتبعه الفسق والغرور يتبعه الضلال .

ليكن عملك اليدوي لسد الحاجة فقط من أجل توطيد رباط السكينة . ولا تدع ثقتك ضعيفة بمدبرك فهو يصنع تدابير عجيبة مع أخصائه ويساعد بذاته وليس بأيدي البشر ساكني القفر الذين يتوكلون عليه . إذا افتقدك الرب في حاجاتك الجسدية ، وأنت مهتم بنفسك ، سيحاول الشيطان الغاشم أن يحتال عليك ويدفعك إلى الإعتقاد بأنك أنت سبب هذه العناية ، فتتوقف عناية الله بك بسبب هذا الإعتقاد ، ثم تتدفق عليك تجارب لا تحصى لتخلّي معينِكَ عنك أو لتجدد الأوجاع فيك بسبب الأمراض التي تسري في جسدك . إن الله لا يهملنا بمجرد فكر يخطر لنا ولكن بسبب إصرارنا عليه في الذهن : فهو لا يديننا ويؤدّبنا على حركة كرهية ، وإن وافقنا عليها لبرهة وجيزة ، ولا يحاسبنا إذا مارسنا الهوى لحظة ثم استدركناه بوخز الضمير وتخشّعْنا ، بل يحاسبنا على الحركة التي ينظر إليها الذهن بعناية ويقبلها كشيء مناسب ومفيد جاهلاً أنها تشكّل خطراً كبيراً عليه . أمّا نحن فيجب أن نتضرع إلى الرب ونقول :

صلاة : أيها المسيح ، يا من أنت ملء الحقيقة ، أشرق حقيقتك في قلوبنا فنتمكن من السلوك في طريقك بحسب مشيئتك .

إذا تسرب إليك فكر سيء وراودك باستمرار - سواء كان في أمر بعيد عنك أم خاص بك - فاعلم أن ثمة فخاً ينصب لك . لكن تيقظ و تروّ في تلك اللحظة . فإن كان من الأفكار الصالحة التي من جهة اليمين فاعلم أن الله يريد أن يهبك طريقاً للحياة ولهذا يتحرك فيك هذا الفكر بخلاف العادة . أمّا إذا كان فكراً مظلماً ، ولم تقدر أن تميّز إذا كان نابعاً منك أو أنه تسرّب إليك كاللص ، ولم تعرف إذا كان مساعداً أو محتالاً يتراءى بمظهر صالح ، فتأهب له بصلاة طويلة حارة في سهرات كثيرة . لا تطرده ولا تقبله بل صلّ من أجله بجدّ وحرارة ولا تكلّ من الابتهال إلى الرب فهو يظهر لك مصدره .

في الصمت

أحبب الصمت أكثر من أي شيء فهو يقرّبك من الثمر الذي يصعب وصفه باللسان . يجب أن نجبر أنفسنا على الصمت أولاً ، ثم يتولد في داخلنا ما يقودنا إلى الصمت . فليعطك الله أن تشعر بما يأتي من الصمت . لست أعلم مقدار النور الذي سيشرق فيك عندما ستبدأ هذه السيرة . لا تحسب يا أخي أن ذلك العجيب ارسانيوس - الذي كان يجلس صامتاً أمام الآباء والإخوة الذين كانوا يأتون إليه ثم يطلقهم بصمت - كان يفعل ذلك بإرادته فقط بل رغماً عنه في البداية . لأن ممارسة هذا العمل تولد مع الزمن لذة في القلب وترغم الجسد على الصبر في السكينة التي منها تتفجر ينابيع الدموع وتجعل القلب ، أثناء المشاهدة العجيبة ، يحس إحساساً خاصاً يسبب له أحياناً الألم وأحياناً أخرى التعجب . إن القلب يصغر ويصبح كقلب الطفل وعندما يبدأ بالصلاة تنهمر الدموع. عظيم هو الإنسان الذي يعتاد هذه السيرة العجيبة في نفسه ويقتنيها بالصبر. لأنك إذا وضعت أعمال السيرة الرهبانية كلها في كفة ، والصمت في الثانية ، ستجد أن الأخيرة ترجح على الأولى. إن ارشادات الناس وتوجيهاتهم كثيرة ، لكنّ سماعها غير ضروري لمن بلغ حالة الصمت لأن دنوّه من الكمال يجعله يفوق كل توجيه وإرشاد . والصمت يساعد السكينة أيضاً . فعندما نعيش مع كثيرين لا نستطيع تحاشي اللقاءات ، وحتى ارسانيوس المعادل الملائكة الذي أحب السكينة أكثر من أي شيء آخر ، لم يستطع

أن يهرب منها . إن لقاءنا مع الآباء والإخوة الساكنين معنا أمر لا مفر منه ، وخاصة اللقاءات المفاجئة والتي تحصل في الكنيسة وغيرها . إن ذلك المستحق الغبطة لما علم بهذه الأمور ورأى أنه من المستحيل الهرب منها - لأن مسكنه كان بالقرب من الناس وكان يستحيل عليه الإبتعاد عنه بسبب توافد الناس والرهبان الساكنين هناك - اهتدى بالنعمة إلى تعلّم طريق الصمت المستديم . فإذا رأى أحياناً أنه من الضرورة فتح الباب لبعضهم ، كانت رؤيته تملأهم بهجة ، أمّا حديثه فكانوا يعتبرونه غير ضروري .

بفضل هذه السيرة بلغ كثير من الآباء حالة روحية سامية ، وحفظوا أنفسهم ، واكتسبوا غنى روحياً من سيرة ذلك المغبوط . فمنهم من ربط نفسه على صخرة ، أو بحبل ، ومنهم من أذاب نفسه بالجوع كلما كان يشتهي الخروج لرؤية الناس لأن الجوع يساعد كثيراً على ضبط الحواس .

لقد وجدت ، يا أخي ، آباءً كثيرين وعجيبين يهتمون بضبط حواسهم والمحافظة على مناقبية أجسادهم ، لأن تهذيب الحواس يجلب تهذيب الأفكار . ولكثرة الأسباب التي تسيّر الإنسان كرهياً وتخرجه عن حدود حريته ، يصبح من الصعب عليه أن يعود إلى ذاته ويجد حالة السلام الأولى ، إذا لم يحفظ حواسه ويضبطها بواسطة عادة يمارسها باستمرار .

تقدّم القلب هو الهذيذ الدائم بالرجاء ، وتقدّم السيرة هو التحرر من كل شيء . ذكر الموت هو الرباط الصالح للأعضاء الخارجية . الفرح النابع من الرجاء المزهر في القلب هو خدعة للنفس . المعرفة تنمو بالتجارب المتواصلة التي يتلقاها الذهن كل يوم أثناء تحوّله إلى الخير أو إلى الشر . إذا صادفنا الضجر أحياناً بسبب الوحدة (وقد يحصل ذلك لأمور تدبيرية) فلنا تعزية الرجاء التي تفوق كلام الإيمان الذي في قلوبنا . لقد أجادَ أحد الآباء المتوشحين بالله حين قال : إن شوق الله يكفي لتعزية المؤمن حتى عند هلاك نفسه . وقال أيضاً : لا تستطيع الشدائد أن تؤذي الإنسان الذي ازدرى التنعم والراحة من أجل الخيرات الآتية .

أوصيك ، يا أخي ، أن تكون كفة الرأفة راجحة دائماً فيك حتى تحس في داخلك بمدى الرحمة التي يحتاجها العالم (مز ٣٢ : ٥). ولتكن لك مرآة تشاهد من

خلالها في نفسك الصورة والمثال الحقيقي لطبيعة الله وجوهره . فلنستضيء بهذه الأمور وبأمثالها حتى نسير حسب إرادة الله بنية مستنيرة . القلب القاسي والخالي من الرحمة لا يمكن أن يتنقى ، أمّا الإنسان الرحيم فهو طبيب نفسه لأنه يطرد من داخله ظلمة الأهواء مثل ريح عاصفة . هذا هو الواجب الصالح نحو الله حسب كلمة الحياة الإنجيلية : «كونوا رحماء. . .» (لو ٦ : ٣٦).

+ عندما تدنو من فراشك قل له : يا فراش لعلك تكون لي هذه الليلة لحداً . لست أعلم إن كان سيدخل إليّ هذه الليلة ذلك النوم الأبدي بدل الوقتي . ما دام لك قدمان فاسرع بهما نحو العمل قبل أن يُربطا بالرباط الذي لا ينحل . وما دامت لك أصابع فارسم بها إشارة الصليب قبل أن يدركك الموت . وما دامت لك عينان فاملأها بالدموع قبل أن تغطى بالتراب . فكما أن الورد يذبل إذا هبّت عليه الريح ، هكذا تموت أنت إذا هبّت الريح وفقدت أحد عناصرك . ضع ، أيها الإنسان ، فكرة الذهاب في قلبك وقل باستمرار : ها قد وصل الرسول إلى الباب وهو يتعقبني ، فلِمَ الجلوس ؟ لقد حضر الرحيل الذي لا عودة بعده .

من يحب الحديث مع المسيح يودّ أن يصير متوحداً . أمّا من يحب البقاء مع الكثيرين فهو صديق هذا العالم . إذا كنت تحب التوبة أحبب السكينة أيضاً ، فلا توبة بدون السكينة . وإذا عارض أحد هذا القول فلا تتشاجر معه . فإذا كنت تحب السكينة التي هي أم التوبة ، أحبب أيضاً الإدانات والمظالم التي تلتصق بها ، وتقبّل بلذة عناء الجسد مهما صغر ، لأنك بدون هذا التصرف لا تستطيع العيش في السكينة بحرية وهدوء . أمّا إذا تبنيته فتصبح مساهماً في السكينة حسب مشيئة الله وتبقى ثابتاً فيها إلى النهاية . إن الاشتياق إلى السكينة هو انتظار متواصل للموت ومن يدخل السكينة بدون هذا التأمل لا يمكنه أن يصبر على الأمور التي يجب تحملها على أية حال .

واعلم أيضاً ، يا صاحب التمييز ، أنه ليس بالأعمال الإضافية التي تتجاوز حدود القوانين يمكننا أن نحقق حياة الوحدة والسكينة والإنغلاق ، لأن الأعمال هي ميزة حياة الشركة وتساعد عليها بسبب نشاط الجسد . لقد كان هذا الأمر ضرورياً عندما ترك بعض الآباء مقابلة الناس والشركة معهم ، فبعضهم عاش في القبور ،

وآخرون اختاروا الإنغلاق في بيوت منفردة ، وتركوا الجسد وأهملوه حتى بات لا يستطيع إتمام قوانينه ، معانياً للمرض والتعب والشدة ، وكانوا طول حياتهم يتحملون الأمراض الشديدة بلذة . وكان منهم أناس قلّما استطاعوا الوقوف على أرجلهم لإتمام الصلاة المعتادة أو لتمجيد الله أو لأي شيء آخر يتم بالجسد . كانوا يكتفون بمرض الجسد والسكينة عوض القوانين . هكذا كانت حالهم كل أيام حياتهم ، ولم يكن أحد منهم ينتهز هذا الهمود الظاهري للخروج من قلايته للنزهة أو للذهاب إلى الكنائس ليفرح ويتنعم بأصوات الآخرين وخدمتهم .

من يعرف خطاياه وهو في مسكنه الموجود بين الناس أعظم ممن يقيم الموتى . من يتنهد ساعة واحدة من أجل نفسه أعظم ممن أُهّل لمشاهدة الملائكة ، لأن هذا يرى بعينين جسديتين ، أمّا ذاك فبعيني النفس . من يتبع المسيح بنوح الوحدة أعظم ممن يمدحه في الإجتماعات . فلا يتشبثنّ أحد بقول الرسول : « إني أتمنى لو كنت أنا ذاتي محروماً ومنفصلاً عن المسيح . . . . . » (رو ٩ : ٣) لأن هذا العمل لا يُفْرض إلاّ على من حصل على قوة بولس . أُعطي بولس هذه القدرة من الروح الذي كان فيه من أجل منفعة العالم ، كما يشهد هو نفسه ، لأنه لم يفعل شيئاً بمشيئته . قال : « إن التبشير ضرورة فرضت عليّ ، والويل لي إن كنت لا أبشر » (١ كو ٩ : ١٦) . فاختياره لم يكن يستهدف توبته بل بشارة الإنسانية ولهذا نال قوة مضاعفة .

أمّا نحن يا أخوة فعلينا أن نحب السكينة حتى يموت العالم في قلوبنا . يجب أن نتذكر الموت دائماً ، لأننا بهذا التأمل نقترب من الله بقلوبنا ونزدري أباطيل الدنيا ونمقت عيوننا لذّاتها . وعلينا أن نصبر بفرح على البطالة الدائمة[1] في السكينة بجسد ضعيف ، حتى نؤهَّل للنعيم مع أولئك الذين يسكنون الكهوف وثقوب الأرض والذين ينتظرون من السماء إعلان الرب الممدوح ، لأن له ولأبيه ولروح قدسه المجد والكرامة والعزة والبهاء إلى دهر الداهرين ، آمين .

(١) يعني عدم الاهتمام البالغ بالأمور الجسدية .

المقالة الخامسة والثلاثون

لماذا يصبو الأرضيون لمعرفة بعض الأمور الروحية من خلال بدانة أجسادهم ، وكيف يستطيع الذهن أن يسمو على هذه البدانة ، وما سبب عدم تحرره منها ومتى وكيف يمكن للذهن أن يبقى مثابراً على الصلاة بدون تخيلات

مبارك هو الرب الكريم الذي يفتح أمامنا باباً حتى لا نتمنى سواه ، فنترك كل شيء ونخرج في طلبه وحده ولا يكون فينا اهتمام آخر يمنعنا من مشاهدته. لأن الذهن ، يا إخوة ، عندما يطرح عنه الاهتمام بالأشياء المنظورة ويهتم برجاء المستقبلات، فإنه بمقدار ارتفاعه عن اهتمامات الجسد وتأمله في تلك المشاهدة يزداد شفافية وضياء في الصلاة ، وبمقدار ما يتحرر من عقالات الاهتمامات يزداد لمعاناً ، وبمقدار ما يستضيء يزداد رقة وتسامياً على أفكار هذا الدهر الذي يحمل كل ما هو غليظ وخشن. عندئذ يدرك الذهن أنه يشاهد الله بطريقة لائقة به، لا كما نراه نحن . فالإنسان إذا لم يصبح نقياً أولاً ، لا يمكن لأفكاره أن تكون واضحة في رؤية الخفيات . وإذا لم يتحرر من كل ما هو منظور في الخليقة لا يستطيع أن يتخلص من ذكرياته وأن يستريح من الأفكار المظلمة . فحيث يكون الإدغام والتعقيد في الأفكار توجد الأهواء . وإذا لم يتحرر الإنسان من هذه الأشياء ومن أسبابها لا يستطيع ذهنه أن يرى الخفيات . لذلك أمر الرب قبل أي شيء بالتمسك بعدم القنية والابتعاد عن ضوضاء العالم والتخلص من همّ الناس قائلاً : « هكذا

لا يقدر أحد منكم أن يكون تلميذاً لي ، إلاّ إذا تخلّى عن كل شيء له » (لو ١٤ : ٣٣) .

ولكي لا يتأذى ذهنك من مشهد أوسمع أو إنسان أو الإهتمام بزوال أمور ما أو ازديادها ، ولكي تربطه بالرجاء الإلهي فقط ، اصرف اهتمامك عن الأشياء فيجذبك الشوق إلى الحديث مع الله . لكن لا تنس أن الصلاة تحتاج أيضاً إلى ترويض طويل قبل أن يصبح الذهن حكيماً . بعد الحصول على عدم القنية الذي يحل ذكرياتنا من الرباطات ، تصبح الصلاة بحاجة إلى المثابرة ، لأن الذهن لا يحصل على الترويض ومعرفة طرد الأفكار إلاّ بممارسة الصلاة زمناً طويلاً فيكتسب خبرة واسعة لا يمكنه الحصول عليها إلاّ بهذه الطريقة . كل حياة تستمد نموّها وازديادها من حياة سبقتها ، وتسعى أن تجد فيها الحياة التي ستتبعها . فالصلاة يسبقها الزهد والإنعزال هو من أجل الصلاة ، وهي من أجل محبة الله باحتوائها دوافع هذه المحبة .

يجب أن نعرف يا أعزائي أن كل حديث يصير في الخفاء ، وكل اهتمام إلهي يقوم به الذهن الصالح ، وكل تأمل روحي ، كلها غايتها الصلاة وتسمّى وتجمع في هذا الاسم . ومهما كان نوع هذا الإهتمام سواء كان قراءة أم تمجيداً لله بالفم أم اهتماماً مؤلماً من أجله أم سجدات جسدية أم ترتيل المزامير أم أي شيء آخر فهو يأتي نتيجة الصلاة الصادقة التي منها تتولد محبة الله. إن المحبة تتولد من الصلاة كما تتولد الصلاة من الإنعزال. هدف الإنعزال هو الحصول على مكان نهذّ فيه بالله وحدنا، ويسبق الإنعزال الزهد بالعالم. وإذا لم يرفض الإنسان العالم أولاً ولم يتخلّ عن أموره الأرضية فلا يمكنه التوحد. ويسبق الرفض الصبرُ، والصبرَ مقتُ الدنيا، ومقتَ الدنيا الخوفُ والشوق. فإذا لم يُرْعِب القلب خوفُ جهنم، وإذا لم يَدْفَع الشوقُ القلب إلى الغبطة لا يمكن أن يتحرك فيه ازدراء الدنيا، وإذا لم يبغض العالم لا يمكنه أن يجد الراحة خارجه، وإذا لم يدخل الصبر الذهن أولاً لا يمكنه اختيار المكان المملوء بالوحوش والخالي من السكان، وإذا لم يعش حياة الإنعزال لا يمكنه المثابرة على الصلاة، وإذا لم يظل مثابراً على الهذيذ بالله ومتابعاً هذه التأملات المرتبطة بالصلاة، بكافة أنواعها المتسلسلة التي تكلمنا عنها، فلن يشعر بالمحبة.

محبة الله إذن تنشأ من الحديث معه ، والهذيذ والتأمل في الصلاة من السكينة ، والسكينة من عدم القنية ، وعدم القنية من الصبر ومقت الشهوات ، ومقت الشهوات من خوف جهنم ورجاء الغبطة . ماقت الشهوات هو من يعرف ثمرها ويدرك ما هو معدّ له ومن أيّة غبطة سيُحرَم بسببها . وهكذا فكل درجة في الحياة الرهبانية مرتبطة بما قبلها ومنها تستمد قوتها لتنتقل إلى درجة أسمى منها . فإذا فقدت إحداها لا يمكن للدرجة اللاحقة أن تثبت وتظهر ، وعندئذ تنحل الأمور كلها وتضمحل . أمّا إلهنا فله المجد والجلال إلى أبد الدهور ، آمين .

+ خوف جهنم وتذكر النعيم ← ازدراء الدنيا ← الصبر

الانعزال ← الصلاه ← المحب

+ خوف جهنم ورجاء الغبطة ← مقت الشهوات ← ال

← السكينة ← الهذيذ والتأمل في الصلاة ←

+ خوف جهنم + شوق الغبطة ← ازدراء الدنيا ← ...

الصبر ← الخلوة ← المثابرة على الصلاة ← الحب

المقالة السادسة والثلاثون

في عدم اشتهاء الآيات المنظورة وعدم طلبها بدون ضرورة

إن الرب ، رغم قربه من قديسيه واستعداده لمساعدتهم في كل وقت ، لا يظهر لهم قوته جلياً بعمل أو بعلامة محسوسة بدون ضرورة ، وذلك كي لا يتعطل إدراكهم ويتأذوا . وهذا العمل ليس إلاّ دليل عنايته بهم وليعلموا أن اهتمامه الخفي بهم لا يتوقف لحظة واحدة فيجاهدوا قدر استطاعتهم في كل الأشياء ويتعبوا في الصلاة . أمّا إذا تغلبت عليهم إحدى الصعوبات بسبب ضعفهم وتوقفوا عن إتمام عملهم لعدم قدرتهم الطبيعية على تحمّلها ، فإنه هو نفسه يتممه لهم كما يليق بعظمته وقدرته . وهو يعلم أن هذا التدبير يساعدهم ويقويهم خفية فيتشددوا في الضعف ، لذلك فإنه بعد أن يبدد ضيقهم الشديد بالمعرفة التي يمنحها لهم يدفعهم من خلال تأملهم بها إلى التمجيد المفيد في كلتي الحالتين (في التخلي وفي المساعدة) . وإذا استدعت الحاجة إظهار تدبيره لهم فإنه يفعل بحسب الضرورة . إن طرقه حكيمة جداً ولهذا لا تظهر لنا بطريق الصدفة بل عندما نحتاجها وتكون ضرورية لنا .

إن من يتجاسر ، عن غير ضرورة ، على التضرع إلى الله طالباً أن تتم عجائب وقوات على يديه ، لا شك أن الشيطان الخدّاع يجرّبه بفكره ويسخر به لافتخاره وضعف ضميره . علينا أن نطلب معونة الله ونحن في الضيق ، ومن الخطر أن نجرّب الله بدون حاجة ، ومن يفعل ذلك لا يكون باراً . إن مشيئة الله قد تمّت في القديسين بدون إرادتهم . فالذي يريد أن يحقق ما يهواه دون حاجة ترفع عنه الصيانة ويقع جثة هامدة ، ويميل عن معرفة الحق . وإذا استجيب له ـ كما اعتاد أن يطلب من الله سابقاً بجسارة ـ يعطي الشرير حجة ليقوده إلى أمور اسوأ ، لأن

الأبرار الحقيقيين لا يرغبون هذه الأمور إنما يرفضونها عندما تعطى لهم ليس فقط أمام الناس بل في داخلهم أيضاً .

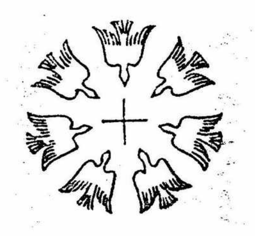
إن أحد الآباء القديسين نال - نتيجة طهارته - موهبة معرفة القادمين إليه قبل وصولهم ، لكنه طلب من الله أن يرفعها عنه ، مستعيناً بصلوات القديسين الآخرين ليُستجاب له . فإذا كان بعضهم قد حصل على مواهب كهذه ، فذلك عائد لكونها ضرورية لهم أو إلى بساطتهم . أمّا البعض الآخر فكانت تفعل فيهم مشيئة الله عند الحاجة ولهدف معيّن وليس بصورة موهبة دائمة .

أنظر إلى ذلك المغبوط عمون ، عندما كان ذاهباً ليسلّم على القديس أنطونيوس ، ماذا قال لله وماذا صنع الله له . تذكّر القديس مكاريوس والقديسين الآخرين . إن الأبرار الحقيقيين يعتقدون دوماً أنهم لا يستحقون الله ، ولأنهم يضنكون أنفسهم ويعتبرون أنها لا تستحقّ عناية الله ، يؤكدون أنهم قديسون حقيقيون . إنهم يقرون بذلك سراً وعلناً ، فيحصلون على الحكمة من الروح القدس ولا يتخلفون عن الإهتمام والعمل المتوجب عليهم ما داموا في هذه الحياة . إن زمن الراحة قد حفظه الله لهم للدهر الآتي ، لذلك فالذين سكن الرب فيهم لا يشتهون الراحة والتخلص من الشدائد في الدهر الحاضر ، وإن كانوا يُعزّون في جهاداتهم الروحية من حين إلى آخر .

إن بلوغ الفضيلة لا يعني ترك الإهتمام بها أو التعب من أجلها . من أراد أن يكون مظلة الروح القدس ينبغي أن يرغم ذاته على الخضوع باستمرار لعمل ما وإن كانت هناك طريقة أخرى مريحة للحصول على مبتغاه . فالروح الذي سكن هؤلاء لا يريدهم أن يعتادوا الكسل ويفتشوا عن الراحة بل أن يهتموا بالعمل وأن يسلّموا ذواتهم إلى الضيقات المتنوعة ، لأنه بالتجارب يشدّدهم ويقرّبهم من الحكمة . هذه هي مشيئة الروح : أن يُتعب أحباؤه ذواتهم .

إن روح الله لا يسكن في الذين يعيشون في الرفاهية ، بل الشيطان ، كما قال أحد محبي الله : « حلفت أن أموت كل يوم » . بهذا يتميّز أبناء الله عن الآخرين ، فهم يعيشون في الضيقات بينما العالم يتنعم بالرّغد والراحة . إن الله لا

يُسر براحة أحبائه طالما هم في الجسد ، بل يريد - ما داموا في العالم - أن يكونوا في ثقل وشقاء وفاقه وعري ووحدة ومرض وهوان ولطمات وانسحاق قلب وجسد مضنوك وانفصال عن الأهل وعقل حزين وفي مشهد يختلف عن مشهد الخليقة كلها ، وفي مقام لا يشبه مقام الناس وفي مكان عزلة وهدوء بعيداً عن الناس خالٍ من كل ما هودنيوي . هم يبكون والعالم يضحك ، هم يعبسون والعالم يتهلل ، هم يصومون والعالم يتنعم . يشقون في الليل وفي النهار ويرغمون أنفسهم على الجهاد بأتعاب وضيقات ، منهم بضيقات إرادية ومنهم بتعب الأهواء وآخرون باضطهاد الناس . وقعوا في أخطار الآلام وحاربتهم الشياطين وطُردوا وقُتلوا وساحوا في جلود الغنم والمعزى . وقد تم فيهم قول الرب : « ستعانون الشدة في هذا العالم ، فتشجعوا » (يو ١٦ : ٣٣) . ولأن الرب يعرف أنه يستحيل عليهم البقاء في محبته وهم في راحة الجسد فقد منع عنهم الراحة وملذاتها . فمن المسيح مخلصنا نطلب أن يظهر لنا قوة محبته التي تفوق كل موت جسدي .



المقالة السابعة والثلاثون

في الذين يعيشون بقرب الله ويقضون أيامهم في حـــياة المعرفـــة

كتب أحد الشيوخ على حائط قلايته أقوالاً وأفكاراً متنوعة ، وعندما سئل عنها أجاب : هذه أفكار البر التـي يوحيهـا إليّ الملاك الماكث معـي، والأفكار المستقيمة النابعة من ذاتي . أكتبها كلما خطرت لي حتى إذا أحاطت بي الظلمة أتأمل بها فتنقذني من الضلال .

شيخ آخر كانت أفكاره تداهمه بقولها : لقد أُهِّلت للرجاء الآتي بدل هذا العالم الزائل . وكان يجيبها : باطلاً تمدحينني ، فإنني ما أزال سائراً في الطريق ولم أبلغ منتهاها بعد .

إذا صنعت فضيلة حسنة ولم تحس معاضدتها فلا تتعجب من ذلك . إن الإنسان لا ينال أجر عمله ما لم يتواضع ، ولا تعطى المكافأة من أجل العمل بل من أجل التواضع . ومن لا يعطي التواضع حقه يخسر العمل أيضاً ، ومن سبق ونال مكافأة الصالحات (أي التواضع) يفوق الذي يعمل الفضيلة . الفضيلة أم الحزن ، ومن الحزن ينشأ التواضع ، وللمتواضع تُعطى النعمة . فالمكافأة اذن لا تُعطى لأجل الفضيلة ولا للألم الناجم عنها ، بل للتواضع الكامن فيها ، فإذا فُقد التواضع فإن الألم والفضيلة يصبحان باطلين .

إن عمل الفضيلة هو حفظ وصايا الرب ، والإزدياد في عمل الوصايا هو نتاج الذهن الصالح الذي قوامه التواضع والإحتراس . وعندما تفقد قوتك ولا يعـود بإمكانك تنفيذ الأمرين الأولين ، فاكتفِ بالتواضع . وهذا مقبول لأن المسيح لا يطلب عمل الوصايا بل إصلاح النفس التي سنّ الوصايا من أجلها .

إن الجسد يعمل الصالحات والسيئات على السواء ، أمّا الذهن فيفعل ما يشاء ، فإمّا أن يبرر أو يدان . ثمة من يصنع خلاصه بالكوارث والنوائب التي يفتقده الله بها بحكمته ، وثمة من يصنع الخطيئة جاعلاً الله سبب محنته .

إن العاهات الجسدية تكون عند الذين حفظوا ذواتهم صيانة للبر ، أمّا الموهبة بدون تجارب فهي هلاك للذين يقبلونها . فإذا عملت خيراً أمام الله وكافأك بموهبة فاطلب منه بإلحاح أن يعطيك معرفة التواضع الموافقة لك ، أو أن يضع حارساً لها ، أو أن يستردها منك حتى لا تصبح سبباً لهلاكك ، لأنه ليس بإمكان الجميع أن يحتفظوا بالغنى ويتجنبوا أذاه .

النفس المهتمة بالفضيلة بدقة والمتوشحة بخوف الله لا يمكن أن تحيا يوماً واحداً بلا حزن ، فالفضائل ترتبط بالأحزان ارتباطاً وثيقاً . من يهرب من الضيقات ينفصل عن الفضيلة مباشرة ، فإذا كنت تشتهي الفضيلة سلّم نفسك للشدائد لأنها تولّد التواضع . إن الله لا يريد أن تكون النفس خالية من الإهتمام ، ومن لا يريد أن يهتم بشيء هو خارج عن إرادة الله ومتفرد برأيه . نقصد هنا الإهتمام في سبيل الأعمال الصالحة وليس الإهتمام بالجسديات . وقبل أن نبلغ المعرفة الحقيقية ، أي إعلان الأسرار ، لا نقدر أن ندنو من التواضع إلاّ بالتجارب ، لأن الذي يعيش في الفضيلة بدون شدة يُفتح أمامه باب الكبرياء .

فمن يرغب اذن أن يكون عقله خالياً من الحزن؟ إن الذهن لا يمكنه الثبات في التواضع بدون اللطمات ، ولا أن يثابر على الصلاة والتضرع الى الله بنقاوة دون اتضاع + إن ابتعاد عقل الإنسان عن الإهتمام المتوجب عليه يقرّب منه روح الكبرياء ، وإذا بقي في الكبرياء يبتعد عنه ملاك العناية الذي يرافقه ويحثه على الإهتمام بالفضيلة ، وهو يبتعد أيضاً إذا خالفه ، وبابتعاده يدنو منه الغريب فيفقد كل اهتمام خاص بالبر .

يقول الحكيم : « قبل الإنحطام الكبرياء » (ام ١٦ : ١٨) . وقبل الموهبة التواضع . إن التأديب بالإنحطام ، الذي يسمح به الله ، يكون بمقدار الكبرياء الظاهر في النفس . الكبرياء ليس مجرد فكرة عابرة في الذهن ، أو فكر يتسلط على

الإنسان من وقت لآخر ، بل هي الحالة المستمرة والثابتة فيه . الأولى يتبعها ندامة وخشوع ، أمّا الثانية ، إذا عشقها الإنسان فلا تدعه يعرف الندامة والخشوع إطلاقاً . أمّا إلهنا فله المجد والعظمة إلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الثامنة والثلاثون

في معرفة الإنسان لقامته الروحية من خلال أفكاره

يظل الإنسان خائفاً من الموت ما دام يعيش في الفتور . ويخاف من الدينونة عندما يقترب من الله ، وإذ يبلغ إليه تبتلع المحبة الكاملة الخوف والموت معاً . كيف يحصل ذلك ؟ إن الإنسان يرتعب من الموت عندما يرتكز على المعرفة والحياة الجسديتين ، أمّا إذا بلغ المعرفة الروحية والسيرة الصالحة فإن ذكر الدينونة الآتية يراود ذهنه كل لحظة ، مما يدل على أن طبيعته قد اصطلحت وأنه أخذ يتحرك على صعيد روحي ويفكر بحسب معرفته وسيرته ، وأن اقترابه من الله قد أصبح حثيثاً . فإذا بلغ معرفة الحق - التي تتم بحس الأسرار الإلهية وبثبات رجاء المستقبلات - تبتلع المحبة خوفه الجسدي ويصبح شبيهاً بالحيوان الذي لا يخاف الذبح . الانسان يخاف الدينونة ، أمّا الذي يصبح ابناً فإنه يتهذب بالمحبة وليس بالعصى المخيفة . « أمّا أنا وبيتي فنعبد الرب » (يش ٢٤ : ١٥)[1] .

إن من بلغ محبة الله لا يشتهي البقاء هنا لأن المحبة تبطل الخوف . لقد أصبحت جاهلاً يا أعزائي ولا أستطيع حفظ السر مكتوماً . وها إني أفقد صوابي من أجل إفادة الإخوة ، لأن المحبة الحقيقية لا يمكنها أن تكتم السر عن الأحبة . مراراً كثيرة كانت أصابعي تتوقف عن الكتابة وتبقى على الورق وأمسي غير قادر على تحمل اللذة المنسكبة في قلبي والتي كانت تهدّىء حواسي وتسكنها . لكن طوبى لمن يهذّ بالله على الدوام ، ويمتنع عن كلّ ما هو دنيوي ، ويكرّس ذاته للتأمل بمعرفة الله ، فإن كان صبوراً طويل الأناة سيرى الثمر في وقت قصير .

---

(١) يوجد ثلاث طبقات من الناس : (١) البعيدة عن الله التي تخاف الموت بسبب الحوادث الطبيعية خوفاً جسدياً ، (٢) التي تعيش حياة متوسطة وهي تخاف دينونة الله ، (٣) التي حصلت على البنوة وهي التي تغلبت على خوف الموت والدينونة بمحبتها الشديدة لله ، لأن المحبة تطرد الخوف كما يقول في نفس المقالة .

إن الفرح الإلهي أعظم كثيراً من هذه الحياة ، ومن وجده لا يزدري الأهواء وحسب بل يفقد الإهتمام بحياته وبأي شيء آخر . إن هذا الفرح حقيقي . فالمحبة أشهى من الحياة ، والأحلى منها هو الفهم الإلهي الذي تنشأ منه المحبة الإلهية وهي ألذ من الشهد . لا حزن في المحبة وإن اضطرت إلى قبول ميتات كثيرة من أجل محبيها . المحبة وليدة المعرفة . والمعرفة تنشأ من النفس السليمة ، وسلامة النفس قوة تكتسب بالصبر الطويل .

سؤال : ما هي المعرفة؟

جواب: هي حس الحياة الأزلية .

سؤال : وما هي الحياة الأزلية؟

جواب : هي الاحساس بالله . من الإدراك تتولد المحبة ، والمعرفة الإلهية ملكة الرغائب كلها . والقلب الذي يقبل هذه المعرفة يعتبر الحلاوة الأرضية شيئاً تافهاً ، فلا يوجد شيء يشبه حلاوة المعرفة الإلهية .

صلاة : يا رب ، املأ قلبي بالحياة الأزلية .

الحياة الأزلية هي تعزية إلهية ومن يجدها يعتبر كل تعزية دنيوية أمراً تافهاً .

سؤال : كيف يحس الإنسان أنه قَبِلَ حكمةً من الروح؟

جواب : بواسطة الحكمة نفسها التي تعلّمه سرياً وحسياً أحوال التواضع ، وتُعْلِن لذهنه كيفية قبوله .

سؤال : كيف يحس الإنسان أنه قد بلغها؟

جواب :عندما ينبذ مخالطة الناس والحديث معهم ، وعندما تكره عيناه مجد العالم .

سؤال : ما هي الأهواء؟

جواب : هي هجمات وضعت في أمور هذا العالم ، تدفع الجسد إلى إتمام حاجته الضرورية وهي لا تتوقف عن الهجوم ما دام العالم موجوداً . والإنسان الذي أهِّل للنعمة الإلهية وأحس بما يفوق هذه الأمور كلها ، لا يدع هذه الهجمات تتسرب إلى قلبه ، لأنه وضع في مركز الهجوم شهوة أكبر وأسمى بكثير . فلا الهجمات تقترب منه ولا كل ما ينتج عنها ، بل تبقى واقفة في الخارج دون أي تأثير . وهذا لا يعني أن هجمات الأهواء لم يعد لها وجود ، لكن القلب الذي هو هدف هجومها قد أصبح ميتاً عنها وعائشاً

لشيء آخر . وهذا لا يعني أيضاً أن القلب قد أنهى مهمة التمييز والأعمال ، بل أنه لم يعد في ذهنه شيء يزعجه لأن ضميره قد أصبح مليئاً بنعيم آخر.

إن القلب الذي يقبل حس الروحيات ومشاهدة الدهر الآتي بدقة، يصبح حالة ضميره ، بالنسبة لتذكر الأهواء ، كالإنسان الذي شبع من المآكل الفاخرة فأصبح لا يأبه ولا يشتهي أية أكلة أخرى بعدها . إنه يرذلها مبتعداً عنها ، لا لقذارتها وحسب ، بل لامتلائه من الأكلة الأولى الفاخرة . إنه ليس مثل الشاطر الذي بذّر غناه الأبوي وأخذ يشتهي الخرنوب . إن من يؤتمن على كنز لا ينام .

إذا حفظنا ، بمعرفة ، قانون الإنتباه وعمل التمييز ، لأن منهما تتأتى ثمار الحياة ، فلن تقترب من أذهاننا هجمات الأهواء بالكلية . فما يمنع دخول هذه الأهواء إلى القلب ليس الجهاد بل امتلأ الضمير ومعرفة النفس والتشوق إلى الرؤى العجيبة الموجودة فيها ، لأن القلب لم يعد بحاجة إلى اليقظة وعمل التمييز اللذين يصونان معرفة الحق والنور النفسي . إن طعام الفقراء مرذول عند الأغنياء ، وطعام المرضى لا يستطيبه الأصحاء ، ولكن الغنى والصحة هنا يحصلان بالإنتباه والإجتهاد واليقظة ، والإنسان بحاجة إليها ما دام حياً ليحفظ كنزه ، وإذا أهملها فليعلم أن كنزه سيُسلب منه . إن العمل يجب ألاّ ينتهي عند رؤية الثمر ، بل يفرض جهاداً حتى الموت ، لأننا لا نعرف متى ينزل البَرَد فجأة فيتلف الثمر بعد نضوجه . إن من يتدخل في ما لا يهمه ويضنك نفسه بالعلاقات لن يجد أية ضمانة لبقائه بصحة سليمة .

صلاة : أهّلني يا رب أن أموت ، بالحقيقة ، عن علاقات هذا الدهر.

واعلم أنك بهذه الصلاة قد شملت كل الصلوات . جاهد في إتمام هذا العمل ، لأنه إذا تم بالصلاة فلا شك أنك ماثل بالحقيقة في حرية المسيح . الموت عن العالم ليس الإمتناع عن الإشتراك في الحديث عن أموره فقط ، ولكنه توقف الفكر وانقطاعه عن اشتهاء خيرات الدنيا .

إذا عوّدنا أنفسنا على التأمل الصالح فإننا نزدري الأهواء وأسبابها عندما نصادفها أو نقترب منها ، وهذا ما يعرفه من نالوا الخبرة . عندما تشتهي عملاً ما حباً بالله ضع الموت من أجله نصب عينيك ، وعندئذ تستحق رتبة الشهادة ، وتتغلب على كل هوى ، وتصان من كل اذيّة ناجمة عن القرار الذي اتخذته ، إذا صبرت حتى النهاية بدون تراخ . إن تأمل الفكر الضعيف يضعف قوة الصبر ، أمّا الذهن الحازم فيمنح من يستجيب له قدرة لا تملكها الطبيعة .

صلاة : يا رب أهّلني أن أمقت حياتي لكي أحيا فيك .

إن الحياة في هذا العالم تشبه الأحرف الموضوعة قيد التخطيط ، فإذا أراد أحد أن يزيد أو يحذف أو يعدل فيها ، يمكنه ذلك . أمّا حياة الدهر الآتي فتشبه مخطوطات مكتوبة على رقوق نقية ومختومة بختم ملكي لا تقبل الزيادة ولا النقصان . فما دمنا قابلين للتغيير يجب أن نحرص على ذواتنا ، وما دمنا متسلطين على مخطوطة حياتنا ـ التي كتبناها بيدنا ـ هلمّ نجاهد ، فنضيف إليها سيرة صالحة ونحذف منها هفوات السيرة الماضية . فما دمنا في هذا العالم لا يضع الله ختمه عليها ـ لا على صالحاتها ولا على سيئاتها ـ حتى ساعة الخروج ، حيث ينتهي عملنا في هذا الوطن ويبدأ رحيلنا إلى بلاد الهجرة . كما قال القديس افرام : يجب أن نعلم أن نفوسنا تشبه مركباً مستعداً للسفر لا يعرف متى يهبّ الهواء ، أو جيشاً لا يعرف متى يُنْفَخ بوق الحرب . فإذا كانت المراكب والجيوش تستعد وتتهيأ مع أن الهواء والحرب ليسا حتميين ، فكم يجب أن نجهّز ونعدّ من جنور وأبواب قبل حلول ذلك اليوم المفاجىء الذي سينقلنا إلى الدهر الآتي وهو أمر لا ريب فيه ؟ فعسى أن يعطينا المسيحُ وسيطُ حياتنا فرصة الإستعداد لكي نثبت على قرار الرجاء ، لأن له المجد والسجود والشكر إلى دهر الداهرين ، آمين .

المقالة التاسعة والثلاثون

في الحركة الملائكية التي توقظها فينا العناية الإلهية بغية تقدم النفس في الأمور الروحيــة

إن أول فكرة يلقيها اللهّ المحب البشر في قلب الإنسان لتقوده إلى الحياة ، هي فكرة التأمل بخروج الطبيعة (الموت) ، ويتبعها تلقائياً ازدراء الدنيا . وهكذا يبدأ مسرى التفكير الصالح في ذهن الإنسان ويقوده ، عادة ، إلى الحياة ، ثم تثبته فيه القوة الإلهية التي ترعاه وتظهر له الحياة عندما تشاء . فإذا لم يمحُ الإنسان هذا التفكير من ذهنه بالتشتت الدنيوي والأحاديث الباطلة ، بل نمّاه في السكينة مثابراً عليه ومتفرغاً للتأمل به ، فإنه يقوده إلى مشاهدة عميقة لا يُنْطَق بها . إن الشيطان يكره هذا الفكر كثيراً ويحارب بكل قوته لانتزاعه من الإنسان ، ولو استطاع لأعطاه ممالك العالم كلها ، ليشتت ذهنه ويزيل منه فكراً كهذا . إن الغاشّ يعرف أن ثبات هذا الفكر في ذهن الإنسان يخرجه من أرض الضلال فلا تنطلي عليه حيله . ونحن هنا لا نعني الفكر الأول الذي يتحرك عند تذكر الموت ، بل الحالة التامة الحاصلة من التصاق هذا الفكر بذاكرة الإنسان التصاقاً تاماً يجعله يهذّ به ويتعجب منه دائماً . إن الفكر الأول جسدي أمّا الحالة التامة فهي مشاهدة روحية ونعمة عجيبة موشحتان بمعانٍ مبهجة ، ومن يحصل عليهما لا يفتش عن أمور العالم ولا يكترث بجسده بعد .

لو ترك الله الناس يتمتعون بهذه المشاهدة الحقيقية ، حتى لزمن يسير ، لما استطاع هذا العالم بالاستمرار . إن هذه المشاهدة رباط شديد لا يمكن لطبيعة بشر أن تصمد أمامها . إنها نعمة من الله أقوى من كل عمل خاص عند من يتخذها هذيذاً في نفسه . تُعطى للذين في الصف المتوسط وللذين يشتهون التوبة بقلب

المقالة التاسعة والثلاثـون

في الحركة الملائكية التي توقظها فينا العناية الإلهية بغية تقدم النفس في الأمور الروحيــة

إن أول فكرة يلقيها اللهّ المحب البشر في قلب الإنسان لتقوده إلى الحياة ، هي فكرة التأمل بخروج الطبيعة (الموت) ، ويتبعها تلقائياً ازدراء الدنيا . وهكذا يبدأ مسرى التفكير الصالح في ذهن الإنسان ويقوده ، عادة ، إلى الحياة ، ثم تثبته فيه القوة الإلهية التي ترعاه وتظهر له الحياة عندما تشاء . فإذا لم يمحُ الإنسان هذا التفكير من ذهنه بالتشتت الدنيوي والأحاديث الباطلة ، بل نمّاه في السكينة مثابراً عليه ومتفرغاً للتأمل به ، فإنه يقوده إلى مشاهدة عميقة لا يُنْطَق بها . إن الشيطان يكره هذا الفكر كثيراً ويحارب بكل قوته لانتزاعه من الإنسان ، ولو استطاع لأعطاه ممالك العالم كلها ، ليشتت ذهنه ويزيل منه فكراً كهذا . إن الغاشّ يعرف أن ثبات هذا الفكر في ذهن الإنسان يخرجه من أرض الضلال فلا تنطلي عليه حيله . ونحن هنا لا نعني الفكر الأول الذي يتحرك عند تذكر الموت ، بل الحالة التامة الحاصلة من التصاق هذا الفكر بذاكرة الإنسان التصاقاً تاماً يجعله يهذّ به ويتعجب منه دائماً . إن الفكر الأول جسدي أمّا الحالة التامة فهي مشاهدة روحية ونعمة عجيبة موشحتان بمعانٍ مبهجة ، ومن يحصل عليهما لا يفتش عن أمور العالم ولا يكترث بجسده بعد .

لو ترك الله الناس يتمتعون بهذه المشاهدة الحقيقية ، حتى لزمن يسير ، لما استطاع هذا العالم بالاستمرار . إن هذه المشاهدة رباط شديد لا يمكن لطبيعة بشر أن تصمد أمامها . إنها نعمة من الله أقوى من كل عمل خاص عند من يتخذها هذيذاً في نفسه . تُعطى للذين في الصف المتوسط وللذين يشتهون التوبة بقلب

المقالة الأربعون

في العمل الثاني للإنسان

ثمة عمل آخر بعد تأمل الموت . فعندما يسلك الإنسان جيداً في سيرة صالحة ويبلغ مرتبة التواضع ثم يبدأ بتذوق المشاهدة وعملها ، تدركه نعمة من فوق فيتذوق حلاوة معرفة الروح . إن بدء معرفة الروح هو التالي : يتأكد الإنسان أولاً من عناية الله به ، ويستنير بمحبته ، ويتعجب من إبداعه الكائنات الناطقة واهتمامه الشديد بها ، فيبدأ بعدها بتذوق حلاوة الله ولهيب محبته المشتعلة في القلب والمحرقة أهواء النفس والجسد معاً . إن الانسان يحس بهذه القوة عندما يتأمل بفهم طبائعَ الكائنات والأشياء التي يصادفها ويفحصها ويميّزها تمييزاً روحياً . وبعد هذا الإهتمام الإلهي الوافي الصائر بضمير صالح يندفع الإنسان نحو العشق الإلهي ، وعندما ينتشي به ، كما بخمر ، تنحلّ أوصاله ويلبث ذهنه في ذهول ويُسْلَب قلبه وراء الله ، وتصبح حاله حال السكران بالخمر . وبمقدار ما تقوى الحواس الداخلية تقوى المشاهدة الداخلية أيضاً ، وبمقدار ما يجاهد ليعيش سيرة صالحة ويحفظ ذاته مهتماً بالمطالعة والصلوات ، تتوطد قوتها فيه . إن هذا الإنسان ، يا إخوة ، لا يكاد يتذكر أنه يلبس جسداً أو أنه موجود في العالم .

هذا هو بدء المشاهدة الروحية في الإنسان ، وهو بدء كافة إعلانات الذهن الذي به ينمو ويتقوى في الخفيّات وينتقل إلى مشاهدات أخرى تفوق الطبيعة البشرية . وباختصار أقول إن هذا البدء يأتي بالإنسان إلى المشاهدات الإلهية وإعلانات الروح التي يتقبّلها القديسون في هذا العالم والذي به تستطيع الطبيعة البشرية في هذه الحياة معرفة مواهب وإعلانات متنوعة .

هذا هو أصل المشاعر التي وضعها الله فينا . فمغبوط من يحفظ البذار الصالحة أبان سقوطها في نفسه وينمّيها ولا يبددها في ما هو باطل وزائل . أمّا إلهنا فله المجد إلى الدهور ، آمين .

المقالة الحادية والأربعون

في الخطايا الطوعية والكرهية وفي الخطايا التي تحصل آنياً

ثمة خطيئة ينجذب الإنسان إليها مكرهاً نتيجة ضعف ما ، وثانية يقترفها الإنسان بإرادته إنما عن جهل ، وثالثة تحصل آنياً لسبب عابر ، وأخرى تتم بالإعتياد على الشر والبقاء فيه . هذه درجات الخطايا وأنواعها . ورغم أنها تستحق الذم مجتمعة ، إلاّ أن عقوبة كل منها تختلف عن الأخرى باختلاف درجتها . فمنها ما تكون دينونتها عظيمة ولا تُقبل توبتها إلاّ بكد وتعب ، ومنها ما يكون غفرانها أقرب نوالاً . فكما نال آدم وحواء والحية جزاء خطيئتهم من الله وورثوا اللعنة بدرجة متفاوتة هكذا يحصل للأبناء أيضاً . عذاب كل إنسان يتوقف على نسبة شغفه وميله إلى الخطيئة . فإذا مال أحدهم إليها دون إرادته ـ بسبب إهماله الفضيلة وعدم تفرغه لها ـ سينال عقاباً قاسياً رغم شعوره بثقلها . أمّا إذا امتحن الإنسان بزلة وهو يجدّ في عمل الفضيلة فلا ريب إن الرحمة قريبة منه ولا تتركه بدون تطهير .

ثمة اختلاف بين خطيئة وأخرى . منها ما يقع فيها الإنسان عندما يكون منصرفاً إلى الفضيلة ، مداوماً على العمل ، ساهراً الليل بانتباه كي لا يتأذى بشيء ، حاملاً الأثقال في النهار وشاغلاً اهتمامه بالفضيلة ، إلاّ أنه ـ لأسباب متنوعة ، منها الجهل أو أمور تقاوم مسيرته أو أمواج تهبّ في أعضائه بصورة مستمرة أو زلة تستهدف امتحان حريته ـ يحتمل أن تميل كفة ميزانه قليلاً إلى اليسار وينجذب بضعف الجسد إلى صنف من صنوف الخطيئة مما يجعله يحزن ويكتئب ويتنهد تنهداً مؤلماً بسبب المحنة التي أوقعه فيها المعاندون .

+ وأخرى يقع فيها الإنسان عندما يتراخى ويتكاسل في عمل الفضيلة ، تاركاً طريقها بالكلية ، هائماً في عبودية التمتع بكل ملذة من ملذات الخطايا ، مفتشاً بغيرة عن طرقها ، مستعداً ، كعبد ، لتنفيذ مشيئة عدوه باجتهاد وطاعة ، مجهزاً أعضاءه أسلحة للشيطان ، مهملاً قضية التوبة والإقتراب من الفضيلة وغير راغب في إغلاق الطريق المهلكة .

وهناك خطيئة تحصل للسائرين في طريق الفضيلة والبر بسبب انزلاقات وسقطات طارئة كما يقول الآباء ، لأن طريق البر والفضيلة لا تخلو من سقطات ومقاومات وضغوطات وما يشبهها :

إن سقوط النفس وهلاكها الكلي شيء ، والتخلّي النهائي شيء آخر . يتضح من هذه الحالات أنه إذا سقط أحد يجب ألاّ ينسى محبة أبيه . وإذا وقع في زلات متنوعة عليه ألاّ يهمل الصلاح أو يتوقف عن السير في طريقه ، بل أن ينهض ويجاهد ضد مقاوميه ، وإن كان مغلوباً ، وأن يجدد كل يوم أساس البناء المتهدم ويضع القول النبوي أمامه حتى خروجه من العالم : « لا تشمتي بي يا عدوتي فإني إذا سقطت أقوم وإذا جلست في الظلمة يكون الرب نوراً لي » (ميخا ٧ : ٨) ، وألاّ يتوقف عن الحرب حتى الموت ، ولا يستسلم للهزيمة ما دامت فيه نسمة حياة . واكثر من ذلك ، لو تحطمت سفينته كل يوم وغرقت تجارته ، فلا يتوقف عن الإهتمام والتفتيش ، ولو أمكنه أن يستأجر سفناً أخرى يسافر بها ، راجياً الرب أن ينظر إلى جهاده ويرأف بمصابه ، ويرسل له الرحمة ، ويهبه خطوات ثابتة ، ليجابه العدو ويصبر على سهامه المحرقة . هذه هي الحكمة التي يهبها الله ، وهذا هو المريض الحكيم الذي لا يَقْطَع رجاءَه . خير لنا أن ندان على بعض الأمور من أن نهملها كلها . لهذا يشجعنا الأنبا مرتينيانوس ألاّ نتخاذل أثناء الجهادات الكثيرة والحروب المتنوعة ، ويحثنا على الإستمرار في طريق البر وعدم الإلتفات إلى الوراء والإستسلام للعدو بسبب هفوة رديئة واحدة . إن هذا الشيخ المغبوط يحدد ، كأب حنون ، الأمور بطريقة منظمة جيدة كما يلي :

نصيحة البار مرتينيانوس

يا أولادي ، إذا كنتم بالحقيقة مجاهدين ومهتمين بالفضيلة ومعتنين بنفوسكم ، يمكنكم أن تمثلوا أمام المسيح بأذهان نقية ، وتعملوا ما يرضيه . يجب عليكم أن تتحملوا من أجله كل حرب تشنها الأهواء الطبيعية وأمور هذا العالم المتضاربة وسيئات الشياطين المتواصلة التي اعتادت أن تقابلنا بها . لا تخافوا شدة الحرب واستمرارها وإصرارها ، لا ترتابوا إذا طال الجهاد ، لا تتراخوا وترتعدوا من جيوش الأعداء ، لا تقعوا في جب اليأس إذا انزلقتم برهة وخطئتم أو إذا أصابكم ضرر أثناء هذه الحرب الضروس فتلقيتم ضربات على وجوهكم وجرحتم . لا تدعوا هذا يمنعكم من تحقيق غايتكم الصالحة ، بل اصمدوا في العمل الذي اخترتموه فتنالوا مشتهاكم الممدوح . أعني أن تظهروا ثابتين في الحرب ، غير متقلقلين ، مصطبغين بدماء جراحاتكم وغير متراجعين عن مصارعة مقاوميكم .

نصائح الشيخ الكبير هذه تحثنا على عدم التراخي أو التكاسل . إن الراهب إذا خان عهده وداس ضميره ومدّ يده للشيطان يكون قد جعله متسلطاً عليه فيرغمه على الوقوع في الخطايا الصغيرة والكبيرة ولا يعود بإمكانه الوقوف بوجه أعدائه لأن جانب نفسه قد كسر[1] . فبأي وجه سيقابل الديّان عندما يشاهد زملاءه مجتمعين أنقياء طاهرين؟ هؤلاء الزملاء الذين فصل طريقه عن طريقهم وسلك سبيل الهلاك وسقط من الدالة التي يتحلّى بها الأبرار أمام الله ، وحُرِم الصلاة الصاعدة من القلب النقي المرتفعة حتى بلوغ القوات الملائكية والتي لا تتوقف حتى تحظى بطلبتها فتعود بفرح إلى الفم الذي أطلقها. وما يرهب أكثر هو أن المسيح سيفصله عنهم في ذلك اليوم الذي فيه تأتي السحابة المنيرة حاملة على ظهرها أجسادهم الساطعة بالنقاوة وتدخلهم الأبواب السماوية ، لأنه قد سبق ففصل طريقه عنهم.

إن الكفرة لا يقومون يوم الدين لأن عملهم قد عرف من هنا ، والخطأة لا يكونون في قيامة الدينونة في مجمع الأبرار (مز ١ : ٥) .

---

(1) تنكسر النفس وتتجرح بسقوطها في الخطيئة .

المقالة الثانية والأربعون

في قوة شرور الخطيئة وأثرها وكيف تتكوّن وبماذا تتوقف

لا يتحرر الإنسان من لذة فعل الخطيئة ما لم يمقت سببها من كل قلبه مقتاً نهائياً . هذا هو الجهاد الشديد الذي يحارب الإنسان حتى العظم ، والذي به تُمتحن حريته في محبة الفضائل وحدها . وهي القوة التي يدعونها « تحريضاً وحرباً » والتي تُضعف رائحتها النفس الشقية بسبب المواجهة الحتمية الكائنة فيها . وهي قوة جسامة الخطيئة التي اعتاد العدو أن يشوّش بها نفوس الأعفّاء وأن يرغم الحركات الطاهرة على تقبل خبرات لم تعرفها قط . هنا ، يا إخوتي الأعزاء ، نظهر صبرنا وجهادنا واجتهادنا ، لأن وقت الجهاد اللامنظور قد حضر ، إنه وقت انتصار مصاف الرهبان . ولنعلم أن الذهن الحسن العبادة سيتشوش بسرعة في هذه المجابهة ما لم يحارب بشدة .

صلاة : يا رب ، يا ينبوع كل معونة ، أيها القوي والقادر على معاضدتنا في هذه الحرب ، حين تقدم لك النفوس شهادة خطبتها بفرح أيها الختن السماوي ، وتعطي عهود القداسة بوعي وبدوافع مخلصة خالية من الخبث ، فهبها قوة لتهدم بشجاعة كل سور منيع وكل مرتفع يتعالى على الحقيقة ، حتى لا تخيب بسبب الضغط الشديد أبان الصراع الدموي الذي لا يحتمل .

إن الصراع من أجل العفة لا يصير في هذه الحرب الشديدة فحسب ، بل يحصل أحياناً بتخلٍ إلهي من أجل الامتحان . فويل لمن يُمتحن في هذه الحرب

بالذات ، لأنها تستمد قوة عظيمة ممن اعتادوا أن يسلّموا ذواتهم للهزيمة بخضوعهم للميول .

احترسوا من البطالة ، يا أعزائي ، لأن فيها موتاً معلوماً ، فهي التي توقع الراهب أسيراً في يد مطارديه . إن الله لن يديننا في ذلك اليوم على عدم تلاوة المزامير والبطالة عن الصلاة ، بل لأن إهمالها أفسح للشياطين مجال الدخول الينا ، ولأنها وجدت معبراً تتسلل منه لتغمض أعيننا وتنتقم بطريقة قاسية وقذرة . والله يسمح لها بالثأر منا بشدة بسبب تهاوننا . وهكذا نصبح أسرى - كما كتب الحكماء - من أجل إهمالنا الأمور الصغيرة لأنها جديرة بالإهتمام محبة بالمسيح . من لا يخضع مشيئته لله يخضع لمقاوميه . إن هذه الأمور التي تبدو لك صغيرة ستكون الأسوار الحصينة بوجه محاربينا . وقد حُدِّد إتمام بعضها داخل القلاية بإعلان الروح لأناس حكماء محافظين على نظام الكنيسة حفاظاً على حياتنا . وكل إهمال لممارستها - وإن اعتبره غير الحكماء أمراً صغيراً لأن بداية سيرتهم ووسطها في حرية غير منضبطة - إذا لم نحاربه سيتسع ويفسح أمامنا ميدان الخطيئة وتكون عاقبة الحرية غير اللائقة عبودية صارمة .

أحسب نفسك ميتاً ما دامت حواسك حيّة حيال ما هو مثير . فإن لم تفعل لا تقدر أن تتحرر من لهيب الخطيئة في أعضائك ولا أن تحصل على الخلاص . فإذا ظن أحد الرهبان أنه قد حُفِظ منها متفاخراً في قلبه ، لن يعرف متى تأتيه الصفعة . وإذا كان من يضلّل صاحبه يستحق لعنة الناموس ، فبأي انتقام سيحظى من يضلل نفسه ؟ إنه يعرف عاقبة شره ويتجاهل عمله ، لكن تأنيب ضميره سيجعل العاقبة صعبة ومريرة .

أمّا إلهنا فله المجد إلى الدهور ، آمين .

المقالة الثالثة والأربعون

في تجنب المتراخين والفاترين والتحفظ منهم وفي أن الاقتراب منهم يجعل التهاون والتراخي يتسلطان على الانسان ويملأنه بالأهواء الدنسة ، وفي التحفظ من الإقتراب من الأحداث كي لا يتوسخ الذهن بالأفكار القبيحة

من يمنع فمه عن ذم الآخرين يحفظ قلبه من الأهواء ، ويرى الرب - الذي يهذبه - كل حين فيطرد عنه الشياطين ويقلع بذور شرورها منه . من يزدرِ نفسه كل ساعة يبتهج بإعلانات قلبه . من يضبط مشاهدة ذهنه داخله يرى فجر الروح . من رذل كل تشتت يشاهد سيّده داخل قلبه . إذا كنت تحب الطهارة - التي بها يظهر سيّد الكل - لا تذم أحداً ولا تسمع من يذم أخاه . إذا تشاجر أناس أمامك اغلق أذنيك واهرب من هناك حتى لا تسمع كلام غيظ فتهلك . قلب الغضوب فارغ من أسرار الله ، أمّا قلب الوديع المتواضع فهو ينبوع أسرار الدهر الجديد

ها أن السماء في داخلك . إن كنت طاهراً سترى فيها الملائكة مع نورهم ، وسيّدهم معهم وفيهم . من يُمدح بحق لا يتأذى ، أمّا من يستطيب المديح فهو عامل بلا أجرة . كنز المتواضع داخله وهو الرب عينه ، ومن صان لسانه لا يُسلب أبداً .

الفم الصامت يفسر أسرار الله ، أمّا السريع الكلام فيبتعد عن جابله . نفس الصالح تسطع أكثر من الشمس وتبتهج كل ساعة بمشاهدة الأسرار . السائر وراء محبّ الله يغتني من أسراره ، أمّا السائر وراء الظالم والمتكبر فيبتعد عن الله ويمقته أحباؤه . صامت اللسان يبلغ رتبة التواضع بكل أحوالها ويتسلط على الأهواء بلا تعب . الأهواء تقتلع وتهرب بالتأمل المستمر في الله . إنـه السيف الـذي يقضي عليها . وكما أن الدلفين يتحرك ويسبح عندما يكون البحر ساكناً ، هكذا تتحرك الأسرار والإعلانات الإلهية في بحر القلب عندما يزول منه الغضب والحنق ويصبح ساكناً هادئاً فتبعث فيه البهجة والحبور .

من أراد معاينة الرب في داخله ، عليه أن يبدأ بتطهير قلبه بذكر الله المستمر ، فيراه بعيني ذهنه النقيتين كل حين . وما يحصل للسمكة عند خروجها من الماء ، يحصل أيضاً للذهن الذي يبتعد عن ذكر الله ويتشتت في تذكر العالـم . يؤهَّـل الإنسان للدالة الإلهية بمقدار ما يتحاشى التحدث مع الناس ، ويؤهَّل للفرح الإلهي بالروح القدس بمقدار ما يقطع عنه تعزية هذه الدنيا . وكما أن السمك يهلك عند جفاف المياه فإن المخالطة المستمرة تتلف الفروخ العقلية النابتة في قلب الراهب .

الانسان العائش في العالم الذي يشقى ويتعب في أمور الحياة خير من راهب يشقى عائشاً مع أهل الدنيا . يرهب الشياطين ويرضي الله وملائكته ، ذاك الذي يطلب الله في قلبه ليلاً ونهاراً بغيرة حامية وينزع السهام التي ترمي الشياطين جسده بها . إن الوطن العقلي موجود داخل النقي النفس ، والشمس المشرقة فيه هي نور الثالوث الأقدس ، والهواء الذي يستنشقه سكانه هو الروح المعزي الكلي قدسه . أمّا مجالسو نقي النفس فهم الطبائع المقدسة اللامتجسمة ، والمسيح ـ النور المنبثق من الآب ـ هو حياتهم وبهجتهم وفرحهم . إن هذا الانسان المبتهج بمشاهدة نفسه والمتعجب من جمالها يفوق الشمس إشراقاً بمئة ضعف . هذه هي أورشليم مملكة الله المخبأة في داخلنا حسب قول الرب (لو ١٧ : ٢١) . وهذه هي الأرض غمامة مجد الله التي يدخلها أنقياء القلوب وحدهم ويشاهدون وجه سيدهم وتستضيء أذهانهم بشعاع نوره .

الغضوب والحنق ومحب المجد والطماع والشره ومعاشر أهل العالم والمَقُود وراء إرادته والمحتدّ والمليء بالأهواء ، هؤلاء كلهم يشبهون أناساً يصارعون في الليل

ويتلمسون الظلام ويعيشون خارج أرض النور والحياة ، أي خارج ميراث الصالحين والمتواضعين وأنقياء القلوب . لا يمكن أن يرى الإنسان الجمال في داخله قبل أن يرذل الجمال الخارجي ، ولا يستطيع أن يثبت في الله بصدق قبل أن يزهد بالعالم نهائياً . من احتقر ذاته وتواضع يجعله الرب حكيماً . ومن يعتبر نفسه حكيماً يفقد حكمة الله ✝ وبمقدار ما يبتعد اللسان عن كثرة الكلام يزداد بهاؤه في إخراج المعاني لأنّ كثرة الكلام تشوّش الذهن النقي .

من يفتقر إلى الدنيويات يغتني بالله . صديق الأغنياء فقير بالله . أنا أؤمن أن العفيف والمتواضع وماقِت الدالة ونازعَ الغضب من نفسه يرى في نفسه نور الروح القدس عندما يقف للصلاة ويرتكض بإشراقات نوره ويبتهج برؤية مجد نفسه محوّلاً إلى مثال الروح . لا يوجد عمل آخر يقضي على تجارب الشيطان الدنسة مثل المشاهدة الإلهية .

روى لي أحد الآباء : بينما كنت جالساً أحد الأيام ، سُلِب ذهني في المشاهدة وحين عُدْت إلى نفسي تنهدت بقوة ، فما كان من الشيطان الواقف أمامي إلاّ أن ارتعد عند سماعه ذلك واختفى مثل البرق لشدة ضيقه وهرب صارخاً كأن أحداً يطارده .

طوبى لمن يتذكر خروجه من هذه الحياة ويقطع علاقته بنعيمها ، لأنه سينال الغبطة مضاعفة عند خروجه ولن تُنزَع منه إلى الأبد . هذا هو المولود من الله الذي يغذّيه الروح القدس ويرتشف من حضنه الغذاء الحي ويستنشق رائحته بابتهاج . أمّا المتعلق بأهل الدنيا وبالعالم ورائحته وبحب التحدث عن أموره ، فإنه يفقد الحياة . وليس لديّ ما أضيفه إلاّ أن أنوح عليه نوحاً عديم التعزية يسحق قلوب سامعيه .

أيها الجالسون في الظلام ، ارفعوا رؤوسكم فتستضيء وجوهكم بالنور . أخرجوا من أهواء العالم يخرج نور الآب للقائكم ويأذن لخادمي أسراره أن يحلّوا رباطاتكم فتتوجهون إليه سالكين في خطاه . وأسفاه ، بأية رباطات تكبلنا ، وفي أي سجن أُسرِنا حتى حُرمنا رؤية مجده . فعسى أن تُقطع رباطاتنا حتى نبحث عن الله ونجده .

إذا كنت تتوخى معرفة أسرار الناس ولم تستطع إدراكها بالروح ، فإنك إذا كنت حكيماً تتعلمها من أقوالهم وسلوكهم وطريقة حياتهم . الطاهر النفس والنقي السيرة ينطق دائماً بأقوال الروح بتعقل ، ويتحدث عن الإلهيات وعن خبراته حسب مستواه الشخصي . أمّا الذي حطمت الأهواء قلبه فإن لسانه يتحرك بدافع منها ، وإذا تكلّم في الروحيات إنما يفعل بهوى لكي ينتصر ظلماً . مثل هذا الإنسان يكشفه الحكيم من عبارة واحدة ، أمّا الطاهر فإنه يشتَمّ رائحته النتنة .

إن من يبقى مصرّاً على الكلام البطال وعلى التشتت نفساً وجسداً هو فاسق ، والذي يحب معاشرته والتعاون معه زانٍ ، أمّا المشترك معه فهو وثني . إن صحبة الأحداث فسق مرذول من الله ، ومن يصاب به لا علاج له . أمّا الذي يحب الجميع على السواء دون تمييز فقد بلغ الكمال . إن منظر شاب يجري وراء شاب أحدث منه يجعل الواعين ينوحون ويبكون عليه وعلى زميله . أمّا الشيخ الذي يجري وراء شاب فيكون هواه أشد نتانة من هوى الشبان ، وإن حدّثهم عن الفضائل لأن قلبه مليء بالأهواء . الشاب المتواضع ، الهادىء ، النقي القلب من الغضب والحسد ، البعيد عن الناس ، والساهر على نفسه لا بد أن يلاحظ بسرعة أهواء الشيخ المتهاون . إبتعد بكل قوتك عن الشيخ الذي لا ينظر إلى الشاب نظرته إلى المسن ولا تخالطه على الإطلاق .

ويل للمتهاونين الذين يخفون أهواءهم ويتراءون بمظهر حسن . من يبلغ الشيخوخة بأفكار نقية وسيرة شريفة ولسان طاهر ، يتمتع في هذه الحياة بحلاوة ثمر المعرفة ويقبل مجد الله حين خروجه من الجسد . لا شيء يبردّ نار الروح القدس المتأججة في قلب الراهب كالمعاشرة وكثرة الكلام واللقاءات . ولا أعني اللقاءات مع أبناء أسرار الله لأنها تنمّي فينا معرفته وتقرّبنا منه ، وتوقظ النفس إلى الحياة وتقلع جذور الأهواء وتنوّم الأفكار الرديئة أكثر من أية فضيلة أخرى . لا تتخذ أصحاباً وخلاناً يقاسمونك أسرارك إلاّ هؤلاء الأبناء حتى لا تسبب عثرة لنفسك فتحيد عن طريق الرب . فلتَعْظُم في قلبك المحبة التي توحدك بالله حتى لا يكون أسيراً لمحبة العالم التي سببها وغايتها الفساد . إن معاشرة المجاهدين تغنينا وتغنيهم بأسرار الله. أمّا معاشرُ المتهاونين والكسالى فإنه يتخم بطنه ولا يشبع من التسلية مع

الآخرين . فهو يظن أن الأطعمة لا تكون شهيّة إلاّ معهم ويقول : ويل لمن يأكل خبزه وحده فإنه لا يستطيبه . وهكذا يولمون المآدب ويتبادلون الدعوات كأناس مأجورين فتتحرك شهيتهم . اهرب يا أخي من هؤلاء وأمثالهم ولا تأكل معهم على الإطلاق وإن كنت جائعاً ، لأن مائدتهم دنسة وخدامها الشياطين . إن أحباء المسيح الختن لا يتذوقونها .

من يصنع الولائم باستمرار هو خادم عند شيطان الفسق ، وطعامه يدنّس نفس المتواضع . أمّا الطعام الزهيد على مائدة النقي فيطهّر نفس آكله من كل هوى . مائدة الشره العابقة برائحة المقالي وبأطعمة متنوعة ، ينجذب إليها الجاهل والأحمق كما ينجذب الكلب إلى الملحمة . أمّا مائدة المصلّي باستمرار وثبات فإنها ألذّ من كل مائدة تفوح برائحة العجول وتجذب محبّ الله إليها كما إلى كنز لا يثمّن .

من مائدة الصوّامين والسهّار والمجاهدين من أجل الرب خُذْ دواءَ حياة ينهض نفسك المائتة ، لأن المحبوب (يسوع) يتكيء معهم ويقدّسهم محوّلاً مرارة شقائهم إلى حلاوته غير الموصوفة ، أمّا خدامه الروحيون والسماويون فيظللونهم مع طعامهم المقدس . إنني أعرف أخاً عاين ذلك بأمّ عَينه .

طوبى لمن بنى حائطاً بينه وبين كل ميوعة تفصله عن خالقه . طوبى لمن غذاؤه الخبز النازل من السماء الذي منح الحياة للعالم . طوبى لمن شاهد في روضته ماء الحياة الفائض بالمحبة من أحضان الآب وحدّق بنظره إليه لأنه إذا شرب منه يبتهج وينتعش قلبه ويصبح في نشوة سرور وابتهاج . من عاين الرب في طعامه يتنحى ويتناوله منفرداً لأنه إذا آكل غير المستحقين يفقد نور شعاعه . أمّا من مزج طعامه بسمّ مميت فلا يمكن أن يتناوله بلذة إلاّ مع الآخرين . إن من يقيم صداقة من أجل بطنه هو ذئب آكل جيف . فما بالك يا جاهل ، يا عديم الشبع ، إنك تشتهي أن تملأ بطنك من مائدة المتهاونين ناسياً أن نفسك هي التي ستمتلىء بكل هوى . أعتقد أن هذه التنبيهات كافية لأولئك الذين يقدرون أن يضبطوا بطونهم .

رائحة الصوّام زكية جداً ولقاؤه يُفرح قلوب ذوي التمييز ، أمّا الشره فيخشى معاشرتهم ويهرب من الأكل على مائدتهم . سيرة العفيف محبوبة من الله ،

ومجاورته ثقيلة جداً على محبّ القنية . الصامت ممدوح جداً من المسيح ، وقُرْبُه من الذين أسرتْهم الشياطين باللعب والمزاح غير مستحب . فمن يبغض المتواضع الوديع سوى المتكبرين والنمامين المختلفة طرقهم عنه ؟

روى لي أحدهم ما اختبره بنفسه : إذا جلست إلى الطعام مع الآخرين كنت آكل ثلاث خبزات أو أربع في اليوم بسهولة ، لكنني أثناء الصلاة كنت أفقد دالتي أمام الله ولا أستطيع أن أحدق فيه . أمّا إذا انفصلت عنهم ولبثت في السكينة فكنت أتناول خبزة ونصف في اليوم الأول وخبزة واحدة في الثاني ولا يتم هذا إلاّ بصعوبة . أمّا متى ثبت ذهني في السكينة فكنت أبذل جهدي لأكل خبزة واحدة فلا أستطيع ، وكان ذهني في هذيذ مستمر بدالة ، ويجذبني إشراقه لأرى النور الإلهي وابتهج به . وإذا صدف وجاءني أحد ليتحدث معي ولو ساعة واحدة كنت أزيد طعامي وأقلّل القانون ويتراخى ذهني فلا أرى ذلك النور . أرأيتم يا إخوتي جمال الصبر والوحدة وإفادتهما ، ومقدار القوة والسهولة اللتين تمنحانها للمجاهدين ؟ طوبى لمن يصبر من أجل الله ويأكل خبزه وحده ، لأنه يهذّ بالله على الدوام ، الذي له المجد والعزة الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الرابعة والأربعون

في الحواس والتجارب

إن الحواس العفيفة المنضبطة تولّد السلام للنفس ولا تدعها تختبر الأشياء . والنفس إذا لم تختبر الأشياء فإنها تنتصر بدون جهاد . لكن إذا تهاون الإنسان وسمح للهجمات بالدخول اليه ، يُضْطَر إلى دخول الحرب . فالنقاوة الأولى (الطبيعية) التي تتميّز ببساطتها وسهولتها تضطرب لأن أكثر الناس ، أو بالأحرى العالم بأسره ، قد انحرف عنها بسبب الإهمال . لذلك يستحيل على الذين يعيشون في العالم ويخالطون أهله أن ينقّوا أذهانهم بسبب كثرة معرفة الشر . قليلون جداً من يستطيعون استعادة طهارة الذهن الأولى ، وهذا يفرض على كل إنسان أن يحفظ حواسه وذهنه جيداً من الهجمات لأنه بحاجة ماسة إلى انتباه وحفظ ويقظة .

البساطة المتناهية حسنة ولائقة . الطبيعة البشرية تحتاج إلى خوف لتحفظ حدود الطاعة لله ، أمّا محبته فتثير الشوق إلى عمل الفضائل وتجذب الانسان إلى عمل الصلاح . المعرفة الروحية تلي عمل الفضائل ، أمّا الخوف والمحبة فيسبقانها معاً . ومن يتجاسر على القول إنه يستطيع بلوغ عمل الفضائل والمعرفة الروحية قبل تطبيقه الخوف والمحبة فلا شك أنه يضع حجر الأساس لهلاك نفسه ، لأن طريق الرب هي خوف فمحبة ثم معرفة روحية وعمل الفضائل .

لا تستبدل محبة أخيك بأية محبة أخرى ، لأنه يخفي في داخله أثمن الأشياء . ازدر ما هو تافه لتجد كل ثمين . كن ميتاً في حياتك فتحيا بعد الموت . أنْ تُسلم ذاتك للموت في الجهادات أفضل من أن تسلك في التهاون ، لأن الشهداء هم الذين يموتون في سبيل حفظ وصايا المسيح وليس الذين قبلوا الموت إيماناً به فقط .

لا تكن جاهلاً في طلبتك لئلا تصبح صلاتك تجديفاً ، بل كن حكيماً حتى تؤهّل للأمجاد . أطلب الأمور الكريمة من الذي لا يرفض (الله) فتنال منه الكرامة بسبب حكمتك في الطلب . سليمان طلب حكمة فنال معها ملكاً أرضياً لأنه طلب من الملك العظيم بحكمة . أليشع طلب نعمة الروح التي عند معلّمه فنالها مضاعفة . من يطلب الأمور التافهة يستهين بكرامة الملك ، كما فعل اسرائيل عندما طلب أموراً دنيئة فنال غضب الله . لقد أهمل التعجب في معجزاته الرهيبة وطلب شهوة بطنه (مز ٧٧ : ٣٤) ، فلم يبتلعوا طعامهم حتى طلع عليهم غضب الله . قدّم طلباتك لله بما يليق بمجده فيعظم مقامك عنده ويسر بك . فالذي يطلب الزبل من الملك لا يكون قد حقّر نفسه ، بدناءة طلبه وحسب، بل يكون قد تتطاول على الملك أيضاً ، وهكذا من يطلب الأرضيات بصلواته إلى الله . إعلم أن الملائكة ورؤساء الملائكة يشخصون إليك وأنت تصلّي وأنهم سيندهشون ويفرحون عندما تهمل جسدك وتطلب السماويات ، وسيشمئزون إذا رأوك تطلب الأرضيات وزبلها تاركاً السماويات .

لا تطلب من الله ما يهتم هو بإعطائه لنا دون سؤال . إنه لا يهتم بأخصائه المحبوبين وحسب بل بالغرباء عن معرفته أيضاً . لا تكونوا مثل الوثنيين الذين يكثرون الكلام في الصلوات (متى ٦ : ٧) . أمّا أنتم فلا تهتموا بما تأكلون وتشربون وتلبسون لأن أباكم يعرف حاجتكم لها[1] . الابن لا يطلب من أبيه خبزاً ، بل ما هو أعظم وأسمى في بيت أبيه . إن الرب عندما أوصى بطلب الخبز إنما فعل ذلك من أجل ضعف الذهن البشري ، أمّا الكاملين في المعرفة وأصحاء النفس فقد أوصاهم : لا تهتموا بالأكل أو باللباس[2] . فإذا كان يهتم بالحيوانات والطيور وحتى بالجمادات فكم بالأحرى يهتم بنا . « فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تزاد لكم » (متى ٦ : ٣٣) .

إذا طلبت من الله شيئاً وتأخر في استجابتك فلا تحزن لأنك لست أحكم منه . إن تأخره يدل على عدم استحقاقك الحظوة على ما تطلب ، أو على عدم استقامة قلبك في الطلبة ، أو على عدم بلوغك مستوى قبول الموهبة التي تطلب .

(١) متى ٦ : ٣١ .
(٢) متى ٦ : ٢٨ .

يجب ألاّ نضع أنفسنا في مستويات عالية قبل الأوان حتى لا تتعطل موهبة الله بسرعة الإستجابة . فما يؤخذ بسرعة يزول بالسرعة نفسها أيضاً ، أمّا ما يُكتَسب بألم القلب فيُحفظ باحتراس .

"تحمّل العطش من أجل المسيح يسكرك بمحبته . أغلق عينيك عن مسرّات الحياة يؤهلك الله لامتلاك سلامه في قلبك . تعفف عمّا تراه عيناك تستحق الفرح الروحي . إذا كانت أعمالك مرضية لله فلا تطلب منه الأمور المجيدة لأنك تكون مجرِّباً له . يجب أن يكون طلبك مطابقاً لسلوكك . يستحيل على الإنسان المتعلق بالأرضيات أن يطلب السماويات ، وعلى المهتم بالدنيويات أن يطلب الإلهيات ، لأن رغبة كل إنسان تُعرف من الأعمال التي يبذل اهتمامه بها ويجاهد من أجلها بالصلاة . ومن يبتغي العظيمات لا يهتم بالصغيرات ."

كن حرّاً ، وأظهر حرية طاعتك من أجل المسيح ما دمت في الجسد . كن فطناً بوداعتك لئلا تُسلب . كن متواضعاً في أعمالك فتنجو من الفخاخ الموجودة خارج طريق المتواضعين . لا ترفض الضيقات لأنك بها تدخل إلى معرفة الحق ، ولا تخف من التجارب لأنك تجد فيها الكنوز الثمينة . صلّ كي لا تدخل في التجارب النفسية ، أمّا التجارب الجسدية[1] فاستعدّ لها بكل قوتك ، فبدونها لا يستطيع أحد أن يبلغ إلى الله ، لأن في داخلها التعزية الإلهية . من يهرب من التجارب يهرب من الفضيلة . أعني بها تجارب الضيقات وليس تجارب الشهوات .

سؤال : كيف تتوافق « اسهروا وصلّوا لئلا تقعوا في التجربة » (متى ٢٦ : ٤١) و « اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيّق » (متى ٧ : ١٣) ، وأيضاً « لا تخافوا الذين يقتلون الجسد »[2] و « من خسر حياته من أجلي يحفظها » (متى ١٠ : ٢٨) ؟ كيف يحثنا الرب على مقاومة التجارب ثم يأمرنا أن نصلّي لئلا ندخل فيها ؟ وهل توجد فضيلة بدون شدة وتجربة ؟ وهل هناك أعظم من التجربة التي أمرنا المسيح بالدخول فيها بقوله : « من لا يحمل صليبه ويتبعني ، فلا يستحقني » (متى ١٠ : ٣٨) ؟ لقد أمرنا ، في تعليمه كله ، أن ندخل في التجارب وأضاف أنه

---

(١) المحن التي تسبب الألم للجسد مثل : الأمراض ـ الأوجاع ـ الحروب . . .
(٢) لو ١٣ : ٢٤ .

ينبغي أن ندخل ملكوت السموات بأحزان كثيرة[1] ، وأننا سنعاني من ضيق كثير في العالم لا نستطيع الحفاظ على أنفسنا معه إلاّ بالصبر[2] ، فكيف يأمرنا هنا أن نصلّي لئلا ندخل في التجربة ؟

يا لدقة سبل تعاليمك يا رب ، لأن من لا يقرأها بمعرفة يبقى بعيداً عن إدراكها كل البعد . إن ابني زبدي وأمهما عندما رغبا في الجلوس معك في الملك قلت لهم : « أتقدران أن تشربا الكأس التي سأشربها ، وأن تقبلا الآلام التي سأقبلها ؟» (متى ٢٠ : ٢٢) . فأية تجارب تسمح إذاً يا رب أن ندخل فيها ؟ وأية تجارب تأمرنا أن نصلّي حتى لا ندخل فيها ؟

جواب : إن قوله : صلّ لئلا تدخل في التجارب يعني التجارب التي تمس الإيمان . صلّ لئلا تدخل مع شيطان التجديف والكبرياء في تجارب الذهن المتعجرف . صلّ لئلا تدخل - بتخلٍ من الله - في تجربة الشيطان المنظورة بسبب تذكرات سيئة تراود ذهنك . صلّ كي لا تدخل في خطيئة ملتهبة فيبتعد عنك ملاك العفة وتنفصل عنه . صلّ لئلا تدخل في تجربة تحرّضك ضد أحد الناس ، أو في تجربة انفصام نفسي وحيرة ، لأنها تُدْخل النفس في جهاد عنيف . أمّا التجارب الجسدية فاستعد لقبولها وغص في آلامها بكل أعضائك[3] واملأ عينيك بالدموع حتى لا يبتعد عنك ملاكك الحارس . واعلم أنك بدون التجارب لا ترى عناية الله ، ولا تقتني دالة أمامه ، ولا تعرف حكمة الروح ، ولا يثبت فيك الشوق الإلهي . فالصلاة قبل الدخول في التجارب تشبه صلاة الأجنبي ، أمّا بعد الدخول فيها فإنك تجعل الله وكأنه مدين لك فتحسب عنده مثل حبيب مخلص . إن حبك لمشيئة الله يجعلك تحارب العدو وتنتصر عليه . هذا هو معنى « صلّوا لئلا تدخلوا في التجربة » . فصلّ اذن كي لا تدخل في التجربة بدافع من عجرفتك بل بحبك لله فتؤازرك قوته وتنتصر على أعدائه . صلّ لئلا تدخل في هذه التجارب بسبب رداءة أفكارك وأفعالك ، بل لكي تُمتحن محبتك لله فتتمجد قوته بصبرك ، لأن له المجد والعزة إلى دهر الداهرين ، آمين .

---

(١) يو ١٦ : ٣٣ .
(٢) لو ٢١ : ١٩ .
(٣) أي لا ترحم جسدك أو تشفق على نضارته .

المقالة الخامسة والأربعون

في رأفة السيد التي جعلته يتنازل من سمو عظمته إلى ضعف البشر ، وفي التجارب

إذا تأملت جيداً تجد أن ربنا ، الذي شملنا بعنايته بمقتضى رحمته وعظمته نعمته ، أمر بالصلاة من أجل التجارب الجسدية أيضاً . فهو لما رأى أن طبيعتنا ضعيفة بسبب الجسد الأرضي الفاني ، وأنها لا تقدر على مقاومة التجارب أثناء الحرب ، وأنها تسقط من سمو الحقيقة وتنهزم راجعة بسبب الضيقات والشدائد ، أمرنا أن نصلّي لئلا نسقط في التجارب فجأة وأن نرضيه بدونها إذا كان ذلك ممكناً . أمّا إذا سقط الانسان فجأة في تجارب عنيفة ، بينما هو يجاهد في سبيل فضيلة سامية ، ولم يصبر فإنه سيعجز عن مقاومة التجارب وعن تحقيق الفضيلة التي يسعى إليها أيضاً .

لا تثق بنفسك ولا بأحد آخر ، ولا تترك ، بسبب الخوف ، التجارب الشريفة التي بها تتغذى نفسك وتحيا . ولا تتسلح بالحجج متخذاً « صلّوا لئلا تدخلوا في تجربة » عذراً تبرر به تراخيك ، لأنه قيل أيضاً إنه يمكن الوقوع في الخطيئة سرّاً باستعمال الوصايا . وإذا حصل أن تسربت إليك تجربة أرغمتك على مخالفة إحدى وصاياي ، أي تركت العفة أو السيرة الرهبانية أو أنكرت الإيمان أو تركت الجهاد من أجل المسيح أو أبطلت احدى وصايا الرب ، فاعلم أنك إذا أظهرت جبناً ولم تقاوم التجارب بشجاعة تسقط من الحقيقة .

فلنتحرر من الجسد اذن بكل قوانا ، ولنسلم أنفسنا لله ولندخل باسم الرب في جهاد التجارب . ولنتوسل إلى الذي خلّص يوسف في مصر وأظهره مثالاً للعفة ، وحفظ دانيال سالماً في جب الأسود والفتية الثلاثة في أتون النار ، وأنقذ

إرميا من جب الأوساخ ومنحه رحمة وسط جنود الكلدانيين ، وأخرج بطرس من الأسر والأبواب مغلقة ، وخلّص بولس من مجمع اليهود ، فلنتوسل إليه أن يعضدنا ويخلّصنا وسط الأمواج المحيطة بنا ، لأنه يحضر دائماً في كل مكان مع عبيده ويُظهر لهم قوته وانتصاره ويحفظهم بآيات كثيرة ويكشف لهم خلاصه في جميع ضيقاتهم .

يجب أن تكون في نفوسنا غيرة ضد الشياطين ، كغيرة المكابيين والأنبياء القديسين والرسل والأبرار والشهداء والصديقين الذين حافظوا على النواميس الإلهية ووصايا الروح في أمكنة مرعبة وسط تجارب عنيفة ، وطرحوا وراءهم العالم والجسد وصبروا في برّهم منتصرين على المخاطر المحيطة بنفوسهم وأجسادهم بشجاعة . لقد كُتبت أسماؤهم في سفر الحياة حتى مجيء المسيح وتعاليمهم حُفظت بأمر الله لتعليمنا وشفائنا ، كما يشهد بولس المغبوط (رو ١٥ : ٤) . فلنكن حكماء ولنتعلم سبل الله ولنتذكر سيرة حياتهم كأمثال حيّة ، ولنقتدِ بهم ونسر في طريقهم ونتشبه بهم . ما ألذّ الأقوال الإلهية عند النفس الفطنة ، فإنها مثل غذاء يلهب الجسد . سِيرَ الصديقين شهيّة على آذان الودعاء ، إنها مثل الماء الجاري باستمرار على نبتة مغروسة حديثاً .

فكّر ، يا عزيزي ، بعناية الله التي تسهر عليك منذ البدء إلى الآن . إنها مثل الدواء الشافي العيون الضعيفة . تذكّرها في كل لحظة وتأمل بها وجاهد في تعلم كيفية الحصول على ذكر عظمة الله فتجد الحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا الصائر وسيطاً بين الله والناس ـ باتحاده بالإثنين ـ الذي لا تستطيع مراتب الملائكة أن تقترب من المجد المحيط بعرش كرامته والذي ظهر في العالم من أجلنا بصورة حقيرة متواضعة ، كما قال اشعياء : « لقد عرفناه لكن لم يكن له شكل ولا جمال » (اش ٥٣ : ٢) ، والذي تتعذر مشاهدته على الطبيعة المخلوقة كلها ، وقد لبس جسداً وأكمل تدبير الخلاص ومنح الحياة لجميع الأمم التي تطهرت به ، فله المجد والعزة إلى أبد الدهور آمين .

المقالة السادسة والأربعون

في تباين أنواع التجارب وفي حلاوة تحملها إذا حصلت من أجل الحقيقة ، وفي الدرجات والمراتب التي يرتقيها الإنسان الفطن

إن الفضائل ترتبط ببعضها كالسلسلة ، وبذلك لا يكون طريقها شاقاً وثقيلاً بل تتحقق كلها بترتيب مما يجعل الصعوبات المبذولة من أجل الصلاح مرغوبة كالصالحات ذاتها . لا يمكن أن تُحقق عدم القنية إذا لم تُقنع ذاتَك وتستعد للصبر على التجارب بفرح . ولا يمكنك أن تصبر على التجارب إلاّ إذا آمنت أن هناك شيئاً أسمى من الراحة الجسدية تستبدل به الشدائد التي هيأت نفسك للاشتراك بها . المستعدُ لقبول عدم القنية تتحرك فيه محبة الضيقات أولاً ثم يتولد فيه الفكر الذي يدفعه إلى عدم إقتناء شيء مما في هذا العالم . من يودّ الاقتراب من الضيق عليه أن يتوطد في الإيمان أولاً ثم يدنو من الشدائد . من حرم نفسه الأشياء المادية ولم يحرمها من فعل الحواس ـ أي النظر والسمع ـ يسبب لها ضيقاً مضاعفاً ويشقى كثيراً . فماذا ينفع الحرمانِ من الأشياء المحسوسة إذا استمر الإنسان بحملها في داخله ؟ إنه سيعاني من أهوائها بالحواس كما كان يعاني منها بالفعل قبل أن يتركها بسبب تذكر ممارستها الذي لم يبارح ذهنه . فإذا كان تخيّل الأشياء عقلياً ـ دون وجودها ـ يسبب ألماً للإنسان فماذا نقول إذن عن اقترابه منها ؟ الانعزال حسن جداً لأنه يساعد على تهدئة الأفكار ويعطي قوة في الجهاد ويعلّم الإنسان الصبر على مجابهة الضيقات التي تُفرض عليه .

لا تطلب نصيحة ممن لا يسير سيرتك مهما كان حكيماً . استرشد ساذجاً

خبيراً بالأمور العملية ولا تسترشد فيلسوفاً فقيهاً بالكلام يتّبع طريق الفحص الخالي من الخبرة . ما هي الخبرة ؟ الخبرة ليست في أن يدخل الإنسان ويرصد الأشياء التي لم يتذوق معرفتها بذاته ، بل أن يحس الإنسان بمنفعتها أو ضررها فعلياً بممارستها طويلاً . فبعض هذه الأشياء قد يبدو مضرّاً من الخارج بينما يكون داخله غنياً بالإفادة ، والعكس أيضاً صحيح . ولهذا السبب يخسر الناس خسائر فادحة في أشياء كانت تبدو لهم رابحة . إن شهادة المعرفة ليست إذاً دائماً على حق ، والأحرى بك أن تتخذ ممن يتقن اختبار الأمور بصبر وتمييز مرشداً لك . واعلم أن ليس كل الناس أمناء في إعطاء النصيحة ، بل الأمين حقاً هو الذي أحْسَن أولاً تدبير حريته ولم يَخَفْ ذمّاً أو افتراء .

إذا صادفت في طريق جهادك سلاماً ثابتاً لا يتبدل فعليك أن تحترس ، لأنك بعيد عن السبيل السويّ الذي وطئته أقدام القديسين بعد أن أضنكها التعب . واعلم أنك كلما تقدمت على طريق الملكوت واقتربت من مدينة الله ستجابهك التجارب ، وتزداد قوتها بمقدار ما يزداد نموّك وتقدمك . وعندما تحس أن التجارب التي تعترضك تتنوّع وتقوى فاعلم أن نفسك قد حصلت فعلياً وبطريقة خفية على درجة أسمى وأضيفت إليها نعمة ، لأن الله يسمح للنفس أن تتذوق التجارب بمقدار ما يمنحها من النعمة . ولا أقصد هنا تجارب أهل العالم التي تداهم بعضهم كي تجمّد الشر وتضع حداً للأحداث الظاهرة ، أو تلك التي تسبب إضطرابات جسدية متنوعة ، بل التجارب التي ترافق الرهبان المتوحدين العائشين في السكينة التي سأتحدث عنها بالتفصيل في ما يلي .

إذا ضعفت النفس ولم تقدر على تحمّل التجارب الكبيرة ، وطلبت من الله لأ تَدْخُل فيها واستُجيب لها، فاعلم بوضوح أن مواهبها ستقلّ بمقدار عجزها عن مجابهة التجارب ، لأن الله لا يعطي موهبة كبيرة إلاّ بتجربة كبيرة . وقد حدد رتبة المواهب برتبة التجارب نفسها ، حسب حكمته التي تعجز مخلوقاته عن إدراكها . وهكذا فإنك من خلال الشدائد الصعبة التي سمحت لك بها عناية الله ، تقدر أن تعرف مقدار الشرف الذي نالته نفسك من جلال عظمته ، لأنه بمقدار الحزن تكون التعزية .

سؤال : هل تأتي التجربة أولاً ثم تليها الموهبة أم العكس هو ما يحصل ؟

جواب : لا تأتي التجربة إلاّ بعد أن تتقبّل النفس ، في الخفاء ، قوة تفوق طاقتها وتحصل على نعمة الروح القدس . وتشهد على ذلك تجربة الرب وتجارب الرسل ، لأنه لم يُسمح بدخولهم في التجارب إلاّ بعدما قبلوا المعزّي . فالذين يشتركون في الخيرات يوافقهم الصبر على التجارب ، لأن الخير مرتبط بالشدة ، وهذا ما شاء الله الحكيم أن يفعله في كل شيء . ورغم أن النعمة تسبق التجربة إلاّ أن الشعور بالتجارب يبقى سابقاً الإحساس بالنعمة وذلك لكي تُختبر الحرية . إن النعمة لا تسبق تذوّق التجارب دائماً ، لكنها تَسْبِقُ في الذهن وتَتأخر في الحس . ففي أوقات التجارب يجب أن يكون فينا شعوران متناقضان لا يتشابهان أبداً : الفرح والخوف . فالفرح لأنك تسير في الطريق التي وطئها القديسون ، أو بالأحرى التي وطئها محبّ الجميع . وهذا الشعور يكتسبه الإنسان من تمييزه التجارب . أمّا الخوف فيجب أن يكون فينا لنعرف إذا كانت هذه التجارب المحيطة بنا قد سبّبها كبرياؤنا . فالمتواضعون تهبهم النعمة حكمة تمييز التجارب والتفريق بين المفرعة من الكبرياء والناتجة من ضربات المحبة ، لأن التجارب الناجمة عن تقدم السيرة ونموّها في الصلاح هي غير التجارب التأديبية التي يسمح الله بها بسبب تشامخ القلب .

تجارب أحباء الله أي المتواضعين[1]

إن التجارب الصائرة بعصا الروح من أجل تقدم النفس ونموّها والتي بها تتروّض وتُمتحن وتُجاهِد هي : الكسل ، ثقل الجسد ، الخمول ، الضجر ، تشوّش الذهن ، الخوف من المرض الجسدي ، الانقطاع الآني عن الرجاء ، ظلام الأفكار ، فقدان المعونة البشرية ، الحرمان مّما يحتاجه الجسد وغيرها . ومن خلال هذه التجارب يتضع الانسان وتصبح نفسه معزلة ومتروكة وقلبه ميتاً . وعندما يُمتحن بها يتحرك فيه الشوق نحو الخالق . إن العناية الإلهية تسمح بها لكل فرد حسب قوته وحاجته ، وبها تمتزج التعزية بالمصائب ، والنور بالظلمة ، والحروب بالمعونات ، وباختصار الضيق بالفرج . وهذا هو دليلُ تقدم الإنسان الحاصلُ بمعونة الله .

(١) العناوين في هذه المقالة من وضع المترجم (الناشر).

سؤال : هل تأتي التجربة أولاً ثم تليها الموهبة أم العكس هو ما يحصل ؟

جواب : لا تأتي التجربة إلاّ بعد أن تتقبّل النفس ، في الخفاء ، قوة تفوق طاقتها وتحصل على نعمة الروح القدس . وتشهد على ذلك تجربة الرب وتجارب الرسل ، لأنه لم يُسمح بدخولهم في التجارب إلاّ بعدما قبلوا المعزّي . فالذين يشتركون في الخيرات يوافقهم الصبر على التجارب ، لأن الخير مرتبط بالشدة ، وهذا ما شاء الله الحكيم أن يفعله في كل شيء . ورغم أن النعمة تسبق التجربة إلاّ أن الشعور بالتجارب يبقى سابقاً الإحساس بالنعمة وذلك لكي تُختبر الحرية . إن النعمة لا تسبق تذوّق التجارب دائماً ، لكنها تَسْبقُ في الذهن وتَتأخر في الحس . ففي أوقات التجارب يجب أن يكون فينا شعوران متناقضان لا يتشابهان أبداً : الفرح والخوف . فالفرح لأنك تسير في الطريق التي وطئها القديسون ، أو بالأحرى التي وطئها محبّ الجميع . وهذا الشعور يكتسبه الإنسان من تمييزه التجارب . أمّا الخوف فيجب أن يكون فينا لنعرف إذا كانت هذه التجارب المحيطة بنا قد سبّبها كبرياؤنا . فالمتواضعون تهبهم النعمة حكمة تمييز التجارب والتفريق بين المفرعة من الكبرياء والناتجة من ضربات المحبة ، لأن التجارب الناجمة عن تقدم السيرة ونموّها في الصلاح هي غير التجارب التأديبية التي يسمح الله بها بسبب تشامخ القلب .

تجارب أحباء الله أي المتواضعين[1]

إن التجارب الصائرة بعصا الروح من أجل تقدم النفس ونموّها والتي بها تتروّض وتُمتحن وتُجاهِد هي : الكسل ، ثقل الجسد ، الخمول ، الضجر ، تشوّش الذهن ، الخوف من المرض الجسدي ، الانقطاع الآني عن الرجاء ، ظلام الأفكار ، فقدان المعونة البشرية ، الحرمان ممّا يحتاجه الجسد وغيرها . ومن خلال هذه التجارب يتضع الانسان وتصبح نفسه معزلة ومتروكة وقلبه ميتاً . وعندما يُمتحن بها يتحرك فيه الشوق نحو الخالق . إن العناية الإلهية تسمح بها لكل فرد حسب قوته وحاجته ، وبها تمتزج التعزية بالمصائب ، والنور بالظلمة ، والحروب بالمعونات ، وباختصار الضيق بالفرج . وهذا هو دليلُ تقدم الإنسان الحاصل بمعونة الله .

(١) العناوين في هذه المقالة من وضع المترجم (الناشر).

بالصبر سيكون عذابها مزدوجاً ، لأن الصبر يبعد المصائب عن الإنسان . صغر النفس يولّد العذاب أمّا الصبر فيلد التعزية وهو قوة تتولد من انشراح القلب ويصعب على الإنسان أن يجدها أثناء تجاربه بدون الموهبة الإلهية الناشئة من الصلاة الدائمة وذرف الدموع .

في صغر النفس

إذا أراد الله أن يزيد افتقاد الإنسان بالشدائد فإنه يسمح له بالوقوع في صغر النفس الذي يسلّط عليه الضجر بشدة ويجعله يتذوق طعم الغرق النفسي أي جهنم . ثم يأتي روح الشطط الذي منه تنبع آلاف التجارب : التشوّش ، الغضب ، التجديف ، التأفف ، الأفكار المنحرفة ، التنقل من مكان إلى مكان وغيرها . فإذا تساءلت عن السبب أقول لك إنه إهمالك لها وعدم اهتمامك بالبحث عن الشفاء منها . إن دواء هذه التجارب كلها واحد ، وبه يجد الإنسان بسرعة تعزية نفسه . إنه اتضاع القلب الذي لا يستطيع أحد بدونه هدم سياج هذه الشرور بل تبقى متغلبة عليه .

+ لا تغضب مني لأنني أقول الحق . إنك لم تبحث عن التواضع بكل قوتك ، فإذا شئت ذلك ادخل إلى أرضه لترى كيف يعطيك الحلّ من كل شرورك . فبمقدار ما تتضع يعطى لك الصبر على المصائب ، وبمقدار ما تصبر يخف عنك ثقل الشدائد وتحظى بالتعزية ، وبمقدار ما تتعزى تعظم محبتك لله ، وبمقدار ما تحب الله يعظم فرحك بالروح القدس . إذا شاء الله أن يريح أبناءه الحقيقيين لا يرفع عنهم التجارب بل يعطيهم قوة ليصبروا عليها . وعندما ينالون هذه الخيرات كلها بواسطة الصبر تبلغ نفوسهم إلى الكمال .

عسى أن يؤهّلنا المسيح الإله بنعمته حتى نصبر على الشرور بقلب شكور من أجل محبته ، آمين .

تواضع ← صبر ← تعزية ← ↑ محبة الله ←

فرح بالروح القدس ⇐ الكمال

المقالة السابعة والأربعون

في أن الجسد عندما يخاف من التجارب يصبح صديقاً للخطيئة

قال أحد القديسين : إن الجسد بخوفه من التجارب - كي لا يتضايق أو يخسر حياته - يصبح صديقاً للخطيئة ، ولهذا يجبره الروح القدس على الموت لأنه إن لم يمت فلن يتغلب على الخطيئة . إذا شاء أحد أن يكون مسكناً للرب عليه أن يقهر جسده ، ويخدم الرب ، ويعمل وصايا الروح ، ويحفظ نفسه من أعمال الجسد التي كتب عنها الرسول . الجسم الممزوج بالخطيئة يرتاح بأعمال الجسد ، أمّا ثماره فلا تريح روح الله . الصلاة تقوى في النفس عندما يضعف الجسد بالتقشف والصوم ، فحين تضايق جسدك بشدائد السكينة وتحيطه بها من كل الجهات يشعر بالحاجة والحرمان ويرى الموت أمامه فيطلب منك قائلاً : دعني أعيش حياة متوسطة ، فإني قد عانيت كثيراً ولا أكاد أقوى على الوقوف . ولكن ما أن تريحه من الضيقات وتسمح له بقليل من الراحة - رأفة به - حتى يتنفس الصعداء ويبدأ بالهزء بك ليخرجك من البرية ، وغالباً ما يكون هزءه قوياً جداً فيقول لك : لقد أصبح بإمكاننا أن نعيش سيرة حسنة بقرب العالم ، لأننا امتُحنّا كثيراً ، ونستطيع أن نطبق السيرة نفسها هناك . فامتحنّي وإذا لم أكن عند حسن ظنك يمكننا العودة ، فإن البرية لن تهرب منّا . إياك أن تصدّقه وإن رجاك بشدة ووعدك وعوداً كثيرة . فهو لا يفعل كل ما يقول ، فما أن تلبّي طلبه حتى يرميك في سقطات كبيرة لا يمكنك النهوض والخروج منها فيما بعد .

عندما تتعب من التجارب وتشبع منها ، قل لجسدك : أرى أنك لا تزال تشتهي الحياة الفاسدة البذيئة . وإذا قال لك إنها لخطيئة كبيرة أن تقتل ذاتك ، فقل له : أقتل ذاتي لأنني لا أستطيع أن أعيش حياة دنسة . أموت هنا حتى لا أرى

موت النفس الحقيقي أي الانفصال عن الله . خير لي أن أموت هنا من أجل الطهارة من أن أعيش حياة شريرة . لقد اخترت هذا الموت بحريتي من أجل خطاياي . اقتل ذاتي لأنني أخطئت إلى الرب ، ولكنني لن أغضبه بعد . ماذا تنفعني الحياة البعيدة عن الله ؟ سأتحمل المحن حتى لا أصير غريباً عن الرجاء السماوي ، فما منفعة الله من حياتي إذا كنت أغضبه وأعيش حياة دنيئة ؟



المقالة الثامنة والأربعون

في سبب سماح الله بتجربة محبيّه

إن قلوب القديسين - بسبب حبهم لله الذي أظهروه أثناء تحملهم كل شيء من أجل اسمه - تقتني دالة عندما يفتقدهم بالضيق . نحن نعلم أن الله لا يفارق محبّيه ، لكنهم بالدالة التي حصلوا عليها يتمكنون من النظر إليه عياناً ومن سؤاله بإيمان راسخ . عظيمة هي قوة الصلاة الصائرة بدالة . إن الله يدع قديسيه يُجرَّبون بكافة الأحزان حتى يكتسبوا خبرة ويشعروا بعظمة معونته وعنايته بهم . فبالتجارب يحصلون على الحكمة ، ولا يظلون جهالاً ولا يحرمون من منفعة هذه الرياضة في كلتي الحالتين . هذه الرياضة تمكنهم من الحصول على معرفة كاملة - من خلال الخبرة - وتقيهم خدعة الشياطين ، لأنهم إذا تروّضوا في الصالحات وحدها وأهملوا السيئات يظلون عراة أثناء الحروب ومعرّضين للخطر .

وإذا قلنا إن الله يروّض هؤلاء القديسين بدون معرفتهم ، فكأننا نقوله إنه يريدهم مثل العجول والحمير لا حرية لهم في أي شيء . الإنسان لا يستطيع أن يتذوّق طعم الصلاح ما لم يُجرَّب أولاً في الأمور الشريرة . حتى إذا صادف الصالحات أحسن استعمالها بمعرفة وحرية كأنها خاصة . ما ألذ وما أحلى المعرفة النابعة من خبرة الأعمال والرياضة ، وما أعظم القوة التي تهبها المعرفة لمن يجدها بعد سيرته الطويلة . وهذا ما لا يدركه إلاّ الذين عرفوا مؤازرتها باقتناع ، وشعروا بضعف الطبيعة البشرية إزاء معاضدة القوة الإلهية . الله عندما يحجب قوته عنهم يجعلهم يشعرون بضعف طبيعتهم البشرية وعجزها على مجابهة التجارب وشرور العدو ، ويدركون مع من يتصارعون ، والطبيعة التي يتوشحون بها ، وكيف تصونهم القوة الإلهية وتجعلهم يتقدمون ويرتفعون بها وكيف يظهر ضعفهم واضحاً

من دونها . فيقتنون التواضع ويتربّون من الله ويتوقّعون معاضته ويصبرون في الصلاة . فهل كان بإمكانهم أن يتعلموا هذا كله لو لم يُمتحنوا في شرور كثيرة سمح الله بسقوطهم فيها ؟ لقد قال الرسول : « لئلا انتفخ بالكبرياء من عظمة ما انكشف لي أصبت بشوكة في جسدي وهي كرسول من الشيطان » (٢ كو ١٢ : ٧) . إن التجارب تكسب الإنسان إيماناً راسخاً بالله حينما يحس بالمعونة الإلهية التي تعطى له في أوقات كثيرة ، ويصبح عديم الخوف ويملك شجاعة في التجارب بفضل الرياضة التي تمرّس عليها .

+ التجربة مفيدة لكل إنسان . فإذا كانت نافعة لبولس ، فليسكت إذن كل فم . وليكن العالم تحت قضاء الله كمجرم . فالمجاهدون يجرَّبون لكي يزدادوا غنىً ، والمتخاملون لكي يحفظوا أنفسهم من الأمور المؤذية ، والنوامون لكي يستعدوا لليقظة ، والبعيدون عن الله لكي يدنوا منه ، أمّا الأصفياء فلكي يسكنوا معه بدالة . كلّ ابن لا يُدرَّب جيداً لا يمكنه عندما يرث غنى بيت أبيه أن يُحسن استخدامه ، لذلك يسمح الله أولاً بالتجربة والعذاب ثم يمنح الموهبة . فالمجد للسيد الذي يمنح نعيم الصحة بأدوية مرّة .

كل إنسان قد يشمئز من هذه الرياضة ويبدو له الوقت مريراً عندما يسقى دواء التجارب المر ، ولكننا نعلم أنه بدونها يستحيل الحصول على بنية قوية . والصبر ليس أمراً نملكه بقوتنا الذاتية ، فمن أين للفَخّار قوةُ الصمود أمام مجرى المياه إذا لم تجففه النار الإلهية .

إذا خضعنا بتواضع وطلبنا بثبات ورغبة على الدوام ننال كل شيء بالمسيح يسوع ربنا ، آمين .

المقالة التاسعة والأربعون

في المعرفة الحقيقية وفي التجارب

كثيراً ما يُخالف البعض الوصايا الإلهية ، لكنهم بتوبتهم يشفون نفوسهم فتقبلهم النعمة الإلهية . وتحصل المخالفة لأن التحوّل يشمل الطبيعة الناطقة كلها بشكل غير محدود ، وكل إنسان يتعرّض لتغيّرات في داخله كل لحظة من حياته ولا يستطيع إدراكها إذا لم يتحلَ بالتمييز . فإذا انتبَه جيداً لهذه التجارب اليومية يمكنه أن يحصل بواسطتها على الحكمة ويستطيع بالتالي أن يراقب بفكره مقدار الوداعة واللطف الكائنين في ذهنه كل يوم ، كما يصبح بإمكانه أن يراقب تحوّلاته الفجائية من السلام إلى الاضطراب دون أن يكون السبب ناجماً عنه ، فيشعر أنه أمام خطر كبير .

وقد كتب القديس مكاريوس عن هذا الموضوع بكثير من الحد والوضوح والعناية لكي يذكّر الإخوة ويعلّمهم ألاّ يستسلموا لليأس أثناء هذه التحوّلات . فالذين يبلغون حالة الطهارة يتعرّضون دوماً للسقوط ، مثل تعرّض الهواء للحرارة والبرودة ، أي دون أن يكونوا في حالة إهمال أو تراخ ، وكثيراً ما تحصل هذه السقطات بينما هم يعيشون سيرة منتظمة . وقد تكلّم على هذا أيضاً مرقس المغبوط الذي حصل على خبرة حقيقية ، وأكّدَه في كتاباته حتى لا يدّعي أحدٌ أن القديس مكاريوس قد كتب عن هذا الموضوع بطريقة عفوية وليس بخبرة حقيقية عميقة . وقد فعلا ذلك حتى يتشجع الذهن ويقبل دون تردد التعزيةَ التي يحتاجها في كلتي الحالتين : حالة السلام وحالة الإضطراب . قال القديس مكاريوس : إن التغيّرات تحصل لـ «كل إنسان» كما يحصل التغيّر في الهواء. إنتبه إلى عبارة «كل إنسان» المشيرة إلى أن الطبيعة واحدة ، حتى لا تظن أنه يقصد المتوسطين والصغار

فقط ، كما يزعم الافخيتيون[1] القائلون بأن الكاملين منزّهون عن التغيّرات وأنهم ثابتون على حالة واحدة وبعيدون عن الأفكار الرديئة . لقد أكّد عبارة « في كل إنسان » بسبب هذه الأقوال . فكيف يحصل ذلك ؟

يقول القديس المغبوط : « مثلما تحصل تقلّبات في الجو من برد إلى حر وربما ثلج فعواصف فسلام ، يحصل أيضاً تغيّر أثناء رياضتنا ، فتارة تكون حرب وطوراً تعضدنا النعمة . ان النفس تكون في شتاء عندما تهبّ عليها رياح مضادة ، وتتغيّر فيمتلىء قلبها بالفرح والسلام الإلهيين عندما تفتقدها النعمة ، ثم تشتملها أفكار العفة والسلام » . وقد ذكر هذه الأفكار الأخيرة (العفة والسلام) لينوّه إلى أن الأفكار التي قبلها هي دنسة وبهيمية . ثم ينصحنا ألاّ نحزن ونيأس إذا أعقب أفكار العفة واللين هبوط مفاجىء ، وألاّ نتراخى أثناء الراحة التي تفتقدنا بها النعمة ، بل أن نتوقع الحزن إبّان الفرح . ويضيف أيضاً : إذا حصلت لنا سقطات ولم نحزن بسببها فهذا لا يعني أنه ينبغي أن نرضى بها ، بل علينا أن نقبلها بفرح كشيء طبيعي خاص بنا ، وألاّ نيأس مثل إنسان ينتظر الراحة التامة والثابتة في جهاده متغاضياً عن الأحزان والجهادات ، معتقداً أنه لن يعاني في داخله من أية حركة من هذه الحركات المضادة التي يظن أن ربنا وإلهنا لا يرضى عنها في هذه الحياة .

إن هذا يتم حتى لا نصبح بطالين بالكلية ومتراخين في أفكارنا بسبب اليأس ، وواقفين في الطريق بدون حركة . وقال أيضاً : « اعلم أن القديسين جميعهم قد امتُحنوا بهذا العمل . ولكن التعزية الكبيرة سترافق هذه التجارب ما دمنا في هذا العالم ، لأن محبتنا لله تُمتحن كل يوم وكل ساعة بالجهاد والحرب ضد التجارب ، حتى لا نحزن ونملّ أثناء الجهاد ، وهكذا يستقيم طريقنا . أمّا الذي

---

(١) هرطقة ظهرت في القرن الرابع في ما بين النهرين وانتشرت في سوريا وآسيا ومصر . تتصف باتجاهات نسكية سرية ، وكانت جماعاتها من رجال ونساء يعيشون سويّة ولا يعملون شيئاً لاعتبارهم العمل امرأً شريراً . كانوا يعيشون من الاستعطاء ويؤمنون أن كل إنسان مولود يسكن فيه شيطان ولا يخرج منه حتى بالمعمودية بل بالصلاة فقط ، ولهذا كانوا يزدرون الأسرار الإلهية . شجبتهم الكنيسة في مجمع سيدي (Sidi) سنة ٣٩٠ .

يريد تجنبها فنصيبه الذئاب » . فما أعجب كلام هذا القديس ! وكيف أنه بعبارة صغيرة أكد صحة هذا القول وأظهره زاخراً بالحكمة وأزال الحيرة من ذهن القارىء بقوله : من حاد عن التجارب فنصيبه الذئاب ، لأنه لا يريد السير في الطريق المستقيم ، بل في طريق خاصة به لم يسر عليها الآباء . ولهذا السبب أيضاً قال سابقاً : علينا أن نتوقع الأحزان أثناء الفرح عندما تغمرنا النعمة بالأفكار العظيمة وبانختطاف الذهن في أسمى مشاهدات للطبيعة . وكما قال القديس مرقس ، عندما يقترب منا الملائكة القديسون يملأوننا بالمشاهدة الروحية ، وأثناء عيشنا هذه الخبرة تغادرنا القوات المضادة ويحل مكانها سلام وصفاء لا يمكن وصفهما . فإذا ظللتك هذه النعمة وأحاط بك الملائكة القديسون وهرب منك جميع المجرِّبين (الشياطين) فلا تترفع ظاناً أنك قد بلغت الميناء الأمين والجو الساكن وأنك قد اجتزت هذا الخضّم الذي تعصف فيه الرياح الشديدة وأنه لم يعد هناك عدو أو شيء شرير ، لأن الذين فكّروا هكذا قد عادوا وسقطوا في مخاطر كبيرة كما قال القديس نيلوس المغبوط . واحذر أيضاً أن يخطر في ذهنك أنك أسمى من الآخرين وأعظم منهم ، وأن ما ينطبق عليك في هذه الأمور لا ينطبق عليهم ، فتزعم أنهم أدنى منك في السيرة ، وأنهم ليسوا ذوي معرفة كاملة كمعرفتك ، لافتقارهم إلى مثل هذه المواهب ، لأن هذا الإعتقاد سيؤدي بك إلى القول : إنني قد استحققت ذلك بوصولي إلى كمال القداسة وإلى درجة روحية سامية وإلى الفرح الثابت . لقد كان يجدر بك أن تفكر بالأفكار الدنسة والصور القبيحة التي كانت مغروسة في ذهنك أثناء المحنة والإضطراب ، والتشوشات الفكرية التي كانت ثائرة عليك منذ قليل عندما كانت الظلمة مستحوذة عليك . والأجدر بك أيضاً لو تذكرت كيف أنك جنحت بسرعة نحو الأهواء وعايشتها عندما كان ذهنك مظلماً ، وأنك لم تتورع أمام الرؤية الإلهية ولم توقرها ، ولم تقدّر المواهب والعطايا التي وُهبت لك . واعلم أن هذه كلها تسمح بها العناية الإلهية التي تهتم بكل واحد منا كما يجب حتى يتواضع . فإذا ترفعت بسبب هذه المواهب ستتخلى عنك النعمة وتسقط بكليتك في أمور تحاربك بالفكر فقط .

فاعلم اذن أن صمودك أمام التجارب لا يعود إلى قوتك ولا إلى فضيلتك ، بل إلى النعمة التي حملتك على كفيها كي لا يشتملك الرعب . وقد قال أبونا

القديس: تذكر ذلك في وقت الفرح، وعندما يترفع فكرك دمّع وابكِ وعفّر جبينك بالتراب متذكراً سقطاتك التي حصلت أثناء التخلي لكي تُنقذ وتنال الاتضاع. واحذر أن تيأس، بل استغفر الله على خطاياك بأفكار متواضعة.

إن للتواضع قوة في غفران خطايا كثيرة حتى بدون أعمال. والأعمال وحدها بدون التواضع ليست مضرّة لنا وحسب بل توقعنا في شرور كثيرة أيضاً. فكما أن الملح يناسب جميع الأطعمة هكذا التواضع يناسب كل فضيلة ويستطيع سحق خطايا كثيرة. ولكي تقتني التواضع ينبغي أن تحزن بفكرك بلا انقطاع لكن باتضاع وتمييز. إن التواضع يجعلنا أبناء الله ماثلين أمامه، وإن لم نقدّم له أعمالاً صالحة. فإن أعمالنا وفضائلنا كلها بدون التواضع تكون باطلة.

إن الله يبغي تحوّل الذهن، لأننا بالفكر نرتقي إلى الأحسن، وبالفكر أيضاً ننحدر إلى الأسوأ. فالتواضع وحده، دون سواه، قادر أن يقف أمام الله ويتشفع بنا. أشكر الله واعترف له بلا فتور لأنك تقتني طبيعة ضعيفة تميل إلى السقوط بسهولة. وتذكّر إلى أين ترتقي أحياناً بمؤازرة النعمة وتؤهّل لمواهب عظيمة بحال تفوق الطبيعة البشرية. وتذكّر أيضاً شقاء طبيعتك وسرعة تحوّلها عندما تهبط إلى أسفل ويصبح فكرك بهيمياً بسبب تخلي النعمة عنك، كما ذكر أحد الشيوخ للقديسين: «عندما يراودك فكر التكبر ويقول لك: تذكّر فضائلك قل له: أنظر إلى فسقك يا شيخ». ويقصد به الفسق الذي يحارب فكرك أثناء التخلي، والذي تدبّره النعمة الإلهية، إمّا بحرب وإمّا بمعونة من أجل منفعتنا.

أرأيت كيف أدرك هذا القديس الأمر بسهولة؟ قال: عندما يراودك فكر الكبرياء، لسمو سيرتك، قل له أنظر إلى فسقك يا شيخ. فواضح أنه كان يتكلم عن راهب عظيم لأنه من المستحيل أن ينزعج بفكر كهذا غير الذين بلغوا درجة عالية وثبتوا في سيرة جديرة بالمديح. إن هذا الهوى لا يثور على النفس إلاّ بعد حصولها على الفضيلة حتى يبطلها عن عملها. وإذا كنت ترغب أن تعرف الدرجة التي وصل إليها القديسون وما هي التجارب التي تحاربهم، فإليك الرسالة التي كتبها القديس مكاريوس.

كتب الأنبا مكاريوس إلى جميع أبنائه الأعزاء يعلّمهم بوضوح كيف أن الله

يستفقدهم تارة بالحروب وطوراً بمؤازرة النعمة ، وكيف أن حكمته شاءت أن تروّض القديسين في الجهاد ضد الخطيئة بغية الحصول على الفضيلة وهم في هذه الحياة ، لكي تقوى فيهم مشاهدته كل حين وتنمو فيهم محبته المقدسة ، وكيف أنهم يتهافتون إليه خوفاً من الإنحراف عند اشتداد ثورة الأهواء عليهم واستمرارها فيثبتون في الإيمان والرجاء والمحبة . ولا تتوجّه الرسالة إلى العائشين مع الناس والمتنقلين من مكان إلى مكان والمنغمسين في الأفكار الرديئة القبيحة ، ولا إلى الذين يعملون البر خارج السكينة حيث يعرّضون ذواتهم دائماً لخطر السقوط في الخطايا بسبب عدم قدرتهم على ضبط أفكارهم وحواسهم فيكون سقوطهم رغماً عنهم . إنما هي موجّهة إلى الذين يستطيعون ضبط أجسادهم وأفكارهم ، بالإبتعاد كلياً عن معاشرة الناس ، والزهد بكل شيء حتى بنفوسهم ، وحفظ ذهنهم أثناء الصلاة ، وتقبّل تدابير الرب المتعددة ، والحصول على حكمة الروح خفياً في السكينة بالإبتعاد عن الأمور الدنيوية ورؤيتها ، والموت الذهني عن العالم . فهؤلاء لا تموت الأهواء فيهم بل يموت ذهنهم عنها بسبب ابتعاده عن الدنيويات وبمؤازرة النعمة . فعسى أن تحفظنا النعمة إلى هذا الحد ، آمين .



المقالة الخمسون

في الموضوع نفسه و في الصلاة

مضمون هذه المقالة هو ضرورة معرفة حاجتنا إلى التوبة في كل ساعة من ساعات الليل والنهار . إن مفهوم التوبة كما عرفناه من الوجه الصحيح للأمور هو التالي : ابتهال دائم إلى الله بنفس مليئة بالخشوع ومتوشحة بالحزن من أجل غفران الخطايا الماضية وبغية الحفظ من الخطايا المستقبلة . لهذا السبب شدّد الرب ضعفنا بالصلاة حين قال : « اسهروا وصلّوا لئلا تقعوا في تجربة » (متى ٢٦ : ٤١) . فصلّوا ولا تملّوا واسه١٠ كل حين متضرعين . وقال أيضاً : « اسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا ، دقّوا الباب يفتح لكم ، فمن يسأل ينل ومن يطلب يجد ومن يدق الباب يفتح له » (متى ٧ : ٧) . وقد ثبّت لنا هذا القول وأكّده في مَثَل الذي ذهب إلى صديقه في نصف الليل وطلب منه خبزاً حين قال : « أقول لكم إن كان لا يقوم ويعطيه لأنه صديقه ، فهو يقوم ويعطيه كل ما يحتاج إليه لأنه لجّ في طلبه » (لو ١١ : ٨٠) . أمّا أنتم فصلّوا ولا تتهاونوا . يا للثقة التي لا توصف ! إن الواهب يحثّنا على الطلب لكي يعطينا النعمة الإلهية . إنه يدبّر بمعرفته كل ما هو نافع لنا ، لكنه لا ينفك عن تشجيعنا وتقويتنا بأقواله المملوءة بالرجاء . إنه يعلم أن التوبة لا تتوقف إلاّ بالموت ، وأن التحوّل أي الإنتقال من الفضيلة إلى الرذيلة سهل جداً ، وأن طبيعة الإنسان قابلة للأمور المضادة ، لذلك ينصحنا بالإجتهاد والجهاد في التضرع المستديم . فلو كان بلد الرجاء موجوداً في هذا العالم لكان باستطاعة الانسان الوصول إليه بدون معونة ، ولأصبح عمله خالياً من الخوف ، ولما حثنا الرب بالتالي على الجهاد في الصلاة باتخاذه تدبيراً كهذا . فالقديسون في الدهر الآتي لا يقدّمون صلوات لله وليس لديهم ما يطلبونه منه ، لأن طبيعتنا في بلاد الحرية تلك ستنعتق من كل تغيير أو انحراف يفرضه عليها هول المضادات لكونها

ستصبح كاملة في كل شيء . لذلك علينا ألاّ نكتفي هنا بالصلاة وحفظ الذات ، بل يجب اكتساب الدقة والشفافية لنتمكن من إدراك الأمور المضادة لنا باستمرار، التي لا يمكننا فهمها بالذهن والتي نقع في كثير منها دون إرادتنا حتى إذا كان عقلنا على كثير من الثبات وحب الصلاح. فكم من مرّة تركتنا عناية الله ولم تدعنا بدون تجارب ، كما قال بولس المغبوط : «لئلا أنتفخ بالكبرياء من عظمة ما انكشف لي ، أصبت بشوكة في جسدي وهي كرسول من الشيطان يضربني لئلا أتكبر. وصليت إلى الله ثلاث مرات أن يأخذها عني، فقال لي: تكفيك نعمتي. في الضعف يظهر كمال قدرتي» (٢كو ١٢ : ٧-٩).

فكأن الرسول العظيم يقول : يا رب إذا كانت مشيئتك أن تكون طفولتنا بحاجة إلى هذه الشوكة كي تتأدب وتتيقظ بحضورك ، فإن حالي مختلفة . فأنا أصبحت سكراناً بشوقك ومجذوباً بالخيرات ، فلا أستطيع رؤية العالم مطلقاً بسبب شغفي بك ، فقد جعلتني أبلغ إلى إعلانات ورؤى لا يمكن لإنسان جسدي أن يصفها ، وأهّلتني لسماع نغم خدمة القوات ولمشاهدتك المملوءة بالقداسة . ومع هذا ورغم حصولي على فكر المسيح - أنا الإنسان الكامل به - غير أني لست قادراً على حفظ نفسي لإحساسي بأن أمراً دقيقاً ينقصني وبدونه أبقى عاجزاً عن إدراك المعاني كلها . لذلك فإني أفرح يا رب بالأمراض والضيقات والسجون والقيود والشدائد ، أمن الطبيعة كانت أم من أولادها (البشر) أم من أعدائها . « فأنا اذن أفتخر راضياً مبتهجاً بضعفي حتى تظللني قوة الله » (٢ كو١٢ : ٩) . فإذا كنت ، رغم ذلك ، اطلب عصا التجارب ، فلكي يزداد فيّ سترك واحفظ بدنوّي منك ، إذ أعلم أنه ليس أحد أعزّ منّي ، وإنك عظمتني أكثر من كثيرين ، كما أعطيتني أن أعرف قوّاتك العجيبة والمجيدة التي لم تعطها لأحد من زملائي الرسل ، وقد دعوتني الإناء المصطفى والمؤتمن على حفظ رباط المحبة . فأعترف أن نجاحي وتقدمي في عمل البشارة يعود إلى حبال التجارب التي كنت مقيّداً بها . إني على يقين أنه لو كانت الحرية مفيدة لي لما ضننت بها عليّ . لكنك لم تشأ أن تدعني بدون ضيقات أو اهتمامات في هذا العالم لأن بغيتك لم تكن كثرة التبشير بإنجيلك بمقدار ما كانت أن أستفيد من تجاربي وأن تحفظ نفسي سليمة بقربك .

فيا أيها الحكيم ، إذا كانت عطية التجارب كبيرة إلى هذا الحد ، لأن حاجة الإنسان إلى الخوف وحفظ الذات وجني ثمار التجارب تزداد بمقدار ما يسمو ويزداد في الروحيات ، على مثال بولس . فمن يتجاسر على الإدعاء أنه قد بلغ تلك الثقة بالنفس ، المليئة باللصوص ، وحصل على نعمة الصمود التي لم تعط حتى للملائكة القديسين كي لا يصلوا إلى الكمال بخلاف البشر ؟ إن هذا الادعاء لا يتفق مع الروحيين ولا مع الجسديين ، بل يعني أن صاحبه يريد أن يكون غير متغيّر أبداً وألاّ تقترب منه تجربة بفكره ، مما لا يتفق مع مفهوم نظام العالم الموجود في الكتاب المقدس وهو ألاّ نيأس ونترك طريق الجهاد وإن تعرّضنا للسقوط ألف مرة يومياً، لأنه بإمكاننا ، بدافع واحد ، أن نحرز الانتصار وننال الإكليل .

إن هذا العالم هو مكان الجهاد ، وهذا الزمن هو أوان الصراع ، وحيث الصراع والجهاد لا يوجد ناموس ، لأن الملك لا يضع شروطاً على جنوده قبل أن ينتهي الجهاد ويجتمع الكل أمام بابه ، ويُعرف عندئذ من صمد في المعركة ولم يقبل الهزيمة ممن أدار ظهره و[illegible] هارباً . وقد يحدث أحياناً أن يكون انسان مرمياً ومثخناً بالجراح ، لم يتروّض [illegible] [illegible] لا ينفع لشيء ، إلاّ أنه ينهض فجأة ويختطف العَلَم من جيش أبناء العمالقة فينال شهرة ويُمتدح أكثر من المجاهدين الماهرين في الانتصار بالمعارك ، ويحصل على الإكليل والجوائز الثمينة بما يفوق الجميع . لذلك يجب علينا ألاّ نيأس وألاّ نهمل الصلاة وألاّ نتكاسل في طلب المعونة من الله .

ويجب أن نتذكر دائماً أننا ولو صعدنا إلى أعالي السموات فلن نستطيع البقاء دون عمل أو اهتمام ما دمنا نحيا بالجسد في هذا العالم . هذا هو الكمال . سامحني على ذلك . وكل ما زاد على هذا فهو كلام باطل .

أمّا إلهنا فله المجد والعزة والجلال إلى الدهور ، آمين .

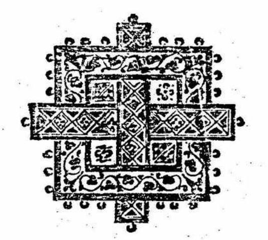
المقالة الحادية والخمسون

في طرق الحرب المتعددة التي يتخذها الشيطان ضد أولئك الذين يسيرون في الطريق الضيّقة التي تتجاوز تفكير أهل العالم

إن لعدوّنا الشيطان عادة قديمة وهي تقسيم المعارك بمكر ضد الذين يحاربونه فيغيّر أنواع أسلحته ويستبدل أساليبه الحربية وفقاً لإمكانيات الأشخاص. فالذين يراهم ميّالين إلى الكسل وضعيفي الرأي يحاربهم منذ البداية بشدة مثيراً ضدهم تجارب عنيفة وقوية حتى يجعلهم يتذوّقون طرقه الرديئة من بداية الطريق ، فيستحوذ عليهم الخوف وتبدو لهم الطريق قاسية وصعبة المسالك ويقولون : إذا كانت بداية الطريق صعبة وقاسية هكذا ، فكيف نستطيع مجابهة الحروب الكثيرة في وسطها ونصبر حتى النهاية . ويستحيل عليهم بذلك الصمود والتقدم نحو الأمام ، ولا يمكنهم أن يروا شيئاً آخر بسبب الهمّ المستحوذ عليهم . ثم يؤزّم الشيطان الحرب عليهم حتى يهربوا . والأرجح أن الله هو الذي يسمح للشيطان بأن يقوى عليهم دون أن يساعدهم بشيء لأنهم دخلوا جهاد الرب بتردد وبرودة . فقد قيل : « ملعون من عمل عمل الرب باسترخاء وملعون من منع سيفه عن الدم » (ار ٤٨ : ١٠) وأيضاً : « إن خلاصه قريب ممن يتقونه » (مز ٨٤: ١٠). إنه يسمح لك أن تجابه الشيطان إذا كنت خالياً من الخوف والفتور ويقول: ابتدىء اذن في هلاكه وثب عليه بشجاعة وحاربه وصارعه ، « فإن الرب إلهكم يلقي ذعركم ورهبتكم على كل الأرض التي تطأونها كما وعدكم » (تث ١١ : ٢٥) .

لأنك إذا لم تمت بإرادتك موتاً حسياً محبة بالله ، ستموت عنه عقلياً مكرهاً .

+ لا تدع إرادتك ترأف بعضو من أعضائك فتستصعب قبول الآلام الوقتية التي ستصيبه في سبيل دخولك مجد الله . فإذا مت في جهاد الرب جسدياً يكللك ويهب بقاياك الشريفة كرامة الشهداء . أمّا الذين يتكاسلون ويسترخون منذ البداية ولا يقهرون أجسادهم ويسلّمونها إلى الموت فسيظهرون صغاراً وعديمي الشجاعة في كل الحروب . إن الله يسمح بطردهم ومحاربتهم لأنهم لم يطلبوه حقيقة بل حاولوا أن يسلكوا طريق الرب كساخرين ومجرِّبين . والشيطان أيضاً قد عرفهم منذ البداية وامتحن آراءهم وتأكد من خوفهم ومحبتهم لذواتهم وشفقتهم على أجسادهم فطاردهم لأنه لم يجد فيهم تلك القوة العقلية التي رآها في القديسين . إن الله يؤازر الانسان ويساعده حسب ميله ونيته وهدفه ، فلا يستطيع الشيطان أن يقترب منه أو أن يحمل إليه التجارب إلاّ إذا سمح الله بذلك لأجل تهاونه أو استرخائه في أفكار قبيحة بسبب كبريائه أو لأجل فكر يراوده أو تردد أو شك . مثل هؤلاء يُطالب الشيطانُ بتجربتهم ، أمّا البسطاء وعديمو الخبرة فلا يطلب الشيطان من الله أن يأذن له بتجربتهم كالقديسين والكبار ، فهو يعلم أن الله لا يسمح أن يقعوا بين يديه لأنهم لا يتحملون تجاربه ، إلاّ إذا وجد سبب من الأسباب التي ذكرتها فعندئذ تبتعد عنهم عناية الله . هذه أولى طرق حروب الشيطان .



المقالة الثانية والخمسون

في الطريقة الثانية لحروب الشيطان

إن الشيطان لا يعترض حالاً الأقوياء والشجعان الذين لا يهمهم أمر الموت إطلاقاً ، والذين خرجوا بغيرة عظيمة إلى الحرب ، وسلّموا ذواتهم لكل موت وتجربة ، ومقتوا حياة العالم والجسد وكل التجارب ، ولا يَظْهر لهم كثيراً ، بل يتراجع تاركاً لهم مجال العبور ، ولا يعترضهم للوهلة الأولى ولايقابلهم بالحرب. فهو يعرف أن كل بداية تمتلك حرارة أقوى من حرارة الحرب ، وأن للمجاهد غيرة قوية ، وأن المحاربين الغيورين لا ينهزمون بسهولة . وهو لا يتبع هذه الخطة جبناً ، بل خوفاً من القوة الإلهية المحيطة بهم . وهو يدرك حالتهم فلا يجسر على الإقتراب منهم إلاّ إذا رأى أن غيرتهم قد فترت وأنهم قد رموا أسلحتهم التي كانوا يحصّنون بها أذهانهم والتي اقتبسوها من الأقوال الإلهية ومن الذكريات المشدِّدة والمساعِدة . إنه يتنبه حين يتكاسلون أو ينحرفون قليلاً عن الأفكار الحسنة الأولى ويأخذون بالبحث عن علل تختلقها أباطيل عقولهم لكي يبرروا انكسارهم مما يؤدي بهم إلى أن يحفروا حفرة هلاكهم بأيديهم ، بسبب تسلّط الفتور على أفكارهم وتشتتها من جرّاء بطالة قلوبهم وأذهانهم .

ولا بد من القول إن الشيطان لا يبتعد عن هؤلاء بإرادته . فهو لا يشفق عليهم ولا يخجل منهم لأنه لا يقيم لهم وزناً ، بل أعتقد أنه يفعل ذلك رغماً عنه لأنه لا ريب في وجود قوة تحيط بأولئك الذين يلتهبون غيرة بالله ، والذين خرجوا إلى المعركة كالأطفال زاهدين بكل شيء دون حساب ، واضعين رجاءهم على الله ومؤمنين به ، لكنهم جاهلين العدو الذي سيخوضون المعركة ضده . ولهذا السبب يبعد الله عنهم قساوة شره ولا يدعه يقترب منهم . إن العدو يُقيَّد عندما يرى الحارس يحفظهم بصورة دائمة ، فإذا لم يطرحوا عنهم أسباب المعونة ، أي الإبتهالات والأتعاب والتواضع ، فإن معينهم لا يفارقهم أبداً .

إنتبه جيداً ودوِّن على صفحة قلبك أن محبة اللذة وحب الراحة هما سبب التخلّي الإلهي . فإذا صبر الإنسان بشدة وظل متعففاً عنهما لا تتركه مؤازرة الله ولا يُسمح للعدو بالهجوم عليه . أمّا إذا امتُحِن مرة واحدة بقصد تأديبه فإن القوة المقدسة ترافقه وتبقى محيطة به وتشجعه على عدم الخوف من الشياطين وتجعله يزدري بها ، كما يفعل مدرِّب السباحة حين يجعل تلميذه يعوم سابحاً على يديه ، فإذا بدأ الخوف يتسرب إليه خشية من الغرق يناديه ويشجعه قائلاً : لا تخف إنني أمسك بك . أو كما تفعل الأم عندما تعلِّم ابنها الصغير المشيّ ، فتبتعد عنه وتناديه كي يأتي نحوها ، وفيما هو آت قد ترتجف قدماه بسبب نعومة أعضائه ونضارتها فتركض وتحمله على ذراعيها . هكذا تحمل نعمة الله الناس وتعلِّمهم ، خاصة أولئك الذين سلّموا ذواتهم بنقاوة وبساطة إلى يدي جابلهم وزهدوا بالعالم بكل قلوبهم وساروا وراء الله .

أمّا أنت أيها الانسان فعليك عندما تخرج وراء الله ، أن تتذكر دائماً بداية جهادك وغيرتك في أول الطريق ، والأفكار الحارة التي كانت فيك حينما خرجت من البيت ودخلت معمعة الحرب . وعلى هذا النحو اختبر نفسك كل يوم حتى لا تبرد حرارتها وتنطفىء غيرتك التي التهبت فيك عند بداية جهادك ، فتخسر أحد أهم الأسلحة التي كنت متوشحاً بها . إرفع صوتك دائماً في قلب المعركة وشجع أولاد اليمين (الأفكار الحسنة) وتشدّد واظهر للآخرين أي للجهة المعاندة أنك مستيقظ . وإذا رأيت في البداية هجوماً مخيفاً من المجرِّب عليك ألاّ تتهاون لعلّ هذا الهجوم يوافقك ، لأن مخلصك لا يسمح بسهولة أن يقترب منك شيء إذا لم يكن لمنفعتك .

لا تظهر تكاسلاً في البداية لئلا تسقط في الخطوط الأمامية ولا تعود لديك القدرة على مقاومة الأحزان الناتجة من الجوع والمرض والخيالات المرعبة وغيرها . لا تتخلَّ عن مكان جهادك لأنه يساعدك على خصمك حتى لا يجدك هذا الخصم كما كان يتمنى . إبتهل إلى الله باستمرار وابكِ أمام نعمته ونُحْ وكُدَّ حتى يرسل لك العون . فإذا شاهدت مخلصك بقربك فلن يغلبك العدو الذي يحاربك أبداً .

هاتان طريقتان يستعملهما الشيطان في حربه ضدنا .

المقالة الثالثة والخمسون

في الطريقة الثالثة التي يهاجم بها العدو الأقوياء والشجعان

بعد أن يحارب الشيطان الإنسان بهذه الجهادات كلها وتستحيل عليه هزيمته ، أو بالأحرى التغلب على عاضده ومعينه الذي يفاخر به الإنسان وينال منه القدرة والصبر حتى يتمكن جبيده المادي من قهر العدو اللامتجسد والعقلي ، وحينا يرى هذا العدو القوة التي نالها الإنسان من الله ، وكيف حواسه الخارجية لا تتأثر بالأشياء المنظورة والأصوات المسموعة ، وأن أفكاره لا تذعن لإغراءاته ومهازله ، عندئذ يحاول الغاش أن يبتكر طريقة جديدة لكي يغشّي ذهنه ويبعد ملاكه المساعد ويتركه بلا معين ، فيبثّ فيه أفكار الكبرياء حتى يدفعه إلى الظن والتوهم أن هذه القدرة إنما هي نابعة منه وأنه قد حصل على هذا الغنى بذاته ، وأنه بقوته قد حفظ نفسه من الخصم القاتل . وأحياناً يجعله يعتقد أنه قد انتصر على عدوه بالصدفة أو بسبب ضعف العدو نفسه . (أمّا الطرق الأخرى وأفكار التجديف التي يرعب النفس مجرد ذكرها فأصمت عنها) . ثم يريه أثناء نومه أحلاماً موحياً إليه أنها إعلانات إلهية ، أو يظهر له في اليقظة بهيئة ملاك نوراني بغية تضليله . وهو يفعل ذلك كي يستدرج الإنسان ويستميله إليه ليتغلّب عليه . فعلى الإنسان العاقل أن يضبط أفكاره ضبطاً محكماً وأن يربطها دائماً بذكر معينه وأن يحدق إلى السماء بعين قلبه كي لا يرى الشياطين التي توسوس له بهذه الأفكار ، فيكون في مأمن من العدو الذي يلجأ باستمرار إلى إيجاد طرق جديدة لتضليله .

المقالة الرابعة والخمسون

في الطريقة الرابعة التي يحاربنا بها العدو

لم يبقى للشيطان سوى طريقة واحدة تتجانس مع الطبيعة يأمل أن يهلك الانسان بها . فما هي هذه الطريقة أو بالأحرى المكيدة ؟ إنها الهجوم على الإنسان من خلال حاجاته الطبيعية . إن المجاهد قد يفقد بصيرته عندما ينظر إلى الأشياء المحسوسة ويدنو منها ، فيُغلب بسهولة في الجهاد ، خاصة عندما تصبح هذه الأشياء أمام عينيه . والشيطان الرهيب يعلم هذا ـ من خبرته مع مجاهدين أقوياء وأشداء سقطوا بسبب مماثل ـ لذلك يتصرف بمكر شديد . فإذا لم يستطع أن يجعل الإنسان يسقط بالفعل ، لأنه في مأمن السكينة بعيداً عن أسباب الخطيئة ودواعيها ، فإنه يحاول محاربة ذهنه . فيدغدغه بالخيالات ويثير فيه حركات تدفعه إلى أفكار رديئة تقوده إلى الإذعان له وتجعله تحت طائلة الخطيئة فيبتعد مساعده . إنه يعلم جيداً أن انتصار الناسك وفشله ، كنزه وسنده ، وكل ما يملكه موجود في فكره وأن تحوّله يصير بإشارة صغيرة . فلكي يتحرك الفكر من مكانه ويهبط من ذلك العلو لا يحتاج إلاّ إلى إيماءة خاطفة كما حصل لكثير من القديسين الذين تخيّلوا جمال نسوة ، لأن الشيطان قد دفع بالفعل نساء إلى الذهاب حيث يسكنون على بعد ميل أو ميلين أو سفر يوم عن الناس . أمّا البعيدون عن العالم الذين لا يستطيع صيدهم بهذا الفخ فكان يريهم جمال النساء بالخيال ، مرة بثياب جميلة وأخرى برؤى قبيحة وأحياناً بشكل امرأة عارية خالية من الحشمة . وبهذه الأمور وأمثالها استطاع أن يتغلب على بعضهم وأن يخدع البعض الآخر بالخيالات بسبب تهاون أفكارهم فوقعوا في جب اليأس وعادوا إلى العالم وفقدت نفوسهم رجاءها السماوي .

لكن آخرين كانوا أشد قوة ومستنيرين بالنعمة فتمكّنوا من قهر الشيطان وأوهامه وداسوا لذّات الجسد وتزكّوا بمحبة الله ، رغم أنه جعلهم يتخيّلون ذهباً

وكنوزاً وأشياء ثمينة ، وأحياناً كان يريهم هذه الأشياء بالحقيقة حتى يفوز بأحد منهم فيمنعه عن السير في طريق الله ويوقعه في أحد فخاخه وأشراكه .

فيا رب ، يا رب ، يا عارف ضعفنا لا تدخلنا في مثل هذه التجارب التي قلّما يستطيع الأقوياء وذوو الخبرة النجاة من ضلالها .

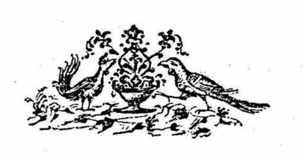
ويؤذن للشيطان أن يحارب القديسين بهذه التجارب حتى تُمتحن محبتهم لله ويُظهروا - بانتصارهم عليها وتركهم العالم وعوزهم وفقرهم - أنهم محبون لله وثابتون حقاً في محبته . وبسبب هذه المحبة يجاهدون في مقت كنوز الشياطين واحتقارها رغم دنوها منهم ، ومهما أغرتهم فلا يدعونها تسيطر عليهم . والله لا يُجرب هؤلاء بهذه الطريقة لأجل امتحانهم فقط بل لكي يجعل الشيطان يدرك عظمة محبتهم ، لأنه إذا سُمح له فهو يشتهي أن يعذّب الجميع ويمتحنهم ويطلبهم من الله كما طلب أيوب الصدّيق . فإذا حصل تخلٍ بسيط عن الله يقترب الشيطان من الذين سُمح له بتجربتهم فيجرّبهم بشدة ، لكن الله لا يسمح له أن يتمادى أو يتصرف كما يشتهي بل تكون تجاربه بحسب قدرة احتمال هؤلاء القديسين . وبهذه الطريقة يُمتحن المخلصون الثابتون في محبة الله فيُظهرون احتقارهم لهذه الكنوز ويعتبرونها نفايةً إزاء محبتهم لله ، فيتضعون على الدوام مقدمين التمجيد لمؤازرهم وعلّة انتصارهم ، واضعين أنفسهم بين يديه أثناء الجهاد قائلين له : أنت القدير يا رب ، والجهاد جهادك ، فحارب من أجلنا وانتصر . وعندئذ يتنقون مثل الذهب في البوتقة .

أمّا غير الأصفياء فإنهم ينكشفون بعد امتحانهم بمثل هذه التجارب فيرميهم الله كالنفايات لأنهم أفسحوا المجال لعدوهم ووقعوا تحت طائلة القصاص ، إمّا بسبب تهاون ذهنهم أو بداعي كبريائهم ، وباتوا لا يستحقون القوة الفعالة التي عند القديسين . إن القوة المؤازرة لنا لا تُقهر ، والرب الكلي القدرة أقوى من الجميع وهو الغالب في كل وقت عندما يخوض الحرب معنا في الجسد المائت . أمّا عندما نُغلب فمن الواضح أن هزيمتنا تحصل بدونه ، لأن الذين يعرّون أنفسهم منه باختيارهم بسبب جحودهم سوف يدركون فقدانهم القوة التي تعضد المنتصرين حتى قوتهم الذاتية التي كانت تساندهم أثناء الحروب العنيفة . إن سقوطهم

سيحلو في عينيهم ، أمّا صمودهم في مشاق الجهاد ضد العدو فسيكون صعباً عليهم . لقد كان بإمكانهم الإنتصار في هذا الجهاد بشجاعة وغيرة حين كانت طبيعتهم تتحلّى بالإندفاع الحار ، أمّا الآن فقد فقدوا القوتين .

المتراخون والكسالى لا يخافون من هذه الجهادات وأمثالها في البداية وحسب بل يضطربون حتى من حفيف أوراق الشجر أو من ضيق يسببه جوع قليل ويُغلبون بأبسط مرض ، فيتخلّون عن الجهاد ويتقهقرون . أمّا المجاهدون الحقيقيون فإنهم لا يأكلون أكثر من العشب الأخضر ، ويقتاتون بجذور النباتات الجافة ولا يرضون أن يذوقوا شيئاً قبل موعد الطعام ، بل ينامون على الأرض وأجسادهم منحلة ، وعيونهم مغشّاة من شدة انحلال الجسد ، ولو كان ذلك سيسبب خروجهم من الجسد (الموت) فإنهم لا يستسلمون للهزيمة ولا يتخلّون عن عزمهم الثابت ، لأنهم يتشوّقون ويرغبون بكل قلوبهم أن يضغطوا على أنفسهم حباً بالله ، ويفضلّون التعب من أجل الفضيلة على اقتناء الحياة الوقتية وعلى كل راحة فيها . وعندما تنزل بهم التجارب يزدادون فرحاً لأنهم يصبحون كاملين ولا تخامرهم شكوك في محبة المسيح بسبب الأتعاب الشاقة التي يتكبدونها ، بل يقبلون التجارب برغبة وشجاعة حتى آخر نسمة من حياتهم ولا يتخلّون عنها لأنهم يصبحون كاملين .

أمّا إلهنا فله المجد إلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الخامسة والخمسون

في الأهواء

آه ما أحلى دواعي الأهواء وما أعذب أسبابها ![1] إن الإنسان يستطيع أن يقطع الأهواء فيتمتع بالفرح والصفاء بعد انتصاره ، لكنه لا يستطيع التخلي عن أسبابها[2] فيُجَرَّب رغماً عنه . إن الأهواء تحزننا لكننا نحب دواعيها . ونمقت الخطايا لكننا نَقْبل أسبابها بلذة . وهكذا تقع الأسباب والدواعي تحت طائلة المسؤولية شأن الخطايا نفسها ويكون ذلك دون إرادتنا ورغماً عنا . من يكره الخطايا يتوقف عنها ، ومن يعترف بها يَحْظَ بالغفران ، ولا يمكن لأحد أن يطرح الخطيئة عنه قبل اعتبارها عدواً ، أو أن يحظى بالمغفرة قبل الاعتراف بالآثام . فالعداوة هنا دليل التواضع الحقيقي ، أمّا الاعتراف فدليل الندم المتولد في القلب من الخزي .

إذا لم نبغض الأعمال التي تستوجب التوبيخ واستمرينا محافظين عليها في نفوسنا فلن نستطيع الإحساس بتأثير قذارتها ونتنها . لا يمكنك أن تعرف ما يحيط بك من عار وما ينتج عنه من خجل إذا لم تطرح عنك القباحة . عندما تشاهد أثقالك نفسها محمولة على أكتاف الآخرين تدرك الخزي الآتي إليك . ابتعد عن العالم تعرف نتانته ، وإذا لم تبتعد فإنك سوف تشتم رائحته الخبيثة فتحسبها زكية وطيبة ، أمّا عريك المخزي فستخاله مظلة مجد .

طوبى لمن ابتعد عن العالم وادلهامه وأصبح مراقباً نفسه وحدها . فالبصيرة والتمييز لا يعملان جيداً في الإنسان المهتم بالأمور الباطلة ، فهل يمكن لهذا الإنسان إذا تعكرت بصيرته أن يميز كما يجب ؟ طوبى لمن تخلّى عن ترنّح الخمر

(١) أسلوب في السخرية .

(٢) الشراهة هوى ، أمّا سببها فهو الطعام .

وادمان النهم بعد أن شاهد عاقبته في الآخرين وعرف خزيه . وما دام الانسان ثملاً ومترنحاً بخطاياه ستظهر كل أعماله جميلة ومحتشمة في عينيه . والطبيعة عندما تخرج عن نظامها لا تفرّق بين سكر بالخمر أو سكر بالشهوات . فكلا الأمرين واحد بالنسبة إليها لأنهما يخرجانها عن اللياقة ويولدان في الجسد لهيباً واحداً . إن حال السكر ليست كحال الشهوة لكن مفعولها واحد وإن كانت أسبابهما مختلفة . وتختلفان أيضاً بنسبة قبول كل إنسان لهما .

الراحة تعقبها المشقة ، وكل مشقة من أجل الله تعقبها الراحة . إن أشياء هذا العالم خاضعة للفساد[1] الذي يحصل بالأمور المعاكسة ، إمّا هنا أو في الدهر الآتي أو ساعة الخروج (الموت) . هذا التغيير قد يحصل بسبب اللذة الصادرة عن الدعارة والتي تجلب المشقة أو عكسياً بسبب المشقة في محاربة اللذة بغية التقديس . وهذا الأمر يدبّره الله بمحبته للبشر سواء كان في وسط الطريق أم في نهايتها حتى يشعر كلٌّ من الطرفين بهذا التغيير . فمحبو اللذة يشعرون بالعذاب جزاءً لأعمالهم أمّا الذين تحمّلوا الشقاء فيشعرون بالراحة الوقتية كعربون للراحة الأبدية . إن الله لا يمنع عن الإنسان المنفعة الناتجة من الصلاح حتى الساعة الأخيرة . أمّا الشيطان فيمنع المنفعة عن مستحق العذاب كي يسبب له الهلاك[2] . ولقد قيل : من يتأدب في هذه الحياة يأكل من جهنمه[3] . احترس في استخدام سلطتك الذاتية[4] التي تسبق العبودية السيئة . احترس من التعزية التي تسبق الحرب[5] . تحفّظ من المعرفة التي تسبق مواجهة التجارب وبشكل خاص من الشوق إلى الفضيلة قبل كمال التوبة . ولأننا جميعاً خطأة وليس أحد منزهاً عن التجارب فالتوبة هي أسمى الفضائل وعملها ليس له نهاية وهي توافق جميع الذين يريدون الخلاص سواء كانوا خطأة أم أبراراً . وكما أن الكمال لا نهاية له حتى القداسة فهكذا التوبة ، إنها لا تنحصر في الأزمنة والأعمال إنما في الموت . وتذكّر أن كل لذة يعقبها اشمئزاز أولاً ثم تمرمر .

---

(١) يقصد بكلمة فساد التغيير والتحوّل .

(٢) المنفعة هنا هي التجارب التي يسمح بها الله للإنسان بغية عودته إلى التوبة .

(٣) يخفف عذابه في الآخرة .

(٤) الحرية ، أي لا تسيء استعمالها لئلا تقع في عبودية الخطيئة .

(٥) استعدّ للحرب عندما تكون في تعزية وسلام .

إحذر الفرح الذي لا يعتريه تحوّل ، لأن العلي يدبّر كل شيء بطريقة لا يمكنك أن تدركها ولا أن تعرف حدود تغيّرها وأسبابه . إحذر الأمور التي تظنها صحيحة وسليمة . إن الذي أحسن قيادة سفينة هذا العالم بحكمته جعل التغيير يرافق كل أعماله ، وكل شيء لا يسير حسب هذا النظام يكون وهماً وخيالاً .

راحة الأعضاء يليها تشوّش واضطراب في الأفكار ، والعمل غير المعتدل يليه ضجر فتشوّش ، وثمة فرق بينهما . فالتشوّش الأول الناتج من الراحة يعقبه حرب الفسق ، أمّا التشوّش الثاني فيعقبه ترك النسك والتنقل من مكان إلى آخر. العمل المعتدل والمستمر باجتهاد لا يُثمَّن ، لأن الاعتدال ينمّي اللذة ، أمّا الإفراط فيغذي التشويش . اصبر يا أخي على طبيعتك التي تتغلب عليك ، لأنك مُعَدٌّ لبلوغ الحكمة الأزليةِ الإكليل . لا تجزع من اضطراب جسدك الآدمي لأنه صار مهيأً للنعيم الذي تستحيل معرفته على الذين يفكرون بالجسديات . عندما تأتي الأيقونة السماوية ، أي ملك السلام ، فلا تجزع من التغيير الحاصل بسبب اضطراب الطبيعة ، لأن المشقة وقتية لمن يتقبلها بفرح ولذة. إن الأهواء تشبه الكلاب التي اعتادت ارتياد الملاحم لكنها تطرد بصرخة واحدة ، أمّا إذا أهملت فهي تهجم كالأسود الضخمة . أرذل الشهوة الصغيرة حتى لا تتذكر فيما بعد شدة التهابها . الوقاية في الأمور الصغيرة تنقذ من الخطر ويستحيل ضبط الأمور الكبيرة قبل التغلب على الواهية .

تذكّر يا أخي الرتبة التي أُهِّلْتَ لها والتي ينسحق بها الفساد ، فهي ليست كهذه الحياة واستمرارُها ليس رهناً بالطعام والشراب ، وليس في طبيعتها لهيب ناجم عن تفاعلات العناصر المادية التي تسبب شقاء الطبيعة البشرية بعد اللذة . اصبر على تعب الجهاد الذي خضته لأجل الإمتحان لتنال من الله إكليلك وتستريح بعد أن تجتاز العالم . تذكّر تلك الراحة اللامتناهية ، والحياة الخالية من الخداع ، وتذكّر تلك الرتبة الكاملة والتدبير الثابت ، وذلك الاختطاف الذي يرغمك على محبة الله ويتسلط على طبيعتك . فعسى أن نؤهَّل لهذه المحبة بنعمة المسيح الذي له المجد مع أبيه الذي لا بداية له والروح الكلي قدسه الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين ، آمين .

المقالة السادسة والخمسون

في أعمال الزهد وفي حسنات كون النفس قابلةً للأهواء

السقوط في الخطيئة هو دليل ضعف الطبيعة البشرية ، فالله قد سمح للنفس أن تكون قابلة للأهواء لأنه وجد ذلك مناسباً لها . وقد ارتأى ألاّ يجعلها قادرة على تخطيها قبل التجديد (الحضور) الثاني . إن قبولها الأهواء مفيد لوخز الضمير ، أمّا بقاؤها فيها فمخز وخال من الحشمة . ثلاثة أمور تقرّبنا من الله : حرارة الإيمان ، خوف الرب ، وتأديبه ، ولا يمكن أن نقترب من محبة الله بغيرها .

من الشراهة يتولّد اضطراب الأفكار ، ومن كثرة الكلام وعدم الانضباط في اللقاءات يتولّد الجهل والتشويش . الاهتمام بالدنيويات يشوّش النفس وهي بدورها تشوّش الذهن وتطرد منه الهدوء .

يجب على الراهب الذي أسلم ذاته للزرع السماوي أن يبتعد عن كل اهتمام دنيوي حتى يستطيع أن يخلو بنفسه فلا يجد فيها شيئاً من أمور هذا الدهر ، لأنه إذا أفرغ نفسه منها يستطيع أن يهذّ بناموس الرب ليلاً نهاراً . الأتعاب الجسدية بدون نقاوة الذهن تشبه الآم العاقر أو الصدر الجاف ولا يمكنها أن تقترب من معرفة الله ، فهي تضنك الجسد لكنها لا تهتم باستئصال الأهواء من الذهن فلا تحصد شيئاً ، كالذي رمى البذار على الأشواك . من أباد ذاته بالحقد ومحبة القنية لن ينتفع بشيء ، بل يتنهد على مرقده من كثرة السهر والارتباك بالأمور الدنيوية . والكتاب يشهد على ذلك : « كأنهم أمة تعمل البرّ ولم تهمل حكم إلهها. يسألونني عن أحكام البرّ ويرومون التقرب إلى الله : ما بالنا صمنا وأنت لم تر وجمنا نفوسنا وأنت لم تعلم . إنكم في يوم صومكم تجدون مرامكم » (أ ش٥٨ : ٢و٣) . لقد فعلتم

مشيئتكم بأصوامكم وقدّمتم أجسادكم ذبيحة لذكرياتكم وأفكاركم الرديئة وقد كان ينبغي أن تنذروها للرب بعمل الصلاح والضمير الطاهر .

+ الأرض الجيدة تفرّح الزارع بتربتها التي تنتج مئة ضعف . والنفس التي صقلها ذكرُ الله والسهر الدائم يحفظها الرب بأن يجعل حولها سحابة تظللها وتضيئها بنور من نار ينبعث من داخلها في الليل والنهار .

مثلما تحجب السحابة ضوء القمر تحجب تبخرات البطن حكمةَ الله عن النفس ، ومثلما تتأجج النار بالحطب اليابس يتأجج الجسد بالبطن المتخم . وكما أن إضافة الحطب إلى الحطب تزيد لهيب النار فإن تنوّعَ المآكل يزيد حركة الجسد . معرفة الله لا تسكن في جسدٍ يحب اللذة ، ومن يحب جسده لن يحظى بنعمة الله . كما تفرح الأم بطفلها بعد أوجاع الولادة تفرح النفس بمعرفة أسرار الله بعد تعب الجهاد . أمّا الكسالى ومحبّو اللذة فلن يقطفوا غيرَ ثمار الخزي . وكما أن الأب يعيل الابن ، هكذا المسيح يعيل الجسد الذي تحمّل المشقة من أجله ويكون دائماً قريباً من فمه[1] العملُ بحكمة هو غنىً لا يُقدّر .

البعيد عن الدنيويات غريبٌ . والذي يعيش كل أيامه في الجوع والعطش من أجل الخيرات الآتية هو نوّاح . الراهب هو الجالس خارج العالم متضرعاً إلى الله على الدوام ليحظى بخيراته . غنى الراهب هو التعزية الناتجة من النوح ، والفرحُ الصادر من مخادع الذهن نتيجة الإيمان الساطع . هنيئاً لمن لا يميّز بذهنه بين إنسان وآخر بل يرحم الجميع على السواء . البتول هو من يحفظ جسده عن دَنَس المعاشرة ويحترم نفسه في خلوته . إذا كنت تحب العفة فاطرد الأفكار القبيحة بالمطالعة والصلاة الطويلة فتحصل على سلاح تحارب به أسباب الطبيعة وترى الطهارة في نفسك . إذا شئت أن تقتني عمل الرحمة عوّد نفسك على الابتعاد عن الأشياء كلها حتى لا ينجذب ذهنك إلى أثقالها ويخرج عن حدوده ، لأن صحة عمل الرحمة تظهر في اختيار الظلم للنفس وتحمّله بصبر . كمال التواضع هو تحمل التهم الكاذبة بفرح . إذا كنت رحيماً بالحقيقة فلا تحزن إذا اغتُصِبتْ ممتلكاتك عنوة ولا تُذِعْ خسارتك أمام الملأ ، بل استُرْ برحمتك الضرر الذي سبّبه لك المغتصبون

[1] أي يستجيب له سريعاً .

كما تُستَرُ لذعة الخمر بكثرة الماء ، واظهر لظالميك عظمة رحمتك بأن تجازيهم بدل الشر خيراً ، كما فعل المغبوط أليشع مع أعدائه الذين كانوا يبتغون أسره ، فبعد أن أعماهم بالضباب ، صلّى من أجلهم مظهراً لهم قوته ، ثم قدّم لهم طعاماً وشراباً وأطلق سبيلهم مظهراً لهم عمل الرحمة .

المتواضع بالحقيقة هو الذي لا يضطرب عندما يُظلَم ولا يدافع عن التهم الكاذبة الموجهة إليه، بل يقبل الافتراءات كالحقيقة ولا يهتم بإقناع الناس أنه بريء ولكن يطلب أن يسامحوه . بعضهم اتهموا أنفسهم بالفجور دون أن يكونوا كذلك . وآخرون ارتضوا تهمة الزنى وهم بعيدون عن الفسق، وتحمّلوا ثمر خطيئة لم يقترفوها وتظاهروا بالدموع والبكاء طالبين المغفرة من ظالميهم ، بينما كانت نفوسهم مكلّلة بإكليل النقاوة والطهارة . وآخرون ، كي لا يمجدهم الناس على أحوال الفضيلة الكامنة فيهم ، كانوا يتظاهرون بالبلاهة ، بينما كانوا مُطيَّبين بالملح الإلهي ومحافظين على الهدوء بثبات ، فاستطاعوا بهذا الكمال الفائق التصور أن يجعلوا الملائكة تكرز بآثارهم العديدة .

إذا كنت تظن نفسك متواضعاً فانظر إلى أولئك الذين لاموا أنفسهم بينما أنت لا تستطيع تحمّل تهمة الآخرين . وإذا كنت تريد أن تعرف تواضعك فاختبر نفسك عندما تُظلَم ولاحظ إذا كانت تضطرب أوْ لا .

إن قدرات ذهن الساكنين في ذلك الخدر (ملكوت السموات) ، الذي يدعوها ابن الله « منازل أبيه الكثيرة » ، تتنوع وتتعدد باختلاف المواهب الروحية التي يتمتعون بها ، وتعدّدها ليس مكانياً بل بحسب المواهب ، كالتنعم بنور الشمس الذي يختلف من شخص إلى آخر بحسب قوة نظره أو ضعفه ، أو كالسراج الذي يعطي ضوءاً واحداً لكنه يقل أو يزيد حسب اتساع الغرفة أو ضيقها . وهكذا ستكون الحال في الدهر الآتي حيث يسكن الأبرار في مكان واحد دون انفصال ، لكن كل واحد منهم يستضيء بالشمس العقلية حسب قدرته على الإستيعاب ، ويحصل على المسرّة كما من مكان واحد ومنزل واحد ومشهد واحد وشكل واحد . أمّا الحزن والغم الناتجان من رؤية سمو الآخر أو أفضلية موهبته فلا وجود لهما هناك حيث لا حزن ولا تنهد ، بل كل منهم يفرح بالموهبة التي أعطيت له حسب مرتبته وتكون المشاهدة الداخلية واحدة عند الجميع وكذلك الفرح . ولا

توجد رتبة متوسطة بين الرتبتين السفلية والعلوية بل هناك تميز في المكافآت والعقوبات في الرتبتين كلتيهما .

فإذا كان هذا الأمر حقيقياً ، وهو كذلك ، فهل يعقل أن نجد أشد جهالة من الذين يقولون : يكفينا أن نهرب من الجحيم ولا يعنينا الدخول إلى الملكوت ؟ إن الهرب من الجحيم هو بنفس الوقت دخول في الملكوت ، والعكس صحيح . لم يعلّمنا الكتاب أن هناك أمكنة ثلاثة ، إذ يقول : « ومتى جاء ابن الانسان في مجده ، يجعل الخراف عن يمينه والجداء عن شماله » (متى ٢٥ : ٣١ و٣٣) . اذن هناك رتبتان فقط ، واحدة عن اليمين والثانية عن الشمال وقد فصل حدود مسكنيهما بقوله : « فيذهب هؤلاء (الخطأة) إلى العذاب الأبدي ، والصالحون إلى الحياة الأبدية » (متى ٢٥ : ٤٦) وأيضاً : « كثيرون من الناس سيجيئون من المشرق والمغرب ويجلسون مع ابراهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السموات . وأمّا من كان لهم الملكوت فيُطرحون خارجاً في الظلمة ، وهناك البكاء وصريف الأسنان » (متى ٨ : ١١و١٢) . وهذا المكان أرهب من كل نار .

فهل أدركت من هذا أن المكان المعاكس للرتبة العلوية هو الجحيم المعذبة . إنه لحسن جداً أن يعلّم الإنسان الآخرين صلاح الله ويجذبهم إلى عنايته وينقلهم من الضلال إلى معرفة الحق ، فهذه كانت طريقة المسيح والرسل وهي الأسمى ، أمّا إذا كان يحس ـ بسبب التبشير والإتصال المستمر بالناس ـ أن مشاهدة ضميره تضعف وصفاءه يتعكر ومعرفته تظلم ـ لأن ذهنه لا يزال بحاجة إلى ضبط وحواسّه إلى إخضاع ـ وأن سعيه لشفاء الآخرين يفقده الصحة ويخرجه عن حرية إرادته مما يؤدي به إلى تشويش الذهن ، فليتذكر قول الرسول الذي ينصح الكاملين بالطعام القوي (عب ٥ : ١٤) وليرجع إلى الوراء ويتذكر هذا الكلام الصريح : « يا طبيب اشف نفسك » (لو ٤ : ٢٣) وليُدِنْ نفسه ويحافظ على سلامة صحته ويستبدل تعاليمه الظاهرة بحياة صالحة وليعلّم بالعمل بدل الأصوات الخارجة من فمه . وإذا شعر أنه أصبح معافىً فليتقدم إلى خدمة الآخرين وشفائهم بصحته، لأنه إذا كان بعيداً عن الناس يمكنه أن يحسن إليهم بأعماله الصالحة الغيورة أكثر من أقواله وهو المريض المحتاج إلى العلاج . « وإذا كان الأعمى يقود الأعمى ، سقطا معاً في الحفرة » (متى ١٥ : ١٤) . إن الطعام القوي هو للأصحاء الذين تروّضت

حواسهم وأصبح بإمكانهم تقبّل كل الطعام . وأعني بالطعام هنا الضربات التي تواجهها الحواس من أجل الرياضة في الكمال دون أن يتأذى بها القلب .

عندما ينوي الشيطان أن يدنّس أذهان هؤلاء بذكر الفسق فإنه يمتحن محبتهم للمجد الفارغ أولاً لأن هذا الفكر لا يبدو لهم بشكل هوى في البداية . وهو يعتمد هذا الأسلوب مع الذين يحفظون أذهانهم فلا يستطيع أن يزرع فيها الأفكار القبيحة بسرعة ، فإذا استطاع أن يُخرج أحداً منهم من حصنه يبدأ بمحاورته بالفكر الأول (المجد الباطل) ثم يحاول أن يبعده عنه شيئاً فشيئاً فيأتيه بمادة الفسق ويفسد ذهنه بالأمور الخلاعية ، فيفاجأ بالضربة الأولى التي تفسد عفة أفكاره السابقة وتصدمها بأفكار جديدة كان الذهن بعيداً عنها ، ومع أنه لا يتدنس كلياً إلاّ أنه يخسر كرامته الأولى . أمّا إذا رجع إلى الوراء وأدرك السهم الأول الذي اقتحم ذهنه وأدخل إليه الأفكار الرديئة وانتزعه فإنه يستطيع بمعونة الله أن يسيطر على الهوى بسهولة .

خير لك أن تحارب الأهواء بتذكر الفضائل من أن تهاجمها وجهاً لوجه ، لأنها عندما تخرج مندفعة إلى الحرب تطبع في الذهن صوراً وأشباحاً شتى وتهاجمه بضراوة محركة فيه الذكريات المشوّشة . أمّا إذا استخدمت الطريقة الأولى فإن الذهن لا يحتفظ بأي أثر من الأهواء بعد طردها .

التعب الجسدي ومطالعة الكتاب المقدس يحفظان الطهارة . فالتعب يسببه الرجاء والخوف اللذان يثبّتان في الذهن بالبعد عن الناس والصلاة المتواصلة . الإنسان بحاجة إلى مطالعة الكتب الإلهية باستمرار ما دام لم يتقبّل المعزي، لكي يطبع في ذهنه ذكر الخيرات وتتجدد فيه الحركة باتجاه الصلاح ، ويحفظ نفسه من مسالك الخطيئة الصعبة ، لأنه لم يحصل بعد على قوة الروح التي تبعد الضلال عندما يحاول أن يمنع تسرب الذكريات المفيدة إلى النفس أو أن يقودها إلى الفتور . أمّا عندما تسيطر قوة الروح على القوة النفسية فإن وصاياه تنغرس في القلب بدل ناموس الكتاب ويبدأ الانسان بالتعلّم من الروح سرياً فيستغني عن مساعدة المادة المحسوسة (الكتاب) . وإذا كان القلب يستمد تعليمه من المادة فإنه معرّض للضلال والنسيان بحكم الطبيعة . أمّا إذا كان التعليم مستمداً من الروح القدس

باشرة فإن الذاكرة تبقى محفوظة من النسيان .

ثمة أفكار صالحة وثمة مشيئات صالحة وثمة أفكار رديئة وثمة قلوب شريرة . فالمرتبة الأولى (الأفكار الصالحة والرديئة) هي حركة تَعْبُر الذهن وتشبه الرياح التي تهبّ فوق البحر وترفع أمواجه وتشتتها دون أن تؤثر على أعماقه ، أمّا المرتبة الثانية (المشيئة الصالحة والقلب الشرير) فهي أعماق البحر أي القاعدة والأساس . صحيح أن المكافأة على الصالحات والجزاء لأجل الشرور يجريان حسب أحوال القاعدة وليس حسب حركة الأفكار ، لكن الأفكار المتحركة والمتبدلة لا تدع النفس هادئة تماماً . أمّا أنت فإذا بدّلت اتجاه الأفكار المتحركة التي ليس لها قاعدة في أعماق القلب ، فإنك تغيّر أفكارك الصالحة والمعاكسة ألف مرة كل يوم.

إن الذهن الذي تخلّص حديثاً من شرك الأهواء بواسطة التوبة ، يشبه طائراً بلا أجنحة ، فهو يجاهد وقت الصلاة لكي يرتفع عن الأرضيات ، لكنه يظل زاحفاً ولا يقوى على الطيران . إنه يضبط أفكاره في المطالعة والعمل والخوف والإهتمام بصنوف الفضائل ، لأنه لا يعرف غيرها . إن هذه الأعمال تحفظ الذهن نقياً لوقت قصير ، لكن الذكريات لا تلبث أن تهبّ على القلب فتشوّشه وتدنسه ، لأنه لم يحس بالسكينة الحرة وبهدوئها الذي يضبط الذهن ويجذبه إليها بسرعة من خلال نسيانه الدنيويات ، فأجنحته ما زالت لحميّة أي فضائل ظاهرية ، أمّا فضائل الذهن (أجنحته) التي يدنو بها من السماويات ويبتعد عن الأرضيات فإنه لم يشاهدها بعد ولم يؤهل لإدراكها .

إذا استمر الإنسان في خدمة الرب بالأشياء المحسوسة ، فإن نماذجها تنطبع في ذاكرته مما يجعل تفكيره بالإلهيات يتم بطريقة مادية . أمّا إذا حصل على حس الكائنات ومبدأها ـ من خلال الأشياء ـ فإن ذهنه يتسامى على صورها تدريجياً بمقدار نمو حسه .

« عينا الرب على المتواضعين وأذناه إلى استغاثتهم » (مز ٢٣ : ١٦) . إن صلاة المتواضعين تشبه من يهمس في أذن الآخر[1] . أصرخ في سكينتك وسط

[1] أي أنها مستجابة لأن الآخر لا يمكن الا ان يسمعها.

أعمال التواضع الصالحة : أيها الرب إلهي أنِر ظلمتي .

+ عندما يحين موعد خروج نفسك من الظلمة تلاحظ العلامة التالية : يحترق قلبك كالنار ويسخن ليلاً ونهاراً حتى أنك تحسب العالم كله خبثاً ورماداً ، لا تعود تشتهي طعاماً بسبب حلاوة الأفكار الجديدة الحارة المتحركة في نفسك ، ثم تمنح ينبوع دموع يجري كنهر سلسبيل ويرافق أعمالك كلها ، أي المطالعة والصلاة والتأمل والأكل والشرب ، وتمتزج عبراتك بكل عمل من أعمالك . فإذا شاهدتها في نفسك تشجّع لأنك قد عبرت البحر (الظلمة) وأكْثِرْ أعمالك وتيقظ جيداً حتى تزداد فيك النعمة كل حين . أمّا إذا حصلت على الدموع ثم توقفت وبردت حرارتك دون أن يطرأ عليك أيّ تغيير كالمرض الجسدي مثلاً ، فالويل لك على هذه الخسارة ! إن سببها الكبرياء أو التهاون أو الخمول . أمّا ما يتبع الدموع بعد نوالها وثباتها فسنتحدث عنه في مقالات عن العناية حسبما استنرنا من الكتاب المقدس والآباء المؤتَمنين على مثل هذه الأسرار .

إذا كنت خالياً من الأعمال فلا تتكلم عن الفضائل . كريمةٌ أمام الرب الشدائدُ الصائرة من أجله وله ، إنها أسمى من كل صلاة وذبيحة ، ورائحة عرقها أزكى من الروائح الطيبة كلها . كل فضيلة بدون تعب جسدي هي كالسِقْط بلا روح . تقدمه الأبرار عبرات عيونهم ، وذبيحتهم المقبولة هي تنهداتهم في الأسهار . يصرخ الأبرار إلى الرب متضايقين من ثقل الجسد ، ويرسلون ابتهالاتهم إليه بوجع ، فتحضر على صراخهم المصاف المقدسة لتعينهم وتشددهم وتعزيهم بالرجاء . إن الملائكة شركاء هؤلاء القديسين في آلامهم وضيقاتهم لقربهم منهم .

العمل الصالح والتواضع يجعلان الإنسان إلهاً على الأرض . الإيمان وعمل الرحمة يبلغان به إلى الطهارة سريعاً . حرارة القلب وانسحاقه لا يتفقان معاً في النفس الواحدة ، كما يستحيل ضبط الأفكار بالسكر . عندما تعطى هذه الحرارة للنفس يُنْتَزَع منها انسحاق النوح . الخمرة تقدّم للبهجة والحرارة تعطى لسرور النفس . الخمرة تَمْنَح الجسد حرارة أمّا كلمةُ الله فتلهب الذهن . الملتهبون بحرارة النفس يُختطَفون بتأمل الرجاء ويُجيِّزون أذهانهم للدهر الآتي . السكارى بالخمر

يتخيّلون أشباحاً متنوعة والسكارى بالرجاء والملتهبون به لا يحسّون بضيق ولا بأي شيء دنيوي آخر. إن هذا يحصل للذين تكون قلوبهم بسيطة ورجاؤهم حاراً مع أشياء أخرى مماثلة أُعِدَّت للسائرين في طريق الفضائل سيراً ثابتاً نقياً. وقد تحصل في بداية الطريق بفضل إيمان النفس، فالرب يفعل ما يشاء.

طوبى للذين منطقوا أحشاءهم ليعبروا بحر الشدائد ببساطة وبلا فحص حباً بالله ولم يرجعوا إلى الوراء. إنهم يبلغون ميناء الملكوت بسرعة ويستريحون في مساكن الذين تعبوا حسناً، ويتعزون في مشقتهم ويتهللون بسرور رجائهم. إن المتهافتين على الطريق الصعب بصحبة الرجاء لا يتراجعون ولا يدققون ويفحصون، لكنهم بعد اجتياز البحر ورؤية صعوباته يؤدّون الشكر لله لأنه نجّاهم من المسالك الضيّقة والهواوي ووعورتها دون علمهم. أمّا الذين يفكرون كثيراً ويريدون أن يكونوا حكماء ويستسلمون إلى الشك والخوف ويرغبون في معرفة الأسباب المضرة سابقاً، فإن معظمهم يبقى منتظراً أمام باب بيته بصورة دائمة.

إذا أُرسل الكسول في مهمة فقد يقول: «إن في الطريق أسداً وفي الساحة قتلة» (ام ٢٢ : ١٣) أو «لقد شاهدنا هناك أبناء عمالقة فصرنا في عيونهم مثل الجراد» (عدد١٣ : ٣٤). هؤلاء يقفون في الطريق مبتغين أن يكونوا حكماء لكنهم لا يبدأون. أمّا البسيط فما أن يحس بالحرارة حتى يبدأ السباحة دون أن يهتم بجسده أو بنفسه ولا يفكر إذا كان سيجني شيئاً من عمله أو لا. انتبه كي لا تصبح كثرة الحكمة عثرة لنفسك وفخاً أمام وجهك، واتكل على الله وباشر السير في الطريق المليء بالدماء حتى لا تبقى في فقرك وفي عريك عن معرفة الله، لأن «من يرصد الريح لا يزرع ومن يرقب السحب لا يحصد» (جا ١١ : ٤). الموت من أجل الله أفضل من حياة الخزي والكسل. عندما تصمم على الشروع في العمل الالهي أقِم، قبل أي شيء، عهداً كمن لم يعد متعلقاً بهذه الدنيا، أو كمن يستعد للموت فاقداً رجاءه في الحياة الحاضرة، وقد حان زمن انتقاله. ثم ضع هذا العهد في ذهنك حتى لا يكون رجاؤك في هذه الحياة مانعاً عن الجهاد والنصر، لأن هذا الرجاء يصيب الذهن بالخمول. لا تكن حكيماً أكثر مما يلزم وأفسح للإيمان مجال

الدخول إلى ذهنك . أمّا إذا تذكّرت الأيام الكثيرة والدهور غير القابلة للوصف التي تلي الموت ، فلن يتسرب إليك الخمول . وتذكّر قول الحكيم : « إن ألف سنة من هذا الدهر ليست كيوم واحد في دهر الأبرار » (مز٨٩ : ٤) . ابتدىء بشجاعة في كل عمل صالح ولا تقبل عليه بتردد ولا تشكّ برجاء الله لئلا يصير تعبك باطلاً ويصبح العمل صعباً وثقيلاً عليك . آمن في قلبك أن الرب رحوم ويفي الأجرة ويعطي نعمة للذين يطلبونه لا بمقدار أعمالنا بل بمقدار إيماننا ورغبتنا ، لأنه قال : « ليكن لك على قدر إيمانك » (متى ٨ : ١٣) . أمّا الأعمال التي يقوم بها أولئك السالكون سبل الله فهي :

منهم من يسجد طول النهار بدل خدمة الساعات ، ومنهم من يبقى راكعاً أثناء صلواته ، ومنهم من يستعيض عن الخدم بكثرة الدموع ويكتفي بها ، وواحد يجتهد متأملاً بذهنه ليتمم قانونه المحدد ، وآخر يعذّب نفسه بالجوع حتى يستحيل عليه إتمام الخدم ، وآخر يداوم بحرارة على مطالعة المزامير متخذاً إياها خدمة مستمرة ، ومنهم من يتفرغ للمطالعة حتى يصبح قلبه مختطفاً بها ، ومنهم من يختَطَف بإدراك المعاني الإلهية للكتاب المقدس ، وآخر ينذهل بمعاني الآيات العجيبة أثناء المطالعة فيلزم الصمت والسكون . ومنهم من يجرّب هذه الأمور فيشبع منها ويعود إلى الوراء فيصبح بلا عمل ، أو يذوق شيئاً يسيراً منها فيكفّ بصره ويضل[1] ، وآخر بسبب شدة مرضه وضعفه لم يعد قادراً على حفظ قانونه ، وآخر لم يترك بسبب عادة أو شهوة أو حب رئاسة أو مجد فارغ أو طمع . ومنهم من سقط ثم نهض ولم يرجع إلى الوراء فنال الجوهرة الثمينة . أمّا أنت فباشر دوماً في العمل الإلهي برغبة وسرور ، فإذا كنت نقياً من الأهواء وثابت القلب يرفعك الله إلى القمة ويساعدك ويجعلك حكيماً حسب مشيئته ، وتحصل على الكمال بصورة عجيبة . فله المجد والعزة الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين ، آمين .

---

(١) ربما بسبب التكبر.

المقالة السابعة والخمسون

في التغيير الحاصل في النفس ، أي انتقالها من النور إلى الظلام ، ومن اليمين الى اليسار

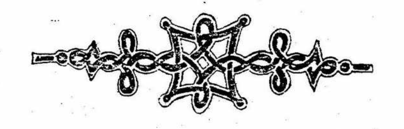
فلنراقب أنفسنا ، يا إخوة ، ولنرَ هل تكون فينا مشاهدة خلال المطالعة والصلاة ، لأن المشاهدة تأتي عادة من السكينة الحقيقية . ويجب ألاّ نضطرب إذا خيّم علينا الظلام ، خاصة إذا لم يكن السبب منّا . ولنعتبر إن هذا تدبير من الله لأسباب يعلمها وحده . عندما يستحوذ الظلام علينا تغرق نفوسنا كما في أمواج ، وإذا شاء أحد أن يطالع الكتاب أو أن يقوم بخدمة ما ، أو بأي عمل آخر فإنه ينغمس في ظلام أكثر فأكثر. فالذي يمر بهذه الحالة كثيراً ما يخرج عن نظامه ، فلا يعود بإمكانه أن يقوم بأي عمل حتى بالصلاة نفسها ، ولا أن يشق بتغيّر الحالة واستعادة السلام مجدداً . إن هذه الفترة صعبة على الراهب ومليئة باليأس والخوف ، وقد يزول من نفسه الرجاء بالله وتعزية الإيمان فيستولي عليه الخوف والشك .

إن الخبرة تجعل الذين امتُحِنوا ، في ساعة ما ، بهذه الموجة يدركون التغيير الحاصل في نهايتها . فالله لا يدع النفس في هذه التجربة طويلاً ، حتى ولا يوماً واحداً ، بل يفرج عنها سريعاً وإلاّ فُقِدَ رجاء المسيحيين . أمّا إذا طال إزعاج هذه الظلمة أكثر من ذلك فعليك أن تتوقع أثناءه تغييراً سريعاً لحياتك .

أنصحك ، أيها الإنسان ، إذا كنت لا تقوى على ضبط نفسك وتعفير وجهك في التراب للصلاة ، أن تعصب رأسك بجبتك وتنام حتى تعبر عنك موجة الادلهام ، وإيّاك أن تبرح مكانك . بهذه التجربة يُمْتَحن الذين يرومون العيش في السيرة الذهنية ، مفتشين بلهفة عن تعزية الإيمان في مسيرتهم . ففي تلك الساعة

تستولي عليهم الحيرة فتسبب لهم تعباً وألماً أكثر من غيرهم ، وتؤدّي بهم بالتالي إلى التجديف ، فينتج من ذلك شك في القيامة وسواه من الأفكار التي لا يليق بنا الحديث عنها . هذا ما اختبرناه وقد كتبناه بغية تعزية الآخرين .

إن الذين يقضون أوقاتهم في الأعمال الجسدية يجهلون هذه الأمور تماماً ، لكنهم يُمتَحَنون بضجر آخر ، معروف من الجميع ، تختلف أحواله عن هذا . والمصاب به يجد الصحة والشفاء في السكينة ، أمّا المخالطات واللقاءات فلا تُعطي نور التعزية . ولا يتوقعَنَّ الشفاء بالحديث إلى الناس ، فالراحة باللقاءات تكوْن وقتية ولا يلبث الضجر أن يعود إليه ثائراً بشكل أعنف . إنه يحتاج إلى انسان آخر مستنير وخبير لينيره ويتقوى به عند الضرورة وليس دائماً . طوبى لمن يصبر على هذه التجارب داخل الباب[1] ، لأنه ـ حسب أقوال الآباء ـ سيبلغ مرتبة سامية وينال قوة في النهاية . إن هذا الجهاد لا يَعْبُر بسرعة أو في ساعة واحدة بل تدريجياً ، والنعمة لا تأتي دفعة واحدة وتسكن في النفس نهائياً بل شيئاً فشيئاً . ثم لا تلبث التجربة أن تداهمه وتأتي بعدها التعزية . والإنسان يبقى عرضة لهذه التقلبات حتى خروجه من العالم ، فلا نرجوَنَّ التعزية التامة في هذه الحياة إذا أردنا التغرب عن التغيّرات والتجارب ، لأن الله قد دبّر حياتنا بهذه الطريقة وجعل التحوّلات ترافق السائرين في الطريق كل حياتهم . فله المجد إلى دهر الداهرين ، آمين .



(١) أي داخل قلايته .

المقالة الثامنة والخمسون

في الضرر الناتج من الحسد الأحمق المعتبر شيئاً إلهياً وفي المساعدة الصادرة عن الوداعة وعن أحوال أخرى

الحسود لا يصل إلى سلام الذهن أبداً ، والغريب عن السلام غريب عن الفرح . وإذا كان السلام يُعرَف بصحة الذهن التامة ، فإن الحسد نقيضه ، والذي فيه حسد رديء لا شك أنه مصاب بمرض عضّال . (ألا تعلم ، أيها الانسان ، إنك قد أقصيت الصحة عن نفسك بثوراتك على أخطاء الآخرين؟) إتعب من أجل صحة نفسك ، وإذا كنت تشتهي شفاء المرض ، فاعلم أن المرضى بحاجة إلى الإهتمام والعناية أكثر من الإنتهار والقصاص ، فإذا كنت لا تساعد الآخرين فإنك تطرح نفسك في مرض كبير أليم . الغيرة عند الناس ليست من ميزات الحكمة بل مرضاً من أمراض النفس يدلّ على ضيق العقل وكثرة الجهل. بدء حكمة الله التسامح والوداعة فهي من شيم النفس الكبيرة التي تحتمل ضعفات الناس . « فعلينا نحن الأقوياء في الإيمان أن نحتمل ضعف الضعفاء» (رو ١٥ : ١) . « إن وقع أحدكم في خطأ فأقيموه أنتم أبناء الروح بروح الوداعة » (غلا ٦ : ١) . إن الرسول يعتبر السلام والصبر من ثمار الروح القدس . القلب المليء بالحزن ـ لعجزه عن القيام بالأعمال الجسدية الظاهرة بسبب المرض أو الضعف ـ يُغْني عن الأعمال الجسدية كلها . وهذه الأعمال إذا حصلت وكانت خالية من حزن الفكر فهي كالجسد بلا نفس . إن حزين القلب إذا تشتت حواسه يشبه مريضاً يتألم جسدياً لكنه يفغر فاه لكل طعام مؤذ ، ومن يملك قلباً حزيناً ويطلق العنان لحواسه يشبه إنساناً له ابن وحيد ويذبحه بيديه ببطء . حزن الفكر عطية ثمينة من الله ، ومن يتحمله كما يجب ، يشبه انساناً يصون القداسة في أعضائه . والذي يضنك لسانه مفتخراً بالصالحات أمام الناس ولائماً على

السيئات ، ليس أهلاً لهذه النعمة . التوبة المقرونة بالأحاديث تشبه خابية منقوبة ، والمديح المقرون باللطمات يشبه سيفاً مغطساً بالعسل .

العفة والحديث مع امرأة هما لبوة وخروف مقيمان في بيت واحد . الأعمال بدون رأفة هي في عيني الله كإنسان يذبح ابناً أمام أبيه . الضعيف النفس الذي يريد إصلاح الآخرين هو أعمى يدل الآخرين على الطريق .

الرأفة والعدالة في النفس الواحدة هما كإنسان يسجد لله وللأوثان في معبد واحد. الرأفة ضد العدالة. العدالة هي المساواة في الانصاف، تعطي كل واحد حسب استحقاقه دون أن تميل إلى جهة أكثر من الأخرى، ولا تحابي في المكافأة. أمّا الرأفة فهي حزن تحركه النعمة وتميله نحو الجميع بعطف دون أن تجازي الشرير بالشر وإن كانت تملأ بالخير مَنْ يستحقه. وإذا كانت الرأفة ناتجة من العدالة فتكون هذه ناتجة من الشر. وكما أن العشب والنار لا يجب جمعهما في مكان واحد هكذا أيضاً حال العدالة والرأفة في النفس الواحدة. إن حبّة صغيرة من الرمل لا تستطيع مقاومة ثقل كثير من الذهب وضرورة عدالة الله لا توازي عظمة رأفته.

+ إن زلّات الجسد بإزاء تدبير الله ورحمته تشبه حفنة من تراب مرمية في بحر كبير ، وكما أنه لا يمكن سد ينبوع فائض بغزارة بحفنة واحدة من التراب ، لا يمكن أن تَغْلِب شرور المخلوقات عظمة رأفة الله + من يصلّي وهو حاقد يشبه الزارع في البحر على أمل الحصاد . وهكذا فإن صلوات الرؤوفين تتصاعد إلى السماء تصاعد لهيب النار الذي لا يمكن منعه . أمّا قوة الغضب فتنحدر بأذهاننا ـ إذا وجدت فيها سبباً ـ انحدار الماء من الشلال . من مات عن العالم مات عن الأهواء ، ومن مات قلبه عن الأهواء مات فيه الشيطان ، ومن اقتنى الحسد فقد اقتنى العدو .

+ ثمة تواضع ناجم عن خوف الله ، وثمة تواضع من الله . وهناك انسان يتواضع خوفاً من الله وانسان يتواضع من أجل الفرح ، فالأول يجد مرونة في أعضائه ونظاماً في حواسه وقلباً منسحقاً كل حين . أمّا الثاني فيجد بساطة كثيرة وقلباً نامياً لا يُقَيَّد .

+ المحبة لا تعرف الخجل ولا تهتم بإتقان طرق الإعتناء بالجسد . المحبة بطبيعتها لا خجل فيها ولا حدود لها . طوبى لمن يجدك أيتها المحبة ، يا ميناء كل فرح + جماعة المتواضعين محبوبة عند الله كجماعة السارافيم . والجسد العفيف كريم لدى الله أكثر من الذبيحة الطاهرة ، لأن التواضع والعفة يؤمّنان للنفس قرضاً من الثالوث القدوس .

+ إذا ذهبت إلى أصدقائك فافعل ذلك بورع ، تنفع ذاتك وتنفعهم ، لأن النفس كثيراً ما تطرح عنها لجام التحفظ بحجة المحبة . احترس من الأحاديث لأنها ليست مفيدة في كل آن . اختر الصمت في الاجتماعات لأنه يقي من أضرار كثيرة . + احفظ بطنك ولكن احفظ عينيك أكثر لأن الحرب الداخلية أخف من الحرب الخارجية . لا تعتقد ، يا أخي ، إن الأفكار الداخلية تواجه قبل تنظيم الجسد وتهذيبه جيداً + احترس من العادات أكثر من الأعداء ، لأن من يغذي في داخله عادة كالإنسان الذي يوقد النار ، وحدود قوتها (النار والعادة) كامنة في المادة التي تغذّيها . فإذا اشتهت العادة شيئاً ولم تُلَبِّ طلبها ستجد أن شهوتها تضعف فيما بعد ، أمّا إذا لبيت مشتهاها فستجد أن قوتها ازدادت عليك .

+ تذكّر دائماً وفي كل شيء أن فائدة الإحتراس أفضل بكثير من فائدة العمل + لا تصادق من يحب الضحك والسخرية بالناس لأنه سيقودك إلى عادة الخمول + لا تكن بشوش الوجه أمام المتراخي في حياته لكن احذر أن تبغضه ، وإذا أراد النهوض فاعطه يدك واهتم بإنقاذه حتى النهاية . أمّا إذا كنت ضعيفاً فانصرف عن الإهتمام به إلى نفسك ، لكن أعطه ، كما يقولون ، طرف العصا . + تكلم بانتباه أمام المتكبر الحسود لأنه سيأخذ كلامك ويؤوّله حسب مشتهى قلبه فيستخرج من أقوالك البريئة مادة يُعْثِر بها الآخرين ويحوِّل كلامك في ذهنه بحسب نوع مرضه + قطّب وجهك منذ البداية لمن يحاول أن يذمّ أخاه أمامك ، ومتى فعلت ذلك يحفظك الله من هذا الشر .

+ إذا أعطيت شيئاً لمحتاج تداركه بالإبتسام وعزّ ضيقه بأقوال صالحة ، لأن ذهنه يفرح بالإبتسامة أكثر مما يفرح بنوال الحاجة + تأكد أنك قد مت عن الله وأن

أعمالك كلها أصبحت باطلة ، في اليوم الذي تفتح فيه فمك وتتكلم عن أحد ، ولو اعتقدت أنك تصلحه بهذا الكلام ، فماذا ينتفع الإنسان إذا هدم بناءه ليصلح بناء الآخر؟

إذا حزنت من أجل انسان لا يستطيع عمل الصالحات ولا تجنّبَ عمل السيئات بجسده أو بفكره ، افعل ذلك كمتألم من أجل المسيح وكمستحق للإعتراف به ، واذكر أن المسيح قد مات من أجل الخطأة وليس من أجل الأبرار ، وتأمل عظمة الفداء . إن الحزن على الأشرار وتفضيل الإحسان اليهم على الإحسان إلى الأبرار أمر عظيم وهذا ما يذكره الرسول المستحق التعجب[1] . إذا كنت تستطيع أن تبرر نفسك بنفسك لا تهتم بالتفتيش عن برّ آخر ولتكن عفة الجسد ونقاوة الضمير مقدمةً لكل أعمالك ، فكل شيء بدونهما باطل عند الله . واعلم أن كل عمل تقوم به دون تفكير هو باطل مهما كان ، لأن الله يقدّر عمل البرّ على أساس التمييز وليس على أساس تنفيذه بطريقة عشوائية .

البار الخالي من الحكمة هو كالسراج بإزاء الشمس . صلاة الحقود كالبذار الساقط على الصخرة . الناسك بلا رحمة كالشجرة بلا ثمر . التبكيت الناجم عن الحسد كالسهم المسموم . مديح الغاش كالفخ المخفيّ . إرشاد الغبي كالسهم الطائش . معاشرة الجهّال كسرٌ للقلب . كلام الفقهاء ينبوع عذب . المرشد الحكيم صُوَرُ رجاء[2] . الصديق الأحمق والجاهل كنز مضرّ . الساكن مع النسوة النائحات أفضل من الحكيم السائر وراء غبي . مرافقة الوحوش أفضل من مرافقة ذوي المعاشرة الرديئة . أجلس مع العقارب ولا تجالس الطمّاع الشره . صاحب القاتل ولا تصاحب المشاغب . تكلم مع الخنزير ولا تتكلم مع الشره . معلف الخنازير أفضل من فم النَهِم . اجلس مع البرص ولا تجلس مع المتكبرين . إرتض الإضطهاد ولا تضطهد . إقبل الصلب ولا تصلب أحداً . إقبل الظلم والذمّ ولا تظلم ولا تذمّ أحداً . كن لطيفاً ولا تكنّ غيوراً في الشر .

---

(١) « وقلما يموت أحد من أجل انسان بار ، أما من أجل انسان صالح فربما جرؤ أحد أن يموت » (رو ٥ : ٧)

(٢) صُوَرُ : جمع صيار والصيار هو صوت الصنج .

التبرير غريب عن سيرة المسيحيين ولا وجود له في تعليم المسيح . افرح مع الفرحين وابكِ مع الباكين ، فهذا دليل الطهارة . إمرض مع المرضى ، نُحْ مع الخطأة ، افرح مع التائبين + صادِق الجميع إنما كن وحيداً في ذهنك . شارِكِ الجميع في آلامهم وكن بعيداً عنهم بجسدك . لا تؤنّب ولا تعيّر أحداً حتى سيّء السيرة . ابسط وشاحك على المذنب واستره . وإذا كنت لا تستطيع تحمّل ذنوبه وتأديبه وعاره فاصبر عليه على الأقل ولا تُخْزِه . واعلم ، يا أخي ، إن هذا هو سبب بقائنا داخل القلاية حتى لا نعرف أمور الناس الشريرة ، وبعدم معرفتها نعتبر الجميع قديسين وصالحين . أمّا إذا أصبحنا مؤنّبين ومؤدِّبين وحكاماً وفاحصين وآخذين بالثأر ولائمين ، فما الفرق بين حياتنا وحياة المدن ؟ إن العيش في البرية بشع جداً إذا لم نترك كل هذا + فإذا كنت لا تجد السكينة في قلبك فليكن لسانك على الأقل في سكينة + وإذا كنت لا تستطيع أن تنظّم أفكارك وتضبطها ، فنظِّم حواسك على الأقل واضبطها + إذا كنت لا تستطيع أن تكون وحيداً بذهنك ، فكن وحيداً بجسدك على الأقل + إذا كنت لا تستطيع أن تعمل جسدياً ، فاحزن بذهنك على الأقل + إذا كنت لا تقدر أن تقف في السهر فاسهر جالساً على مرقدك أو مستلقياً + إذا كنت لا تستطيع أن تصوم يومين فصُمّ يوماً واحداً على الأقل ، وإذا كان الصوم صعباً عليك فانتبه ألاّ تشبع + إذا لم تكن قديساً بقلبك فكن نقياً بجسدك + إذا كنت لا تستطيع النوح بقلبك ، فألبس وجهك به + إذا كنت لا تستطيع أن تَرْحَم فتكلّمْ مثل خاطىء + إذا لم تكن فاعل سلام فلا تكن محباً للشغب + إذا لم تكن مجتهداً بكليتك فكن كذلك بعملك على الأقل + إذا لم تكن منتصراً ، فكن متواضعاً على الأقل + إذا كنت لا تقدر أن تُسكت من يذمّ أخاه ، فاحفظ نفسك كي لا تصبح شريكه .

+ إعلم أنه إذا خرجت منك نار وأحرقت الآخرين فإن الله سيطالبك بنفوس الذين أحرقتهم . وإذا لم تكن أنت واضع النار إنما وافقت واضعها وأُعجبت بعمله فستكون شريكه أيضاً في الدينونة + إذا كنت تحب الوداعة فاسلك بسلام . وإذا أُهّلت للسلام فستتمتع بالفرح كل حين + أطلب الفهم لا الذهب + ارتدِ التواضع لا الأرجوان + اقتن السلام لا المُلْك .

+ ليس من فهم بدون تواضع ، ومن يخلو من الثاني يخلو من الأول

بالضرورة . المتواضع هو محبّ السلام ومحبّ السلام متواضع وفرح . لا يستطيع الانسان أن يجد السلام في الطرق التي يسلكها إلاّ إذا وضع رجاءه على الله . إن القلب لا يقدر أن يتحرر من التعب والمعاثر إلاّ إذا أدركه الرجاء ومنحه السلام وسكب فيه الفرح . هذا ما قاله الفم المسجود له والمملوء قداسة : « تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والرازحين تحت أثقالكم وأنا أريحكم » (متى ١١ :٢٨) . اقترب مني بالرجاء تسترح من التعب والخوف ، هذا ما يقوله الرب .

+ الرجاء بالله يرفع القلب أمّا خوف جهنم فيسحقه . نور الذهن يولّد الإيمان ، والإيمان يمنح تعزية الرجاء ، والرجاء يقوّي القلب . الإيمان هو إعلان الفهم ، فإذا أظلم الذهن يختفي الإيمان ويُقطع الرجاء ويستولي الخوف . الإيمان الذي يحرر من الكبرياء والشك هو الإيمان المرئي والمشرق بالإدراك ، لا الإيمان المكتَسَب بالتعلّم ، ولهذا يُدعى فَهْمَ الحقيقةِ وإظهارَها . عندما يُدرك الذهن اللهَ كإلهٍ بإعلان الإيمان يستحيل اقتراب الخوف من القلب . عندما نجرّب بالظلام ونفقد هذا الفهم يظلّ الخوف مرافقاً لنا إلى أن ننسحق فيقودنا إلى التواضع والتوبة .

إن ابن الله احتمل الصليب ، فلنتشجع بالتوبة نحن الخطأة . وإذا كانت التوبة الشكلية قد حوّلت غضب الله عن الملك آخاب ، فكم بالأحرى تستعطفه توبتنا الحقيقية ؟ وإذا كان قد حوّل غضبه عمّن لم يكن صادقاً في تواضعه ، أفلا يحوّل غضبه عنّا نحن الحزانى بالحقيقة على زلاّتنا ؟ إن حزن الذهن يغنينا عن كل عمل جسدي .

يقول القديس غريغوريوس إن المتحد بالله والمتأمل بدينونته على الدوام هو هيكل للنعمة . وما الإتحاد بالله والتأمل بالدينونة سوى البحث عن الراحة الأبدية والحزن الدائم والهمّ الناتج عن عدم بلوغنا الكمال بسبب ضعف طبيعتنا ؟ وقد وصف باسيليوس المغبوط الحزن والهم المستمرين بأنهما دليل احتفاظ النفس الدائم بذكر الله . الصلاة الخالية من التشتّت تحرّك في النفس فكراً نقياً عن الله ، ويتم حلول الله في النفس عن طريق ذكره الدائم وهكذا نصبح هيكلاً له . وهذا يعني اهتماماً وقلباً منسحقاً مستعداً لقبول الراحة الأبدية في الله الذي له المجد إلى الدهور ، آمين .

7. 7. 99

المقالة التاسعة والخمسون

في التحوّلات الكثيرة الحاصلة في الذهن والتي تمتحن بالصلاة

إن اختيار المشيئة الصالحة يتوقف على الإنسان ، أمّا تحقيقُها فأمر يختص بالله ، لأن الإنسان بحاجة إلى عونه ، ولهذا يجب أن نُتْبِعَ الرغبة المتولدة فينا بالصلوات المتواصلة . ولا يكفي أن نلتمس معونة الله في تحقيقها بل يجب أن نميّز إذا كان ذلك مطابقاً لإرادته أو لا . ليست كل رغبة صالحة تنحدر إلى القلب هي من لدن أبي الأنوار بل المفيدة منها فقط . كثيراً ما يشتهي الإنسان الصلاح لكن الله لا يستجيب له ، لأن الشيطان يكون قد زرع فيه رغبة مبطّنة مشابهة فيظن أنها تناسبه وهي في الحقيقة أعلى من مستواه . إن الشيطان يدبّر هذه الأذيّة ويدفع الإنسان إلى طلبها وهو يعرف أنها لا تناسبه وأن سيرته لم تصل إلى مستواها بعد ، أو أنها غريبة عن جوّه ، أو أن الوقت لم يحنْ لإتمامها وتحريكها ، أو أنه عاجز عنها بالمعرفة والجسد، ولكنه يلجأ إلى تشويشه أو إيذائه جسدياً فيكون كمن أخفى له فخاً في ذهنه. فيجب، كما قلت، أن نرفع صلوات مستمرة برغبة صالحة وليقل كل منّا :

صلاة: يا رب ، إذا كان هذا العمل الصالح الذي أرغب فيه مرضياً لك فلتكن مشيئتك ومرضاتك فيه . إن الإختيار سهل ، أمّا العمل بدون نعمتك فمستحيل . وأنا أعلم يا رب أن كل شيء من عندك ، العمل والإرادة على السواء ، وأني بدون نعمتك لن أقتنع بقبول هذه الرغبة المتولدة فيّ .

هذه عادة من يرغب الصلاح : يعمل بالصلاة بتمييز الذهن لكي ينال العون والحكمة التي تَفْصُل الحق عن الباطل ، لأن الصلاح لا يمكن تمييزه إلاّ بالصلوات الكثيرة والعمل والاحتراس والشوق الدائم والدموع المستمرة والتواضع والعون السماوي ، خاصة عندما توجد أفكار كبرياء قد تقاوم مساعدة الله لنا . أمّا إقصاء هذه الأفكار فيتم بالصلاة .

المقالة الستون

في الأفكار القبيحة اللاإرادية الناتجة من التراخي

ثمة أناس يريحون أجسادهم قليلاً لتستعيد قواها ثم يتابعون عملهم الإلهي . فعلينا أن نحترس في أيام الراحة هذه ، فلا نترك ذواتنا كلياً أو ندعها دون حراسة ، وكأننا لا نريد العودة إلى العمل ، لأننا سنرشق بسهام العدو في سكينتنا ، ثم تجتني نفوسنا ثمار الدالة الفاسدة ، فنراها في المكان المقدس - الصلاة - مرتدية ثوباً وسخاً محاكاً بالأفكار المتحركة في أذهاننا أثناء الهذيذ بالله . هذا ما نقتبسه إبّان الإهمال فيعود علينا بالخزي أوان الصلاة .

التيقظ يساعد الإنسان أكثر من العمل ،وتراخي الانتباه يؤذيه أكثر من الراحة . فهو يستطيع ، متى عاد إلى العمل ، أن يتغلّب على ما تسببه الراحة من حروب ، أمّا نتيجة التراخي فمختلفة . بالراحة يبقى الإنسان ضمن حدود حريته ، مما يمكنه من التحكم بنفسه فور عودته إلى ممارسة قانون صلاته . أمّا بالتراخي فإنه يخرج عن حدود حريته ، وهكذا يضطر بعد إهماله الحفاظ على نفسه ، إلى الإنصياع لما لا يوافقه ، وبإطلاق العنان لحريته ، إلى الوقوع في أحوال سيئة تقيّده رغماً عنه ولا يستطيع مقاومتها .

أيها الإنسان ، لا تطلق الحرية لحاسة من حواسك لئلا يستحيل رجوعك إلى ذاتك . وإذا كانت الراحة تؤذي الشبان فقط ، فإن التراخي يؤذي الكاملين والشيوخ أيضاً . والذين يحاربون الأفكار القبيحة الناتجة من الراحة يستطيعون استعادة المحافظة على ذواتهم فيثبتون في رتبة سيرتهم السامية . أمّا الذين أهملوا صيانة حواسهم ، متكلين على رجاء عملهم ، فقد استعبدتهم ميولهم وهبطوا من سمو السيرة إلى حياة الإنحلال .

قد يصاب الإنسان في ساحة الأعداء أثناء المعركة ، لكنه يموت زمن السلام . وقد يخرج إنسان من البرية إلى العالم ، لشراء بعض الحاجات ، فيصاب بشوكة في نفسه . لا تحزن إذا ارتكبت زلّة ما ، بل احزن إذا بقيت في زلتك . فالزلة كثيراً ما تحدث حتى للكاملين ، لكن البقاء فيها هو موت تام . إن حزننا على زلاتنا هو بمثابة عمل طاهر معطى من النعمة . أمّا الذي يرتكب الزلّة نفسها ثانية على أمل التوبة فهو سائر مع الله بغش ، ويهبط عليه الموت فجأة فلا يستطيع إتمام عمل الفضيلة ولا يبلغ بالتالي زمن رجائه . المتراخي في الحواس يحطّم قلبه أيضاً .

في المتباهين من أجل الله وما يصدر عنهم

عمل القلب هو رباط الأعضاء الخارجية ، ومن أتمّ هذا العمل بتمييز ، حسب تعاليم الآباء السابقين ، يُعرف من التصرفات المستغربة الصادرة عنه ، لأنه لم يعد مقيّداً بالربح الجسدي[1] ولا بالشراهة ولا بالغضب . فإذا ظهرت فيه إحدى هذه الصفات الثلاث ، ولو بدا أنه يشبه الآباء القدماء ، فاعلم أن تراخيه في الزهد الخارجي ناجم عن عدم صبره في الجهاد الداخلي وليس عن الإزدراء بالنفس المفيد . فإذا كان قد مقت الجسديات بالحقيقة فلماذا لم يقتن الوداعة ؟ إن المقت بتمييز يتبعه التحرر من كل الأشياء والازدراء بالراحة وعدم التشوق إلى رؤية الناس . من يقبل الضرر من أجل الله هو طاهر من الداخل . ومن لا يزدري عاهة أحد هو حر بالحقيقة . ومن لا يفضّل مدح المادحين على ذمّ المهينين هو مائت بالحقيقة عن العالم . الحفاظ على التمييز أفضل من كل سيرة تتم بالطرق والمقاييس البشرية المختلفة .

يجب ألاّ نبغض الخاطىء بل أن نبكي ونصلّي من أجله

لا تبغض الخاطىء لأننا كلنا خطأة . وإذا ثرت عليه بدافع إلهي فابكِ من أجله . لا تبغضه بل أبغض خطاياه وصلِّ من أجله متشبهاً بالمسيح الذي ثار على الخطأة لكنه صلّى من أجلهم . ألم ترَ كيف بكى على أورشليم ؟ إن الشيطان

(١) الرغبة في المديح.

يخدعنا في أمور كثيرة ، فلماذا نبغض من يخدعه مثلنا ؟ لماذا تبغض الخاطىء ، أيها الإنسان ، ألعلك تعتقد أنه ليس باراً مثلك ؟ وأين هو برّك إذا كنت لا تملك المحبة ؟ إنك تطرده . وأنا أسألك لماذا لم تبكِ عليه ؟ هناك قوم يثيرهم الغضب بحماقة ويظنون أن تصرفهم مع الخطأة هو الصواب .

كن كارزاً بصلاح الله وهو يحفظك ، رغم عدم استحقاقك ، ولا يطالبك بشيء مع إنك مدين له بكل شيء ، بل يكافئك بالكثير على أعمالك الصغيرة . لا تَدْعُ الله عادلاً ، لأن عدالته ليست ظاهرة في أعمالك . إن داود قد دعاه عادلاً ومستقيماً ، لكن ابن الله أظهر أنه بالأحرى صالح ووديع ، وقال « إنه ينعم على ناكري الجميل والأشرار » (لو٦ : ٣٥) . وكيف تدعوه عادلاً إذا كنت قد قرأت ما قاله عن أجرة العمال ؟ : « يا صديقي ، أنا ما ظلمتك . خذ حقك وانصرف . فهذا الذي جاء في الآخر أريد أن أعطيه مثلك ، ألا يجوز لي أن أتصرف بمالي كيفما أريد ؟ أم أنت حسود لأني أنا كريم ؟ » (متى ٢٠ : ١٣ -١٥) . وكيف تدعوه عادلاً وقد قرأت فصل الابن الشاطر الذي بذّر الغنى على الفجور ثم ، عند ندمه ، أسرع أبوه إليه وعانقه وسلّطه على كل شيء ؟ إن هذه الأقوال لم يقلها غريب حتى نشكّ فيها ، بل الابن نفسه قد شهد بها . فأين هي عدالة الله ؟ أهي في أن المسيح قد مات من أجلنا ونحن خطأة ؟ فما دام رحيماً إلى هذا الحد هنا (في هذه الحياة) فلنؤمن أنه لن يتغيّر أبداً .

حاشا أن نفكر أو نقول إن الله عديم الرحمة ، لأن خصائصه لا تتبدل شأن المائتين . إنه لا يقتني شيئاً لم يملكه ، ولا يفقد شيئاً كان عنده ، ولا يضاف شيء إلى ما لديه ، كما هي حال المخلوقات . كل شيء عنده هو من البدء وسيبقى إلى الأبد اللامتناهي ، كما قال المغبوط كيرللس في شرحه لسفر التكوين : خف من الله حباً به وليس بسبب الاسم القاسي الملقب به[1] . أحببه لأنه عليك أن تحبه ، وليس من أجل المستقبلات التي سيمنحك إياها ، بل بالأحرى على ما منحك وخاصة هذا العالم الذي صنعه من أجلك . فمن يستطيع أن يكافئه ؟ هل تظهر مكافأتنا له في أعمالنا ؟ وأيضاً من أقنعه في البداية أن يخرجنا إلى الوجود ؟ ومن يتضرع إليه من أجلنا عندما ننساه ؟ ومن وهب أجسادنا الحياة حينما لم نكن بعد في الوجود ؟ ومن

(١) ربما الديّان العادل .

يخدعنا في أمور كثيرة ، فلماذا نبغض من يخدعه مثلنا ؟ لماذا تبغض الخاطىء ، أيها الإنسان ، ألعلك تعتقد أنه ليس باراً مثلك ؟ وأين هو برّك إذا كنت لا تملك المحبة ؟ إنك تطرده . وأنا أسألك لماذا لم تبكِ عليه ؟ هناك قوم يثيرهم الغضب بحماقة ويظنون أن تصرفهم مع الخطأة هو الصواب .

كن كارزاً بصلاح الله وهو يحفظك ، رغم عدم استحقاقك ، ولا يطالبك بشيء مع إنك مدين له بكل شيء ، بل يكافئك بالكثير على أعمالك الصغيرة . لا تَدْعُ الله عادلاً ، لأن عدالته ليست ظاهرة في أعمالك . إن داود قد دعاه عادلاً ومستقيماً ، لكن ابن الله أظهر أنه بالأحرى صالح ووديع ، وقال « إنه ينعم على ناكري الجميل والأشرار » (لو٦ : ٣٥) . وكيف تدعوه عادلاً إذا كنت قد قرأت ما قاله عن أجرة العمال ؟ : « يا صديقي ، أنا ما ظلمتك . خذ حقك وانصرف . فهذا الذي جاء في الآخر أريد أن أعطيه مثلك ، ألا يجوز لي أن أتصرف بمالي كيفما أريد ؟ أم أنت حسود لأني أنا كريم ؟ » (متى ٢٠ : ١٣ -١٥) . وكيف تدعوه عادلاً وقد قرأت فصل الابن الشاطر الذي بذّر الغنى على الفجور ثم ، عند ندمه ، أسرع أبوه إليه وعانقه وسلّطه على كل شيء ؟ إن هذه الأقوال لم يقلها غريب حتى نشكّ فيها ، بل الابن نفسه قد شهد بها . فأين هي عدالة الله ؟ أهي في أن المسيح قد مات من أجلنا ونحن خطأة ؟ فما دام رحيماً إلى هذا الحد هنا (في هذه الحياة) فلنؤمن أنه لن يتغيّر أبداً .

حاشا أن نفكر أو نقول إن الله عديم الرحمة ، لأن خصائصه لا تتبدل شأن المائتين . إنه لا يقتني شيئاً لم يملكه ، ولا يفقد شيئاً كان عنده ، ولا يضاف شيء إلى ما لديه ، كما هي حال المخلوقات . كل شيء عنده هو من البدء وسيبقى إلى الأبد اللامتناهي ، كما قال المغبوط كيرللس في شرحه لسفر التكوين : خف من الله حباً به وليس بسبب الاسم القاسي الملقب به[1] . أحببه لأنه عليك أن تحبه ، وليس من أجل المستقبلات التي سيمنحك إياها ، بل بالأحرى على ما منحك وخاصة هذا العالم الذي صنعه من أجلك . فمن يستطيع أن يكافئه ؟ هل تظهر مكافأتنا له في أعمالنا ؟ وأيضاً من أقنعه في البداية أن يخرجنا إلى الوجود ؟ ومن يتضرع إليه من أجلنا عندما ننساه ؟ ومن وهب أجسادنا الحياة حينما لم نكن بعد في الوجود ؟ ومن

(١) ربما الديّان العادل .

المقالة الحادية والستون

في كيفية صفاء النفس السرّي الذي يتم داخلياً، وفي مصدر تسرّب النوم والفتور إلى الذهن وإطفائهما الحرارة المقدسة في النفس وإماتتهما الشوق الإلهي الذي تولّده الأفكار الروحية والسماوية

لا شيء يمكنه أن يمنع ذوي المشيئات الصالحة عن العمل الصالح، ما لم يجد الشرير ثغرة يتسرب من خلالها إليهم. أمّا ما يحصل فهو التالي: تتبع كل تفكير يختص برغبة صالحة عند بداية تحركه غيرة تشبه الجمر بحرارتها فتحيط به وتطرد من قربه كل مانع أو معاكس له. إن هذه الغيرة تملك قوة وطاقة كبيرتين لا توصفان، وهي تصون النفس من الخمول والجزع وكل ما يشبهها. فالتفكير إذن هو القوة الطبيعية للرغبة المقدسة المغروسة في النفس، أمّا الغيرة فهي الفكر المتحرك بالقوة «الغضبية»[1] التي وضعها الله فينا لمنفعتنا، وهي تحفظ حدود الطبيعة وتدفع التفكير الحر إلى إنجاز رغبته الطبيعية الكائنة في النفس، أي الفضائل التي بدونها لا يتم أي صلاح. وقد سُمّيت غيرة لأنها هي التي تحرّك وتلهب وتقوّي وتدفع الإنسان إلى مقت الجسد ومحاربة التجارب المرعبة التي تصادفه وإلى تسليم نفسه للموت ومجابهة القوة المعاندة بغية إتمام الرغبة التي يصبو لها ويحنّ إليها كل الحنين.

لقد سمّى أحد المتوشحين بالمسيح[2] في مقالاته الغيرة «كلباً» حافظاً لناموس الله أي للفضيلة. إن قوتها تتوطد وتستيقظ وتتّقد في حفظ البيت

---

(١) قوة الحماس.

(٢) القديس يوحنا السلّمي. راجع مؤلفه «السلّم إلى الله» في منشورات النور، سلسلة «آباء الكنيسة» رقم ٣.

بطريقتين ، وتضعف وتذوي وتتوانى بطريقتين أيضاً . فيقظة الغيرة والتهابها يبدءان عندما يشعر الإنسان بخوف داخلي خشية فقدان أو اضمحلال الصلاح الذي اقتناه أو الذي يسعى إلى اقتنائه ، بسبب الأشياء الطارئة والمطاردة - وهذا الخوف يحصل بفعل العناية الإلهية ، ويرافق جميع الذين يعملون الفضيلة ، ويحرك الغيرة فيهم كي لا تنام نفسهم أبداً .

ومتى تحرك هذا الخوف في الإنسان تلتهب الغيرة ، التي أسميناها كلباً ، كالفرن المشتعل ليلاً ونهاراً ، وتوقظ الطبيعة على مثال الشاروبيم ، وتنبهها دوماً إلى كل ما يحيط بها . وبلسان ذلك الإنسان[1] : « إذا مرّ طائر بقرب هذا الكلب فإنه يندفع نابحاً ويهجم هجوماً شديداً لا يوصف » . يجب أن نميّز هذا الخوف عن خوف آخر يحصل نتيجة الشك في عناية الله ونسيان حمايته واهتمامه بأولئك المجاهدين في سبيل الفضيلة ، كما قال الروح القدس بلسان النبي : « عينا الرب على الصديقين » (مز٣٣ : ١٦) و« الرب عزّ للذين يخافونه » (مز٢٤ : ١٤) و« لا يقترب منك شر ولا تدنو ضربة من خبائك » (مز٩٠ : ١٠) .

عندما يتسرب الخوف إلى النفس بسبب ما يتعرض سبيل الفضيلة ، ولكي لا تتأذى أو تُسلب بأحد أسبابه ، فلا شك أن هذا الخوف إلهي وأنه اهتمام صالح ، وأن ما يحصل من حزن وعذاب هو من العناية الإلهية . أمّا الطريقة الثانية للغيرة ، أي لقوة الكلب وثورانه فتحصل عندما تبلغ الرغبة في الفضيلة أقصى حدودها . فكلما ازدادت الرغبة في النفس تزداد معها ثورة هذا الكلب الذي يمثل الغيرة الطبيعية للفضيلة .

أمّا فتور الغيرة فسببه الأول ضعف الرغبة وانحسارها عن النفس ، والسبب الثاني هو تسرّب فكر الإطمئنان والجرأة إلى النفس وبقاؤه فيها بصورة تجعل الإنسان يأمل ويتذكر ويظن أن لا خوف عليه من أية قوة مؤذية ، فتصبح الغيرة بلا سلاح ويصبح الإنسان كبيت بلا حارس ، فينام الكلب تاركاً الحراسة زمناً طويلاً .

وبنتيجة هذا الفكر تُسلب البيوت العقلية بعد أن يتشوّه لمعان المعرفة المقدسة الكامنة في النفس . ويحصل هذا التشوّه بتسرّب فكر كبرياء دقيق جداً إليها

---

(١) القديس يوحنا السلّمي نفسه .

واستمراره فيها ، أو بازدياد الإهتمام بالأمور الزائلة ، أو باستمرار الخروج إلى العالم الخدّاع ، أو بسبب البطن سيد كل الشرور . فالمجاهد عندما يخرج إلى العالم باستمرار تضعف نفسه ، وتكون لقاءاته الكثيرة مع الآخرين سبيلاً لسحقها بالمجد الفارغ . وأقول باختصار إن ذهن هذا الهارب إلى العالم يشبه قبطاناً مسافراً في بحر هادىء لا تلبث أن تصطدم سفينته بالصخور فتتحطم وتغرق . أمّا إلهنا فله المجد والعزة والكرامة والجلال إلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الثانية والستون

في حالات المعرفة الثلاث، وفي الفرق بين أعمالها ومعانيها، وفي إيمان النفس وفي الغنى السري المخبأ فيها، وفي الفرق الشاسع بين المعرفة العالمية وبساطة الإيمان

إن النفس التي سلكت سبل الحياة الرهبانية وتبعت طريق الإيمان وحققته مراراً عديدة ، إذا ما عادت إلى طرق المعرفة البشرية ، فإن إيمانها سيتلاشى حالاً ، وتفقد قوتها العقلية التي تظهر عادة في النفس النقية من خلال المساعدات الإلهية المتنوعة ، ومن خلال أعمالها التي تقوم بها ببساطة ، بعيداً عن الفحص والإستقصاء . لأن النفس حين تسلّم ذاتها لله بإيمان وتتذوّق طعم معونته ، لن تهتم بنفسها ، بل تكمّ فاها بالصمت والدهش ، وتتخلّى عن سلطتها الذاتية حتى لا تعود إلى طرق معرفتها القديمة فتفكر من خلالها ، لأنها ستصطدم بها فتخسر معونة الله التي تفتقدها دائماً ، بصورة خفية ، وتقدم لها كل ما تحتاجه . وإذا ظنّت أنها تستطيع أن تعتني بنفسها بقوة معرفتها تكون حمقاء ، لأن الذين أشرق فيهم نور الإيمان لن يتجاسروا على التضرع من أجل ذواتهم ، سائلين الله وقائلين : أعطنا كذا أو ارفع عنّا كذا ، ولا يهتمون بأنفسهم أبداً ، لأنهم يرون كل ساعة بعيون إيمانهم العقلية عنايته الأبوية التي تظلّلهم . فهو الأب الحقيقي ومحبته لا تحدّ بل تفوق كثيراً كل محبة أبوية بشرية ، وهو القادر أكثر من الجميع أن يساعدنا في ما نطلبه ونتذكره ونفكر به .

المعرفة البشرية معاكسة للإيمان ، لأن الإيمان يبطل قوانين المعرفة (البشرية

لا الروحية) . إن تحديد المعرفة يذكر أنها لا تقوى على فعل أي شيء ترغبه دون فحصه وبحثه والتأكد من إمكانية حصوله . أمّا الإيمان فهو قوة إذا دنا منها أحد باعوجاج رفضته رفضاً تاماً .

المعرفة لا تُدرك إلاّ بالفحص وبالطرق الجدلية ، ومنها ينشأ التردد أمام الحقيقة . أمّا الإيمان فلا يطلب أكثر من عقل طاهر بسيط بعيد عن كل غش وعن كل بحث جدلي . فانظر كيف يخالف كل منهما الآخر . بيت الإيمان يُبنى بفكر الأطفال وقلب بسيط : « لقد مجدوا الله بقلب بسيط » (كول ٣ : ٢٢) ، « إن كنتم لا تتغيّرون وتصيرون مثل الأطفال ، فلن تدخلوا ملكوت السموات » (متى ١٨ : ٣) . أمّا المعرفة فلا تتلاءم ولا تتوافق مع فكر الأطفال والقلب البسيط .

المعرفة سور للطبيعة يحفظها في كافة طرقها . أمّا الإيمان فيسلك طريقاً يفوق الطبيعة . ما يؤذي الطبيعة لا تدعه المعرفة يقترب منها بل تبتعد عنه ، أمّا الإيمان فيسمح له بالإقتراب وهو يقول : « تطأ الأسد والأفعى . تدوس الشبل والتنين » (مز ٩٠ : ١٣) . المعرفة يتبعها خوف أمّا الإيمان فرجاء ، وبمقدار ما يسلك الإنسان في سبل المعرفة يقيّد بالخوف فلا يستطيع التحرر منه . أمّا السالك في الإيمان فيصير حراً وذا سيادة يتصرف في أمره بسلطة كابن لله . الإنسان الذي يعشق هذا الإيمان يتصرف بطبائع الخليقة كلها كإله ، لأن للإيمان سلطة ابداع خليقة جديدة كما يفعل الله . وقد قيل : « أردت فصار الكل أمامك » (أيوب ٢٣ : ١٣) . ومراراً يبدع الايمانُ الكل من العدم . أمّا المعرفة فلا تستطيع فعل شيء بدون مادة أو دون أن يكون موجوداً في الطبيعة . لماذا ؟ لأن طبيعة الماء السائلة لا تدع الإنسان يمشي فوقها ، والنار تحرق كل من يقترب منها ، والمعرفة تبعدنا عنها حتى لا نتعرض للخطر .

فالمعرفة إذن تتحفظ من هذه الأوضاع ولا تجرؤ على تعدّي حدودها ، أمّا الإيمان فيتعدّاها بسلطة ويقول : « إذا اجتزت في المياه فإني معك أو في الأنهار فلا تغمرك وإذا سلكت في النار فلا تلذع ولا يلفحك اللهيب » (اش ٤٣ : ٢) . إن هذه الأعمال قد اجترحها الإيمان مراراً أمام الخليقة بأسرها ، ولو أُفسح المجال للمعرفة أن تختبرها لما فعلتها . كثيرون جداً من اجتازوا اللهيب بإيمان وقيّدوا قوة

النار المحرقة ، وعبروا في وسطها بدون أذى ، ومشوا على سطح البحر كما على اليابسة . إن هذه الأعمال تتعدى حدود الطبيعة وتخالف طرق المعرفة وتبطل كل أحوالها ونواميسها . أرأيت كيف أن المعرفة تحافظ على حدود الطبيعة ، وأن الإيمان يتجاوزها ليشق طرق السفر ؟ إن طرق المعرفة حكمت العالم خمسة آلاف سنة ، بقي الإنسان خلالها غير قادر على رفع رأسه عن الأرض . لكن عندما أشرق إيماننا مجدداً حرّرنا من ظلمة العمل الأرضي وعبودية التشتت الباطل . لكننا رغم عثورنا على البحر الساكن والكنز الذي لا ينفد ، لا نزال نفتش عن الينابيع الذليلة الوضيعة . مهما اغتنت المعرفة تبقى فقيرة ، أمّا كنوز الإيمان فلا تسعها أرض ولا سماء . من يرتكز قلبه على رجاء الإيمان لا يحتاج إلى شيء . وإذا لم يمتلك شيئاً فإنه بالإيمان ينال كل شيء : « كل شيء تطلبونه وأنتم تصلّون بإيمان تنالونه » (متى ٢١ : ٢٢) ، و« الرب قريب فلا تقلقوا أبداً » (في ٤ : ٥ و٦) .

المعرفة تفتش دوماً عن وسائل لصيانة أصحابها ، أمّا الإيمان فيقول : إن لم يبن الرب البيت ويحفظ المدينة فباطلاً يسهر الحارس وباطلاً يتعب البنّاء . من يصلّي بإيمان لا يحتاج إلى وسائل وطرق . أمّا المعرفة فتمدح الخوف في كل مكان كما قال الحكيم : « من اتّقى الرب فطوبى لنفسه » (تسير ٣٤ : ١٦) . لكن الإيمان يقول : « خاف فأخذ يغرق » (متى ١٤ : ٣٠) أو « لأن الروح الذي نلتموه لا يستعبدكم ويردكم إلى الخوف بل يجعلكم أبناء الله . . . » (رو ٨ : ١٥) أو « لا تحزن عليها ولا تهرب من وجهها » . إن الخوف يليه الشك دائماً ، والشك يتبع التمحيص ، والتمحيص يلي طرق الحكمة ، والطرق في المعرفة والتفتيش والبحث يلازمها الخوف والشك بصورة دائمة . لقد برهنّا أن المعرفة لا تقدر أن تحقق كل شيء في أي وقت . فكثيراً ما تتراكم على النفس أمور صعبة وعلل كثيرة مليئة بالأخطار فيستحيل على المعرفة وطرق الحكمة أن تساعدها بشيء . أمّا الإيمان فهو قادر أن يقهر كل الأمور الصعبة التي تتجاوز حدود المعرفة البشرية والتي لا تقدر قوة أخرى أن تدنو منها . هل يمكن للمعرفة البشرية أن تساعد في الحروب الظاهرة أو في الحرب ضد الطبائع اللامنظورة ، أو ضد القوات المتجسمة وغيرها ؟ أرأيت ضعف قوة المعرفة ، وعظمة قوة الإيمان ؟ المعرفة تمنع طلابها عن الدنو من كل ما هو غريب عن الطبيعة . فماذا تفعل قوة الإيمان وماذا تبتغي لمريديها ؟

« بالإيمان تُخرجون الشياطين باسمي وتحملون الحيّات ، وإن شربتم السمّ فلا يضركم » (مر١٦ : ١٧ و١٨) . إن المعرفة تنصح السائرين في طريقها، وحسب شريعتها ، أن يدرسوا نتيجة كل عمل قبل أن يباشروا به ، لئلا يتعبوا باطلاً إذا عجزوا عن بلوغ نهايته بقوتهم البشرية . أمّا الإيمان فيقول : « كل شيء مستطاع عند المؤمن » (متى ١٩ : ٢٢) ، فلا شيء مستحيل عند الله . يا للغنى الذي لا يوصف ! يا للبحر الزاخر بالأمواج والمشتمل على الكنوز العجيبة الفائضة من قوة الإيمان ! أيها الإيمان ، كم هو غني بالشجاعة والمسرّة والرجاء ، السير معك ! وكم هي خفيفة أحمالك ! وما أحلى عملك!

سؤال : إذا استحق المرء أن يتذوّق لذة الإيمان ثم عاد إلى معرفة النفس ، فهل من فرق بين هاتين الحالتين ؟

جواب : إنه يشبه إنساناً وجد جوهرة ثمينة فاستبدلها بنقد نحاسي ، أو إنساناً ترك حريته الذاتية وعاد إلى طرق الفقر المليئة بالخوف والعبودية . ونحن لا نعني أن المعرفة أمر مذموم ، بقدر ما نشير إلى سمو الإيمان . وإذا كان ثمة ذم فحاشا أن نذمّ المعرفة ، جلّ ما نفعله أننا نميّز بين طرقها وطرق الإيمان وبين انطلاقها الطبيعي الذي يتعاكس معه ، ونشير إلى شبهها بطغمات الشياطين . وعلينا أيضاً أن نتكلم بإيضاح فيما بعد عن عدد درجات المعرفة ، وميزة كل منها ، والأفكار التي تدور في خلد الإنسان في كل من طرقها ، وبأي من هذه الطرق تعاكس الإيمان وتُخرج الإنسان عن حدود الطبيعة إذا سلكها، وعن سمو المعرفة ومرتبتها التي تجعل الانسان يسلك الخط الطبيعي وتقرّبه من الإيمان بسيرة صالحة عندما تحوّل هدفها الأول[1] ، وعن الحد الذي يمكن أن تبلغ إليه مرتبتها السامية، وعن كيفية اجتيازها هذه المرتبة إلى مراتب أسمى ، وعن أحوال مراتب المعرفة الأولى[2] ، وعن موعد اتحاد المعرفة بالإيمان اتحاداً كلياً واحداً، وعن اتشاحها بمعان نارية والتهابها بالروح واقتنائها أجنحة اللاهوى وارتقائها من خدمة الأرضيات إلى مكان خالقها. لكن ما لا بدّ من معرفته الآن هو أن الإيمان وأعماله أسمى من المعرفة .

---

(١) من المعرفة النفسية إلى المعرفة الروحية .

(٢) النفسية أي الحسية .

هذه المعرفة تكتمل بالإيمان ، وبه تقتبس قوة الصعود إلى العلاء وإحساساً بمن هو أعلى من كل حسّ (الله) ، ومشاهدة الفجر الذي لا يُدرك بالذهن ولا بمعرفة المخلوقات . المعرفة درجة يصعد بها الإنسان إلى علو الإيمان ، وعندما يبلغه لا يعود بحاجة إليها . « إننا الآن نعرف جزئياً ، كما يقول الرسول ، لكن متى جاء الكامل يبطل الجزئي » (١كو١٣: ١٠). الإيمان يرينا حقيقة الكمال كما بأعين . وبالإيمان نتعلم الأمور غير المدركة ، لا بالتفحص وقدرة المعرفة .

أعمال البرّ هي : الصوم ، الإحسان ، السهر ، التقديس وغيرها مما يتم بالجسد ، أمّا التي تتم بالنفس فهي : محبة القريب ، تواضع القلب ، مسامحة الخطأة ، ذكر الصالحات ، فحص الأسرار المخفية في الكتاب المقدس ، تأمل الذهن بالأعمال الفضلى ، صيانة النفس من الأهواء وغيرها من الفضائل . كل هذه الأعمال تحتاج إلى المعرفة لأنها تصونها وتعلّم درجاتها . وهي درجات تصعد عليها النفس لتبلغ علوّ الإيمان الأسمى ، وتدعى فضائل . أمّا سيرة الإيمان فأسمى من الفضيلة وتحقيقها لا يتم بالأعمال ، بل بالراحة التامة والتعزية الصائرتين بهذيذ القلب والنفس . أمّا أحوال السيرة الروحية العجيبة فهي : إحساس بالحياة الروحية والنعيم وراحة النفس والشوق والفرح في الله وغيرها مما يعطي للنفس المستحقة نعمة الغبطة هناك ، أو تلك الأمور التي تتم هنا عندما يغمرنا الله بنعمه من خلال الكتاب المقدس والإيمان .

سؤال : إذا كانت المعرفة هي التي تتمم كل هذه الصالحات وأعمال الفضائل والإبتعاد عن الشرور وتمييز الأفكار الدقيقة النابعة من النفس والصراع ضد الأفكار والجهاد ضد الأهواء وغيرها مما لا يستطيع الإنسان أن يظهر قوته في عمل النفس[1] بدونها ، فكيف تعتبر معاكسة للإيمان ؟

جواب : هناك ثلاث طرق عقلية تصعد وتنزل عليها المعرفة . وكما أن هذه تتغيّر فإن المعرفة التي تسير بموجبها تتغيّر أيضاً . ولهذا فهي تارة تؤذي وطوراً تفيد . الطرق الثلاث هي الجسد والنفس والروح . والمعرفة وإن كانت واحدة بطبيعتها

(١) الفضيلة .

إلاّ أنها تضمر وبضمورها تبدّل أساليبها وطرق تفكيرها في المجالات العقلية والحسية . فاسمع ما سأحدثك به عن مرتبة عملها والأسباب التي بها تؤذي أو تنفع . المعرفة هبة الله لطبيعة العقليين ، أعطيت لهم في البدء لكمالهم ، وهي بسيطة في طبيعتها كنور الشمس ولا تتجزأ ، أمّا في عملها فتقبل تغييرات وتجزيئات .



المقالة الثالثة والستون

في المرتبة الأولى للمعرفة

عندما تسير المعرفة وراء الشهوة الجسدية تتجمع فيها الحالات التالية : الغنى ، المجد الفارغ ، الزينة ، راحة الجسد ، الإجتهاد في الحكمة المنطقية بما يتناسب مع مسيرة هذا العالم فتزخر بالإكتشافات الجديدة والفنون والعلوم وغيرها مما يكلل الجسد في هذا العالم المنظور . وبهذه الصفات تصبح المعرفة مضادة للإيمان ، كما أشرنا ، وتُدعى معرفة قاحلة لتجردها من كل اهتمام إلهي ، وتجلب إلى الذهن ضعفاً بهيمياً يجعلها مقيّدة بالجسد لأنها مهتمة كلياً بهذا العالم . إن منظار هذه المعرفة هو عدم الإيمان بوجود قوة عقلية وحاكم خفي للإنسان وعناية إلهية تفتقده وتهتم به من كافة الجوانب . وهي لا تعتقد أن نظام هذا الكون يجري بعناية الله ، وتنسب إلى الإنسان كل صلاح وكل نجاة من الأمور المؤذية وكل انتباه طبيعي واقٍ من المصاعب والمعاكسات والحروب سواء كانت خفية أم ظاهرة . هذا المستوى من المعرفة الذي يجعلها تعتقد أن الكل يسير بعنايتها ، هو موافق بلا شك للذين يقولون بعدم وجود حاكم لهذه المنظورات . لكنها رغم هذا لا تقدر أن تبقى خالية من الإهتمام المستمر بالجسد والخوف عليه . فيستولي عليها صغر النفس (الجبن) والحزن واليأس وخوف الشياطين والجزع من الناس ومن ذكر اللصوص وأنواع الموت وفقدان الحاجات الجسدية ، والخوف من الموت والآلام والوحوش الضارية وكل ما شابهها من الأهوال التي تحدث في بحر الحياة الصاخب بالأمواج والهائج ليلاً ونهاراً . ولأنها لا تعرف أن تلقي همها على الله وأن تؤمن به إيماناً وثيقاً ، تحاول أن تدبِّر أمورها بالحيل والمكائد ، فإذا خابت حيلها لسبب من الأسباب ، ولم تدرك عناية الله السرية ، تتخاصم مع الناس الذين يقاومونها ويعاكسونها .

لا شك أن شجرة معرفة الخير والشر مغروسة في هذه المعرفة . وهي التي

تفحص زلات الناس الصغيرة ، وأسبابها وضعفاتها ، وتعلّم الإنسان كيف يمتحن الأقوال ويناقضها ، وكيف يلجأ إلى الغش بمكائد وحيل شريرة وغيرها من الطرق المهينة . وفي هذه المعرفة بالضبط ، يكمن الإنتفاخ والكبرياء لأنها تنسب كل شيء صالح إلى ذاتها وليس إلى الله .

أمّا الإيمان فينسب كل أعماله إلى النعمة ، لذلك لا يمكنه الترفّع ، كما كُتب : « أنا قادر على تحمل كل شيء بالمسيح الذي يقوّيني » (فيل ٤ : ١٣) و«لست أنا بل نعمة الله التي معي » (١ كو ١٥ : ١٠) . وحين قال بولس المغبوط : « إن المعرفة تزهو بصاحبها » (١ كو ٨ : ١) إنما كان ينوّه إلى هذه المعرفة غير المرتبطة بالإيمان والرجاء بالله لا إلى معرفة الحق ، حاشا .

إن معرفة الحق تكمّل ذويها بالتواضع ، مثل موسى وداود وأشعياء وبطرس وبولس والقديسين الآخرين الذين استحقوا هذه المعرفة الكاملة ، حسب استطاعة الطبيعة البشرية . إن معرفة هؤلاء والذين يشابهونهم تضمحل أمام الرؤى المتنوعة والإعلانات الإلهية ومشاهدة الروحيات السامية والأسرار التي لا توصف ، وتصبح نفوسهم في أعينهم كالتراب والرماد . أمّا المعرفة الأخرى فتنتفخ إلى أقصى الحدود ، لأن سيرها في الظلمة يجعلها تختبر أمورها بمقارنتها بالأشياء الأرضية ، جاهلة وجود من هو أسمى منها . فيصاب جميع أصحابها بالترفع لوجودهم على الأرض وقياسهم حياتهم بمقياس الجسد ، واتكالهم على اعمالهم وعدم تفكيرهم بمن هو غير مدرك .

وما داموا يتخبطون في هذه الأمواج فلا مفرّ لهم من المعاناة . أمّا القديسون فيتممون الفضيلة الإلهية المجيدة (التواضع) ويهتمون بالأمور العلوية ولا يتركون أفكارهم تتخبط في اكتشاف الأمور الدنيوية الباطلة . ولأنهم يسيرون في النور لا يمكن أن يضلّوا ، أمّا البعيدون عن نور معرفة ابن الله فيسلكون هذه الطرق . هذه هي المرتبة الأولى للمعرفة التي يسلك فيها الإنسان بشهوة الجسد . إننا نذمّها لا لأنها مضادة للإيمان وحسب ، بل لكل أعمال الفضيلة .

المقالة الرابعة والستون

في المرتبة الثانية للمعرفة

بعد أن يترك الإنسان المرتبة الأولى للمعرفة (الجسدية) ويسير نحو هواجس نفسه ورغباتها ، يتمم الصالحات السابق ذكرها بإلهام أفكار النفس ونورها وبمؤازرة الحواس الجسدية . هذه الصالحات هي : الصوم ، الصلاة ، الإحسان ، مطالعة الكتاب المقدس ، طرق الفضيلة ، مصارعة الأهواء وغيرها ، لأن كل الأعمال الصالحة والصفات الحسنة المنظورة في النفس والطرق العجيبة التي تقام في حظيرة المسيح يتممها الروح القدس في المرتبة الثانية للمعرفة (النفسية) بفعل قوتها . هذه المعرفة تفتح الطرق أمام القلب فنهتدي إلى الإيمان ونعدّ زاداً للدهر الحقيقي . لكنها تبقى معرفة جسدية ومركّبة لأنها تُعتبر طريقاً هادياً ومرشداً إلى الإيمان ، وتوجد مرتبة أسمى منها يمكن للإنسان أن يبلغها إذا أظهر تقدماً ووضع لها أساساً عملَ السكينة البعيدة عن الناس والحافلة بمطالعة الكتاب المقدس والصلاة والأعمال الأخرى الصالحة التي تتم في المرتبة الثانية للمعرفة والتي تتولد منها كل الخيرات وندعوها معرفة الأشياء ، لأنها تكمّل عملها وسط الأشياء المحسوسة من خلال الحواس الجسدية . آمين .

المقالة الخامسة والستون

في المرتبة الثالثة للمعرفة وهي مرتبة الكاملين

إسمع كيف يصبح الإنسان شفّافاً ويصل إلى المرتبة الروحية ويصبح شبيهاً بسيرة القوات اللامنظورة التي تخدم الله بالعمل الصائر في الذهن لا بالأعمال الحسية . عندما ترتفع المعرفة عن الأرضيات وعن الإهتمام بأمورها ، وتبدأ بمراقبة الأفكار المخبأة داخل عينيها ، وتزدري الأشياء التي ينشأ منها انحراف الأهواء ، وترفع ذاتها إلى فوق، وتتبع الإيمان باهتمامها بالدهر الآتي والشوق إلى ما وُعدنا به وفحص الأسرار الخفية ، عندئذ يبتلعها الإيمان ويحوّلها ثم يلدها من جديد - كما كانت في البداية - فتصبح كلها روحاً.

وعندئذ تستطيع التحليق إلى أمكنة اللامتجسمين وأن تلمس عمق البحر غير المدرك لأنها تفهم بأي طريقة عجيبة إلهية تُدار الطبائع العقلية والحسّية وتفحص الأسرار الخفية التي تدرك بالذهن البسيط الشفاف، فتستيقظ الحواس الداخلية لعمل الروح حسب نظام الحياة الأزلية العديمة الفساد، لأنها قد قبلت القيامة المدركة من خلال ما هو هنا، كما بسر، شهادة حقيقية لتجديد الكل.

هذه هي أحوال المعرفة الثلاث المقابلة لأحوال الإنسان الجسدية والنفسية والروحية والتي بواسطتها يبدأ التمييز بين الخير والشر . وما دام الإنسان في هذا العالم فلا بدّ له من عبور هذه المراتب الثلاث للمعرفة . ورغم تعدد درجاتها تبقى المعرفة واحدة ، فهي التي تكمّل كل ظلم وكفر ، وهي التي تعمل البر بملئه أيضاً . وهي التي تقترب من عمق أسرار الروح كلها ، وبها تصير كل حركة في الذهن ، مرتفعة إلى الصالحات أو هابطة إلى السيئات أو باقية في المتوسطات . وهذه المستويات يدعوها الآباء حالات ويقسمونها إلى حالة بحسب الطبيعة وثانية

بخلاف الطبيعة وثالثة فوق الطبيعة . وهي المستويات التي نصعد وتنزل عليها كما قيل ذاكرة النفس العاقلة . أي أن الإنسان إمّا أن يصنع البرّ بحالة طبيعية ، أو أن يُختطف إلى ما فوق الطبيعة إلى المشاهدة الإلهية ، أو أن يخرج عن حدود الطبيعة ويذهب لمرعى الخنازير نظير الذي فقد غنى التمييز فاشترك بالعمل مع جمهور الشياطين (الابن الشاطر) .

موجز مراتب المعرفة الثلاث

مرتبة المعرفة الأولى تجمِّد النفس وتمنعها من السير في طريق الله ، والثانية تجعلها حارة فتسير بسرعة لتبلغ درجة الإيمان ، أمّا الثالثة فاستراحة من الأعمال وصورة للمستقبل لأنها تتمتع بنعيم أسرار الدهر الآتي بتأمل الذهن فقط . وبما أن الطبيعة الكائنة في المرتبة الثانية لا تقدر أن ترتفع كلياً عن رتبة الفساد وتطرح عنها ثقل الجسد وتكتمل بالمرتبة الروحية الأعلى ، بل تميل تارة نحو اليمين وطوراً نحو اليسار ، فإنه من المستحيل أن تبلغ الكمال - الذي لا ينتهي عمله أبداً - وأن تتخلى عن عالم الفساد وأن تزدري طبيعة الجسد كلياً . فما دام الإنسان يعيش في الجسد فإنه خاضع للتقلب بين هذا وذاك . وما دامت نفسه فقيرة وبائسة فإنها تبقى في مرتبة الفضيلة الثانية المتوسطة الموضوعة في الطبيعة للعمل بالجسد .

إذا بقيت النفس في هذه الحالة ، قد تنال نعمة الروح من حين إلى آخر وتتمتع بها بمقدار ما يسمح لها المعطي ، شأن أولئك الذين حصلوا على نعمة التبني بسر الحرية ، إلاّ أنها لا تلبث أن تعود إلى ممارسة أعمالها الوضيعة ، أي الجسدية . فالمعرفة المتوسطة تحفظ عادة هذه الأعمال الحاصلة من حين إلى آخر لتقي بها النفس من العدو فلا يسلبها ويخدعها بحيله الغاشة الكائنة في هذا العالم الشرير ، أو بالأفكار المتشوشة والمتأرجحة . وما دام الإنسان مقنّعاً بالجسد فإنه لن يحصل على الثقة ، فلا حرية كاملة في دهر غير كامل . إن فعل المعرفة يحثّ على العمل والاهتمام ، أمّا فعل الإيمان فلا يتم بالأعمال بل بالأفكار الروحية وبعمل النفس المجرد الذي يفوق الحواس . وكما أن المعرفة أكثر دقة من الأشياء المحسوسة ، فإن الإيمان أكثر دقة من المعرفة . وجميع القديسين الذين استحقوا هذه السيرة - التي هي

ذهول بالله - عاشوا بقوة الإيمان متمتعين بنعيم تلك السيرة الفائقة الطبيعة .

ولا نعني بالإيمان هنا ، الايمان الشفوي بالأقانيم الإلهية المميزة والمسجود لها وبطبيعة الألوهة الخاصة وبالتدبير العجيب الصائر في الإنسانية بواسطة طبيعتنا (سر التجسد) - وإن كان هذا الإيمان سامياً جداً - ، إنما نعني الإيمان المشرق في النفس بنور النعمة والذي يثبّت القلب بشهادة الذهن ويبقى غير متزعزع في يقين الرجاء البعيد عن كل حدْس، لأن هذا الإيمان لا يكشف ذاته بسماع الاذن، بل يُعلِن - من خلال الأعين الروحية - الأسرارَ الخفية في النفس والغنى الإلهي المحجوب عن عيون أبناء الجسد، والمعلن بالروح لأولئك الذين يتناولون الطعام على مائدة المسيح والذين يهذّون بناموسه ، حسب قوله تعالى: «إن حفظتم وصاياي أرسل إليكم المعزي، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، وهو يعلّمكم الحقيقة كلها» (يو ١٤: ١٥ - ١٧). هذا المعزي يكشف للإنسان تلك القوة المقدسة الساكنة فيه كل حين ، والستر، والقدرة العقلية التي تستره دائماً وتطرد عنه كل أذى قد يقترب من نفسه أو من جسده. يحس الذهن المستنير بأعين الإيمان بهذه القدرة التي أدركها القديسون إلى حد كبير بخبرتهم.

هذه القدرة هي المعزي نفسه الذي يلهب مفاصل النفس بقوة الايمان كما بنار ، ويجعلها تندفع مزدرية كل الأخطار ومتدرّعة بالرجاء بالله ومرتفعة عن الخليقة المنظورة بأجنحة الايمان وسكرى بدهش الاهتمام الإلهي ومروّضة ذهنها على ممارسة الهذيذ في خفاياها عن طريق المشاهدة البسيطة (غير المركبة) وإدراك الطبيعة الإلهية غير المنظورة . وحتى مجيء زمن كمال الأسرار ، وبلوغنا استحقاق إعلانها بوضوح ، يبقى الايمان وسيلة لخدمة الأسرار التي لا توصف والتي تربط القديسين بالله . عسى أن تؤهلنا لها نعمة المسيح ، عربوناً في هذه الحياة وحقيقةً في ملكوت السموات مع محبيه ، آمين .

المقالة السادسة والستون

في أحوال ومعان وصفات أخرى للمعرفة

إن المعرفة التي تبقى ملتصقة بالمنظورات ، أو التي تدرك الأشياء بالحواس تُدعى معرفة طبيعية . والمعرفة التي لا تفارق الطبائع اللامتجسمة سواء كان ذلك بمساعدة الكائنات المعقولة أم من خلال مشاهدتها الداخلية تدعى معرفة روحية ، لأنها تدرك بالروح وليس بالحواس الجسدية . هاتان الحالتان اللتان يحصل بهما الإدراك يتم فعلهما خارج النفس . أمّا المعرفة الصائرة بفعل القوة الإلهية فإنها تدعى معرفة فوق الطبيعة ، وهي غير مدركة ، وبالتالي أسمى من أنواع المعرفة الأخرى . إن مشاهدة هذه المعرفة لا تتلقاها النفس من خلال المادة الموجودة خارجها ، حسب نظام المعرفتين الأولين ، إنما تظهر فيها من الداخل مجاناً بطريقة لاهيولية سريعة وغير متوقعة وتُعلن من الداخل ، « لأن ملكوت السموات في داخلكم » (لو ١٧ : ٢١) ، ولا ننتظر رؤيته ولن يأتي علانية ، حسب قول المسيح ، بل يُعلن في سر الذهن بدون سبب وبدون التأمل فيه ، لأن الذهن لا يجد فيه أي مادة .

المعرفة الأولى تأتي بالتفتيش المستمر وبالتعلّم والاجتهاد . والمعرفة الثانية تأتي بالسيرة الصالحة وبإيمان الذهن . أمّا المعرفة الثالثة فهي ميراث الإيمان فقط . إن الإيمان يبطل المعرفة ويضع حداً لأعمالها ، وتصبح الحواس غير ضرورية . وبمقدار ما تتراجع المعرفة عن حدودها تكرَّم ، ويزداد إكرامها بمقدار ما يزداد تراجعها . ومتى بلغت الأرض تصبح سيدة الكل ، وعندئذ يكون كل شيء منحلاً وباطلاً بدونها . أمّا عندما ترفع النفس رؤيتها نحو العلاء وتبسط أجنحة أفكارها نحو السموات وتشتهي الأمور التي لا تشاهد بعيني الجسد والتي لا سلطة للجسد عليها ، فعندئذ ترى الكل متحداً بالإيمان الذي نرجو أن يهبنا إياه الرب يسوع المسيح المبارك إلى دهر الدهور آمين .

المقالة السابعة والستون

في النفس الباحثة عن المشاهدة العميقة لتتفرق فيها وتتحرر من الأفكار الجسدية الناجمة عن تذكر الأشياء

الأسمى محجوب عن الأدنى[1] . هذا القول لا يعني أن الأسمى قد استعار شكلاً معيّناً بمثابة حجاب خاص بجسم آخر وأنه يستطيع إزاحته متى شاء ليكشف خفاياه الداخلية . إن مميزات كل جوهر من الجواهر العقلية ليست دخيلة عليه ، إنما هي نابعة من حركاته الداخلية الطبيعية ، مما يجعله قادراً على الدخول لتقبّل النور الأول[2] والاتشاح به بطريقة مباشرة . إن هذا لا يتوقف على مستوى المصفّ ، بل على نسبة نقاوته وإمكانية تقبّله الأمور السامية الصادرة عن القوات العلوية ـ طبعاً إذا كان من البشر .

كل جوهر عقلي يحتجب عن الجواهر الأدنى ، لا احتجاباً من حيث الطبيعة بل من حيث نوعية حركة الفضائل . وهذه الجواهر هي طغمات القوات الملائكية المقدسة وطغمات النفوس وطغمات الشياطين . فالطغمات الأولى ، أي الملائكة ، تحتجب عن الطغمات المتوسطة ، أي عن النفوس ، وهاتان الطغمتان تحتجبان عن الطغمة الثالثة أي الشياطين ، وذلك من حيث الطبيعة والمكان والحركات . وكل طغمة منها ـ سواء كانت مرئية أم غير مرئية ـ تحتجب عن الأخرى من حيث المعرفة ، أمّا من حيث طبيعتها فتحتجب عن الأدنى منها . يحصل هذا لأن رؤية الطغمات اللامتجمسة (الملائكة) ليست خارجية كما في الطغمات المتجسمة

---

(١) إن النفس مثلاً أسمى من الجسد ومحجوبة وراءه ، وفضائلها أيضاً هي أسمى من فضائله ومحجوبة به . المحبة والتواضع واللين . . . هي فضائل نفسية غير ظاهرة ومخبأة داخل الإنسان ، فالمتواضع مثلاً لا يستطيع أحد أن يكشفه إلا القديسون والمستنيرون بالله .

(٢) أي النور الإلهي غير المخلوق .

(النفوس) ، بل يُقال إن اللامتجسمين يعاينون بعضهم من خلال حركاتهم ومن خلال فضائلهم ، ولهذا فإذا تساووا في الكرامة فإنهم ، مهما ابتعدوا عن بعضهم ، يرى الواحد منهم الآخر ، لا بالخيال بل برؤية صحيحة طبيعية وحقيقية . أمّا علّة الكل[1] المسجود له وحده فإنه يتخطى هذه الاعتبارات ولا يستطيع أحد رؤيته . أمّا الشياطين فرغم كثرة دنسها فهي لا تحتجب عن بعضها لكنها لا ترى الطغمتين الكائنتين فوقها ، لأن المعاينة هي التي تميّز الحركة ، أيّ حركة ، بتسليط ضوئها عليها ، ويكون هذا الضوء بمثابة عين ومرآة لها . فعندما تظلم الحركات تتوقف عن رؤية الطغمات العليا . وتنحصر رؤية الشياطين ضمن حدود طغماتها لأنها أقل شفافية (أغلظ) من الطغمات الروحية الأخرى بسبب دنسها . هذا عن الشياطين .

أمّا النفوس فإنها إذا ظلّت ملطخة ومظلمة لا تستطيع أن تشاهد بعضها ولا حتى ذاتها . أمّا إذا تنقّت وعادت إلى الجبلة القديمة ، فيمكنها أن تشاهد الطغمات الثلاث بوضوح ، أي الأعلى والأدنى والتي هي فيها . وهذا لا يعني أنها تستعير شكلاً جسدياً آخر حتى تشاهد الملائكة والشياطين أو مثيلاتها وإنما تشاهد ذلك من خلال طبيعتها الذاتية ووفق نظامها الروحي . فإذا قلت إن هذا مستحيل ، أي إنه يستحيل لها مشاهدة شيطان أو ملاك دون تغيير أو تبديل ، ففي مثل هذه الحال تتم المشاهدة بعين الجسد لا بعين النفس. وإلاّ فما الحاجة إذن إلى التنقية إذا كانت الأمور تسير على هذا المنوال ؟ ها أن الشياطين والملائكة تظهر لغير الأنقياء وهم لا يرون إلاّ بالأعين الجسدية حيث لا ضرورة للتنقية. لكن الحالة تختلف بالنسبة للنفس النقية ، فهي ترى بالعين الطبيعية بطريقة روحية ، أي بالبصيرة ، بخرق الجدار . فلا تستغرب إذا كانت النفوس تشاهد بعضها بعضاً وهي بالجسد . سأقدّم لك برهاناً قاطعاً مستنداً إلى ذاك الذي شهد بالحق ، أعني به المغبوط أثناسيوس الكبير الذي يتحدث في كتابه عن أنطونيوس الكبير ويذكر أنه بينما كان واقفاً يصلّي شاهد نفس أحدهم مرتفعة بكرامة كبيرة فغبّط ذلك الذي استحق مثل هذا المجد ، أعني به عمّون المغبوط الذي من النطرون . وكان الجبل الذي يسكن

(1) الله ، لا من حيث جوهره بل من حيث فعله .

فيه القديس أنطونيوس يبعد عن النطرون سفر ثلاثة عشر يوماً . ويتضح من هذا المثل ، بالنسبة إلى الطغمات الثلاث السابق ذكرها ، أن الطبائع الروحية تشاهد بعضها بعضاً مهما ابتعدت الواحدة عن الأخرى ، وأن المسافات والحواس الجسدية لا تمنع ذلك . وكذلك النفوس فإنها إذا تنقت لا تشاهد جسدياً بل روحياً ، لأن المشاهدة الجسدية كونها حسّية تعاين ما هو أمامها ، أمّا الكائنات البعيدة فتحتاج إلى مشاهدة أخرى .

إن الطغمات العلوية كثيرة ولا عدّ لها ، وهي تأخذ أسماءها حسب ميزتها ومرتبتها . لماذا دعيت رئاسات وقوات وسيادات ؟ ربما للكرامة . وهي ، كما يعتقد القديس ديونيسيوس أسقف أثينا[1] ، أقل عدداً من الرتب الخاضعة لها ، لكنها عظيمة من حيث السلطة والمعرفة . أمّا من حيث الضخامة فتتميز عن الطغمات الخاصة بها الممتدة من طغمة إلى طغمة حتى تصل إلى الإتحاد بالكبير والقدير على كل شيء ، أي بالرأس وأساس كل الخليقة . ولا أعني بالرأس الخالقَ بل بكر عجائب أعمال الله (يسوع المسيح) . إن هذه الطغمات من حيث العناية والحكمة هي أدنى كثيراً من الله الذي جبلها وجبلنا . وهي أدنى منه بمقدار ما تكون الطغمات الخاضعة لها أدنى منها . وكلمة أدنى هنا لا تأخذ بعداً مكانياً ، بل تدل على مستوى هذه الطغمات ومعرفتها التي تتمايل بين الأدنى والأعلى حسب رتبة كل منها . والكتاب الإلهي قد أعطى هذه الكائنات العقلية تسعة أسماء روحية وقسّمها إلى ثلاثة أقسام ، الأول يشمل المصاف التالية : العروش وهي الأعظم والأعلى والأقدس ، والشاروبيم الكثيرو الأعين ، والسارافيم ذوي الستة الأجنحة ؛ والثاني يشمل المصاف التالية : سيادات وقوات وسلطات ؛ والثالث يشمل المصاف التالية : رئاسات ورؤساء ملائكة وملائكة . هذه الطغمات ، حسب التفسير اليهودي ، ترمز إلى ما يلي : السارافيم تعني المُدْفِئَةَ والمُحْرِقَةَ ، والشاروبيم العظيمة في المعرفة والحكمة ، والعروش مساكن الله واستراحته . ولقد سمّيت هذه الطغمات هكذا وفقاً لنوع خدمتها . فعروش لأنها شريفة ، وسيادات لأن لها سلطة على كل مملكة ، ورئاسات لأنها تدير الأثير ، وسلطات لأنها تتسلط على

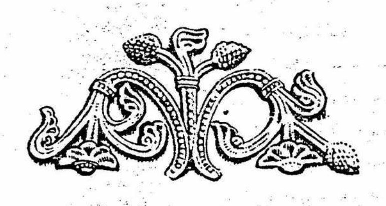
(١) هو كاتب مجهول يرجّح أنه عاش في أواخر القرن الخامس وكان يُعتبر ، في أيام القديس اسحق السرياني ، أنه ديونيسيوس الأريوباغي ، رفيق بولس الرسول (الناشر) .

الأمم وعلى كل انسان، وقوات لأنها القديرة في القوة والرهيبة المنظر، وسارافيم لأنها تقدس ، وشاروبيم لأنها ترفع ، ورؤساء ملائكة لأنهم حراس ساهرون ، وملائكة لأنهم مرسلون .

في اليوم الأول خُلقت الطبائع العقلية التسع بصمت وبصوت واحد كما خُلق النور ، وفي اليوم الثاني الفلك . وفي اليوم الثالث جمع الله المياه وخلق النبات . وفي اليوم الرابع فصل النور . وفي اليوم الخامس خلق الطيور والزحافات والسمك ، وفي اليوم السادس الحيوانات والإنسان .

إن وضع الكون طولياً يبدأ من الشرق وينتهي في الغرب ، وعرضياً يبدأ من الشمال وينتهي في الجنوب . وقد طبّت الأرض مثل السرير وفوقها السماء مثل خيمة وقنطرة ومكعّب . أمّا السماء الثانية فمثل دولاب معلّق بالسماء الأولى ، والكواكب والنجوم معلّقة بين السماء والأرض . والأوقيانوس كزنار يحيط بالسماء والأرض وفي وسطه جبال تصل إلى السماء . وضع الشمس وراء الجبال لتسير كل الليل . وضع البحر الكبير ما بين هذه الجبال لكي يضبطها ، هذا البحر الذي تبلغ مساحته ثلاثة أرباع مساحة الأرض .

أمّا إلهنا فله المجد .



المقالة الثامنة والستون

في حفظ القلب وفي المشاهدة الأكثر شفافية

إذا كنت في القلاية وحدك ، ولم تبلغ بعد إلى قوة المشاهدة الحقيقية فاملأ وقتك بقراءة الطروباريات والكاثسماطات وبتأمل الموتِ ورجاء المستقبلات ، فهي تضبط الذهن ولا تدعه يتشتت . ثابر على ذلك إلى أن تأتيك المشاهدة الحقيقية لأن الروح أقوى من الأهواء . تأمل برجاء المستقبلات مع ذكر الله ، وافهم جيداً معنى الطروباريات وتحفّظ من الأشياء الخارجية التي تدفعك نحو الشهوات . احفظ إلى جانبها الأمور الصغيرة التي تقوم بها في القلاية ، وافحص أفكارك دوماً ، وصلِّ حتى تقتني عيوناً ساهرة على تصرفاتك كلها . عندئذ ينبع منك الفرح فترى الشدائد أحلى من العسل .

لا يمكن التغلّب على الأهواء إلاّ بالفضائل المحسوسة المنظورة . ولا يمكن التغلّب على تشتت الذهن إلاّ بهذيذ المعرفة الروحية . إن ذهننا فارغ ، لذلك لا يتوقف عن الشطط ما لم يربط بفكر من الأفكار ، وبدون إتمام الفضائل السابق ذكرها يستحيل الحصول على الوقاية من الشطط . فلا أحد يستطيع أن يعيش بسلام ما لم يتغلّب على الأعداء . وإذا لم يَسُد السلام فهل يمكن العثور على كنوزه المخبأة ؟ إن الأهواء هي حواجز أمام فضائل النفس الخفية . فإذا لم تُزَل الأهواء أولاً بالفضائل الظاهرة لا يمكن أن نرى الفضائل المستترة داخل النفس . السائر خارج السور لا يقدر أن يرافق السائر داخله ، ولا يستطيع أحد أن يشاهد الشمس داخل الغيوم ، ولا أن يرى فضيلة النفس المستوطنة في اضطراب الأهواء .

ابتهل إلى الله أن يهبك الإحساس برغبة الروح والتوق إليه ، وعندما يدخلان اليك يحين موعد انفصالك عن العالم وانفصال العالم عنك . هذا

الإحساس يستحيل إدراكه بغير السكينة والنسك والمطالعة الخاصة . فلا تبحث عنه قبل إتمامها لأنها ستنقلب إذ ذاك وتصبح جسدية ، واللبيب من الإشارة يفهم . إن الرب يسرّه أن يؤكل هذا الخبز بالعرق ، ورغبته هذه ليست إلاّ خوفاً من أن يصبح هذا الخبز عسير الهضم علينا فنموت . فكل فضيلة هي أم الفضيلة التي تتبعها . فإذا تركت الأم وانطلقت تفتش عن البنات ، قبل حصولك على الأم ، تصبح تلك الفضائل مثل الأفاعي للنفس ، وإذا لم تطرحها عنك فإنها سرعان ما تقتلك بسمومها .



المقالة التاسعة والستون

في قضايا متنوعة وضرورة كل منها

الحس الروحي هو الإحساس الذي تروّض وأصبح بإمكانه قبول قوة المشاهدة ، وصار مشابهاً لحدقة العين التي تتمتع بالنور الحسّي . المشاهدة العقلية هي معرفة طبيعية تكون متحدة بالحالة الطبيعية وتدعى نوراً طبيعياً(١) . والقوة المقدسة هي موهبة التمييز بين النور الطبيعي والمشاهدة . والطبائع هي كائنات(٢) موجودة عند ذوي التمييز تنتقل من النور إلى المشاهدة . والأهواء كالجوهر الصلب يتوسط بين النور والمشاهدة ويمنع تمييز الفروقات بين الأمور المختلفة . أمّا النقاوة فهي صفاء الهواء العقلي الذي ترفرف طبيعتنا في وسطه . فالذهن إذا لم يكن سليم الطبيعة فلن تفعل فيه المعرفة ، ويكون كالعين الجسدية التي تصاب بالأذى ، لسبب من الأسباب ، فتفقد البصر . أمّا إذا كان الذهن صحيحاً ولم توجد فيه المعرفة ، فإنه لا يستطيع أن يميّز الأمور الروحية ، ويكون كالعين الصحيحة التي لا تبصر بوضوح . وإذا كان الذهن سليماً وفيه معرفة لكنه يخلو من النعمة ، فإنه يبقى بلا تمييز ، كالأعين التي لا ترى اثناء الليل بسبب عدم وجود الشمس . أمّا إذا كانت هذه كلها صحيحة ، أي العين والنظر ، فإنها تقدر أن تميّز الأمور التي لم تكن تميّزها . وهذا ما يطابق الكلام الذي جاء في المزامير : « وبنورك نعاين النور » (مز ٣٥ : ١٠) . وإذا اقتربت الشمس العقلية من النفس وحرّكت شهيتها وأثارتها وأيقظتها ، وكانت خالية من الطهارة ، تكون عندئذ شبيهة بالهواء الفارغ الملبّد بالغيوم الكثيفة والمواد المظلمة التي تنتشر بسهولة وتحجب نور الشمس الذي نبتهج برؤيته بلذة .

---

(١) الاستنارة الداخلية ، التمييز .

(٢) هي طاقات داخل الإنسان لا يستطيع استعمالها إلاّ من بلغ مرحلتي التمييز والاستنارة وذلك في مجال المشاهدة الإلهية .

عندما تضعف المشاهدة لضعف التمييز تتباطأ الطبيعة بالعمل ولا تحس النفس بلذة الشمس الثانية المشرقة[1] بسبب الأهواء الجسدية التي تحجب أنوار الحقيقة ولا تدعها تتسرب إليها . كل الأمور التي ذكرتها ضرورية ، غير أنه يصعب توافرها كلها في انسان واحد بشكل تام . ويستحيل على الكثيرين - إلى حد ما - بلوغ كمال المعرفة الروحية ، ويعود سبب هذا التقصير إلى ضعف الذهن ، وتشوّش الإرادة وعدم تلاؤم النيّة مع الهدف ، وفقدان الطهارة ، وعدم وجود معلّم ومرشد ، والإبتعاد عن النعمة وموانع زمنية ومكانية وشخصية لأنه كما جاء في حكمة سيراخ : « الرجل الحقير لا يليق به الغنى ولا السيادة على العظماء » (سير ١٤ : ٣) .

الحقيقة هي الإحساس الإلهي الذي يتم بالشعور الروحي داخل الذهن ويتذوّقه الإنسان في ذاته . والمحبة هي ثمر الصلاة التي تقود بمشاهدتها الذهن بطريقة لا تنضب إلى تشوّق المحبة ، إذا صبر فيها الإنسان بدون ضجر مصلّياً في ذهنه فقط وهاذياً بصمت . الصلاة هي موت لأفكار مشيئة حياة الجسد . من يصلّي بالحقيقة يساوي من مات فيه العالم . وهذا هو نكران الذات ، أن يصمد الإنسان مثابراً على الصلاة . محبة الله إذن هي نكران الذات .

من بذار عرق الصوم تنبت سنبلة العفة ، ومن الشبع الفجور ، ومن الإمتلاء النجاسة . من البطن الجائع المتذلل لا تصعد أفكار سيئة البتة ، لأن كل طعام نتناوله ينمّي فينا الدم والقوة الطبيعية ، وعند امتلاء شرايين الأعضاء العاملة التي تستمد موادها من الجسم (إذا حصلت رؤية شيء جسدي أو إذا تحرك شيء لا إرادي في القلب مصحوب بفكر ما) ، تتحرك حالاً مادة اللذة وتنتشر في كل أنحاء الجسد . وهنا فإن ذهن العفيف والطاهر بأفكاره مهما كان قوياً يتشوّش تمييزه للحال ، بسبب ذلك الحس الذي سرى في أعضائه ، ويهبط من مكانه وتتدحرج قدسية أفكاره ويتدنس بريق عفته بسبب اضطراب الأهواء المتسربة إلى قلبه واللهيب الساري في أعضائه فيفقد نصف قوته . وهذا ما يؤدّي به إلى نسيان هدف رجائه الأول قبل البدء به ، فيجد نفسه أسيراً غير قادر على الإنطلاق وتتغلب عليه إرادة الجسد المتراخية ، فلا يتعب الأعداء في منعه عن الهدف . وكل هذا بسبب

(١) الشمس الثانية هي نعمة الروح القدس . أمّا الشمس الأولى فهي التمييز الطبيعي .

البطن وميله الشديد إلى النهم المتواصل الذي يقهر إرادة الإنسان الصالحة ، ويرغمه أن يميل ويستسلم إلى ما لا يريده ولا يهواه قلبه مع أنه يسير سيرة حسنة في ميناء العفة .

وعندما يذهب إلى النوم تحيط به تلك الأفكار حاملة إليه خيالات باطلة وبذيئة وتجعل فراشه النقي منزلاً للفسق ومسرحاً للرؤى . وعندما يحاورها تاركاً أفكاره مترنحة بخيالاتها فهو يدنس أعضاءه الشريفة دون أن يقترب من امرأة . فأين هيجان البحر واضطرابه الناتجان من غضب الشتاء من هيجان الفكر وسط بحر الجسد المتّخم بالأطعمة ؟

آه ايتها العفة ! كم أنت بهية الجمال عندما تنامين على الأرض وينتزع ألم الجوع منك النوم ويجعل جوف جسد الصائم مثل هوة عميقة محفورة داخل القفص العظمي . إن كل طعام وكل راحة يدخلان إلينا يولدان فينا صوراً وأشباحاً رديئة تظهر في مكان الذهن السري وتدغدغنا لنشترك سراً في الأمور السيئة . لكن فراغ البطن يجعل عقلنا مكاناً مقفراً هادئاً وخالياً من الأفكار المشوّشة كلها . أمّا البطن المتّخم إلى أقصى الحدود فهو مسرح بأربعة أبواب للمشاهد والخيالات القبيحة ، وإن كان صاحبه يعيش وحيداً في البرية ، لأنه يقال : الشبع يشتهي دائماً المزيد .

عندما تُؤهَّل للنعمة الإلهية وعدم الهوى النفسي فلا تظن أن ذلك عائد إلى منع تسرّب الأفكار القبيحة اليك ، أو إلى عدم تحرك الأفكار الجسدية ـ لأنه يستحيل أن يكون أحد منزّهاً عنها ـ ، أو إلى الأفكار التي يمكنك التغلّب عليها بسهولة (بمعنى أن الذهن الموجود في حالة سامية لا يضطرب ولا يتدنس بالكلية) ، إنما السبب في ذلك عائد إلى تلك الأفكار الإلهية التي تشغل العقل ولا تدع الذهن يحارب ضدها ويقضي عليها . لأنه عندما يتسرّب إلى الذهن فكر ما ، يُختطف اختطافاً فيبتعد عن هذه الأفكار رغماً عنه ، وذلك بفعل النعمة الإلهية والسيرة الشريفة اللتين تتركان خميرة روحية في القلب الذي هو بيت الذهن .

ذهن المجاهد شيء ورتبة الكهنوت شيء آخر[1] . الذهن الذي مات فيه

---

(١) هناك مرحلتان : مرحلة الجهاد ومرحلة المشاهدة . الأولى أدنى من الثانية ، لأنها مليئة بالأفكار والصور المتنوعة . أمّا الثانية فأنقى منها وتشبه رتبة الكهنوت لسموّها . لأن الكاهن يخرق الغمام ويدخل إلى قدس الأقداس (المكان الذي لا يدخله شيء غريب) ويكلم الله وجهاً لوجه . أمّا من لا يزال خارج هذه الغمامة فإنه ينادي من بعيد .

العالم ، برحمة الله السماوي ، لا توجد فيه إلاّ أفكار بسيطة حول بعض الأمور التي لا تتطلب صراعاً أو جهاداً . الكمال المقرون باللحم والدم يملك على كل الأشياء الصادرة عن اللحم والدم دون أن يبطلها ويقضي عليها ، وعلى مقومات الطبيعة البشرية ما دام في هذا العالم الذي يضغط على حياة الإنسان من خلال العناصر التي يستمد ذهنه منها مواد في تغيّراته وتحوّلاته الحاصلة كل لحظة وكل ثانية .

أمّا الهنا فله المجد إلى دهر الدهور آمين .



المقالة السبعـــون

في أقوال الكتاب المقدس الحاثّة على التوبة وفي أن قولها كان بسبب ضعف الناس حتى لا يضلّوا عن الإله الحي وفي عدم جواز اتخاذها حجة لعمل الخطيئـة

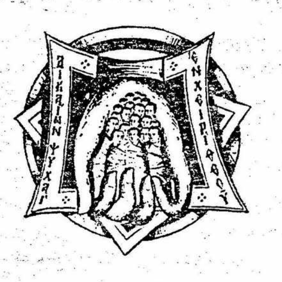
لا يجب أن تتخذ من الشجاعة كما وردت في الكتب الإلهية ، والقوة التي تحملها التوبة كما وردت في كتب الرسل والأنبياء ، حجة لفعل الخطيئـة ونقض وصايا الرب الممتنع خرقها ، التي حُددت بقدرته منذ القدم بأفواه جميع القديسين ودوّنت في الكتب والنواميس بغية إزالة الخطيئة وتأمين رجاء التوبة لنا وتحرر حواسنا من خوف اليأس ، وحتى نسرع إلى التوبة وندركهـا ، لا أن نسعـى وراء فعـل الخطيئة بحماس . فالله كشف لنا مخافته بكافة الطرق في جميع الكتب مبرهناً عن مقته الخطيئة . لماذا غرق جيل بكامله بالطوفان أيام نوح ؟ أليس بسبب الفسق ، إذ اندفع الناس بالحمأة إلى جمال بنات قايين حيث لم يكن في ذلك الزمان حرب أو محبة فضة ؟ لماذا احترقت مدن الصادوميين ؟ أليس لأنهم أسلموا أعضاءهـم إلى الشهوة والنجاسة حتى أن مشيئتهم السيئة تسلطت عليهم في كافة أعمالهم القبيحة والدنسة ؟ ألم يسقط أبناء اسرائيل - بكر الله - الخمسة والعشرون الفاً في لحظـة واحدة بسبب فسق انسان واحد ؟ لأي سبب سقط شمشون الجبّار المقدس والمنذور لله من بطن أمه الذي بشّر به الملاك قبل الولادة نظير يوحنا بن زخريا ، ومُنح قوة عظيمة وآيات كبيرة ؟ أليس لأنه دنّس أعضاءه المقدسة باجتماعه مع فاسقة ؟ ألم يبتعد الله عنه واسلمه لاعدائه لهذا السبـب ؟ وداود الـذي كان قلبـه لله والـذي

استحف بواسطة فضائله أن ينقل وعد الآباء ، وأن يشرق منه المسيح لخلاص المسكونة كلها ، أليس بسبب فسقه مع امرأة نال القصاص حين شاهد جمالها بعينيه وقبل السهم في نفسه ؟ ولهذا أقام الله عليه حرباً في بيته وجعل ابنه ـ الذي من صُلبه ـ يطارده ، ولم ينل الغفران إلاّ بعد أن تاب وذرف دموعاً غزيرة وبلّل فراشه . وعندئذ كلّمه الله بالنبي قائلاً : « لقد غفر لك الرب خطيئتك » (٢ مل ١٢ : ١٣) .

وأريد أن أذكر حوادث جرت قبل ذلك . لماذا حلّ الغضب والموت على بيت عالي الكاهن ذلك الشيخ البار الذي ذاع صيته أربعين سنة في الكهنوت ؟ أليس بسبب إثم ابنيه حفني وفنحاس ؟ هو نفسه لم يخطأ ولم يدفع ولديه إلى الخطيئة ، لكنه بسبب محبته لهما أكثر من وصايا الرب ، لم يملك الشجاعة ليعاقبهما فيستغفر الله . لقد ذكرت كل هذا حتى لا يظن أحد أن الله ينزل غضبه على الذين قضوا حياتهم في الآثام فقط . ها إنه بسبب هذه الخطيئة القبيحة أظهر غضبه على أصفيائه الكهنة والقضاة والرؤساء والناس القديسين المؤتمنين على فعل العجائب . إنه لا يتغافل عنهم إذا خالفوا وصاياه . وهذا ما جاء في حزقيال : « وقلت للرجل الذي أوصيته أن يستولي على أورشليم بسيف غير منظور أن ابدأ من أمام المذبح ولا ترحم شيخاً ولا شاباً » (حز ٩ : ٦) . هذا لكي يعلن للملأ أن محبيه والمخلصين له هم الذين يسلكون أمامه بخوف وورع ويعملون مشيئته . إن قديسي الله هم أولئك الذين اقتنوا أعمالاً فاضلة وضميراً نقياً ، أمّا الذين يجدّفون على طرق الرب فيستقبحهم ويطردهم من أمام وجهه ويرفع نعمته عنهم . لماذا حكم فجأة على بلشصّر ورماه بيده؟ أليس لأنه تجرأ على تدنيس الأواني المقدسة والمحرمة التي سلبها من اورشليم وشرب بها مع السراري ؟ إن الذين يكرّسون أعضاءهم لله ويتجرأون على تدنيسها بأعمال دنيوية يضمحلون بضربة غير منظورة .

لا نزدرينّ أقوال الله وتهديداته ولا نغضبنّه بأعمالنا القبيحة ولا نسيئنّ استعمال أعضائنا التي نذرناها لعبادته متذرعين برجاء التوبة والشجاعة الواردة في الكتاب المقدس. فها نحن قد تكرّسنا له مثل إيليا وأليشع وأبناء الأنبياء وبقية القديسين والعذارى الذين كانوا يجترحون العجائب العظيمة ويتكلمون مع الله وجهاً لوجه ، وكذلك جميع الذين كانوا معهم كيوحنا الإنجيلي واللاهوتي البتول

والقديس بطرس وسائر مصاف الإنجيليين ومبشّري العهد الجديد الذين كرّسوا ذواتهم للرب وتسلّموا منه الأسرار. ومنهم من أخذها من فمه ومنهم بالإعلانات فأصبحوا وسطاء بين الله والناس ومبشّري المسكونة بالملكوت .



المقالة الحادية والسبعون

في الأمور التي يستطيع بها الإنسان تغيير أفكاره الخفية وتغيير سيرته الخارجية

إن ذكر الخروج من هذه الحياة (ذكر الموت) يرافق الانسان طالما بقي محافظاً على عدم القنية ، ويجعله متأملاً بحياة ما بعد القيامة ومستعداً لها بكافة الطرق . وبه أيضاً يتمكن من مقت كل إكرام وراحة جسديتين تراودان ذهنه ، فيبدأ فكره بالضغط عليه ليزدري العالم ويتشجع ويشد قلبه لمواجهة كل خطر وخوف يجلبان له الموت كل ساعة . وهكذا يصبح عديم الخوف من الموت نفسه ، لأنه يترقبه كل ساعة كمقترب إليه وينتظره ملقياً همّه على الله ومستسلماً له بكل طمأنينة . وإذا صادفته شدائد يكون متأكداً وعارفاً أن هدفها هو مضاعفة الأكاليل فيصبر عليها بكل فرح وسرور ويتقبلها ببهجة وحبور ، لأنه يعرف أن الله هو الذي دبّرها له من أجل منفعته . وهكذا تتدبر أموره تلقائياً وبشكل خفي . وإذا حصل أن اقتنى ، لسبب من الأسباب ، شيئاً زائلاً بتدبير الشيطان مخترع الشرور كلها ، عندئذ يتحرك فيه حب الجسد فيأمل في حياة طويلة وتخطر له أفكار راحة الجسد ، ثم تنمو بصورة متواصلة فتتسلط عليه الأمور الجسدية ويصبح كل همه أن يحصل على ما يؤمّن له الراحة ، فيخرج عن حدود تلك الحرية التي لم يكن الخوف الدنيوي قد سيطر عليها . وتصبح الأفكار التي تولّد الخوف منطلقاً لتفكيره لأنه فقد الشجاعة التي كانت في قلبه حينما كان مترفعاً عن العالم ومتسلحاً بعدم القنية التي أغنى نفسه بها يوم كان وارثاً العالم بمقدار ما كان محتاجاً ومسموحاً له ، وبمقدار ما كان يتسلط عليه تأثير الخوف وفقاً للناموس والتدبير اللذين حددهما الله . إن أي عضو من أعضائنا يهيأ ليكون عرضة للخوف يجعلنا عبيداً منقادين لكل جزع ، حسب قول الرسول (عب ٢ : ١٥) .

محبة الذات بداية كل هوى ومقت الراحة بدء كل فضيلة . من يرمي جسده بين وسائل الراحة يضايقه جسده في مكان سلام . ومن تنعّم في شبابه يصير عبداً في شيخوخته ويتنهد في آخرته . إذا كان الذي يضع رأسه داخل المياه لا يستطيع استنشاق الهواء العليل الذي يملأ الجو ، فإن من ينغمس ذهنه في هموم هذه الحياة لا يمكنه استنشاق نسمة ذلك العالم الجديد . وإذا كانت رائحة الموت تهز البدن ، فإن الرؤية القبيحة تشوّش الذهن. وكما يستحيل أن يجتمع المرض والصحة في جسم واحد دون أن يفسد أحدهما الآخر، فإن من المستحيل أن يجتمع الغنى مع المحبة دون أن يفسد أحدهما الآخر. وكما أن الزجاجة لا تبقى سالمة إذا اصطدمت بالحجر ، فإنه يستحيل على القديس أن يحافظ على طهارته ويتنزه عن الدنس إذا طال حديثه مع امرأة . وكما أن الأمطار الغزيرة وجريان المياه المستمر تسبب اقتلاع الأشجار ، فإن التجارب المنصبّة على الجسد تنتزع محبة العالم من القلب .

وإذا كانت الأدوية تزيل قيوح الجسد النتنة ، فإن شدة الضيقات تنزع عيوب القلب . وكما أن الميت لا يحس بالأشياء الحية ، فإن نفس الراهب ، الذي مات في السكينة ودفن كأنه في قبر ، لا تعرف الشقاء (الإضطراب) الناجم عادة عن حس الأشياء بسبب مخالطة الناس . وإذا كان الذي يرحم عدوه في المعركة لا يخرج منها سالماً ، فإن الراهب المشفق على جسده لن ينجو من الهلاك . وإذا كان الطفل يجفل من المشاهد المرعبة ويهرع نحو والديه ويتمسك بأهداب ثيابهما مستنجداً بهما ، فإن النفس إذا تضايقت ووقعت في أزمة خوفاً من التجارب تسرع للإلتصاق بالله متضرعة إليه بطلبات متواصلة ، وبمقدار ما تتراكم عليها التجارب يزداد تضرعها ، ومتى أفرج عنها لا تلبث أن تعود إلى التشتت .

إن الذين أُسلموا إلى القضاة للمعاقبة على سيئاتهم ، إذا اتضعوا واعترفوا بذنوبهم لدى البدء في تعذيبهم ، ينخفض قصاصهم وينقذون سريعاً بقليل من الضيق . أمّا إذا تثلبوا ولم يعترفوا منذ البداية فإن عقابهم يزداد فيعترفون رغماً عنهم بعد أن يكونوا قد تعذبوا كثيراً وأثخنت جوانبهم بالجراح عبثاً . وهكذا تكون حالنا عندما نُسلم إلى أيدي قاضي الجميع ـ العادلِ رحمةً بنا ـ بداعي الزلات التي اقترفناها بحماقة ، فإذا تعرّضنا لعصا التجارب نتواضع ونتذكر آثامنا ونعترف بها أمامه فننجو بسرعة وبتجارب خفيفة . أمّا إذا تصلّبنا في ضيقاتنا ولم نعترف أننا

مذنبون ومستحقون عذاباً أكبر ، متحججين بالناس وأحياناً بالشياطين وأحياناً أخرى بعدل الله لتبرير أنفسنا من هذه الأعمال ، وتمادينا في هذا التفكير وتناسينا أن الله يعرف خفايانا أكثر منّا ، وأن أحكامه تخيّم على الأرض كلها ، وأنه بدون أمره لا يؤدَّب انسان ، فتصير عندئذ كل الأمور التي تصادفنا محزنة ، وتزداد شدائدنا سوءاً وننتقل من شدة إلى أخرى كأننا في أرجوحة ، إلى أن نعي أنفسنا ونتضع ونشعر بآثامنا ، لأنه بدون هذا الشعور يستحيل علينا أن نصطلح . وإذا انتظرنا حتى تضنكنا العذابات والشدائد فإن اعترافنا يصبح في آخر الأمر خالياً من الإفادة والتعزية . لكن الشعور بالخطيئة هبة تحلّ في الذهن يمنحنا إياها الله عندما يرى أننا قد رزحنا تحت وطأة تجارب متعددة ، حتى لا يدعنا نغادر هذا العالم دون أن ننتفع مما عانيناه من الشدائد والمصائب التي سببها جهلنا وعدم وعينا لذواتنا وليس لصعوبة التجارب . وفي كثير من الأحيان ينتقل بعضهم من هذا العالم وهم على هذه الحالة ، أي غير معترفين بخطاياهم بل ينكرونها ويتبرّرون منها . وحتى لا يحصل هذا فإن الله الرحيم يصبر عليهم منتظراً أن يتضعوا حتى يغفر لهم ويفرج عنهم ، وبمجرد توبتهم واعترافهم القلبي البسيط يسامحهم ويقصي عنهم التجارب .

+ كما أن البشاشة ترتسم على وجه الملك عندما يحمل إليه أحدهم هدية ويقدمها له ، فكذلك الإله العظيم ملك الدهور يفرح ويغفر لمن يصلّي بدموع كل أنواع خطاياه ويمنحه وجهاً ساطعاً بالنعمة . وكما أن الخروف الذي يخرج من الحظيرة ويتوه في المراعي يقع في فخ الذئاب ، فكذلك يكون مصير الراهب الذي يفصل ذاته عن شركة الإخوة ليجلس في السكينة ثم يبدأ باستقبال الناس ويذهب إلى المدن طائفاً فيها ومتفرجاً على المناظر والمشاهد والمسارح .

وكما يستحوذ الرعب على الإنسان الذي يحمل جوهرة ثمينة إذا سار في طريق خطر مليء باللصوص خشية السرقة ، فكذلك يخاف من يحمل جوهرة العفة إذا تجوّل في العالم - طريق اللصوص - ولا يكون له رجاء بالنجاة منهم قبل بلوغه القبر أي مقر الطمأنينة . فهل يمكن أن لا يخاف حامل الجوهرة الثمينة ؟ إنه لا يعرف أين ومتى ومن هم الذين سيصادفونه فيعرّونه من رجائه فجأة . وقد يُسلب عند باب منزله ، أعني زمن الشيخوخة .

وكما أن الإنسان الذي يشرب خمراً يوم الحداد يسكر فينسى كل أحزانه

وأوجاعه ، فكذلك من يسكر بحب الله في هذا العالم - مكان النوح - ينسى كل أوجاعه وأحزانه ولا يحس بآلام الخطيئة بالكلية . من ثبت قلبه بالرجاء في الله تكون نفسه مثل عصفور خفيف ويتسامى ذهنه عن الأرض في كل لحظة فيرتفع فوق الأمور البشرية بالهذيذ ويتنعم بمواهب العليّ الأزلية ، الذي له المجد والعزة إلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الثانية والسبعون

في مواضيع مفيدة مليئة من حكمة الروح

الإيمان هو باب الأسرار ، وكما أن الأعين الجسدية هي وسيلة رؤية الأشياء الحسيّة ، فإن الإيمان هو وسيلة رؤية الأمور الخفية . ويقول الآباء بوجود عينين نفسيتين ، كعيني الجسد ، داخل العينين العقليتين ، ولكل منهما وظيفة مختلفة . فبإحداهما نشاهد خفايا مجد الله المستورة في الطبائع (الكائنات) ، أي قوته وحكمته وعنايته الأزلية بنا المعروفة من خلال عظمة تدبيره لنا . وبهذه العين ذاتها نشاهد الطغمات السماوية التي تعبد الله مثلنا . أمّا بالعين الأخرى فنشاهد مجد طبيعته المقدسة . متى ؟ عندما يشاء الله أن يدخلنا إلى الأسرار الروحية ويفتح في ذهننا بحر الإيمان .

التوبة نعمة أعطيت للناس بعد نعمة المعمودية . وهي تجديد ثان يمنحه الله لنا . بالمعمودية نلنا العربون وبالتوبة نحصل على الهبة . التوبة هي باب الرحمة المشرع أمام الراغبين في الدخول . فلنعبره حتى نجد الرحمة الإلهية كما قال الكتاب : « فهم كلهم خطئوا ولكن الله برّرهم مجاناً بنعمته » (رو ٣ : ٢٣ و ٢٤) . التوبة هي النعمة الثانية المتولدة بالإيمان والخوف . الخوف هو العصا الأبوية التي تستمر في تأديبنا ، ولا تتركنا وترجع قبل وصولنا إلى فردوس الخيرات الروحي .

الفردوس هو محبة الله الممتلئة بنعيم كل غبطة التي تغذى بها بولس المغبوط بحال تفوق الطبيعة . فهو بعد أن ذاق عود الحياة الموجود هناك صرخ قائلاً : « الذي ما رأته عين ولا سمعت به اذن ولا خطر على قلب بشر أعدّه الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩) . لكن مشورة الشيطان منعت آدم عن عود الحياة الذي هو محبة الله فسقط وخسر الفرح وأخذ يعمل ويشقى في أرض الأشواك . إن الذين حُرموا محبة الله - وإن كانوا لا يزالون سائرين باستقامة - لن يتوقفوا عن أكل خبزهم

بعرق أعمالهم ، ذلك الخبز الذي أمر الله الجدّ الأول بأكله بعد السقوط . سنستمر عاملين في أرض الأشواك إلى أن نجد المحبة ، وسنظل نلقي البذار ونحصده من بين الأشواك حتى لو أصبح بذارنا بذار برّ . وستظل الأشواك تخزنا مهما تبرّرنا ، وبعرق جبيننا سنعيش . أمّا عندما نجد المحبة فإننا سنغتذي بالخبز السماوي متشددين به دون عمل وتعب . الخبز السماوي هو المسيح النازل من السماء والواهب الحياة للعالم . إنه غذاء الملائكة .

من يجد المحبة يتغذى بالمسيح كل يوم وكل ساعة وبه يصبح عديم الموت . « من أكل هذا الخبز (الذي أعطيه أنا) يحيا إلى الأبد » (يو ٦ : ٥٨) . طوبى لمن يأكل من خبز المحبة الذي هو يسوع ، لأن من يأكل من المحبة يأكل المسيح إله الكل كما يشهد يوحنا : « الله محبة » (١ يو ٤ : ٨) . من يحيا في المحبة يجتني ثمر هذه الحياة من الله ، ويتنشق هواء القيامة وهو بعد في هذا العالم . بهذا الهواء نفسه يتمتع الأبرار يوم القيامة . المحبة هي الملكوت الذي وعد به الرب رسله وعداً سرياً ، أن يأكلوا فيه ، لأن الطعام والشراب على مائدة ملكوته ليسا إلاّ المحبة (لو ٢٢ : ٣) . المحبة تغذي الإنسان أكثر من الطعام والشراب ، وهي الخمرة التي تفرح قلب الانسان (مز ١٠٣ : ١٥) . فطوبى لمن يشرب من هذه الخمرة . منها شرب الخلعاء وتورعوا ، والخطأة فنسوا الطرق المعوجّة ، والسكارى فأصبحوا صوّامين ، والأغنياء فاشتهوا الفقر ، والمساكين فاغتنوا بالرجاء ، والمرضى فأصبحوا معافين ، والجهلة فأصبحوا حكماء .

إن عبور الإنسان إلى المحبة مستحيل بدون الخوف استحالة عبور بحر كبير دون سفينة أو قارب . لا يمكننا أن نعبر بحر الحياة النتن الذي يتوسط بيننا وبين الفردوس العقلي إلاّ بقارب التوبة وبمجاذيف الخوف . وإذا لم تكن هذه المجاذيف هي التي تدير سفينة التوبة التي سنعبر بها بحر الحياة متجهين إلى الله فإننا سنغرق في بحر الحياة النتن . التوبة هي السفينة ، والخوف قائدها ، والمحبة ميناؤها الإلهي . الخوف يجلسنا على سفينة التوبة ويعبر بنا بحر الحياة النتن إلى الميناء الإلهي أي إلى المحبة التي يعبر اليها بالتوبة جميع المتعبين وثقيلي الأحمال . وعندما نصل نكون قد بلغنا الله وأنهينا طريقنا وعبرنا إلى الجزيرة البعيدة عن العالم حيث الآب والابن والروح القدس الذي له المجد والعزة . أمّا نحن فعسى أن يجعلنا أهلاً لمجده ومحبته الصائرة بخوفه ، آمين .

المقالة الثالثة والسبعون

في إرشادات ونصائح مليئة بالإفادة، وجهها إلى أولئك الذين كانوا يسمعونه بتواضع

كل فكر صالح يحلّ في القلب هو من النعمة الإلهية، وكل فكر رديء يدنو من النفس تكون بغيته التجربة والإمتحان. إذا توصّل الإنسان إلى معرفة ضعفه يكون قد بلغ كمال التواضع. إن ما يجعل مواهب الله تتدفق على الإنسان هو القلب المتحرك بالشكر بلا انقطاع، أمّا ما يسلط التجربة على النفس فهو روح التذمر المتحرك في القلب بصورة دائمة. إن الله يحتمل كل ضعفات الناس، لكنه لا يحتمل الذي يتذمر باستمرار، ولا يكتفي بذلك بل يؤدّبه أيضاً. النفس البعيدة عن إشراقات المعرفة تكون أسيرة هذه الأفكار. الفم الشكور ينال بركة من الله والنعمة تملأ القلب المثابر على الشكر. فقبل النعمة التواضع، وقبل التأديب الكبرياء. المتكبر يسمح الله بسقوطه في التجديف. من يتباهى بعمل الفضيلة يسمح بسقوطه في الفسق. ومن يتباهى بحكمته يسمح بسقوطه في فخاخ الجهل وادلهامه.

قلب الإنسان البعيد عن كل ذكر إلهي مليء بالحقد على قريبه، أمّا الذي يهذ بذكر الله فإنه يكرّم جميع الناس ويجد بمعونة الله عوناً له عند الجميع سرياً. من يدافع عن المظلوم يجد الله مدافعاً عنه. من يمد ساعده لمعاضدة قريبه يُمنح ساعد الله عضداً له. من يتذمر من أخيه بنيّة سيئة يتذمر الله منه. من يصلح أخاه على انفراد يصلح رداءته الخاصة. من يعيّر أحداً أمام الناس يعزز جروحه الذاتية. من يعالج أخاه سراً يظهر له قوة محبته. من يخزي أخاه أمام زملائه يظهر له كثرة حسده. الصديق الذي يوبّخ في الخفاء هو طبيب حكيم، أمّا من يداوي أمام أعين

الكثيرين فهو معيّر بالحقيقة . المسامحة عن كل إساءة دليل الشفقة ، أمّا لوم المذنب فدليل الفكر السيء . من يؤدِّب بغية المنفعة يؤدّب بمحبة ، أمّا من يطالب بأخذ الثأر فهو فارغ من المحبة . إن الله يؤدِّب بمحبة لا ليثأر ، حاشا ، بل ليفتش عن شفاء صورته ، مع العلم أنه لا يحتفظ بغضبه طويلاً . إن طريقة المحبة هذه ناجمة عن الإستقامة ، لأنها لا تميل بهوى الثأر . العادل الحكيم يشبه الله ، لأنه لا يؤدِّب إنساناً ليثأر منه بل ليصلحه أو ليجعله عبرة للآخرين . فإذا لم تكن محبته كذلك لا يكون تأديبه تأديباً . من يفعل الصلاح من أجل المكافأة لا يثبت فيه . من يُعجب بمعرفة الله بقوة معرفته الذاتية من خلال المشاهدة[1] ، فإنه وإن قطع جسده لا يترفع حتى بفكره ولا يحيد عن الفضيلة أبداً . من أنار عقله بمقدار ما يؤهله الله يبلغ عمق التواضع نفساً وجسداً . من لم يقترب بعد من المعرفة يظل متقلباً في سيرته ، صعوداً وهبوطاً ، أمّا عندما يدنو منها فإنه يرتفع ويظل مرتفعاً حتى يأتي أوان المجد حيث ينال كل غناه ، لأنه بمقدار ما يكتمل الإنسان بالله يزداد تعلقه به . ويظهر الله له وجهه إنما ليس كما هو بالذات لأن الأبرار هنا مهما اقتربوا من مشاهدة الله لا يشاهدون وجهه إلاّ كما في مرآة ، أمّا هناك فيشاهدون إعلان الحقيقة بوضوح .

النار المشتعلة بالحطب اليابس يصعب إطفاؤها ، وحرارة الله التي تلتهب وتسقط في قلب من جرّاء الزهد بالعالم لا ينطفىء لهيبها بل تكون أشد اشتعالاً من النار . عندما تتسرب قوة الخمرة إلى الأعضاء يفقد الذهن التدقيق في الأمور ، وعندما يجد ذكر الله مرعى له في النفس يبدّد من القلب كل ذكر محسوس . الذهن الذي يجد حكمة الروح هو كالإنسان الذي يجد مركباً وهو تائه في البحر ، فيجلس عليه وينتقل من بحر هذا العالم إلى جزيرة الدهر الآتي . إن الإحساس بالدهر الآتي في هذا العالم يشبه جزيرة صغيرة وسط بحر كبير . من يقترب إليها يتخلّص من أمواج خيالات هذا الدهر .

عندما تنفق بضاعة التاجر يستعد للذهاب إلى بيته . وإذا أدرك الراهب الوقت قبل إنجاز عمله يحزن على انفصاله من هذا الجسد ، أمّا إذا أدرك أنه قد صرف كل وقته ونال عربونه فعندئذ يشتهي الدهر الآتي . ما دام التاجر مسافراً في

---

(١) أي من يتأمل بعمق في عظمة معرفة الله .

البحر لا يفارق الخوف أوصاله خشية الغرق إذا هاجت الأمواج فيفقد رجاء عمله . وبما دام الراهب في العالم يظل الخوف مستولياً عليه ويبقى ساهراً لئلا يثور عليه الشتاء فيبدد العمل الذي بدأه في شبابه . التاجر يترقب اليابسة ، والراهب ساعة الموت .

القبطان يرصد النجوم عندما يكون مبحراً ويوجّه سفينته على هديها حتى يبلغ الميناء . والراهب يثابر على الصلاة لأنها تقوّمه وتوجّه سيره نحو الميناء الذي يبتغيه بالصلوات . القبطان يرنو إلى جزيرة يرسو بقربها ليتموّن منها ما يكفيه للوصول إلى جزيرة أخرى . وهكذا تكون سيرة الراهب ما دام في هذه الحياة . إنه يعبر من جزيرة إلى أخرى (من معرفة إلى معرفة) وبمرور الجزر يتقدم بمسيرته حتى يخرج من البحر ويبلغ المدينة الحقيقية حيث يتوقف سكانها عن التجارة ويستريح كل واحد في سفينته . طوبى لمن غرقت تجارته الدنيوية في هذا البحر الكبير ولم تتحطم سفينته فيه بل وصل إلى الميناء بسرور وسلام .

السبّاح يغطس في البحر طالباً الجوهرة ، والراهب الحكيم يسير في الحياة عارياً من كل شيء حتى يجد في داخله الجوهرة (يسوع المسيح) ، وحين يجدها يحتفظ بها دون سواها . الجوهرة تحفظ في الخزائن ، وغنى الراهب يصان في السكينة . وكما أن العذراء التي لا تفارق المجامع والجموع تتأذى ، كذلك ذهن الراهب يتشوّش بالأحاديث الكثيرة . الطائر يهرب من كل مكان ويسرع إلى عشّه ليضع فيه فراخه ، والراهب المميّز يسرع إلى قلايته ليضع فيها ثمار الحياة . عندما تُضرب الحيّة على جسدها تخبىء رأسها لتحميه ، والراهب الحكيم يحافظ على إيمانه كل حين ، فهو رأس حياته . الغمامة تحجب الشمس ، والكلام الكثير يظلم النفس التي ابتدأت تستنير بمشاهدة الصلاة .

إن الهيرودي[1] ، حسب قول الحكماء ، لا ينشرح إلاّ إذا انفصل عن الأماكن الآهلة ولجأ إلى مكان مقفر وسكن فيه . ونفس المتوحّد لا تجد الفرح السماويّ إلاّ إذا ابتعد عن الناس ومكث في السكينة منتظراً أوان خروجه . ويقال إن عروس البحر إن كل من يسمع تغريدها يسحر بصوتها حتى أنه يهيم وراءها في

[1] الطائر المعروف باللقلق .

البرية وينسى حياته فيسقط ويموت . إن هذا الوصف هو تصوير لحالة النفس عندما تنسكب عليها الحلاوة السماوية بصدى أقوال الله العذبة الحالّة في الحواس من خلال الذهن ، فإنها تهيم بكل جوارحها إثر تلك العذوبة ناسية حياة الجسد غير آسفة على مشتهياته ومرتقية من هذه الحياة نحو الله .

الشجرة لا تفرع أغصاناً جديدة إلاّ إذا طرحت عنها الأوراق القديمة ، والراهب لا يأتي بثمار وأغصان جديدة في المسيح يسوع إلاّ إذا طرح من قلبه الذكريات الأولى .

الهواء ينمّي الثمر ، والاهتمام بالله ينمّي ثمر النفس . إن اللؤلؤة تتولّد من الصدفة إثر شرارة من البرق ، كما يقال ، ثم تأخذ مادتها من الهواء ، وقلب الراهب شبيه بالصدفة ، فإن عمله يبقى جافاً وفارغاً من ثمر التعزية حتى ينال النعمة السماوية بوعي .

الكلب يلحس المبرد فيشرب من دمه ولا يحس بالأذى لحلاوته ، والراهب الذي يميل إلى المجد الفارغ يشرب من دم حياته ولا يحس بالضرر بسبب الحلاوة الوقتية . إن المجد العالمي صخرة مغمورة بمياه البحر ، تبقى محجوبة عن القبطان حتى يصطدم مركبه بها وينكسر ويمتلىء ماء ، وكذلك يفعل المجد الفارغ بالإنسان ، إنه يغرقه ويهلكه . قال الآباء إن الأهواء التي سبق أن غلبتها النفس وطردتها تعود إليها إذا أصيبت بالمجد الفارغ . غيمة صغيرة تحجب قرص الشمس وبتبددها تعود إلى الشمس حرارتها . ضجر قليل يظلل النفس ، وبزواله يكون فرح عظيم .

لا تقترب من أسرار الكتاب الإلهي دون أن تصلّي وتطلب المعونة من الله أولاً ، بل قل : أعطني يا رب أن أصل إلى حس إدراك القوة التي فيها . إعتبر الصلاة مفتاحاً لفهم المعاني الحقيقية للكتاب الإلهي . إذا عزمت أن تقترب من الله بقلبك أظهر له شوقك بالأتعاب الجسدية أولاً ، لأنها بداية السيرة ، ولأن فقدان الحاجات الجسدية يسهّل على القلب الإقتراب من الله ، وذلك بالترويض على الأكل من صنف واحد مع الإستمرار في العمل الذي هو أساس الكمال كما وضعه الرب . إعتبر البطالة بداية ادلهام النفس ، والأحاديث ظلام فوق ظلام ، فالأولى

هي علّة الثانية . وإذا كانت الأقوال المفيدة غير المحدودة تسبب الادلهام ، فكم بالأحرى الأقوال الباطلة ؟ إن كثرة الكلام تهشّم النفس مهما كانت محصنة بخوف الله ، وادلهام النفس ناجم عن عدم تنظيم السيرة .

الإعتدال وحفظ النظام الذاتي ينيران الذهن ويطردان التشويش. التشويش ينتج من عدم تنظيم السيرة ويظلم النفس والظلام يسبب اختلالاً . أمّا السلام فينتج من حسن التنظيم ، والنور يتولد من سلام النفس ، ومن السلام يهبّ هواء نقي في الذهن . بمقدار ما يتغرّب القلب عن العالم ويقترب من حكمة الروح يتقبل الفرح الإلهي ، ويميّز بين حكمة الروح وحكمة العالم ، ويرى أنه بالأولى يسود الصمت في النفس ومن الثانية يفيض نبع التشتت . عندما تمتلك حكمة الروح تمتلىء بالتواضع واللين والسلام الذي يتملك جميع أفكارك ، فتسكن أعضاؤك ويزول اضطراب الفجور منها . أمّا عندما تجد حكمة العالم فإنك تقتني تكبراً في عقلك واضطراباً وأفكاراً متنوعة لا توصف ووقاحة في حواسك وغطرسة . لا تظن أن الإنسان المقيّد بالجسديات يمكنه أن يصلّي بدالة أمام الله . نفس البخيل تخلو من الحكمة ، أمّا نفس الحكيم فتنال حكمة الروح .

كما أن الزيت يغذّي نور القنديل ، فإن الرأفة تغذّي المعرفة في النفس . ولا يُعطى المفتاح الذي يسمح للمواهب الإلهية أن تدخل القلب إلاّ بمحبة القريب . كلما انفصل القلب عن الجسد كلما انفتح أمامه باب المعرفة . عبور النفس من عالم إلى آخر هو دليل معرفتها . يا لجمال وروعة محبة القريب عندما لا يفصلنا الإهتمام بها عن محبة الله ! وما أحلى الحديث مع الإخوة الروحيين عندما نحفظ إلى جانبه الحديث مع الله ! حسن أن نهتم بهذه الأمور بقدر ما يسمح لنا ، شرط ألاّ نكون حجة لإهمال العمل الداخلي والحياة الخفية أي الهذيذ الدائم بالله . إن تشويش الهذيذ الداخلي ناجم عن الإهتمام الكثير بالقريب ، إذ لا يستطيع الذهن أن يهذّ بالإثنين معاً .

إن مشهد الدنيويات يشوّش نفوس الزاهدين الذين تخلّوا عنها من أجل العمل الإلهي . والحديث مع الإخوة الروحيين باستمرار لا يقل ضرراً عن المشهد

الخارجي لأهل الدنيا . إن فعل الحواس لا يمنع العمل الجسدي ، أمّا من يبتغي ، عن طريق السيرة ، اقتناء الفرح الذي يفيض من الذهن ، فإن هدوء قلبه يهتز لمجرد سماع الأصوات فقط دون رؤية ذويها . إن الإماتة الداخلية لا تتم بدون بطالة الحواس ، بينما السيرة الجسدية تتطلب إيقاظ الحواس . أمّا السيرة النفسية فتتطلب إيقاظ القلب .

كما أن النفس ، في طبيعتها ، هي أسمى من الجسد ، فإن عملها أسمى من عمله . وكما أن جبلة الجسد في البداية سبقت النفخة ، فهكذا عمل الجسد يسبق عمل النفس . السيرة الصغيرة[1] المستمرة هي قوة عظيمة ، كما ان قطرة الماء المتساقطة باستمرار على صخرة صلبة تصنع فيها حفرة .

عندما يحين وقت نهوض الإنسان الروحي فيك تموت كل أمورك الدنيوية ويلتهب في نفسك فرح لا مثيل له في الخليقة وتضبط أفكارك في داخلك بدافع اللذة التي في قلبك . أمّا إذا أزمع العالم على النهوض فيك فعندئذ يزداد تشتت ذهنك ومعقولك الصغير المتقلقل . وأعني بالعالم الأهواء التي يحبل بها التشتت . وعندما تولد هذه الأهواء وتكمل تصبح خطايا وتقضي على الإنسان . وكما أن الأبناء لا يولدون دون أمّ فكذلك الأهواء لا تولد دون تشتت الذهن ، ولا تتم خطيئة بدون تجارة[2] الأهواء .

إن ازدياد صبر النفوس هو دليل حصولها على نعمة التعزية الخفية . قوة الصبر أقوى من المعاني المفرحة الحالّة في القلب . الحياة في الله تُخمد الحواس . عندما يحيا القلب تخمد الحواس ، أمّا نهوضها فيعني موته وابتعاده عن الله . الضمير لا يستقيم بعمل الفضائل بين الناس .

الفضيلة التي تصنع بدافع من آخرين لا تستطيع أن تنقّي النفس لأنها تُحسب أمام الله أجرة عمل . أمّا الفضيلة التي يعملها الإنسان من ذاته فإنها تُعتبر

(١) إذا كان الراهب لا يقدر أن يحقق أموراً سامية في حياته بسبب ضعفه ، واكتفى بأمور بسيطة واستمر فيها بصبر فإن سيرته تعتبر عظيمة جداً وتكتسب قوة كبيرة .

(٢) أي معاطاتها .

كاملة وتحقق كلتا الغايتين ، المكافأة والتنقية . فابتعد عن الأولى واسع وراء الثانية ، لأن من استهان بالثانية يتسبب في إهمال الأولى مما يؤدي إلى الإنفصال عن الله . أمّا الثانية فتسدّ فراغ الأولى دون القيام بها .

الراحة والبطالة هلاك للنفس ، وقد يؤذيان أكثر من الشياطين . عندما تضغط على الجسد الضعيف في العمل أكثر من طاقته تزيد على نفسك ظلاماً فوق ظلام وتسبب لها التشويش . أمّا إذا كان قوياً وأسلمته إلى الراحة والبطالة فإن كل شرور النفس الساكنة فيه ستتفاقم . إذا صبا أحد إلى عمل الصلاح بكل إرادته فإن الراحة والبطالة تسلبانه شيئاً فشيئاً فكرة الصلاح . متى سكرت النفس بفرح رجائها وبهجتها بالله يفقد الجسد إحساسه بالشدائد مهما كان ضعيفاً . ورغم أنه يحمل آنئذ حملاً مضاعفاً يتمتع مع النفس ويشاركها النعيم . ويحدث هذا عندما تصبح النفس خليلة لفرح الروح .

إذا صنت لسانك يا أخي ، يمنحك الله نعمة تخشّع القلب لتشاهد حالة نفسك وتلج إلى فرح الروح . أمّا إذا تسلّط عليك لسانك فثق أنك لن تستطيع التخلص من الادلهام أبداً . يقول يوحنا السلّمي : إذا لم تقتن قلباً نقياً فاقتن على الأقل فماً طاهراً + إذا أردت أن ترشد أحداً إلى الخير قدّم له الراحة الجسدية أولاً ثم أكرمه بكلام المحبة . لا شيء يمكنه أن يحث الإنسان على الخجل ويجعله يتراجع عن شره ويخطو نحو الأفضل مثل الخيرات الجسدية والإكرام الذي يلمسه فيك . وكلما تقدم الإنسان في الجهاد حباً بالله ، يزداد قلبه دالة في الصلاة . أمّا إذا انجذب إلى أمور كثيرة فإنه يحرم من معونة الله . لا تحزن ممّا يتعب الجسد ، لأن الله يرفعه عنك بالكلية . لا تخف الموت لأن الله أعدّ لك مرتبة أسمى منه . فله المجد والعزة إلى دهر الداهرين ، آمين .

المقالة الرابعة والسبعون

في الإشارة إلى نظريتي السبت والأحد والمقارنة بينهما

يوم الأحد هو سر معرفة الحقيقة التي لا يتقبلها اللحم والدم لأنها تفوق التفكير البشري . لا يوجد في هذا الدهر يوم ثامن ولا سبت ، والذي قال إن الله استراح في اليوم السابع (تك ٢ : ٢) أشار بذلك إلى نهاية طريق هذه الحياة . فالقبر جسد[1] وهو دنيوي . عمل الأيام الستة في الحياة يتم بحفظ الوصايا . واليوم السابع يكتمل في القبر ، أمّا اليوم الثامن فيكون بالخروج منه (القيامة) .

إن المستحقين يقبلون ، هنا ، سر يوم الأحد رمزياً ، وبالطريقة نفسها يقبل المجاهدون أسرار يوم السبت الذي هو توقف وراحة عن كل المحزنات والمزعجات . فلكي نسلك في هذا العالم أعطانا الله سر الحياة لا فعلها الحقيقي . إن السبت الفعلي الذي لا مثيل له هو القبر الذي يعني الراحة التامة من الشدائد والأهواء ومن محاربتها . هناك تستريح الإنسانية بأسرها نفساً وجسداً . إن الله خلق هذا العالم وجمع العناصر في ستة أيام ثم منحها حركة دائمة لن تتوقف عنها حتى أوان انحلالها . ثم خلق أجسامنا من هذه العناصر الأولية وزوّدها بحركة لا تعرف الراحة والتوقف ، وقد حدد نهاية العمل بالتوجّه نحو القرينة الأولى التي هي نهاية الحياة حينما قال لآدم : «بعرق جبينك تأكل خبزك» (تك ٣ : ١٩) . حتى متى؟ «حتى تعود إلى الأرض التي منها أخذت والتي تنبت لك شوكاً وحسكاً[2] » .

---

(١) الجسد من التراب والتراب هو قبر .

(٢) نوع من النبات يترك أشواكاً مسننة وتسميه العامة « سن العجوز » (تك ٣ : ١٨ - ١٩) .

هذه أسرار عمل هذه الحياة ما دام الإنسان فيها . إن الرب في تلك الليلة التي انصبّ عرقه فيها حوّل العرق[1] واقتلع الشوك والحسك ليجعلنا نعرق في الصلاة وعمل البر .

لقد تُرك آدم في الشقاء خمسة آلاف وخمسمئة سنة ونيّف ، وحتى ذلك الحين لم تكن طريق القديسين قد أُعلنت ، كما قال بولس الإلهي (اف ٣ : ٥) . ثم أتى الله في الأيام الأخيرة ووجّه سلطة الإنسان الذاتية ، لكي يستبدل العرق الأول بعرق آخر دون أن يسمح بالراحة من أي شيء بل بالتبديل فقط ، وذلك تحنناً علينا لكثرة شقائنا في الأرض . إذا رفضنا أن نعرق هنا فإننا سنحصد الشوك حتماً ، لأن ترك الصلاة سيلصقنا بالأرض التي تنبت لنا شوكاً بحكم الطبيعة . حقاً أن الأهواء هي أشواك تنبت فينا من البذار الكامن في الجسد ، لأنه يستحيل على الأرض أن تنبت غير البذور المزروعة فيها ، وجسدنا الترابي ، ابن هذه الطبيعة هو حسب شهادة الرب : « من الأرض التي منها أخذت » (تك ٣ : ١٩) . تلك تنبت أشواكاً أمّا هذا فينبت أهواء[2] .

إذا كان الرب ، الذي هو مثال لنا في كل شيء لم يتوقف ، في سر تدبيره ، عن العمل والتعب حتى الساعة التاسعة من يوم الجمعة (وهذا سر عملنا في حياتنا كلها) ثم استراح في القبر يوم السبت ، فأين القائلون إنه يوجد سبت في هذه الحياة نرتاح فيه من الأهواء ؟

إن الكلام على الأحد عظيم ، أمّا السبت فهو يوم دفننا حيث تستريح طبيعتنا حقاً . نحن بحاجة ماسة كل يوم إلى اقتلاع الأشواك من هذه الأرض حتى تُستصلح ، وثباتنا في العمل يضعف الأشواك إلاّ أنه لا ينقّي الطبيعة منها تماماً . وإذا كانت هذه حالها ، فإن التغاضي والإهمال يكثران الأشواك ويغطيان وجهها ، فيختنق زرعك ويتلف تعبك . يجب تنقيتها كل يوم ، والتوقف عن العمل يكثر الشوك وينمّيه . فعسى أن نتنقى منه بنعمة ابن الله الوحيد المساوي له في الجوهر ، فله المجد مع الآب الأزلي والروح المحيي إلى أبد الدهور آمين .

---

(١) أي أنه علّمنا أن نكدّ ونعرق في الصلاة قبل كل شيء ، لا في العمل من أجل تأمين القوت اليومي فقط كما كانت حال آدم بعد طرده من الفردوس .

(٢) « تلك » هي الأرض و« هذا » يعني الجسد .

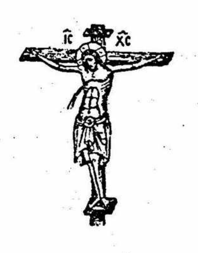
المقالة الخامسة والسبعون

في ما رواه رجال قديسون وفي أقوالهم الشريفة وحياتهم العجيبة

ذهبت يوماً إلى قلاية أحد الإخوة القديسين، وما أن وصلت حتى اتكأت على أحد جوانبها ، بسبب ضعفي ، آملاً أن يعتني بي من أجل الله ، إذ لم أكن أعرف أحداً هناك . وأثناء مكوثي عنده كنت أشاهده ينهض ليلاً قبل الوقت المحدد ويبدأ بتلاوة قانونه سابقاً الإخوة الآخرين . وكان قانونه على النحو التالي : يقرأ عدداً من المزامير ثم يتوقف فجأة وينطرح بوجهه على الأرض ويضرب رأسه بها أكثر من مئة مرة بفعل الحرارة التي تغذيها النعمة الإلهية في قلبه . ثم ينهض ويقبّل صليب المسيح ويسجد ثانية ثم يقبّله ويسقط بوجهه من جديد ، مما جعلني أعجز عن إحصاء الركعات التي يعملها لكثرتها. فمن يقدر أن يحصي المطانيات التي كان يعملها ذلك الأخ كل ليلة ؟ لقد كان يقبّل الصليب بخوف وحرارة ومحبة وورع عشرين مرة ، ثم يعود إلى تلاوة المزامير . وكان يصرخ أحياناً متى عجز عن احتمال لهيب الأفكار المتّقدة في داخله ، لتغلّب الفرح عليه ،ولا يستطيع ضبط ذاته . لقد تعجبت كثيراً من نعمة ذلك الأخ وجهاده وتيقظه في عملـه الإلهـي . كان خلال الساعة الأولى يقرأ في الكتاب المقدس فيُسلب بمعانيه كالمسبي ، وكلّما قرأ فصلاً كان يسقط بوجهه على الأرض ثم ينهض رافعاً يديه إلى السماء مردداً آيات ومقاطع كثيرة منه وممجداً الله . كان في الأربعين من عمره وكان أكله قليلاً وجافاً جداً.، مما جعل هيئته كالخيال لكثرة قهره لجسده ، فأشفقت عليه من نحول وجهه الذي لم تكن رقعته تتجاوز مقدار أصبعين من كثرة الصيام . كنت أقول له أحياناً كثيرة : أشفق على نفسك يا أخي ولا تكن قاسياً في تصرفك مع ذاتك لئلا تعطّل هذه السيرة الصالحة التي اقتنيتها وأصبحت شبيهة بسلسلة روحية . انتبه ألاّ يدفعك الشوق

إلى مزيد من التعب فتتخلّف وتكفّ عن المسير . كُلْ باعتدال حتى لا تضطر إلى الأكل باستمرار فيما بعد . لا تخطُ برجلك أكثر من قدرتك لئلا تعجز عن السير .

كان رحوماً ووقوراً جداً، يحسن ببشاشة . كان طاهر الطبيعة ، سريع الإستجابة، حكيماً بالله ، محبوباً من الجميع لطهارته وبشاشته . يعمل أكثر الأحيان ثلاثة أو أربعة أيام مع الإخوة كلما احتاجوا إليه ، ويعود عند المساء إلى قلايته . كان خبيراً في كل عمل . ولكثرة احترامه للآخرين كباراً وصغاراً لم يتمكن أن يحجب أي شيء له عنهم ولو كان بحاجه إليه . كان يعمل مع الإخوة بدافع الخجل مع أنه لا يسر بالخروج من القلاية . هذه هي سيرة وحياة ذلك الأخ العجيب بالفعل . أمّا إلهنا فله المجد إلى دهر الدهور ، آمين .



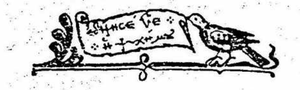
المقالة السادسة والسبعون

في سيرة شيخ مسنّ

ذهبت مرة أخرى إلى شيخ مسنّ صالح وفاضل ، يحبني كثيراً . كان بسيط الكلام ، مستنيراً بالمعرفة ، عميق القلب ، ينطق بما وهبته النعمة ، لا يخرج من قلايته إلاّ للذهاب إلى الكنيسة . كان ساهراً على نفسه ، محباً للسكينة . قلت له مرة : إن فكري يحثني على الذهاب كلّ أحَدٍ إلى ساحة الكنيسة لأجلس عند بابها وآكل حتى يزدري بي الناس الداخلون والخارجون معاً . فأجابني الشيخ : لقد كُتب أن كل من يسبب عثرة لأهل العالم لا يرى النور . أنت تعلم أن أحداً لا يعرفك أو يعرف شيئاً عن حياتك في هذا المكان ، فسيقولون إن الرهبان يفطرون . ولا تنس أن ثمة رهباناً مبتدئين ما زالوا ضعفاء بالفكر ، وكثيرون منهم يثقون بك ويستفيدون منك سيتأذون إذا شاهدوك تفعل ذلك . إن آباءنا الشيوخ قد تصرّفوا كذلك لأنهم كانوا يجترحون عجائب كثيرة أكسبتهم كرامة وشهرة وكانوا يفعلون ذلك اختباراً لنفسهم وإخفاءً لمجد سيرتهم حتى يطردوا أسباب الكبرياء عنهم . أمّا أنت فما الذي يدفعك إلى عمل كهذا ؟ ألا تعلم أن لكل سيرة مقامها وزمانها ؟ إنك لم توهب بعد سيرة وسمعة هؤلاء القديسين ولا زلت تعيش كسائر الإخوة . فإذا فعلت كذلك لن تنتفع إنما ستضرّ الآخرين . إن هذا التدبير لا يناسب سوى الكاملين والكبار الذين أماتوا حواسهم ، أمّا المبتدئون والمتوسطون فإنه يضرّهم لأنهم بحاجة ماسة إلى إخضاع الحواس ، لكن الشيوخ الذين اجتازوا مرحلة الحرص ينتفعون بمثل هذه الأعمال . إن التجار عديمي الخبرة يلحقون بأنفسهم خسارة فادحة إذا تعاطوا تجارة واسعة ، لكنهم ينجحون في التجارة الصغيرة فتتسع أعمالهم بسرعة . كل عمل له نظامه وكل سيرة لها أوانها المعيّن ، ومن يباشر بالأعمال التي تفوق قدرته قبل أوانها لن يربح شيئاً بل سيسبّب الضرر لنفسه . إذا

كنت تشتهي ذلك فاحتمل بفرح الإهانات الكرهية الموجهة إليك بطريقة تدبيرية دون أن تضطرب أو تبغض مهينيك .

كنت أتحدّث مرة مع ذلك الشيخ الحكيم الذي اختبر الحياة بفضل عرق جهاده ، منذ فجر شبابه حتى غروب شمس حياته ، وبعد أن علّمني أموراً كثيرة في الفضيلة قال : كل صلاة لا يتعب بها الجسد ولا يتضايق بها القلب تكون كالسقط[1] لأنها بلا روح ومائتة . وقال لي أيضاً : لا تتعامل مع إنسان محب للشغب ، عنيد ، سيء الفكر ، وقح الحواس ، حتى لا تفارقك الطهارة التي اقتنيتها بتعب كثير فيمتلىء قلبك ضلالاً واضطراباً .



(١) الثمرة التي تسقط قبل نضوجها.

المقالة السابعة والسبعون

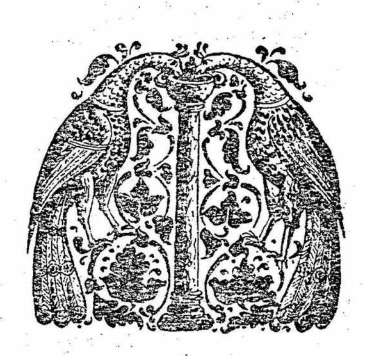
قصة شيخ آخر

ذهبت مرة إلى قلاية أحد الآباء القديسين ، وكان من عادته ألاّ يفتح لأحد إلاّ نادراً . فلما شاهدني من النافذة وعرفني قال : أتريد أن تدخل ؟ فأجبته : نعم أيها الأب الكريم . فدخلت ، وبعد أن صلّينا سوية ، جلست إلى جانبه وتحدثنا طويلاً . وأخيراً سألته : إن كثيرين يأتون إليّ ويتحدثون معي دون أن أستفيد أو أكتسب شيئاً من ذلك ، غير أنني أخجل أن أمنعهم عن المجيء إليّ مع أنني انشغل بهم عن إتمام قانوني المعتاد. إن هذا يضايقني فماذا أفعل أيها الأب؟ فأجابني ذلك الشيخ المغبوط:

إذا جاءك أناس يحبون البطالة تظاهر بعد جلوسهم بقليل بأنك تقف للصلاة واصنع مطانية للحاضر وقل له : هلمّ نصلّ يا أخي ، فقد حان وقت إتمام قانوني ولا أستطيع مخالفته خوفاً من أن أصاب بالثقل ، وإذا أجّلته إلى وقت آخر يسبب لي اضطراباً ، فلا أستطيع إهماله . ثم حثّه على الصلاة معك . وإذا قال لك صلّ أنت ، سأصلّي أنا فيما بعد ، فاصنع له مطانية وقل له : أرجو ، محبة بالله ، أن تصلّي معي الآن حتى أستفيد من صلاتك . فإذا نهضتما للصلاة ، أطل الدعاء أكثر من المعتاد . وإذا فعلت ذلك فإن زوّارك يعلمون أنك تخالفهم الرأي ولا تحب البطالة ، فأينما سمعوا أنك موجود لا يقتربون .

اجتهد ألاّ تحابي وجه انسان فتعطل عمل الله . إذا زارك أحد الآباء أو غريب قد أنهكه التعب ، فبدل الدعاء الطويل يحسن لك أن تجلس معه . وإذا كان هذا الغريب من محبّي الكلام البطال قدّم له وسائل الراحة قدر المستطاع ثم أطلقه بسلام .

قال أحد الآباء : أعجب لسماعي أن بعضهم يعملون داخل القلاية ثم يستطيعون إتمام قانونهم دون نقص ومن غير تشوّش . وأضاف ما هو جدير بالتأمل : إذا ذهبت لأستقي تضطرب سيرتي ويتشوّش نظامها ولا أستطيع ممارسة التمييز ممارسة كاملة .



المقالة الثامنة والسبعون

في سؤال أحد الإخوة

سأل أحد الإخوة هذا الشيخ نفسه : إني حائر أيها الشيخ ، عندما امتلك شيئاً ضرورياً لا أستطيع الإستغناء عنه ، إمّا بسبب ضعفي أو لعملي أو لحاجة من حاجاتي ، تغلبني الشفقة إذا ما رأيت أحداً بحاجة إليه فأقدمه له . وهذا ما أفعله كلما طُلب مني ، لأنني مضطر بحكم المحبة والوصية أن أعطي السائل حتى ما أحتاج إليه . لكن هذه الحاجة تجلب عليّ الإهتمام وتشوّش الأفكار فيما بعد ، ويتشتت ذهني عن عمل السكينة واضطر أحياناً إلى الخروج والذهاب لتأمين تلك الحاجة . فإذا صبرت ولم أخرج يشتد عليّ الضيق والتشويش . هذا ما يحيّرني . فهل أختار راحة أخي وتعطيل سكينتي أو إهمال طلبه والبقاء في السكينة ؟ أجاب الشيخ : إذا كان عمل الإحسان أو المحبة أو الشفقة أو أي عمل تعمله من أجل الله يمنع عنك السكينة ويوجّه نظرك نحو العالم ويجلب لك الهمّ ويشغلك ويشوّش ذكر الله فيك ويقطع صلواتك ويسبب لك أفكاراً مبلبلة ويصرفك عن مطالعة الكتب الإلهية التي هي سلاح منقذ من التشتت ويزيل تحفظك ويجعلك تجري بعد أن كنت مقيّداً وتعاشر بعد أن أصبحت متوحداً ويوقظ فيك الأهواء المدفونة ويبدد عفة حواسك ويرجعك عن موتك عن العالم ويحدرك من العمل الملائكي ذي الإهتمام الواحد إلى مصف أهل الدنيا ، فليبد هذا العمل ولينقرض . إن واجب المحبة الكاملة بتأمين حاجات الجسد منوط بالعلمانيين أو بالرهبان المتوسطين الذين لا يعيشون في السكينة ويجمعون بين الهدوء والصداقة فتراهم داخلين وخارجين باستمرار. إن هذا العمل حسن وممدوح لهؤلاء ، أمّا الذين اختاروا الإنفصال عن العالم بالجسد والذهن لكي يثبّتوا فكرهم في الصلاة وحدها ويموتوا عن كل

الزائلات وعن رؤية الأشياء وذكرها فيجب ألاّ تشغلهم الأمور الجسدية وأعمال البرّ المنظورة[1] بل ينبغي أن يهتموا بإماتة أعضائهم التي على الأرض (كول ٣ : ٥) حسب قول الرسول ، وأن يقدّموا أذهانهم لله ذبيحة طاهرة لا عيب فيها باكورة لأعمالهم وأن يحتملوا بصبر الشدائد الجسدية والأخطار من أجل الرجاء الآتي . إن السيرة الرهبانية تعادل سيرة الملائكة فيجب علينا ألاّ نهمل العمل السماوي لنتمسك بالأشياء الأرضية .

أمّا إلهنا فله المجد إلى أبد الدهور آمين .



(١) عمل الإحسان المادي.

المقالة التاسعة والسبعون

في توبيخ اخ

وبّخ أحدهم مرة أخاً على عدم فعل الإحسان ، فأجاب مدافعاً بجرأة وشجاعة : إن عمل الإحسان ليس من خصائص الرهبان . فأجابه الموبّخ : إن الراهب الذي لا يخضع لعمل الإحسان يمكنه أن يقول للمسيح بصراحة كما هو معروف ومكتوب : « ها قد تركنا كل شيء وتبعناك » (متى ١٩ :٢٧) . إن هذا يعني أن من يترك كل شيء على الأرض ولا يتعاطى الأمور الجسدية ولا يفكر بما هو منظور ولا يهتم بالقنية ولا يأخذ أكثر من حاجته مما يعطى له ولا يعيره أي اهتمام ، هذا الانسان يكون كالطائر في حياته ، وبالتالي فإن عمل الإحسان لا يناسبه : فمن تخلّص من شيء لا يمكن أن يعطيه لأحد . إن عمل الإحسان مطلوب ممن يهتم بالأمور الحياتية ويشتغل بيديه ويأخذ من الآخرين ، فإذا لم يحسن يكون قد خالف وصية الرب القائلة بالإحسان . من لا يقترب من الله بالأعمال الخفية(١) لا يعرف أن يتعبّد له بالروح ، ومن يهمل الأمور الخارجية التي يمكنه القيام بها لا يبقى له أي رجاء ولا تستطيع نفسه أن تقتني الحياة الأبدية . إنه لإنسان جاهل .

قال شيخ آخر : إني أتعجّب من أولئك الذين يسببون التشويش لأنفسهم في سكينتهم حتى يريحوا الآخرين ويؤمّنوا لهم الحاجات الجسدية . وأضاف : يجب علينا ألاّ نمزج عمل السكينة بأي اهتمام آخر بل أن نعطي لكل عمل قيمته حتى لا تتشوّش سيرتنا . إن المهتم بالكثير هو عبد الكثير ، أمّا من ترك كل شيء ليهتم بنفسه فهو حبيب الرب . إن الذين يفعلون الإحسان ويتممون محبة القريب فيؤمّنون له الحاجات الجسدية كثيرون في هذا العالم . أمّا عمّال السكينة الحسنة

(١) الصلاة والتأمل واللذيذ الدائم .

(٢) ترجمة «Kat'holon» .

والجامعة المهتمين بالله فهم نادرون ولا يكادون يوجدوا . من هو عامل البرّ والإحسان في العالم والمهتم بتأمين الضرورات الجسدية ، الذي استطاع أن يبلغ واحدة من تلك المواهب التي أُهِّل لها العائشون في السكينة ؟ ثم تابع الشيخ : إن كنت من سكان العالم فيجب أن تهتم في حياتك بالخيرات العالمية ، أمّا إذا كنت راهباً فعليك أن تمتاز بالأعمال التي يبرع بها الرهبان ، وإذا أردت أن تتعاطى العملين فأنت فاشل فيهما معاً . أعمال الراهب هي التحرر من الأمور الجسدية ، والصلوات بتعب جسدي ، وذكر الله باستمرار في القلب . وإذا كنت تعتقد أن الفضائل العالمية وحدها قادرة أن تكفيك ، فأنت أدرى !

سؤال : هل يستطيع الراهب الذي يضنك نفسه في السكينة أن يجمع بين الإهتمام بالله وبين اهتمام آخر في قلبه ؟

جواب : أعتقد أن من يبتغي حياة السكينة والإهتمام بنفسه يجد صعوبة بالغة في إتمام هذه السيرة حتى إذا ترك كل شيء وابتعد عن كل اهتمام دنيوي ، فكيف ستكون حالته إذاً إذا اهتم بشيء آخر ؟ إن الرب أبقى في العالم أناساً يتعبّدون له ويهتمون بأبنائه . واختار لنفسه من يقيمون خدمته أمامه . إن المصاف والرتب المتنوعة ليست محصورة في الملوك الأرضيين بل توجد أيضاً رتب سماوية تمتاز عنها بالمجد وتجلس إلى جانب الملك السماوي ، ورتب أخرى أدنى منها تشترك بأموره الخارجية . إن الذين يشتركون بأسراره من خلال الصلاة الدائمة ينالون منه دالة عظيمة ويؤهّلون لغنى أرضي وسماوي لا يُقدّر ، ويظهرون متسلطين على الخليقة بأسرها أكثر من المتعبدين له وسط المقتنيات والأشياء الدنيوية الذين يسترضونه بأعمال الإحسان ، مع أن هذه الأعمال سامية وحسنة جداً . يجب ألاّ نقتدي نحن[1] بهذه الأعمال الناقصة ، بل بالقديسين المجاهدين الذين سلكوا حسناً ، خاصة أولئك الذين تركوا العالميات وحرثوا في الملكوت السماوي وهم بعد في الأرض ، أولئك الذين مقتوا الأرضيات كلها وبسطوا أيديهم نحو أبواب السماء .

بماذا أرضى الله القديسون القدماء الذين مهّدوا لنا طريق هذه السيرة ؟ وبماذا أرضى الله يوحنا الثيبي ، كنز الفضائل وينبوع النبوة ، وهو في محبسه ؟ هل

(١) أي الرهبان .

بإراحته الإخوة وتأمين حاجاتهم الجسدية أو بالصلاة والسكينة ؟ إنني لا أنكر أن كثيرين أرضوه بتلك الأعمال ، لكنهم يظلون أدنى من الذين أرضوه بالصلاة وترك الأشياء كلها . المساعدة التي يقدمها أولئك الذين يعيشون في السكينة والذين ذاع صيتهم بين الإخوة واضحة لنا : إنهم يساعدوننا بالإرشاد عند الضرورة أو بالصلاة من أجلنا . لا يجب أن يتسرّب إلى العائشين في السكينة أي ذكر أو اهتمام بالأمور الحياتية ، فهذا ليس من صفات الحكمة الروحية . ولم يوجّه هذا الكلام : « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (متى ٢٢ : ٢١) ، أي ما للقريب للقريب وما لله للعائشين في السكينة بل للذين يعيشون خارجها . أمّا السالكين في الرتبة الملائكية أي المهتمين بأمور النفس ، فلم يأمرهم الرب أن يرضوه بالأمور الدنيوية أي بالأشغال اليدوية والأخذ والعطاء ، حتى لا يهتم الراهب بما من شأنه أن يحدر ذهنه الماثل أمام وجه الله .

إذا عارض أحد هذا الكلام متسلحاً بالرسول الإلهي بولس الذي كان يعمل بيديه ويصنع إحساناً ، نجيبه أن بولس هو الشخص الوحيد الذي استطاع أن يعمل كل شيء . إننا لا نعرف بولسَ آخر استطاع أن يعمل شيئاً مثله . أرني أنت إنساناً آخر مثل بولس واقنعني . لا تخلط العموميات بما هو خاص ولا يحدث إلاّ بطريقة تدبيرية . إن عمل الانجيل[1] شيء وعمل السكينة شيء آخر . فإذا كنت تريد التقيّد بالسكينة ، فكن كالشاروبيم الذين لا يهتمون بالأمور الحياتية ، وفكّر أنك وحيد على الأرض مع الله الذي تهتم به حسب ما تعلمته من الآباء الذين سبقوك . فإذا لم تقسٍ قلبك وتحبس شفقتك في داخلك لن تتمكن من الابتعاد عن كل همّ أرضي ، بحجة محبة الله والقريب . وإذا لم تصمد في الصلاة وحدها ضمن أوقاتها المحددة ، فلن تستطيع أن تتحرر من الإضطراب والهمّ وأن تبقى في السكينة .

إذا دفعتك الفضيلة إلى الاهتمام بأحد الناس ممّا سيبدد الهدوء من قلبك ، فقل لفكرك إن طريق المحبة والرحمة من أجل الله حسن لكنني من أجل الله لا أريد ذلك . نادى أحد الرهبان شيخاً وقال له : قف ، قف أيها الأب ، إنني أسعى

---

(١) التبشير في العالم .

وراءك من أجل الله . فأجابه : وأنا أهرب منك من أجل الله أيضاً . إن الأنبا أرسانيوس ، لكثرة محبته لله ، لم يكن يلتقي أحداً لا من أجل المنفعة ولا لأي سبب آخر . بينما نجد أباً آخر كان يتحدث مع الآخرين طول النهار ويستضيف الغرباء القادمين إليه ، حباً بالله . الأول اختار الصمت والسكينة على عكس الثاني . كان أرسانيوس يتكلم مع الروح الإلهي وسط بحر هذه الحياة ويبحر بهدوء تام في سفينة السكينة . وقد أظهر بوضوح للمجاهدين الذين طلبوا من الله أن يعرفوا شيئاً عنه ، إن السكينة والصمت ضروريان في كل الأمور . فإذا كانت سكينتك مليئة بالتشويش وجسدك مضطرباً بالأشغال اليدوية ونفسك منهمكة بأمور متنوعة ، فما معنى سكينتك ، وكيف يمكنك أن ترضي الله ، وأنت مهتم بأمور كثيرة ؟ أحكَم أنت ؟ إنه لمن العار والخزي أن ندّعي أن بإمكاننا بلوغ حياة السكينة دون ترك الأشياء كلها ودون الإبتعاد عن كل اهتمام . أمّا إلهنا فله المجد .



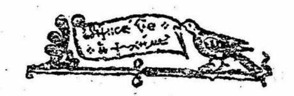
المقالة الثمانون

مذكرة للقراءة اليومية ضرورية جداً وكثيرة الفائدة

كتب أحد الإخوة الأقوال التالية ووضعها أمامه ليتذكرها دائماً : إنك تستحق كل سوء أيها الإنسان الخازي لأنك أمضيت حياتك في الجهل ، فاحفظ نفسك في هذا اليوم على الأقل ، فهو آخر أيامك التي لم تفعل فيها خيراً ، بل أمضيتها في الشر والبطالة . لا تسأل عن العالم ومسيرته ولا عن الرهبان وأحوالهم وأعمالهم ومقدارها . لا تهتم بأي منها على الإطلاق. لقد خرجت من العالم بحالة سرّية وحُسبت ميتاً من أجل المسيح ، فلا تعش بعد للعالم ولا لشيء مما فيه . وإذا شئت أن تدرك الراحة وأن تحيا في المسيح ، فاستعد لكل تعيير وشتيمة وهزء وملامة من الجميع . إقبلها كلها بفرح كأنك تستحقها حقاً ، واصبر على كل ألم وشدة وخطر يأتيك من الشياطين التي كنت تصنع إرادتها بفرح . احتمل بشجاعة كل ضيق ومرارة وكل النوائب التي تحدث طبيعياً . أصبر على فقدان ضروريات الجسد متكلاً على الله ، لأن هذه الضروريات ستتحوّل بعد قليل إلى نفايات. إقبل كل شيء واضعاً رجاءك على الله ، ولا تنتظر خلاصاً من مكان آخر ، أو تعزية من أحد سواه . ألق على الرب كل همك وكن ديّان نفسك في كل التجارب كأنك أنت مسببها . لا تشكّ في أحد ولا توبّخ أحداً إذا أحزنك ، لأنك أنت الذي أكل من النبات المحرَّم واقتنى أهواء شتى . اقبل كل مرارة بفرح . إنها ستشوكك قليلاً وتملؤك حلاوة فيما بعد . ويل لك ولمجدك النتن ، فقد أهملت نفسك المليئة بالخطايا كأنها منزهة عن الدينونة ، ورحت تدين الآخرين بالكلام والفكر . علف الخنازير كثير عليك ، وهو ما تأكله حتى الآن . دع الناس ، يا دنس . ألا تخجل من سلوكك معهم وقد عشت كالبهائم ؟ فإذا انتبهت وأحجمت عنها كلها ستخلص بمعونة الله ، وإلاّ فأنت ذاهب إلى الأرض المظلمة وإلى ديار الشياطين التي صنعت

مشيئتها بوجه خال من العيب . ها أنذا أشهد عليك وأؤكد لك أن العالم كله سيشهد ضدك إذا أجرى الله عليك حكمه العادل ليجازيك على الشتائم والتعبيرات التي فكرت بها أو التي قذفها لسانك عليه طيلة حياتك . فاسكت من الآن وتحمَّل جزاءك .

بهذه الأشياء كلها كان الأخ يذكِّر نفسه في كل أيامه ، حتى إذا ما اعترته تجربة أو ضيق يستطيع أن يتحملها بفرح فيستفيد منها . فعسى أن نقدر على الصبر في المحنة لكي نستفيد منها بنعمة الله ومحبته للبشر ، فله المجد والعزة إلى الدهور ، آمين .



المقالة الحادية والثمانون

في مميزات الفضائل وفي كمال كل طريق

نستطيع إنهاء كل طريق بأمور ثلاثة : التوبة ، الطهارة والكمال . التوبة هي ترك الأمور والندم عليها . والطهارة هي القلب الذي يرحم كل مخلوقات الطبيعة . أمّا الكمال فهو عمق التواضع الذي يعبِّر عنه بترك المنظور وغير المنظور .

سُئل أيضاً : ما هي التوبة ؟ فأجاب : هي القلب المنسحق والمتواضع ، وإماتة الذات إرادياً عن الأشياء الداخلية والخارجية . ومن هو رحيم القلب ؟ فأجاب : هو الذي يحترق من أجل الخليقة كلها : الناس والطيور والحيوانات والشياطين وكل مخلوق ، الذي تنسكب الدموع من عينيه عند تذكرها أو مشاهدتها . هو من ينقبض قلبه ويشفق عند سماع أو مشاهدة أي شر أو حزن يصيب الخليقة مهما كان صغيراً . لذلك فهو يقدم صلاته كل ساعة مصحوبة بالدموع من أجل الحيوانات وأعداء الحقيقة وحتى من أجل الذين يؤذونه كي يحفظهم الله ويغفر لهم ، ويصلّي أيضاً من أجل الزحّافات . إن قلبه يفيض بالرحمة فيوزّعها على الكل دون قياس كما يفعل الله .

وسُئل أيضاً : ما هي الصلاة ؟ فأجاب : إنها إفراغ الذهن من كل ما هو دنيوي ، وعودة مشاهدة القلب إلى شوق رجاء الخيرات الآتية . ومن لا يملكها فهو كالذي يرمي في حقله بذوراً مختلطة أو كالذي يكدن الثور والحمار معاً[1] .

وسُئل أيضاً : كيف يقتني الانسان التواضع ؟ فأجاب : بتذكر خطاياه على الدوام ، وترقب الموت ، واللباس الحقير ، واختيار المكان الأخير ، والإسراع إلى

---

(١) تبقى أرضه دون حراثة لأن الثور والحمار لا ينسجمان في العمل.

الأعمال الحقيرة ، والبعد عن العصيان ، والصمت الدائم وعدم حب الذهاب إلى الإجتماعات ، وقبوله أن يكون مجهولاً ودون اعتبار ، وعدم اقتناء شيء خاص ، ومقت التحدث مع الجماهير ، وعدم محبة الربح . وأيضاً بأن يقصي ذهنه عن كل تذمر وتعيير وحسد ، وأن يرفع يده عن الجميع وأن يقبل أن تكون يد الجميع عليه ، وأن يهتم بشؤونه وحدها ، وإلاّ يفكر بشيء دنيوي . وباختصار فإن الغربة والفقر وحياة الوحدة تولّد فيه التواضع وتنقية القلب .

أمّا دليل الذين بلغوا الكمال فهو أنهم إذا أسلموا ذواتهم عشرات المرات يومياً إلى الحرق حباً بالناس فلا يشبعون ، كما قال موسى : « إذا شئت أن تغفر لهم خطيئتهم فاغفر ، وإلاّ فامحني من الكتاب الذي كتبته» (خر٣٢ :٣٢) ، أو كما قال بولس المغبوط : « كنت أصلّي أن أكون محروماً ومنفصلاً عن المسيح من أجل إخوتي» (رو٩ :٣) ، وأيضاً : « أنا الآن أفرح بالآلام التي أعانيها من أجلكم » (كول١ :٢٤) . أمّا الرسل الباقون فكانوا يتقبلون الموت المتعدد الوجوه مدفوعين بشوقهم إلى خلاص الناس .

أخيراً سلّم الرب الإله ابنه الوحيد للموت على الصليب حباً بالخليقة . « هكذا أحب الله العالم حتى أنه بذل ابنه الوحيد ليموت من أجله» (يو٣: ١٦) . هذا لا يعني أنه لم يكن قادراً على إنقاذنا بطريقة أخرى ، إنما فعل ذلك ليعلّمنا محبته الفائقة . وبموت وحيده قرّبنا منه ، ولو كان لديه ما هو أثمن من وحيده لقدّمه لنا حتى يقرِّب ذريتنا إليه . كثرة محبته التي لا تحد جعلته لا يضغط على حريتنا ، رغم قدرته على ذلك ، بل تركنا نقترب منه بدافع من محبتنا وحريتنا . المسيح أطاع أباه ، وكما يقول الكتاب قبل الحزن والإهانة بفرح ، و« أبدل فرحه الأبدي بتحمل الصليب ماقتاً الخزي» (عب١٢ :٢) . لذلك قال الرب في الليلة التي أسلم فيها : « هذا هو دمي المعطى من أجل حياة العالم ، وهذا هو دمي المهراق من أجل مغفرة الخطايا» (متى ٢٦ : ٢٨) . وقال أيضاً : « أنا أقدّس نفسي من أجلكم » (يو١٧ :١٩) . هذا الكمال يبلغه جميع القديسين عندما يتّحدون بالله بفيض محبتهم على الجميع ، وهي المحبة التي يجاهد في سبيلها القديسون ، متشبهين بالله ، ليحققوا بها محبة القريب . وهذا ما كان يفعله آباؤنا المتوحدون الذين بلغوا الكمال والتشبه بالله فاقتنوا في ذواتهم ملء محبة يسوع المسيح .

يقولون عن المغبوط أنطونيوس إنه لم يكن يفضّل نفسه على قريبه في كل ما ينفع . فقد كانت منفعة قريبه هامة عنده. ويقال عن الأنبا أغاثون انه كان يتشوّق إلى استبدال جسده بجسد أبرص . فهل رأيت حباً كاملاً كهذا ؟ ويقال عنه أيضاً إنه كان يعطي القريب كل ما عنده حتى يريحه . وكان يملك إزميلاً فدخل عليه أخ ورآه ورغب فيه ، فلم يدعه يخرج من قلايته قبل أن يأخذه .

وأشياء أخرى كثيرة كُتبت عنهم ولا حاجة لذكرها . لكنني ألفت إلى أن بعضهم قد أسلموا أجسادهم للوحوش والسيف والنار من أجل القريب . لا يستطيع أحد أن يدخل إلى رتبة هذه المحبة إذا لم يحس برجائه سرياً . فالذين يحبون هذا العالم لا يستطيعون أن يحبوا الناس . مقتني المحبة يتوشّح بها وبالله نفسه . مقتني الله ليس ملزماً بعدم اقتناء أي شيء آخر وحسب ، بل بالانسلاخ عن جسده أيضاً . المتوشح بهذا العالم وعاشق هذه الحياة لن يتوشح بالله . وقد شهد هو نفسه : « من لا يحبني أكثر من نفسه لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً» (لو ١٤ : ٢٦) . لم يوص بالترك فقط بل بالمقت أيضاً. فهل يستطيع المسيح أن يسكن داخل من لا يستطيع أن يكون له تلميذاً؟

سؤال : لماذا يكون الرجاء شهياً إلى هذا الحد ؟ ولماذا تكون سيرته وأعماله سهلة وخفيفة على النفس ؟

جواب : لأنه يوقظ الشوق الطبيعي للنفس ويسقي المشتاقين من كأسه عندما يستيقظون ، فيفقدون حسهم بالضيقات ولا يشعرون بالتعب في مسيرهم لظنهم أنهم محلّقون على أجنحة الهواء ، لا سائرون بأقدام بشرية . فلا يشعرون بمشقة الطريق لأنهم لا يصادفون فيها جبالاً ولا ودياناً تعترضهم ، «لأن وعر الطريق يصير لهم سهلاً» (اش٤٠ : ٤) . وينظرون أيضاً إلى حضن أبيهم بانتباه . إن هذا الرجاء يريهم بوضوح ، بعين الإيمان وبطريقة عجيبة ، الكائنات البعيدة واللامنظورة. فعندما تلتهب أعضاء النفس حنيناً إلى الكائنات البعيدة تصبح الأشياء الغائبة كأنها حاضرة أمامهم فتمتد آفاق أفكارهم ويسرعون لبلوغها . وإذا باشروا عمل الفضيلة ، فهم لا يمسكون بأطرافه بل يتمّمونه مرة واحدة ، فهم لا

يقولون عن المغبوط أنطونيوس إنه لم يكن يفضّل نفسه على قريبه في كل ما ينفع . فقد كانت منفعة قريبه هامة عنده. ويقال عن الأنبا أغاثون انه كان يتشوّق إلى استبدال جسده بجسد أبرص . فهل رأيت حباً كاملاً كهذا ؟ ويقال عنه أيضاً إنه كان يعطي القريب كل ما عنده حتى يريحه . وكان يملك إزميلاً فدخل عليه أخ ورآه ورغب فيه ، فلم يدعه يخرج من قلايته قبل أن يأخذه .

وأشياء أخرى كثيرة كُتبت عنهم ولا حاجة لذكرها . لكنني ألفت إلى أن بعضهم قد أسلموا أجسادهم للوحوش والسيف والنار من أجل القريب . لا يستطيع أحد أن يدخل إلى رتبة هذه المحبة إذا لم يحس برجائه سرياً . فالذين يحبون هذا العالم لا يستطيعون أن يحبوا الناس . مقتني المحبة يتوشّح بها وبالله نفسه . مقتني الله ليس ملزماً بعدم اقتناء أي شيء آخر وحسب ، بل بالانسلاخ عن جسده أيضاً . المتوشح بهذا العالم وعاشق هذه الحياة لن يتوشح بالله . وقد شهد هو نفسه : « من لا يحبني أكثر من نفسه لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً» (لو ١٤ : ٢٦) . لم يوصِ بالترك فقط بل بالمقت أيضاً. فهل يستطيع المسيح أن يسكن داخل من لا يستطيع أن يكون له تلميذاً؟

سؤال : لماذا يكون الرجاء شهيّاً إلى هذا الحد ؟ ولماذا تكون سيرته وأعماله سهلة وخفيفة على النفس ؟

جواب: لأنه يوقظ الشوق الطبيعي للنفس ويسقي المشتاقين من كأسه عندما يستيقظون ، فيفقدون حسهم بالضيقات ولا يشعرون بالتعب في مسيرهم لظنهم أنهم محلّقون على أجنحة الهواء ، لا سائرون بأقدام بشرية . فلا يشعرون بمشقة الطريق لأنهم لا يصادفون فيها جبالاً ولا ودياناً تعترضهم ، «لأن وعر الطريق يصير لهم سهلاً» (اش٤٠ : ٤) . وينظرون أيضاً إلى حضن أبيهم بانتباه . إن هذا الرجاء يريهم بوضوح ، بعين الإيمان وبطريقة عجيبة ، الكائنات البعيدة واللامنظورة. فعندما تلتهب أعضاء النفس حنيناً إلى الكائنات البعيدة تصبح الأشياء الغائبة كأنها حاضرة أمامهم فتمتد آفاق أفكارهم ويسرعون لبلوغها . وإذا باشروا عمل الفضيلة ، فهم لا يمسكون بأطرافه بل يتمّمونه مرة واحدة ، فهم لا

لا تستطيع أن تنشب مخالبها الحادة في حواس النفس الروحية عندما تتجنب النفس الأهواء فلا تتأمل فيها ، لانهماكها دائماً بأمور أخرى.

سؤال : ما هي ميزات التواضع ؟

جواب : إذا كان الترفع يشتت النفس بالخيال ويطلق لها العنان لتحلّق في غمام الأفكار ، فتجوب الخليقة بأسرها ، فإن التواضع هو عكس ذلك . إنه يضبط النفس في السكينة ويوحدها بها . وكما أن النفس لا تُعرف ولا تُرى بالعينين الجسديتين ، كذلك يكون المتواضع مجهولاً من الناس . وكما أن النفس مخفية في الجسد لا يراها الناس ولا تختلط بهم ، فإن المتواضع حقاً لا يريد فقط ألاّ يعرفه الناس أو يروه لأنه انفصل عنهم بالجسد ، بل يشاء - إذا استطاع - أن يغوص في ذاته ويدخل السكينة ويعيش فيها تاركاً ذكرياته السالفة وعمل حواسه ، صائراً كمن لا وجود له في الخليقة وغير راغب في العودة إلى هذا الوجود ، بل غير معروف حتى من نفسه إذا كان موجوداً أو لا . إن اقترابه من سيّده يزداد بمقدار ما يكون مخفياً ، حافظاً ذاته ومنفصلاً عن العالم .

المتواضع لا يرتاح لرؤية التجمعات وغوغاء الجماهير والضجيج والضوضاء والشبع والهموم والتنعم التي تجلب الدعارة . ولا يرتاح للّقاءات والكلام وتشتت الحواس بل يفضّل البقاء في السكينة وحيداً منفصلاً عن كل مخلوق ، مهتماً بنفسه في مكان هادىء ، مكتفياً بالقليل من كل شيء ، عديم القنية ، فقيراً ومحتاجاً ، لأن الأشياء الكثيرة تحتاج أعمالاً كثيرة . إنه يسعى أن يكون خالياً من الإهتمام وبعيداً عن تشوّش الأمور الدنيوية دائماً ، حتى لا تتشتت أفكاره بعيداً عنه . هو يعرف جيداً أن ارتباكه بأمور كثيرة لن يقيه تشتت الأفكار. فالأمور الكثيرة تجلب اهتمامات كثيرة وتفكيراً مختلف الأنواع والطرق ، فيتعذر عليه الترفع عن الإهتمامات الأرضية ، والمحافظة على سلامة أفكاره وصمود ذهنه في التفكير بالأمور الروحية السامية والفريدة ، وإن كان هذا لا يعني أنه سيتحرر من الحاجات الضرورية الصغيرة .

أمّا إذا كانت الضروريات تمنعه من التفكير بالأمور الروحية فهذا يعني أنه يؤذي نفسه والآخرين ، ويفتح باباً تتسرب منه الأهواء مما يؤدي إلى فقدانه التمييز

الهادىء الذي يجذب معه التواضع ، فيغلق باب السلام دونه . فعليه أن يصون نفسه دوماً من الأمور الكثيرة لكي يعيش دائماً في سكون وراحة ولطف وورع .

المتواضع لا يعرف ضغطاً ولا تسرعاً ولا تشويشاً ولا أفكاراً حادة فارغة ، بل يكون في انشراح دائم . وإذا أطبقت السماء على الأرض لا يخاف . ليس كل هادىء متواضعاً لكن كل متواضع هادىء . وليس كل خفِر متواضعاً لكن كل متواضع خفِر . هذا ما قاله الرب الوديع المتواضع : « تعلّموا منّي فإني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة في نفوسكم» (متى ١١ : ٢١). المتواضع منشرح دائماً لا شيء يعكر ذهنه ويزعجه . وكما يستحيل على الإنسان أن يهزّ جبلاً يستحيل عليه أن يهزّ ذهن المتواضع . وإذا جاز لنا فإننا نقول ان المتواضع ليس من هذا العالم ، فلا الأحزان تخيفه وتبدّله ولا الأفراح تسرّه وتدهشه . إن فرحه وبهجته كائنان في سيّده .

من التواضع ينشأ اللطف ، الرشد ، عفة الحواس ، الصوت المعتدل ، قلة الكلام ، احتقار الذات ، اللباس الحقير ، المشي الرصين ، النظر إلى الأسفل ، كثرة الإحسان ، سرعة الدموع ، الإنفراد بالنفس ، القلب المتخشع ، توقف الغضب ، الحواس المنضبطة ، قلة جمع الضروريات ، الإحتمال ، الصبر ، عدم الجزع ، الشجاعة القلبية الناتجة من احتقار الحياة الزمنية ، الصبر على التجارب ، الأفكار الرصينة العميقة ، زوال الأفكار السيئة وحفظ أسرار العفة والخفَر والورع . والأفضل منها كلها المداومة على السكينة والرغبة في جهل كل ما يجري في العالم .

إن الضرورة ، أية ضرورة ، لا يمكنها أن تسبب للمتواضع الإضطراب والتشوّش ، وإذا كان ساكناً وحده فإنه يخفر من نفسه . إني أعجب كيف أن الإنسان المتواضع حقاً لا يجسر على الصلاة أمام الله وعلى اعتبار نفسه مستحقاً لها ولا على طلب أي شيء آخر، وكيف أنه لا يعلم ماذا يطلب ، بل يصمت بكل رضاه منتظراً رحمة الله . تظهر مشيئة الله في المتواضع عندما يسجد ويكون رأسه منحنياً إلى الأرض ومشاهدة قلبه الداخلية مرتفعة نحو باب قدس الأقداس المتعالي حيث يمكث الذي في الغمام مسكنه وعيناه تبهران السارافيم وفضيلته تخيّم على

طغمات الملائكة والسكون يخيّم عليهم . وكل ما يستطيع قوله عندما يصلّي هو :
لتكن مشيئتك فيّ يا رب . عسانا أن نقول كذلك آمين.



في أن النفس تدرك طبيعتها والكنوز المخبأة فيها إذا ولجت إلى فهم حكمة الله ومخلوقاته بالعيش في السكينة بعيداً عن العالم

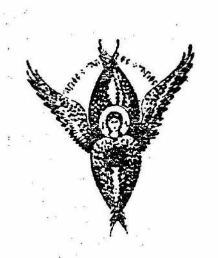
إن النفس إذا حافظت على حالتها الطبيعية ولم تدع الإهتمامات الدنيوية تتسرب إليها من الخارج ، تلج إلى حكمة الله دون جهاد كثير ، لأن انفصالها عن العالم وسكينتها يحثّانها بصورة طبيعية على معرفة مخلوقات الله . ومنها ترتفع نحوه وتنذهل متعجبة ، فتمكث عنده . عندما لا يتسرب ماء خارجي إلى ينبوع النفس فإن ماءها الطبيعي يفرع فيها على الدوام أفكار عجائب الله . أمّا إذا ابتعدت عنها يكون السبب في تسرب الأفكار الغريبة إليها أو الانزعاج الناتج من الحواس عندما تلتقي بالأشياء . فمتى أغلق على الحواس داخل السكينة ولم يسمح لها بالخروج وأصبحت الذكريات القديمة منسية بفعل السكينة ، عندئذ تشاهد النفس أفكارها الطبيعية وتدرك ماهية ذاتها وماهية الكنز العجيب المختبىء فيها وهو إدراك اللامتجسمين الذي يحصل دون جهد وتعب يفوقان طاقتها . إن الإنسان لا يعلم أن أفكاراً كهذه تتحرك في الطبيعة البشرية ، ولا يعلم ممن تعلّمها ولا كيف يدركها ، كما أنه لا يستطيع أن يفسّرها للآخرين لأنه لم يتعلّمها من إنسان .

هذه طبيعة النفس . أمّا الأهواء فهي دخيلة عليها لسبب نفسي أي لأنها منزّهة عنها أصلاً . فعندما تسمع في الكتاب المقدس عن أهواء نفسية وجسدية فاعلم أنه يتكلم عن أسبابها ، لأن النفس نقية من الأهواء بطبيعتها . هذا ما

يعترف به الفلاسفة غير المؤمنين ، وكل من يحذو حذوهم . أمّا نحن فنؤمن أن الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله . وأقصد «بحسب الصورة» لا بحسب الجسد بل بحسب النفس غير المنظورة . فالصورة لا تتم إلاّ بحسب المثال ولهذا يستحيل على الرسّام أن يرسم لوحة إذا لم يضع نموذجاً أمامه . عليك أن تؤمن كما قلنا سابقاً أن الأهواء ليست من طبيعة النفس . وإذا عارض أحد هذه الأقوال فليجبني على هذا السؤال .

سؤال : ما هي طبيعة النفس ؟ هل هي خالية من الأهواء ومليئة بالنور أو هي مظلمة ومليئة بالأهواء ؟

جواب : إن النفس كانت مستودعاً للنور الإلهي المغبوط، لذلك فإن طبيعتها كانت مضيئة ونقية ، وهي تستعيد هذه الحالة بعودتها إلى نظامها القديم . وعندما تتحرك بتأثير الهوى تكون خارج طبيعتها ، كما يؤكد ذلك آباء الكنيسة ، لأن الأهواء دخيلة على النفس ولا يصحّ القول إنها من طبيعتها وإن كانت تتحرك بدافع منها. إن اندفاعها يتمّ بدوافع خارجية لا ذاتية . أمّا إذا تحركت الأهواء في النفس بدافع نفسي فقط ، أي دون أن يشترك الجسد في هذه الحركة ، فعندئذ تكون الأهواء نفسية . فالجوع والعطش والنوم هي أهواء طبيعية ، لكن النفس تعاني منها . وكذلك تتألم بالجسد وتتنهد عند قطع الأعضاء والحرق والمرض وغيرها . النفس تشعر مع الجسد وتشاركه أفراحه وتتقبل أحزانه لأنها متحدة به ومشتركة معه . أمّا إلهنا فله المجد والعزة إلى دهر الدهور آمين .



المقالة الثالثة والثمانون

في النفس والأهواء ونقاوة الذهن

أسئلة وأجوبة

سؤال : ما هي الحالة الطبيعية للنفس والتي هي بخلاف الطبيعة والتي فوق الطبيعة ؟

جواب: إن الحالة الطبيعية للنفس هي معرفة مخلوقات الله الحسية والعقلية . والحالة التي فوق الطبيعة هي حركة مشاهدة اللاهوت الفائق الجوهر . أمّا الحالة التي بخلاف الطبيعة فهي الحركة المندفعة بالأهواء . كما قال باسيليوس الكبير الإلهي : إن النفس عندما تكون خارج طبيعتها تعيش في الأسفل على الأرض ، أمّا عندما تكون في حالتها الطبيعية فإنها تحيا في الأعالي ، وعندما تتجاوزها تصبح بلا هوى ، ومتى هبطت من رتبتها تعود إليها الأهواء من جديد . وهكذا يتضح أن الأهواء ليست نفسية بطبيعتها . ينطبق هذا القول على أهواء الجسد كالجوع والعطش . لكن بما انه لم يُفرض على النفس أي ناموس بشأن هذه الأهواء ، فإنها لا تلازم شأن الأهواء الأخرى الذميمة . وقد يسمح الله للإنسان أن يقوم بعمل يبدو قبيحاً للعيون فينال عليه مكافأة بدل اللوم والتوبيخ كما جرى للنبي ايليا الذي سفك دم كهنة البعل غيرة بالله (٣ملو١٣ : ٤٠) ، وللنبي هوشع الذي تزوج بزانية (هو ٣ : ١)، ولأولئك الذين قتلوا ذويهم بالسيف بأمر موسى (تث١٣) . ويقال إن الشهوة والغضب هما من طبيعة النفس دون أن يكون لطبيعة الجسد أثر فيهما . هذه هي أهواء النفس .

سؤال : هل تكون النفس طبيعية عندما تلتهب شهوتها بالإلهيات أو عندما

تلتصق بالأرضيات ؟ ولماذا تجيّش طبيعة النفس بالغضب ؟ ولماذا يسمّى الغضب طبيعياً ؟ ألأنه يحتدم بسبب شهوة جسدية أو حسد ، أم بمجد فارغ أو ما يشبهه ، أم بما يعاكس هذه الأمور كلها ؟ فليُجب السائل ونحن نتبعه .

جواب : إن الكتاب الإلهي يتكلم على هذه الأمور بكثرة ويستعمل أحياناً تسميات دون تفسيرها . فثمة صفات تختص بالنفس لكنها تنسب إلى الجسد ، وثمة صفات تختص بالجسد لكنها تُنسب إلى النفس . وهذا ما يدركه الحصيفون فصفات لاهوت الرب مثلاً تنسب أحياناً إلى جسده بما لا يناسب الطبيعة البشرية ، وثمة صفات أخرى مختصة بجسده تنسب إلى لاهوته[1]. لذلك فإن كثيراً ممن لم يدركوا قصد الأقوال الإلهية سقطوا سقوطاً عظيماً لا قيام بعده . وهذا ما يحصل بالضبط فيما يختص بأمور الجسد والنفس . فإذا كانت الفضيلة دليل صحة النفس الطبيعية ، فالأهواء هي دليل مرضها الدخيل الذي حرمها الصحة . فالصحة إذن أمر طبيعي ، أمّا المرض فهو عرضي لاحق . وإذا كانت الأمور تسير على هذا المنوال (وهذه هي الحقيقة عينها) فالفضيلة تكون من طبيعة النفس ، أمّا العوارض فهي خارجة عنها .

سؤال : هل الأهواء الجسدية طبيعية أو عرضية ؟ وهل أهواء النفس الناتجة عن ارتباطها بالجسد من طبيعتها أو منسوبة إليها ؟

---

(١) في هذه الفقرة يطعن القديس الأريوسية في الصميم ، لكن بطريقة لبقة ومن الجانب الروحي العميق . وهذا ما يدل على هضمه الكتاب المقدس هضماً كاملاً ، وذلك بإبرازه أن الانسان مركّب من عنصرين ، نفس وجسد ، واتحاد الاثنين ببعضهما اتحاداً فعلياً (انثروبولوجياً) وتمييز خواص كل منهما على ضوء خواص وصفات طبيعتي يسوع المسيح له المجد . يقول بوجود صفات وأسماء خاصة بجسده منسوبة إلى لاهوته بسبب اتحاد الطبيعتين : « لم يفهمها كثيرون إذ لم يدركوا قصد الأقوال الإلهية فسقطوا سقوطاً لا قيام بعده » . هذه الصفات أو الأسماء هي التالية : « فَتَاهَ يسوعُ » (اع ٣ :١٣ و٣ :٢٦ و٤ :٢٥ و٢٧ :٣٩) ، « يسوع المسيح الذي من نسل داود » (٢تيم ٢ :٨) ، « ابن الانسان » ، « المخلص » ، « جسد » ، « معلم » ، « وديع » ، « متواضع القلب » . هذه كلها خاصة بناسوته . وتوجد أسماء أخرى خاصة بلاهوته : « كلمة الله » ، « ابن الله » ، « أنا هو الطريق والحق والحياة » وغيرها . وربما يطعن هنا أيضاً بالنسطورية التي ترفض اتحاد الطبيعتين اتحاداً فعلياً بسبب الإختلاف والفرق الكائن بين خواص كل من الطبيعتين البشرية والإلهية .

جواب : لا ينبغي أن يعتقد أحد أن أهواء الجسد منوطة به ، خاصة أنه أصبح معلوماً ومعترفاً به لدى الجميع أن النفس نقية بطبيعتها . إن المرض يأتي بعد الصحة ويستحيل على الطبيعة الواحدة أن تكون صالحة وشريرة في الوقت نفسه . لهذا فإن الصحة تسبق المرض بحكم الضرورة ، والطبيعي في النفس هو سابق للغريب عن طبيعتها . فلا يقال إن كل شيء عرضي هو من الطبيعة بل غريب عنها . فكل شيء عرضي ودخيل قابل للتغيير ، أمّا الطبيعة فلا تتغيّر ولا تتبدّل .

إن كل هوى يستهدف المنفعة ، هو هبة إلهية . فالأهواء الجسدية وضعت بغية منفعة الجسد ونموّه ، وكذلك الأهواء النفسية . إن الجسد يضعف ويتأذى عندما يضطر إلى الخروج عن إطاره الذاتي بسبب حاجاته الخاصة ، والنفس تتأذى إذا أهملت أمورها الخاصة . وهذا ما قاله بولس الإلهي : « ما يشتهيه الجسد يناقض الروح والروح تشتهي ما يخالف الجسد» (غلا ٥ : ١٧) . إنهما يقاومان بعضهما ، فلا يجدفنّ أحدٌ قائلاً إن الله هو الذي وضع الأهواء والخطيئة في طبيعتنا ، لأنه قد وضع في كل طبيعة ما ينمّيها شرط أن يحصل توافق ما بين الطبيعتين . ففي مثل هذه الحالة لا تنغلق كل منهما على ذاتها بل تنفتح على الأخرى وتحارب ما يعاكسها . لو كانت الأهواء من طبيعة النفس لما كانت لتؤذيها ، لأن ما هو موجود في الطبيعة لا يدنّسها .

سؤال : لماذا تكون الأهواء الجسدية التي تنمّي الجسد وتقوّيه مؤذية للنفس إذا لم تكن من طبيعتها ؟ ولماذا تشذب الفضيلة الجسد بينما تنمّي النفس ؟

جواب : ألم ترَ أن ما هو خارج عن الطبيعة يؤذي الطبيعة ، وأن كل طبيعة تفرح باقترابها مما يجانسها ؟ أمّا إذا أردت أن تعرف خاصة كل منهما ، فاعلم أن ما يساعد كلاً من الطبيعتين هو الأمور الخاصة بكل واحدة منهما بمفردها ، وأن ما يؤذي كلاً منهما هو الأمور الغريبة والدخيلة عليها . لقد علّمنا سابقاً أن ميول كل من الطبيعتين تقاوم ميول الأخرى ، وإن كل ما يساعد الجسد يمنحه الراحة . وعندما تنسجم النفس مع الجسد فهذا يعني أنها ليست في حالتها الطبيعية ، لأن ما يختص بالنفس في الأصل يسبب موتاً للجسد . وإذا كانت ميول الجسد تظهر أحياناً في النفس ، فهذا ليس من طبيعتها ولكنها لا تستطيع التحرر منها بسبب ضعفات

الجسد المتوشحة به مدى الحياة ، والتي تشترك بأحزانه بشكل طبيعي ، لأن حركتها متحدة بحركته كما وضعتها حكمة الله غير المدركة . ولكن رغم هذا الإشتراك تبقى حركة ومشيئة كل منهما منفصلة عن الأخرى كما ينفصل الجسد عن الروح . لقد أصبح واضحاً أن النفس لا تتغيّر ، لأن حركة كل طبيعة ، رغم ميولها الشديدة إمّا إلى الخطيئة وإمّا إلى الفضيلة ، تبقى ضمن مشيئتها الخاصة . وعندما تتحرر النفس من اهتمامات الجسد تصبح حركتها مدفوعة بالروح القدس بالكلية ، وتسبح في السماء ضمن أمور غير مدركة . ولا يعود بإمكان الجسد أن يتذكر شؤونه الخاصة مهما حاول ذلك . وإذا ما عاد الجسد إلى الخطايا فإن أفكار النفس تستمر على حركتها في الذهن .

سؤال : ما هي نقاوة الذهن ؟

جواب : نقي الذهن ليس من لا يعرف الشر ، فهذه الظاهرة من ميزة الحيوانات . وليس من يكون بطبيعته شبيهاً بالأطفال أو الذي لا يفاضل بين الناس . إن نقاوة الذهن هي التأمل في الإلهيات المرفق أولا بعمل الفضائل . ولن نتجاسر على القول بأن هذا الأمر يكتسبه الإنسان دون تجارب فكرية ، لأن ذلك يفرض عليه أن يكون دون جسد . وما دمنا في هذه الحياة لا نستطيع القول إن طبيعتنا لا تتأذى ولا تُحارب بالتجارب الفكرية . وأعني بالتجارب الفكرية وضع بداية للحرب ضدها وليس الخضوع لها والإنسياق وراءها .

مصدر حركات الأفكار

إن حركة الأفكار في الإنسان لها أربعة أسباب : (١) مشيئة الجسد الطبيعية ، (٢) تخيّلات الحواس المتأثرة بما تسمع وترى من أمور هذا العالم ، (٣) الأعمال المقترفة في الماضي وميل النفس إلى التفكير فيها وتذكرها ، وأخيراً (٤) هجمات الشياطين التي تحاربنا بكافة الأهواء بنا على الأسباب الثلاثة السابقة . لهذا يستحيل على الإنسان أن يتحرر من الأفكار والحروب ما دام حياً بالجسد . أمّا إذا كنت تعتقد أن بإمكانك إبطال أحد الأسباب الأربعة قبل التحرر من هذا العالم والموت ، أو أن بإمكان

الجسد أن يطلب حاجاته دون أن يُرغم على اشتهاء شيء من الأمور الأرضية ، فأنت أدرى . ولما كان من غير اللائق أن نفكر بشيء من الأشياء الدنيوية رغم حاجة طبيعتنا لها ، لأن الأهواء تسري حتماً في كل إنسان يحمل جسداً شاء أم أبى ، فقد وجب علينا أن نتحفظ ليس من هوى واحد يسري فينا بشكل ظاهر وليس من اثنين فقط ، بل من أهواء كثيرة لأننا نحمل جسداً . إن الذين انتصروا على الأهواء - وإن كان يزعجهم هجومها بأسبابها الأربعة - إلاّ أنهم ينتصرون عليها لأنهم امتلكوا قوة تختطف ذهنهم إلى ذكريات صالحة وإلهية .

سؤال : ما الفرق بين نقاوة الذهن ونقاوة القلب ؟

جواب : إن نقاوة الذهن شيء ونقاوة القلب شيء آخر . فالذهن هو حاسة من حواس النفس ، أمّا القلب فهو الحاضن والحافظ للحواس الداخلية . وهو أيضاً الجذر . فإذا كان الجذر مقدساً تكون الأغصان كذلك . أي إذا تنقى القلب تتنقى جميع الحواس . وإذا اهتم الذهن بمطالعة الكتاب المقدس أو إذا تعب قليلاً بالصوم والسهر والسكينة ، فإنه ينسى تصرفاته الماضية ويتنقى بابتعاده عن السلوك الرديء ، علماً أنه لن يبقى في حالة نقاوة ثابتة . فكما أنه يتنقى بسرعة فهو يتدنس بالسرعة نفسها . أمّا القلب فإنه يتنقى بالشدائد الكثيرة والحرمان والتخلّي عن كافة الدنيويات والموت عنها ، وبعد أن يتنقى لا تستطيع التجارب الصغيرة أن تدنّسه ، ولا الحروب الكبيرة المفزعة أن ترعبه ، لأن معدته أصبحت قوية وقادرة على هضم كل طعام يعجز الضعفاء عنه . وكما يقول الأطباء : إن كل طعام عسير الهضم ينشّط أصحاء الجسد ذوي المعدة القوية . فإن كل نقاوة تصير بسرعة أي في وقت قصير وتعب قليل ، تزول بسرعة وتتدنس . أمّا النقاوة الصائرة بالشدائد الكثيرة والحاصلة بعد جهاد طويل فلا تخاف من أي هجوم على إحدى خلايا النفس ، لأن الله يحفظها ، فله المجد إلى أبد الدهور ، آمين .

المقالة الرابعة والثمانون

في معاينة طبيعة اللامتجسمين
أسئلة وأجوبة

سؤال : ما هي الطرق المختلفة التي بها تعاين الطبيعة البشرية طبيعة اللامتجسمين ؟

جواب : إن طبيعة الأجسام الروحية البسيطة والشفافة[1] تقع تحت إدراك حس الطبيعة البشرية بطرق ثلاث : أولى جسدية حقيقية وثانية لا جسدية شخصية وشفافة وثالثة رؤيوية حقيقية تعرف بالرؤية الجوهرية . ففي الحالة الأولى تكون الحواس هي المسيطرة ، وفي الثانية تتم المعاينة جزئياً عن طريق النفس ، وفي الثالثة يكون العامل الأساسي هو قوة طبيعة الذهن[2]. إن العنصرين المسيطرين في الحالتين الأخيرتين هما الإرادة والذهن . أمّا بالنسبة لاشتراك الإرادة والذهن بأمور اللامتجسمين ، وحق اعتزازهما بذلك ، فإن الإرادة التي ولدت مع الذهن في

(١) غير المركبة والرقيقة.

(٢) ان الحالات الثلاث التي بها يشاهد الانسان القوات السماوية اللاهيولية هي التالية :
أولاً : المشاهد الجسمانية الحقيقية ، ويثبت ذلك ابراهيم رئيس الآباء الذي شاهد الأقانيم الثلاثة الفائقة الجوهر عند السنديانة (تك ١٨ و١٩) وفي العهد الجديد عندما شاهدت العذراء مريم وحاملات الطيب الملاك الجالس عند القبر (لو ١ : ٩ ومتى ٢٨ : ٣ ومر ١٦ : ٥ ولو ٢٤ : ٤ ويو ٢٠ : ١٢).
ثانياً: الحالة الشخصية غير الجسدية ، كما يذكر اشعياء النبي عندما كان جالساً على منبر شاهق وشاهد الملائكة ذات الستة الأجنحة (اش ٦) ودانيال الذي عاين العتيق الأيام (دا ٧ : ٩) وحزقيال الذي شاهد الملائكة النارية (حز ١).
ثالثاً: الحالة الثالثة تشبه حالة يوسف الخطيب الذي شاهد الملاك في الحلم وتعرف بالرؤية العقلية للذهن التي يبلغها فقط أولئك الذين ارتقوا أسمى درجات الفضيلة (مت ١ : ٢٠ و٢ : ١٣).

وقت واحد هي السبب الأول والأساسي في هذا الموضوع . وهذه الثلاثة (الإرادة ، الذهن ، النفس) هي أولاد السلطة الذاتية (الحرية) وإن كانت الحاجة تدعو أن تنفصل السلطة الذاتية والإرادة عن النفس والذهن أثناء وجود الأخيرين في المشاهدة . ففي الحالة الأولى لا يعود للإرادة القابلة ولا للمعرفة الحقيقية أي وجود على الإطلاق[١] لأن الحواس تتقبل الأحداث كلها دون تدخل الإرادة . هذه الطرق الثلاث التي ذكرناها تتخذها القوات الملائكية المقدسة وسيلة للإتصال بنا كي تعلّمنا وترشدنا وتحفظ حياتنا .

لكن الشياطين الدنسة لا تستطيع أن تستخدم الطريقة الثالثة عندما تبتغي الإقتراب منّا لإهلاكنا ، لأنها لا تملك قوة تحريك الأفكار الطبيعية التي في أذهاننا ، فتعمد إلى استخدام الطريقتين الأولين فقط . فالإقتراب من النور مستحيل على أولاد الظلمة . أمّا الملائكة القديسون فلهم القدرة لإنارتها وليس لتحريكها فحسب . إن الشياطين هي أولاد الظلمة ومتسلطة ومخترعة الأفكار الكاذبة ، وبالتالي فإن الإنسان يتقبل النور من ذوي الإستنارة ، والظلام من ذوي الظلمة .

سؤال : لماذا يُعطى هذا للبعض ويمسك عن البعض الآخر؟

جواب : كل معلّم يرى أولاً في ذاته المعرفة التي يعلّمها ويتعمق بها ويتقبلها ويتذوّقها . وعندها يستطيع نقلها إلى تلاميذه .

إن المعلّمين الأوّلين[٢] الذين يعلّمون حقيقة الأشياء هم أولئك الذين ينقلونها إلى الآخرين من خلال معرفتهم الصحيحة . إنهم أولئك الذين يمكنهم إدراك الأمور بواسطة معرفتهم العميقة ونقاوة ذهنهم الفائقة . أمّا الشياطين فتملك السرعة فقط دون النور . فالسرعة شيء والنور شيء آخر . والأولى من دون الثاني تقود صاحبها إلى الهلاك . النور يدل على الحقيقة ، أمّا السرعة فعلى ظلها . والنور يزداد أو ينقص وفق تقدّم الحياة أو انحطاطها .

---

(١) السلطة الذاتية تولّد الارادة. والارادة تدفع النفس والذهن كليهما الى المشاهدة. ففي حالة المشاهدة تتوقف السلطة الذاتية والإرادة ، أمّا النفس والذهن فيستمران في العمل .

(٢) إنهم على الأرجح الملائكة .

إن الملائكة القديسين يفيضون من معرفتهم الذاتية ويسكبونها علينا بعدما تذوّقوها بأنفسهم وأدركوها ، أمّا الشياطين فإنها تحرك فينا معرفة الأشياء على مستوى معرفتها ، فلا يمكنها أن تثبت فينا أفكاراً مستقيمة لا تسير هي بموجبها . لكن ثق ، كما قلت لك سابقاً ، إن الشياطين التي كانت تتمتع بالمشاهدة الإلهية في البدء (قبل السقوط) لا تقدر أن تعلّمنا إياها بشكل صحيح حتى وإن كنّا قادرين على استيعابها[1]. إن كل طغمة ، من الملائكة أو الشياطين ، تحرّك الذين تعلّمهم حسب الطريقة التي تسير هي بموجبها . وأنا أعتقد أن ذهننا يستطيع أن يتّجه نحو الصلاح بمفرده بلا تردد ودون وساطة الملائكة القديسين . أمّا بالنسبة إلى الشر فلا يمكن فعله دون وسيط (لأن من المستحيل على الحواس أن تقبل معرفة الشر وفعله دون وساطة الشياطين) . إن الخير مغروس في النفس بخلاف الشر ، وكل دخيل وغريب يحتاج إلى وسيط للتعرف عليه . أمّا ما هو مغروس في الداخل فإنه يسري في الطبيعة دون تعلّم . فإذا كانت هذه حال الطبيعة ، أي أنها تتحرك نحو الخير بمفردها ، فإن نموّها ونورها ممكنان إذن دون رؤية الملائكة الذين يعلّموننا كما يعلّمون بعضهم البعض . ومعروف أن الأدنى يتعلّم من الأسمى والأشد إشراقاً وبهذا التدرج ينتقلون من رتبة إلى أخرى حتى يبلغوا تلك الوحدة التي معلّمها الثالوث القدوس . إن مصف الملائكة الأول يقول بشجاعة إنه لا يعلّم من ذاته بل إنه اتخذ من الوسيط معلّماً له ، ومنه يتلقى التعليم وينقله إلى الذين هم أدنى منه .

أعتقد أن ذهننا يملك قوة طبيعية للتحرك نحو المشاهدة الإلهية ، وأننا لولا نقص واحد[2] لكنّا مساوين للطبائع السماوية ، لأن النعمة نفسها تجري فينا وفيهم . لا يستطيع الذهن البشري والذهن الملائكي ، بواسطة طبيعة كل منهما ، أن يلجا إلى مشاهدة الألوهة التي تختلف عن المشاهدات الأخرى ، لأن هذه المشاهدة ، لا تتم ، بالنسبة إلى جميع الكائنات العاقلة ، الملائكة والبشر ، بحالة طبيعية بل بفعل النعمة الالهية لأن طبيعتهم ، سواء كانوا على الأرض أم في السماء ، لا تزال عاجزة عن إدراك الأمور الإلهية كما تلج إلى الكائنات الأخرى .

---

(١) يشير هنا إلى حالة الذهن الذي لم يبلغ مستوى النقاوة التامة التي تقيه ضلالات الشياطين .

(٢) ربما يعني الجسد.

قبل حضور المسيح بالجسد لم تكن هذه المشاهدة تتحرك في ذهن المصاف السماوية ليتمكنوا من الدخول بواسطتها إلى الأسرار الإلهية . ولكن عندما تجسد الكلمة فتح لهم الباب بيسوع ، كما قال الرسول (١كو١٦: ٩و٢ كو٢: ١٢ وكول٤ :٣) . لكنني أعتقد بحق أننا وإن تنقينا نحن البشر فلا نستطيع من دون وساطتهم أن ندنو بعقولنا من الإعلانات والظهورات التي تختطفنا إلى تلك المشاهدة الأزلية التي هي بالحقيقة إعلان الأسرار ، لأنه ليس لذهننا قوة تماثل قوة الكائنات العلوية التي تتلقى الإعلانات والمشاهدات من الأزلي مباشرة بصور محسوسة واضحة ، وليس كما يتلقاها ذهننا بطريقة مجرّدة . كل سر يسلّم من مصف إلى آخر بكل عناية وانتباه منتقلاً من الأول إلى الثاني ، سيبلغ حتماً جميع المصاف ، إلاّ أن هناك أسرار كثيرة تكون في المصف الأول ولا تنقل إلى الثاني . بدون المصف الأول يستحيل على المصاف الأخرى أن تلج إلى عظمة السر . وهناك أسرار تنقل من المصف الأول إلى الثاني وتحفظ فيه بصمت . وثمة أسرار أخرى تصل إلى المصف الثالث والرابع . ويحصل أيضاً فيض ونقصان[1] في الإعلانات التي تظهر للملائكة القديسين . فإذا كانت هذه أحوال الملائكة فهل نستطيع نحن أن نتقبّل أسراراً كهذه دون وساطتهم ؟

لا ريب أن كل سر عندما يتم إعلانه في ذهن أحد القديسين ، إنما يتم بمؤازرة الملائكة القديسين ،لأن الله عندمايسمح بحصول إعلان ما ، تكون بداءته من المصف الأعلى باتجاه الأدنى إلى أن يبلغ جميع المستحقين من الطبيعة البشرية . والقديسون يستمدون نور المشاهدة من الملائكة ليبلغوا به مجد الأزلية ، هذا السر المنزّه عن التعلّم ، كما هي حال الملائكة ، « لأن الملائكة هم خدام روحيون مرسلون لأجل المزمعين أن يرثوا الحياة» (عب ١: ١٤) . لكن هذه المصاف ستلغى في الدهر الآتي ، لأن إعلان مجد الله لن يُستمد من الواحد إلى الآخر وقتئذ ، بحيث ينحصر الفرح والبهجة في النفس الواحدة كما يحصل هنا ، إنما سيُعطى كل واحد ما يناسبه وفق مستوى نجاحه وذلك من السيد مباشرة وليس من

---

(١) إن الملائكة كمخلوقات هم في تقدم مستمر على طريق الكمال والإعلانات التي يتقبلونها تكون مرة فياضة ومرة ناقصة بالنسبة إليهم حسب وضعهم الشخصي . مع العلم أنهم ليسوا كالبشر الذين يسقطون وينهضون ، لأن تقدمهم هو من الحسن إلى الأحسن ومن الخير إلى الأخير .

أي طريق آخر . ولكن يكون هناك معلّم ومتعلّم ولا من هو بحاجة إلى إكمال نقصه من آخر ، لأن المعطي هناك هو واحد وهو يعطي المواهب مباشرة للذين يستطيعون تقبلها ، ومنه ينالون الفرح السماوي وتلغى رتب المعلّمين والمتعلّمين وتتعلق رغبة الجميع بواحد فقط .

أعتقد أيضاً أن المعذّبين في الجحيم يجلدون بسوط المحبة الالهية . فهل هناك أمرّ وأقسى وأقوى من عذاب المحبة ، عذاب الذين شعروا أنهم أثموا إلى محبة الله ؟ إن الخطيئة ضد محبة الله ، تسبب حزناً يجرح القلب ويكون أقسى من أي عذاب آخر . إنه لمن الخطأ أن يعتبر الإنسان أن الخطأة في الجحيم محرومون من محبة الله . المحبة وليدة معرفة الحق التي تُعطى للجميع دون تمييز . غير أن فعلها ذو وجهين متعاكسين . فهي بالنسبة للخطأة عذاب ، كما يحصل على هذه الأرض بين حبيبين مفترقين ، أمّا بالنسبة إلى الذين تمموا واجباتهم ، فمسرّة وبهجة . إن العذاب في الجحيم ، برأيي ، يأتي من الندم ، أمّا نفوس أبناء العلي فيسكرها الله بالنعيم .

سئل أحدهم : كيف يدرك الإنسان أنه حظي بغفران الخطايا ؟ فأجاب : عندما يحس في نفسه أنه قد مقتها من كل قلبه وأصبح سلوكه الخارجي معاكساً لها ، فليثق أنه قد حظي لدى الله بالغفران لها ، لا سيّما أنه قد مقتها بشهادة ضميره الذي في داخله حسب قول الرسول : « الضمير المنزّه عن الدينونة هو شاهد لذاته » (رو٢ : ١٥) . فعسى أن نحظى نحن بغفران خطايانا بنعمة الآب الأزلي مع ابنه الوحيد وروح قدسه ومحبته للبشر الذي له المجد إلى دهر الداهرين ، آمين .



المقالة الخامسة والثمانون

في مواضيع مختلفة
أسئلة وأجوبة

سؤال : بماذا ينبغي أن يرتبط القلب كي لا يسير نحو الشر ؟

جواب : أن يتبع الحكمة العلوية دوماً وأن يزداد تعمقاً في معرفة الحياة المستقبلة ، فلا رباط أقوى منها للذهن المشتت .

سؤال : بماذا يكتمل تعلّم الحكمة ومتى نتمكن من عشقها ؟

جواب : إن تعلّمها التام أمر مستحيل ، والقديسون أنفسهم يظلون عاجزين عن بلوغ كمال الحكمة . فطريقها ليس له نهاية ، لكنها ترفع من يتبعها حتى توحده بالله . هذه هي معجزتها . إن فهمها ليس له حد ، فالحكمة هي الله نفسه .

سؤال : ما هو الطريق الأول الذي يجعلنا نقترب من الحكمة ؟

جواب : أن نتبع حكمة الله بكل قوانا ونستمر في جهادنا حتى النهاية وأن نضحّي بحياتنا حباً بالله ، إذا دعت الحاجة ، دون إهمال .

سؤال : من هو الذي يُدعى حكيماً باستحقاق ؟

جواب: هو الذي يدرك حقاً أن للحياة نهاية ويستطيع أن يضع حداً لخطاياه . لا يوجد فهم أو معرفة أسمى من أن يفلح الإنسان في الخروج من هذه الحياة دون دنس وبأعضاء طاهرة من اللذة الرديئة . فإذا حاول الإنسان أن يجعل

أفكاره رهيفة ليلج إلى أسرار الطبائع كلها ويغتني منها عن طريق الإكتشاف والمعرفة الشاملة ، بينما نفسه لا تزال مدنسة بالخطيئة ولم يحصل بعد على شهادة الرجاء في نفسه ، ويظن أن باستطاعته بلوغ الميناء الأمين بسلام ودون خوف ، فليعلم أن العالم لا يوجد فيه إنسان أكثر جهالة منه ، لأن أعماله قد حصرت رجاءه في هذا العالم دون سواه لتعلقه واجتهاده المتواصل فيه .

سؤال : من هو الانسان الأقوى في رتبة الحقيقة ؟

جواب : هو الذي يرتاح إلى الضيقات المؤقتة حيث تختفي الحياة ومجد الظفر ، وهو الذي لم يرغب بالرفاهية التي تحتوي على رائحة البلبلة وتسقي في كل حين المنصرف إليها من كأس النحيب .

سؤال : ما هو الضرر الذي يصيب الإنسان السائر في طريق الله إذا ابتعد عن الأعمال نتيجة التجارب التي تصادفه ؟

جواب : لا يمكن لأحد أن يقترب من الله دون ضيقات ، وبدونها أيضاً لا يمكنه أن يحفظ برّه ثابتاً . وإذا قطع عن البر المصادر التي تنميّه فإنه يقطع عنه ما يحفظه ويصبح بالتالي مثل كنز مهمل أو مجاهدٍ مجرّد من أسلحته أو سفينة دون أشرعة أو جنة انقطعت عنها المياه .

سؤال : من هو المستنير بأفكاره ؟

جواب : هو الذي توصل إلى اكتشاف المرارة المبطنة بحلاوة العالم وأغلق فمه حتى لا يشرب من هذه الكأس . وهو الذي يفتش على الدوام عن خلاص نفسه مثابراً في مسيرته حتى النهاية ، موصداً أبواب حواسه كي لا يتسرب إليه شوق هذه الحياة وتسلب منه الكنوز المخفية .

سؤال : ما هو العالم ، وكيف نعرفه ، ولماذا يضرّ محبيه ؟

جواب : إن العالم يشبه المرأة الفاسقة التي تجذب بشهوة جمالها كل من ينظر إليها . ومن يتعلق قليلاً بشوق هذا العالم لا يستطيع الإفلات من يديه قبل أن يحرمه هذه الحياة . بل إنه لا يدرك مدى خداعه وتضليله إلاّ عندما يجرّده من كل

شيء ويخرجه من بيته يوم الممات . ورغم كل جهاد الإنسان ومحاولاته الخروج من ظلمة هذا العالم ، فلا يمكنه رؤية مكائده طالما هو موجود فيه . وعلى هذا النحو يمسك العالم مريديه وأبناءه والمرتبطين به وحتى الذين لا يملكون شيئاً منه والنساك الذين قطعوا رباطاته وتغلّبوا عليه مرة واحدة ومنذ البداية . ها أنه ابتدأ يقتنصهم بطرق مختلفة ويسحقهم جاعلاً إياهم تحت أقدامه .

سؤال : ماذا نفعل بالجسد عندما تحيط به الأوجاع والأتعاب وتتراخى فيه نيّة عمل الخير وتتلاشى قوته الأولى ؟

جواب : كثيراً ما تحصل هذه الحالة لبعض الرهبان ، لأنهم لم يتبعوا الرب بكليتهم ، فنصفهم تبعه والنصف الآخر بقي في العالم ، أمّا قلبهم فلم ينفصل عن الأرضيات . لقد قسّموا ذواتهم ناظرين مرة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء . وأعتقد أن كلام الحكيم سيراخ موجّه إليهم لأنهم انقسموا بهذا الشكل في محاولتهم الإقتراب من الله . يقول : « لا تقترب من هذا الطريق بقلبين ، بل اقترب مثل الزارع والحاصد »(1). فالرب يعرف الذين لم يزهدوا بالعالم كلياً ولم ينزعوا عنهم شهوة الجسد ، بل ظلّوا منفصلين بالكلام بينما فكرهم يلتفت إلى الوراء بحجة الخوف من الشدائد . فإنه لما أراد أن ينزع عنهم رخاوة الذهن أوضح لهم : « من أراد أن يتبعني فلينكر ذاته أولاً » (متى ١٦ : ٢٤) .

سؤال : ما هو إنكار الذات ؟

جواب : إن الذي تهيأ للصعود على الصليب لا يضع في ذهنه سوى فكرة الموت وينطلق كأنه قد نسي نصيبه في هذا الدهر ، وهكذا يفعل من يريد إتمام قول الرب . الصليب هو إرادة مستعدة لكل شدة ، والرب عندما كان يعلّم هذه الأمور شرحها بقوله : « من حفظ حياته يخسرها ، ومن خسر حياته من أجلي يحفظها » (متى ١٠ : ٣٩) . ويقصد بالثاني من يسير في درب الصليب مثبتاً خطواته فيه . والذي يهتم بهذه الحياة يكون قد حرم نفسه من الرجاء الذي خرج من أجله . فهذا الإهتمام لا يدعه يقترب من الشدة لأجل الله ، لأن التصاق الإهتمام به يجذبه تدريجياً

---

(1) ١ : ٢٦ .

نحو الأمور الدنيوية ويخرجه من وسط جهاد الحياة المغبوطة ، وهذا ما يجعل تفكيره يتسع ويشتد فيتغلب عليه . أمّا من يهلك نفسه، من أجل الله وشوقاً إليه فيصون ذاته للحياة الأبدية بلا لوم أو أذى . هذا هو معنى « من خسر حياته من أجلي يحفظها » . فهيىء نفسك إذن للزوال التام من هذه الحياة ، وإذا خسرت نفسك هنا فإنه سيهمس في أذنك قائلاً : « إني أعطيك الحياة الأبدية حسب وعدي لك » (يو ١٠ : ٢٨) . وإذا عشت طويلاً في هذه الحياة سأظهر لك وعدي وأؤكد لك الخيرات الآتية . وعندئذ تجد الحياة الأبدية لازدرائك الحياة الأرضية . عندما تلج ميدان الجهاد وأنت مستعد ، تزدري عينك كل ما يبدو مؤلماً ومضايقاً ، لأن الذهن إذا تهيأ بهذا الشكل لا يشعر بصعوبة الجهاد والضيقات عند خطر الموت . ولذلك يجب علينا أن نعرف أنه إذا لم يمقت الانسان حياته في هذا العالم حباً بالحياة المستقبلة المغبوطة فلا يمكنه احتمال الشدائد والآلام التي تصادفه كل ساعة .

سؤال : كيف يستطيع الإنسان أن يقطع عادته الأولى ويعتاد حياة العوز والزهد؟

جواب : لا نستطيع كبح جماح الجسد وحرمانه من حاجاته إذا تركناه وسط مسببات التنعم والرفاهية . والذهن نفسه لا يقدر أن يمنع الجسد عن هذه الأشياء التي تسبب ارتخاءه إذا لم يتغرّب هو عنها. فعندما يتمتع نظره بمشهد التنعم والأشياء الدنيوية كل ساعة وينظر إلى أسباب الارتخاء ، تستيقظ فيه شهوته وتحركه وتلهبه كالنار . لذلك كانت وصية الرب الحسنة أن على كل من يبتغي السير وراءه أن يتعرّى من كل شيء ثم يخرج من العالم . على الإنسان أن يخلع عنه أسباب الإرتخاء أولاً وبعد ذلك يباشر في العمل . فالرب نفسه فعل ذلك عندما خاض الحرب مع الشيطان في برية قاحلة جداً . وبولس ينصح الذين يحملون صليب المسيح أن يخرجوا من المدينة : « فلنخرج إليه خارج المدينة ونحمل عاره لأنه تألم خارج المدينة» (عب ١٣ : ١٢ و١٣) . عندما يُفرز أحد عن العالم ينسى عادته الأولى وحياته الماضية بسرعة ودونما تعب كثير . أمّا من يقترب من العالم وأموره فإنه سرعان ما تتراخى قوة ذهنه . ينبغي التيقن أن البعد عن العالم يساعد كثيراً ويسهّل النجاح في الجهاد الخلاصي . ويتلاءم مع هذا الجهاد أيضاً أن تكون قلاية الراهب فقيرة وبسيطة حتى تخلو من كل ما يثير فيه شهوة الراحة . عندما تبتعد

أسباب الإرتخاء عن الإنسان ينجو من خطر الحرب المزدوجة ، الداخلية والخارجية ، وعندما يبتعد عن أمور اللذة يتغلّب على التجارب بسهولة دونما تعب بعكس من يكون قريباً مما ينمّي الشهوة وما يجعل حربه مزدوجة .

إذا لم يهتم الانسان بما يغذّي الجسد تصبح الضروريات ممقوتة عنده ، حتى أنه لا يشتهي تناول القليل منها ولو في أوانه ، بل يرضي جسده بأقل ما يمكن . وهذا القليل ينظر إليه بازدراء ويتناوله من أجل تقوية الطبيعة وتشديدها وليس حباً بالتلذذ . هذه الطرق تقود الإنسان بسرعة إلى الزهد بفكر خال من الحزن والضيق . يجب على الراهب أن يكون ذا رجلين خفيفتين في الهرب بلا عودة ، من الأشياء التي تحاربه ، وألاّ يخالطها ، بل أن يتعفف حتى من النظر البسيط إليها ويبتعد عنها قدر استطاعته . إني بهذا الحديث لا أحصر الكلام في البطن وحسب ، بل أعني أيضاً كل ما يسبب الخبرة[1] والحرب اللتين تتأذى بهما حرية الراهب . إن الإنسان عندما يقبل إلى الله يكون قد قطع عهداً معه بأن يبتعد عن هذه الأشياء كلها ، أي أن لا يرى وجه امرأة ، ولا ينظر إلى وجوه جميلة ، وأن لا يشتهي شيئاً ويتلذذ به ، وأن لا ينظر إلى الملابس الأنيقة ، ولا يؤخذ بأقوال الرئاسات الدنيوية أو يفحص شؤونها ، لأن الأهواء تستمد قوة كبيرة منها وتجعل المجاهد يتراخى ويغيّر فكره ونيّته . فإذا كانت رؤية الأمور الحسنة تحرّك ميل الغيور حقاً إلى العمل بها ، فمن الواضح أن الأمور المعاكسة أي السيّئة بإمكانها أن تجعل الذهن أسيراً لها . ومجرّد وقوع الذهن الهادىء في حرب دائمة دون أي أمر آخر يلحق به ضرراً كبيراً ، لا سيّما إذا انتقل الإنسان بإرادته من السلام إلى التشويش .

فإذا كان ذلك الشيخ الناسك المجاهد[2] ، الذي رأى مرة شاباً دون لحية يشبه النساء ، اعتبر رؤيته مؤذية لفكره ومضرّة لجهاده ، فمن يقدر إذن أن يهمل جهاداً كهذا إذا كان هذا الشيخ القديس لم يرض بالدخول حتى لا يسلّم على هذا الأخ ؟ لقد فكّر هذا الشيخ الحكيم : إنني إذا تذكرت لليلة واحدة فقط وجود شيء كهذا هنا ، فيكون هذا ضررا كبيرا لي لذلك لم يدخل وقال : يا أولادي ، إني لا

---

(١) خبرة الخطيئة وهي أمر خطر وسيّء .

(٢) غير معروف .

أخاف لكن ما هي المنفعة في أن أجلب لنفسي حرباً مجانية؟ وأضاف أن تذكر هذه الأمور يسبب للذهن اضطراباً مضراً ، ففي كل عضو من أعضاء هذا الجسد توجد خدعة تسبب للإنسان حرباً كبيرة ويجب أن يتحفظ بالإحتراس والهرب منها . فعندما تقترب منه يصعب عليه كثيراً أن يسير نحو الخير، ويكون في خطر دائم من رؤيتها وشهوتها .

نحلم أن هناك حشائش هي بمثابة أدوية لكنها مدفونة في باطن الأرض ولا يقدر أحد أن يعرفها أثناء الصيف لأنها تكون يابسة بفعل الحر . لكنها عندما تتلقى الرطوبة بعد هطول المطر وتشتمّ رائحة الهواء البارد تظهر كل أجناسها وتنبت فوق الأرض التي كانت مدفونة فيها . وهكذا تكون حالة الانسان عندما يكون راتعاً في نعمة السكينة ، فإنه بحرارة الإمساك يستريح من أهواء كثيرة ، لكنه عندما يقترب من الأمور الدنيوية يرى أن كل هوى أخذ يتحرك رافعاً رأسه لا سيّما إذا اشتمّ أريج رائحة التراخي . لقد تكلمت على هذا حتى لا يتباهى أحد ما دام حياً بالجسد ، ولكي أظهر أيضاً أن الهرب والابتعاد عن أسباب الشر يساعدان الراهب كثيراً في جهاده النسكي . أمّا الأمور التي يسبب لنا العار والخزي مجردُ تذكرها ، فعلينا أن نخاف منها دائماً وألاّ نتناسى ضميرنا أو نزدريه (لأنه يؤنبنا بسببها) . فلنلجأ إلى البرية لنحصل على الصبر فيها . والأفضل أن يجاهد كل إنسان أينما كان لكي يبتعد عن سبب الحرب ، (وألا يخاف إذا تعرّض للضيق) حتى إذا ما داهمته الخطيئة لا يقع فيها .

+ سؤال : إذا ما طرح إنسان التشتت كلياً ودخل في الجهاد ، فكيف ومن أين يجب أن يبدأ الحرب ضد الخطيئة ؟

جواب : لقد أصبح معلوماً أن كل جهاد ضد الخطيئة والشهوة يبدأ بتعب السهر والصوم ، وخاصة الجهاد الذي يقاوم الخطيئة التي في داخلنا . عندما يبدأ الذين يجاهدون في هذه الحرب اللامنظورة بالصوم ثم بالسهر الذي يساعدهم في النسك ، يعلمون أن هذه الأعمال هي علامة لمقتهم الخطيئة وشهوتها .

من يرغب في معاشرة هذين الزوجين طول حياته يصبح حبيباً للعفة . فكما أن راحة البطن[1] هي بداية كل الشرور ، والإسترخاء الناجم عن النوم هو مثير شهوة الفسق ، فإن الصوم والسهر هما طريق الله المقدسة وأساس كل فضيلة . إن اليقظة في الخدمة الإلهية الصائرة بصلب الجسد طول الليل والنهار هي عكس حلاوة النوم . الصوم يحافظ على كل فضيلة وهو بداية الجهاد وإكليل الذين في الإمساك وجمال البتولية والتقديس وبريق العفة وبدء الطريق المسيحية وأمّ الصلاة وينبوع القناعة والتعقل ومعلّم السكينة وأساس كل الأعمال الصالحة . وكما أن الرغبة في النظر إلى النور هي دليل صحة العينين فكذلك الرغبة في الصلاة هي دليل الصوم الحاصل بتمييز .

عندما يبدأ أحد بالصوم تتولد في ذهنه رغبة الهذيذ بالله لأن الجسد الصائم لا يقدر أن يبقى نائماً على الفراش طول الليل ، فعندما يوضع ختم الأصوام على فم الإنسان يبدأ ذهنه بالهذيذ بخشوع ويفيض قلبه بالصلاة وتظهر على وجهه ملامح الجدّة ، وتولي الأفكار القبيحة هاربة ويختفي كل جذل من محيّاه ويصير عدواً للشهوات واللقاءات الباطلة . لا يمكن أن يكون الإنسان صائماً بتمييز ومستعبداً للشهوة الرديئة في آن واحد . الصوم بتمييز هو بناء عظيم لكل صلاح ومن يهمله يكون قد قوّض كل صلاح . هو الوصية التي أعطيت لطبيعة جنسنا منذ بدء الخليقة : ألاّ نأكل من ثمار الشجرة . والمجاهدون ، لكونهم يريدون إتمام وصايا الله يبدأون أولا بمخافته ومخافة مخالفة وصاياه لأن مخالفتها هي التي جلبت لآدم الهلاك الأول .

بدأ المخلّص صومه بعدما ظهر للعالم في الأردن . وقد اقتاده الروح إلى البرية بعد المعمودية فصام أربعين نهاراً وأربعين ليلة . وجميع الذين خرجوا للسير وراءه وضعوا بداية جهادهم على هذا الأساس . إن الصيام سلاح جعله الله لنا ، أفلا يلام من يزدري هذا السلاح ؟ وإذا كان واضع الناموس نفسه قد صام ، أفلا

(1) إشباعه بالأطعمة اللذيذة .

ينبغي لحافظي الناموس أن يصوموا هم أيضاً ؟ إن جنس الأنام لم يعرف النصر ولم يقهر الشيطان إلاّ بهذا السلاح ، وربنا - رئيس هذا النصر وبكره - هو الذي وضع إكليله الأول (الصوم) على رأس طبيعتنا. فالشيطان المعاند المستبد ، عندما يرى أحد الناس حاملاً هذا السلاح ، يخاف حالاً ويتذكر انكساره أمام المخلّص في البرية وتنسحق قوته وتحترق برؤية السلاح الذي أعطانا إياه رئيس الجنود . فهل يوجد سلاح أمضى من الجوع الصائر لأجل المسيح والمانح القلب شجاعة في الصراع ضد أرواح الشر ؟ فالجسد المحاط بزمرة الشياطين يقوى قلبه وتزداد ثقته بمقدار ما يكدّ ويشقى . والمتوشح بسلاح الصوم يلتهب بالغيرة الإلهية كل ساعة. وإيليا الغيور كانت تتأجج غيرته على ناموس الله حين كان يصوم . فالصوم يذكّر فاعله بوصايا الروح إلى كونه وسيط للناموس القديم والنعمة التي أعطيت لنا بالمسيح . المتهاون بالصوم هو متهاون بكل الجهادات ، واسترخاؤه وضعفه سيسمحان للمحارب أن ينتصر عليه ويدخل الجهاد مجرداً من سلاحه . فلن ينتصر لأن أعضاءه لم تتوشح بحرارة جوع الصيام . هذا هو الصوم ومن يثابر عليه يظل ذهنه غير متزعزع ومستعداً دائماً لمجابهة الأهواء الصعبة وطردها .

يُحكى عن كثير من الشهداء أنهم يوم انتظارهم قبول إكليل الشهادة (كانوا يعلمون ذلك إمّا بإعلان وإمّا بنبأ من أحد زملائهم) كانوا لا يذوقون شيئاً تلك الليلة ، بل كانوا يسهرون واقفين ومصلّين ، ممجدين الله بالمزامير والتسابيح والنشائد الروحية ، منتظرين تلك الساعة بفرح وحبور ، كمن يتهيأ للعرس ، مستعدّين للسيف بصيامهم . أمّا نحن المدعوين إلى الشهادة غير المنظورة لكي نحصل على إكليل التقديس فلنحترس بكل عضو من أعضائنا احتراساً خالياً من التراخي حتى لا يكون للأعداء مأخذ علينا .

سؤال : إذا قام أحد بهذه الأعمال ولم يشعر بالصفاء والراحة من الأهواء وسلامة الأفكار ، فكيف تفسّر ذلك ؟

جواب : أيها الأخ ، إن الأهواء الخفية في النفس لا يمكن أن تعالج بالأتعاب الجسدية وحدها ، لأنها لا تستطيع منع تسرّب الأفكار عن طريق الحواس ، إنما تحفظ الانسان من الشهوات فلا يُغلَب أمامها وأمام ضلال الشياطين . أمّا السلام

الصفاء فلا تقدر أن تمنحها للنفس . الأعمال والأتعاب تمنح النفس اللاهوى ، وتميت الأعضاء التي على الأرض، و تهب الراحة للأفكار عندما تكون غارقة في السكينة . وإذا انقطعت الحواس عن الإضطرابات الخارجية وداومت على عمل الحكمة مدة من الزمن ، يجب على الإنسان عندئذ أن يمتنع عن ملاقاة الناس وأن يضبط أفكاره ويجمعها داخل نفسه ليتمكن من معرفة هواه . فالسكينة كما قال القديس باسيليوس هي بداية تطهير النفس . فالذهن يعود إلى نفسه عندما تنفصل الأعضاء الخارجية عن الأمور الخارجية والتشتت الخارجي . عندئذ يستيقظ القلب ليفحص الأفكار التي خارج النفس . وإذا ثابر الإنسان على ذلك يتقدم شيئاً فشيئاً ويبلغ طهارة النفس .

سؤال: ألا تستطيع النفس أن تتطهر وهي تعيش خارج الباب ؟(باب السكينة) .

جواب : هل تجفّ جذور الشجرة التي تُسقى كل يوم ؟ هل ينقص الوعاء الذي يضاف إليه الماء يومياً ؟ وإذا كانت الطهارة هي نسيان العادات التعسفية الإرادية والتخلي عنها ، فإن من يجدد عاداته القديمة ، سواء بتصرفه الذاتي أم باختلاطه مع الآخرين ، يسبب لنفسه معرفة الشر ولا يستطيع أن يطهرها . إنه لن ينتهي من مصارعة الأشياء الخارجية حتى ينظر إلى نفسه . فإذا كان القلب يتدنس كل يوم فكيف يمكنه أن يتنقى من الدنس ؟ وإذا كان الانسان لا يقدر أن يصمد أمام المؤثرات الخارجية ، فهل يمكنه أن يطهِّر قلبه وهو واقف في المعسكر منتظراً كل يوم نبأ الحرب ؟ هل يقدر هذا الإنسان أن يبشّر نفسه بالسلام ؟ إنه يستطيع ، إذا ابتعد عن كل ذلك ، أن يسكّن الأمور الداخلية تدريجياً. إذا لم نضع سداً للنهر عند نبعه لا نستطيع أن نمنع تدفق المياه إلى مهبطه . ومتى يصل الإنسان إلى السكينة تستطيع النفس أن تميّز الأهواء وتفحص حكمتها بفهم ، فيستيقظ الإنسان الداخلي مندفعاً إلى عمل الروح ويحس بالحكمة الخفية التي أخذت تنمو في نفسه يوماً بعد يوم .

سؤال : ما هي الأدلة والعلامات الصحيحة التي تمكّن الإنسان من الشعور بإحدى الثمار الخفية في نفسه ؟

جواب : الأدلة هي تأهل الإنسان لنعمة الدموع الغزيرة المنهمرة تلقائياً ودون ضغط . فالدموع هي الحد الفاصل في الذهن بين الأمور الجسدية والأمور الروحية وبين الشهوة والنقاوة . فقبل حصول الإنسان على هذه الموهبة يبقى تأثير عمله خارجياً، ولا يمكنه إدراك فعل الأمور الخفية المتعلقة بالإنسان الداخلي . فإذا ترك الأمور الجسدية المتعلقة بهذا الدهر ورأى ذاته سائراً ضمن الحد الطبيعي يبلغ حالاً نعمة الروح التي تبدأ بثبات السيرة الخفية التي ترفعه إلى كمال محبة الله ، كما أن غناه بالدموع يزداد بنسبة تقدمه فيها ، حتى إنه يتوصل إلى مزجها بطعامه وشرابه لكثرة تدفقها .

هذه هي العلامة الصحيحة لخروج الذهن من هذا العالم وإحساسه بالعالم الروحي . وتقلّ هذه الدموع بمقدار ما يقترب الإنسان بذهنه من هذا العالم ، وتجفّ كلياً عندما يلتصق ذهنه به ، مما يعني انه مدفون في الأهواء .

في أنواع الدمــوع

ثمة دموع محرقة وثمة دموع مبهجة . فالدموع المتولدة من التخشع ومن القلب البار من أجل الخطيئة تجفف الجسد وتحرقه ، حتى أن انهمارها يسبب أذى للعقل في أغلب الأحيان . ولا مفر للإنسان منها لأنها تفتح له باباً يعبر منه إلى الرتبة الثانية التي تمتاز عن الرتبة الأولى بأنها أرض المسرّة التي فيها يحصل الإنسان على الرحمة الإلهية . دموع الرتبة الثانية تأتي من الفهم . إنها تزيّن الجسد وتبهجه وتسقط تلقائياً دون ضغط . ولا تكتفي بذلك بل تبدّل منظره كما جاء في الأمثال : « القلب الفرح يبهج الوجه أمّا الحزين فيقطبه » (ام١٥ :١٣) .

سؤال : ما هي قيامة النفس التي يتكلم عليها الرسول : « إن كنتم قد قمتم مع المسيح» ؟ (كول٣ :١) .

جواب : إن قول الرسول : « والله الذي قال : ليشرق من الظلمة النور ، هو الذي أضاء في قلوبنا » (٢كو٤ :٦) يشير إلى قيامة النفس وتحررها من « العتق » . وهذا يعني أن يصبح الإنسان جديداً وخالياً من كل أثر للعتيق ، كما

يقول حزقيال النبي : « وأعطيهم قلباً جديداً وروحاً جديداً . . . » (حز ٣٦ : ٢٦) ، لأنه حينئذ يرتسم المسيح فينا بروح حكمته وإعلان معرفته .

سؤال : ما هي ، بإيجاز ، قوة فعل السكينة ؟

جواب : السكينة تميت الحواس الخارجية وتوقظ الحركات الداخلية . أمّا الحياة خارج السكينة فتفعل العكس ، أي أنها توقظ الحواس الخارجية وتميت النفس .

سؤال : ما هي أسباب الرؤى والإعلانات ؟ ولماذا يشاهدها البعض ولا يشاهدها الآخرون رغم جهادهم الكثير ؟

جواب : إن أسباب الرؤى والإعلانات كثيرة . منها ما هو تدبيري وغايته منفعة عامة الناس ، ومنها ما هو معز ومشجع وتعليمي للضعفاء . غير أن هذه الرؤى والإعلانات يدبّرها الله أساساً بدافع من رحمته القصوى لفئات ثلاث من البشر : فئة البسطاء والأبرياء من كل الشر ، فئة القديسين والكاملين ، وفئة الذين استعرت فيهم المحبة الإلهية فنسوا العالم وزهدوا به كلياً وتخلّوا عن معاشرة الناس وخرجوا عراة وراء الله غير منتظرين معونة بشر . هؤلاء تعطى لهم التعزية حتى لا يخافوا ولا يرتعدوا من الوحدة ، ولا يقعوا في اليأس عندما يحيط بهم خطر الموت من الجوع أو المرض أو أية شدة أخرى .

أمّا لماذا تُعطى هذه التعزيات لهؤلاء وليس لأولئك الذين يتعبون ويجاهدون أكثر ؟ فلأنه عندما تكون للإنسان تعزية بشرية أو مساعدة أخرى دنيوية لا تحصل له تعزيات كهذه ، إلاّ في حالات تدبيرية استثنائية غايتها منفعة عامة الناس والكلام هنا خاص بالنساك . فالشاهد على هذه الأقوال هو أحد الآباء الذي توسّل إلى الله أن يهبه تعزية ، فسمع هذا الجواب : « تكفيك تعزية الناس» .

وأب آخر كان يتمتع دائماً بالتعزية الالهية وهو في حياة النسك ، لكنه عندما جاء إلى العالم طلب هذه التعزية كعادته فلم يجدها . وطلب إلى الله أن يكشف له السبب وتوسّل إليه قائلاً : يا رب هل بسبب الأسقفية فارقتني هذه النعمة؟[1] فقيل

(١) يقال انه في هذه الفقرة يتحدث عن نفسه عندما ترك الصحراء وصار أسقفاً على نينوى .

له : كلا ، لكن لأن الله يعتني بشكل خاص بأولئك العائشين في الصحراء ويؤهّلهم لتعزيات كهذه ، إذ يستحيل على من له تعزية بشرية أن تكون له تعزية إلهية أيضاً ، إلاّ إذا كان هناك تدبير خفي يعلمه فقط ذلك الذي يدبّر هذه الأمور .

+ **سؤال** : هل الرؤية والإعلانات هما شيء واحد ؟

جواب : لا ، بل شيئان مختلفان . فالرؤية تعرف أحياناً بالاسمين : رؤية وإعلان ، لأن الشيء الخفي يتم ظهوره من خلالهما معاً ، وعلى هذا فكل رؤية هي إعلان لكن ليس كل إعلان هو رؤية . الإعلانات في أكثر الحالات تتميّز من خلال الأمور المعروفة التي يدركها الذهن ويتذوقها وحده . أمّا الرؤية فتتم بطرق كثيرة شتى ، بصورة أو برمز . وكما حصل مع القدماء ، يتم ذلك في النوم واليقظة على السواء . فتارة تكون هذه الرؤى حقيقية وتارة خيالية . والذي يرى لا يعرف إن كان في يقظة أو في منام. وثمة حالة أخرى يتم فيها الإدراك ، إمّا بسماع صوت أو برؤية رمز ما أو بشكل واضح يجري فيه الكلام وجهاً لوجه . في هذه الأخيرة تكون الرؤية والحوار بحضور قوات مقدسة تتمّم الاعلانات ولا تظهر إلاّ للمستحقين . إن مثل هذه الأمور تحصل للمتوحدين العائشين في أماكن مقفرة بعيدة عن الناس حيث يكون الإنسان بأمسّ الحاجة إليها ، إذ لا عون ولا تعزية له سواها . أمّا الإعلانات التي تدرك بالذهن النقي فلا يتقبلها سوى الكاملين وذوي المعرفة .

سؤال : ما هي العلامة التي تشير إلى أن الانسان قد بلغ نقاوة القلب ، ومتى يعرف ذلك ؟

جواب : يكون الإنسان نقي القلب بالفعل عندما يرى أن جميع الناس صالحون ، ولا يبدو له أحد منهم مدنّساً . فهل يمكن أن يتم قول الرسول ، أي أن يعتبر المرء بقلب صادق أن الجميع أرفع منه ، إذا لم يبلغ مستوى ما يذكرنا به النبي حبقوق : « العين الصالحة لا ترى رديئاً » (حب١ : ١٣) ؟

سؤال : ما هي الطهارة وإلى أين تمتد حدودها ؟

جواب : الطهارة هي نسيان طرق معرفة الأمور التي بخلاف الطبيعة ، والتي اكتشفتها الطبيعة البشرية في هذا العالم . أمّا حدود التحرر والإنعتاق منها

فهي بلوغ الإنسان بساطة الطبيعة الأولى وبراءتها ، وأن يصير كالطفل في كل شيء ما عدا عيوبه .

سؤال : وهل يستطيع أحد أن يبلغ هذه الرتبة ؟

جواب : طبعاً ، لقد بلغ بعضهم هذا الحد كالأنبا سيسوي الذي كان يسأل تلميذه إن كان قد تناول الطعام أو لا . وآخر بلغ هذه البساطة وأصبح مثل طفل ونسي كل الأمور الأرضية حتى أنه كان يطلب أن يأكل قبل تناول الأسرار الإلهية لو لم يمنعه تلاميذه ويأخذونه للمناولة كطفل . إنه كان بالنسبة للعالم طفلاً ، أمّا نفسه فكانت كاملة بالله فعلاً .

سؤال : ماذا ينبغي أن تكون مطالعة الناسك وتأمله وهو جالس في منسكه ؟ وماذا يجب عليه أن يعمل حتى لا يتشتت ذهنه بأفكار باطلة ؟

جواب : تسأل عن التأمل والهذيذ ، أي عن موت الإنسان في قلايته . فهل المجاهد ذو النفس اليقظة بحاجة إلى استفسار عن كيفية تدبير أمور حياته ؟ فما هو تأمل الراهب في القلاية سوى البكاء ؟ وهل يستطيع أن يفكر بشيء آخر إذا كان في حالة البكاء ؟ وأي تأمل أسمى من هذا ؟ لأن ثبات الراهب في الصحراء ووحدته فيها يجعلانه يشبه الموتى في القبور ، فيتعلم الابتعاد عن فرح البشر ، ويصبح عمله النوح . والنوح يقوده إلى البكاء فيدعى إنسان النوح ، أي ذو القلب المتمرمر . جميع القديسين تركوا هذه الحياة وهم ينوحون . فإذا كان القديسون قد ناحوا وفاضت عيونهم بالدموع حتى انتقالهم ، فمن يمكنه ألاّ يبكي ؟ إن تعزية الراهب تتولد من البكاء . فإذا كان الكاملون والمنتصرون قد بكوا في هذه الحياة ، فكيف يجسر من هو مخضب بالجراح على عدم البكاء ؟ إن من يكون ميته موضوعاً أمامه ليس بحاجة إلى تعليم ، ومن يرى ذاته ميتاً بالخطايا لا يحتاج أن يتعلم كيف يبكي . فها أن نفسك ، أعزّ ما في العالم عندك ، ميتة بالخطايا وموضوعة أمامك ، أفلست بحاجة إلى البكاء ؟ إذا دخلنا إلى السكينة ومكثنا فيها بصبر يمكننا ، على أية حال ، أن نثابر على البكاء . لذلك علينا أن نطلب إلى الرب بإلحاح أن يهبنا إياه . فإذا حصلنا على هذه النعمة التي هي أسمى من جميع المواهب نتمكن من الدخول بها إلى الطهارة ، ومتى دخلنا إليها فلن تغادرنا قبل خروجنا من هذه الحياة .

طوبى لأنقياء القلوب لأنهم لا يدعون وقتاً يمرّ دون أن يتمتعوا فيه بنعيم الدموع الذي فيه يرون الرب على الدوام . وحين تكون أعينهم فائضة بالدموع يؤهَّلون لرؤية إعلاناته بصلاتهم السامية التي لا تتم إلاّ بالدموع . وهذا ما عناه الرب : « طوبى للمحزونين لأنهم يعزّون » (متى٥ : ٤) . بالنوح يبلغ الإنسان نقاوة النفس . ولهذا قال الرب إن هؤلاء يعزّون ، لكنه لم يشر إلى نوع التعزية . فعندما يؤهَّل الراهب بدموعه لاجتياز أرض الأهواء ويبلغ روضة نقاوة النفس ، تصادفه هذه التعزية . ومن يعبر هذا المكان ويختبر تلك التعزية المختلفة عن التعزية الأرضية ، يدرك أية تعزية تعقب النوح ، وما يمنحه الله للنائحين بسبب طهارتهم . إنه لمستحيل على الأهواء أن تزعج من ينوح باستمرار ، لأن موهبة الدموع والنوح هي ميزة ذوي اللاهوى . فالدموع المستمرة لا تستطيع أن تقود الباكي إلى اللاهوى وحسب ، بل تنقي ذهنه بالكلية وتحرر ذاكرته من الأهواء . وماذا نقول عن أولئك الذين كرّسوا ليلهم ونهارهم للنوح والبكاء ؟ لا يمكن أن يعرف مقدار العون الذي يأتي من البكاء إلاّ الذي كرّس نفسه لهذا العمل . إن جميع القديسين كانوا يتمنّون عبور هذه الطريق ،لأن الدموع تفتح أمامهم الباب المؤدي إلى بلدة التعزية حيث ترتسم أثار الله الصالحة والمخلّصة عن طريق الإعلانات .

سؤال : إذا كان أحد لا يستطيع أن ينوح باستمرار بسبب ضعف جسده ، فماذا عليه أن يفعل لكي يحفظ ذهنه ويقيه ثورة الأهواء ؟

جواب : إن الأهواء لا تستطيع أن تثور على النفس وتزعج الناسك الذي أفرغ قلبه من أمور الدنيا بمغادرته وابتعاده عن كل تشتت . إنها تثور عليه إذا تهاون بالأمور الضرورية وخاصة مطالعة الكتاب المقدس . فعندما يتقصى معانيه يظل بعيداً عن إزعاج الأهواء . ومتى سادت هذه المعاني في ذهنه تغادره الأفكار الباطلة هاربة ويتعذر على ذهنه عدم التشوق إلى معانيه الإلهية ، حتى أنه يفقد كل اهتمام بهذه الحياة لعظمة اللذة الناتجة من التأمل في معانيه . فترفعه عن كل ما هو أرضي خاصة إذا كان في سكينته التامة في الصحراء . ثم ينسى ذاته وطبيعته ويصبح مثل إنسان منذهل لا يتذكر شيئاً من أمور هذا الدهر حين يتأمل ويدرك عظمة أعمال

الله ، ويهتف : المجد لألوهته ، إن أعماله كلها لعجيبة حقاً . لقد رفع حقارتي وأهّلني أن أتجاسر وأتأمل فيها ، وقد اقتربت نفسي من هذه الأفكار السامية وتمتعت بها . وإذ يجول في عجائب كهذه يندهل بصورة دائمة وينتشي ويصبح في حياة شبيهة بحياة ما بعد القيامة . إن السكينة تساهم كثيراً في هذه النعمة ، لأنها تؤمّن للذهن مكاناً يبقى فيه بسلام ويبدأ التذكّر بصورة تلائم وضعه وحالته ، ويحصل على مجد الدهر الآتي والرجاء الذي يترقبه الأبرار في تلك الحياة الروحية والإستعادة الجديدة . فلا يذكر ولا يتذكّر شيئاً من أمور هذا العالم . وبعد أن ينتشي بالأمور الإلهية يعود من هناك إلى رؤية هذا الدهر الذي لا يزال يحيا فيه فيتكلم بذهول قائلاً : « ما أعمق غنى الله وحكمته وعلمه وما أصعب إدراك أحكامه وفهم طرقه » (رو١١ : ٣٣) . فإذا كان الله قد هيّأ دهراً آخراً بهذه العظمة لتدخل اليه كل الخلائق العاقلة ويحفظها لحياة لا نهاية لها ، فلماذا صنع هذا العالم أولاً ثم وسّعه إلى هذا الحد وجهّزه بكافة الأصناف والطبائع ووضع فيه مواداً وأموراً أخرى كثيرة تقود الإنسان إلى منافسة الأهواء ؟ لماذا يضعنا فيه أولاً ويغرس فينا محبة الحياة المديدة ثم ينزعنا منه فجأة بالموت ؟ ويحفظنا زمناً غير يسير دون حس ولا حركة ، ويمحو عنّا الهيئات ويحلّ عناصرنا ويمزجها بالتراب ويسمح بزوال الجسد وانحلاله ويباهس حتى أنه يفقد شكله البشري . ثم حدّد بحكمته المسجود لها أن ينهضنا ، عندما يشاء ، بشكل آخر يعلمه هو ويضعنا في حياة أخرى ؟ لسنا نحن ، معشر البشر ، الوحيدين الذين يشتهون تلك الحياة ، بل الملائكة القديسون يشتهونها أيضاً . هم ليسوا بحاجة إلى هذا العالم لأنهم ذوو طبيعة عجيبة قريبة إلى الكمال ، لكنهم ينتظرون قيامتنا من الفساد ، أي نهوض جنسنا من التراب وتجدده من غير فساد حتى يدخلوا . فهم لم يدخلوا حتى الآن لأن باب الدهر الجديد سيفتح مرة واحدة . إن الخليقة الملائكية هذه ستستريح معنا بعد أن نتحرر من ثقل الجسد الذي يكتنفنا كما قال بولس الرسول : « فالخليقة تنتظر بفارغ الصبر ظهور أبناء الله لكي تُعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أبناء الله » (رو٨ : ١٩ -٢٢) ، وذلك بعد زوال تكوين هذا الدهر بشكل تام واستعادة طبيعتنا حالتها الأولى .

بذلك يرجع الراهب بذهنه إلى ما قبل تكوين العالم ، حيث لم تكن خليقة

ولا سماء ولا أرض ولا ملائكة ولا شيء مما كوّن ، ويفكر كيف أن الله بمسرّته فقط أخرج الكل من العدم إلى الوجود ، وأن كل شيء مثل أمامه كاملاً . وإذ يتوجه بذهنه إلى أسفل ويشاهد جميع مخلوقات الله وعجائبه وحكمة إبداعه يقول في ذاته مندهشاً : يا للعجب ! كيف أن تدبيره وعنايته تفوقان كل خلائقه ، وقدرته العجيبة أقوى من كل مخلوقاته ! فكيف أخرج الخليقة من العدم إلى الوجود ، وأبدع كثرة الأشياء المتنوعة التي لا تحصى . وكيف يزمع أن يزيل ترتيبها العجيب وجمال طبائعها وحركتها المنتظمة : الأوقات والأزمنة ونظام الليل والنهار وفصول السنة وأزهار الطبيعة المتنوعة وبنايات المدن الجميلة وساحاتها الأنيقة وسرعة البشر وطبيعتهم المضنوكة منذ الولادة حتى الممات ؟ وكيف أن هذا النظام العجيب سيبطل فجأة ويأتي دهر آخر ولا يعود يصعد ذكر للخليقة الأولى إلى قلب أحد ، ويصير تحوّل آخر وأفكار أخرى واهتمام آخر ؟ إن طبيعة البشر لن تتذكر هذا العالم ولا حياتها الأولى بالكلية ، لأن ذهنها سيرتبط بمشاهدة الحياة الجديدة دون الإهتمام بالعودة إلى اللحم والدم . فعند فساد هذا الدهر سيأتي فجأة الدهر الآتي وسيقول كل انسان : أمّاه ، لقد نسيك أبناؤك الذين ولدتهم وعلّمتهم ، وها هم في طرفة عين يجتمعون في حضن غريب ويصبحون أولاداً حقيقيين للعاقر (الكنيسة العلوية) التي لم تلد قط . « رنّمي أيتها العاقر التي لم تلد فإن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل» (اش٥٤ : ١) .

عندئذ يتأمل مندهشاً ويقول : إلى متى سيدوم هذا الدهر ؟ تُرى متى سيبدأ الدهر الآتي ؟ كم ستبقى هذه الأجساد في التراب ؟ وكيف ستكون تلك الحياة ؟ أي شكل ستتخذ هذه الطبيعة وكيف ستعود إلى تكوينها الثاني ؟ وحينما يتأمل بمثل هذه الأمور يعتريه الذهول والدهش ويصبح في سكون وصمت ، ثم لا يلبث أن يحني ركبتيه ويقدّم شكراً وتمجيداً مع دموع كثيرة إلى الإله الحكيم وحده والممجد دائماً في أعماله الكلية الحكمة .

فطوبى لمن استحق هذا ، طوبى لمن يكون هذا تأمله نهاراً وليلاً كل أيام حياته . أمّا إذا لم يحس الانسان في بداية نسكه بقوة هذه المشاهدات ، بسبب

تشتت ذهنه ، ولم يستطع أن يرتفع إلى عجائب الله السابق ذكرها ، لئلا يتخاذل ويترك مقر سكينة حياته . فالزارع لا يرى السنبلة بعد غرسه الحبة مباشرة . الزرع يعقبه ضجر وتعب وألم في الأوصال وانفصال عن العادات ، وبعد الصبر يأتي أوان الأكل من الخبز المغموس بالعرق واستمرار التأمل في السكينة وامتلأ القلب بالفرح الذي لا حدّ له واختطاف الذهن السريع الذي لا يفسّر والمثابرة على التأمل بصبر . فطوبى لمن يصبر على السكينة ، فقد فُتح أمامه ينبوع إلهي يشرب منه دائماً دون توقف حتى نهاية هذه الحياة الوقتية .

سؤال : ما هو فحوى أتعاب عمل السكينة ، حتى إذا بلغه أحد يدرك أنه قد وصل إلى كمال السيرة ؟

جواب : إنه التأهل للصلاة المستمرة . فعندما يصل الإنسان إليها يبلغ قمة الفضائل كلها ، ثم يصبح مسكناً للروح القدس . أمّا إذا لم يحصل على نعمة المعزي فلن يستطيع ممارسة الصلاة المستمرة براحة . فقد قيل إن الروح عندما يسكن في انسان لا يدعه يتوقف عن الصلاة ، بل الروح نفسه هو الذي يصلّي فيه (رو٨ : ٢٦) . وعندئذ لا تنقطع الصلاة من نفسه لا في النوم ولا في اليقظة . فإن أكل وإن شرب وإن نام وإن فعل أي شيء حتى ولو كان في نوم عميق ، فإن أريج الصلاة وشذاها يصعدان من قلبه دون انقطاع . فهي لا تنفصل عنه بل تلازمه كل حين . وحتى لو بدا أنها توقفت خارجياً فإن فعلها يظل فيه داخلياً . قال أحد المتوشحين بالمسيح إن توقف الصلاة عند الأنقياء هو صلاة ، فإن أفكارهم نفسها قد أصبحت حركات إلهية ، وحركات قلوبهم وأذهانهم الطاهرة هي أصوات وديعة يصلّون بها سرّياً .

سؤال : ما هي الصلاة الروحية ، وكيف يؤهّل لها المجاهد ؟

جواب : إنها الحركات النفسية التي تشترك بفعل الروح القدس نتيجة الطهارة الخالصة . وقد يؤهَّل لمثلها واحد من آلاف الناس، لأنها سر الحالة والحياة الآتيتين . إن الإنسان يرتفع بها وبارتفاعه تنفصل طبيعته كلياً عن كل حركة وتذكر أرضيين ، ولا يصلّي كالمألوف بل يدرك بالحس أمور ذلك الدهر الروحية التي تفوق العقل البشري والتي يتم إدراكها بفعل قوة الروح القدس . [illegible]

الذهن وحركته التي حافزها الصلاة . لذلك فإن بعضاً ممن اقتنوا مثل هذه الصلاة بلغوا كمال الطهارة وأصبحت كل حركة من حركاتهم الداخلية متحدة بالصلاة بصورة حيّة ، كما قلنا سابقاً ، ولا يتوقفون عنها أبداً . وكلما دنا منهم الروح القدس يجدهم في حالة الصلاة ، فيقودهم إلى المشاهدة التي هي المعاينة الروحية التي لا تحتاج إلى أشكال ابتهالية طويلة شأن الصلوات الأخرى التي تتطلب ترتيباً منظماً وجهداً كثيراً ، لأن من هم في مثل هذه الحالة يكفيهم ذكر الله فيُسبَون بمحبته فجأة . لكنهم لا يهملون الوقوف في الخدمة حتى نهايتها احتراماً لها ، فتراهم يذهبون للصلاة في الساعات المحددة إضافة إلى صلاتهم المستمرة . فالقديس أنطونيوس عندما كان يقف للصلاة في الساعة التاسعة كان يحس أن ذهنه يرتفع . وأبٌ آخر كان يبسط يديه وهو واقف في الصلاة وكان يُختَطَف أربعة أيام أحياناً . وآخرون كانوا يُسبَون أثناء الصلاة لكثرة تذكرهم الله ومحبتهم له . إن الإنسان يؤهَّل لهذه الصلاة إذا خلع عنه الخطيئة داخلياً وخارجياً بحفظه وصايا الرب المضادة للخطيئة . فإذا أحب الإنسان الوصايا وعمل بموجبها بانتظام يتخلّص من الأمور البشرية الكثيرة ، (أي أنه يخلع عنه الجسد ويتحرر منه ، لا من الطبيعة نفسها ، بل من متطلباتها) . إن السائر حسب مشيئة واضع الناموس والحافظ وصاياه لا يمكنه أن يبقى في الخطيئة . فالرب قد وعد في الإنجيل إن كل من يحفظ الوصايا يجعل مقامه عنده (يو١٤ : ٢٣) .

سؤال : ما هو كمال ثمار الروح الكثيرة ؟
جواب : هو استحقاق الإنسان محبة الله الكاملة .

سؤال : متى يعلم الإنسان أنه قد استحقها وبلغها ؟
جواب : عندما يتحرك قلبه بمحبة الله بمجرد ذكر الله في ذهنه ، وتفيض عيناه بالدموع الغزيرة . فالمحبة تتذوّق الدموع عادة عند تذكر محبيها . فمن يكون محباً لله هكذا لا تفارقه الدموع أبداً ويجد دوماً المادة التي تذكّره بالله وحتى في نومه يكلّمه . إن من شيمة المحبة أن تفعل هكذا وهي كمال الانسان في هذه الحياة .

سؤال : إذا هاجم الإنسان فكر الكبرياء بداعي جمال الفضائل التي حصل

عليها بالتعب والشقاء والجهاد الكثير ، فكيف يمكنه أن يضبط هذا الفكر حتى لا ينصاع له ؟

جواب : عندما يعلم الإنسان أنه بسبب كبريائه قد سقط مبتعداً عن الله كورقة شجرة يابسة ، عندئذ يدرك قدرته . إذا كان يظن أنه قد حصل على هذه الفضائل بقوته وصبره على كل الجهادات دون معونة الله ، وأنه أهّل للدخول في الصراع ضد الشياطين دون مؤازرة الرب الذي يساعد المجاهدين عادة في جهادهم ويؤازرهم ، عندئذ تنكشف قوته ، لا بل هزيمته وانكساره وعجزه . إن عناية الله تحفظ القديسين وتقويهم في كل وقت ، وبها تنتصر كل طغمات البشر ، خاصة عندما يقبل الإنسان إلى جهاد الشهادة والعذاب وغيرها مما يحصل من أجل الله . هذه الأمور واضحة وخالية من أي شك . فكيف تستطيع الطبيعة أن تنتصر على قوة الإثارات التي تثير أعضاء بعض الناس بصورة متواصلة وتحزنهم وتسيطر عليهم سيطرة تامة بينما بعضهم الآخر ، رغم تشوقهم ومحبتهم للنصر ، لا يستطيعون أن يقاوموا بشدة فيهزمون كل يوم متألمين ونائحين ويشقون من أجل نفوسهم . أنت تقول إن بإمكانك أن تتحمل صعوبات جسدك دون أن تحزن كثيراً . كيف يستطيع جسد ضعيف أن يصارع قطعة حديد ويتحمل كسر أعضائه وكل نوع من أنواع العذاب ولا يرزح تحت آلام الجسد الذي لا يمكنه تحمل جرح شوكة تصيبه تحت ظفره ؟ فهل يستطيع أن لا يشعر بهذه الأنواع من الآلام - وهذا مخالف للطبيعة - إذا لم تكن هناك قوة أخرى خارج قوته الطبيعية تطرد عنه شدة العذابات ؟ وبما أننا أتينا على ذكر عناية الله فسنسرد قصة مفيدة للنفس ومشجعة للإنسان في جهاداته :

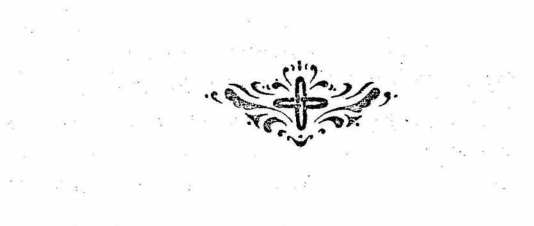
كان شاب يُدعى ثيودوروس قد تعرّض لتعذيب الجسد ، فسأله أحدهم : كيف كنت تحس أثناء ذلك ؟ فأجاب : كنت أتألم كثيراً ثم رأيت شاباً يقوّيني ويمسح عرقي أثناء جهادي ويمنحني الراحة . فيا لرأفة الله العجيبة ! كيف أن نعمته تقترب من أولئك الذين يجاهدون في سبيل اسمه فيجعلهم ثابتين في الصبر على الآلام بفرح من أجله !

لا تكن جاحداً عناية الله الساهرة عليك أيها الانسان . وما دام قد اتضح أنك

لست المنتصر ، بل أنك كنت مثل أداة وأن الله هو المنتصر فيك ، وأنك نلت منه شهادة النصر مجاناً ، فما يمنعك أن تطلب ، كل حين ، هذه القوة عينها لكي تنتصر ، فيثنى عليك وتشكر الله ؟ ألم تسمع ، أيها الإنسان ، كم من المجاهدين منذ إنشاء العالم قد سقطوا من علو جهاداتهم لعدم شكرهم النعمة ؟ فكما أن المواهب التي يمنحها الله للجنس البشري كثيرة ومختلفة ، فكذلك يكون مدى قبولها مختلفاً في نفوسهم بحسب وضع كل منهم . وثمة تفاوت بين المواهب الإلهية ، فمنها ما هو كبير ومنها ما هو صغير . وهي كلها سامية وعجيبة ، إلاّ أنها تتمايز بالمجد والكرامة ، لأن الرتب تختلف عن بعضها . إن تكريس النفس للعيش في الفضيلة هو أسمى المواهب التي يعطيها المسيح . وكثيرون استهانوا بهذه الموهبة لأنهم لم يعتبروا انفصالهم عن الذات وتكريس ذواتهم لله وتأهّلهم للشركة ولمساعدة الآخرين وللعمل الإلهي هي عطايا إلهية . فهم عوض أن يشكروا الله على ذلك انجرفوا نحو الكبرياء والإفتخار ولم يقرّوا أنهم نالوا النعمة لخدمة الله في الصلاة والحياة الطاهرة والعمل الروحي ، وأنكروا أنه هو الذي اختارهم من بين الناس وجعلهم أخصاءه في معرفة أسراره . ولم ترتعد نفوسهم عندما فكّروا بهذه الأمور مع أنهم شاهدوا عاقبة من سبقوهم إليها وكيف أحدرهم الرب من هذه الرتبة وجرّدهم في طرفة عين من سمو المجد والكرامة الذي كانوا يتزيّنون به . وما لبثوا أن انحرفوا نحو الفساد والفجور والأعمال القبيحة بطرق بهيمية إذ جهلوا قوتهم ولم يتذكروا ذلك الذي منحهم نعمة خدمته على الدوام ، ونسوا أن مصيرهم هو داخل ملكوته وأنهم مساكنو الملائكة وأنهم بالسيرة الملائكية وحدها يقدرون أن يقتربوا منه ، ففصلهم عن خدمته وتغيّرت سيرتهم الهادئة وأدركوا أن ما جعلهم يسيرون ، أثناء السكينة ، سيرة منتظمة خالية من أي إزعاج يسببه ضغط الطبيعة أو ضغوط الشياطين وغيرها ، ليس عائداً إلى قوتهم بل إلى قوة نعمته الفاعلة فيهم والمحققة ما لا يستطيع العالم أن يسعه أو أن يسمع به . هؤلاء صبروا زمناً طويلاً ولم يغلبوا لأن قوة النعمة كانت تتبعهم وتقويهم وتحفظهم في كل شيء . وعندما نسوا هذه القوة تمّ فيهم كلام الرسول القائل : « ولأنهم رفضوا أن يحتفظوا بمعرفة الله ، أسلمهم الله إلى فساد عقولهم يقودهم إلى كل عمل شائن . وامتلأوا بأنواع الإثم والزنى والشر والطمع والفساد » (رو ١ : ٢٨ و ٢٩) .

سؤال : إذا تجاسر أحد وأقدم مباشرة على ترك معاشرة الناس وخرج بغيرة صالحة إلى برية مخيفة غير مأهولة ، فهل يموت جوعاً بسبب عدم توفر الملجأ والضروريات الأخرى له ؟

جواب : إن الذي هيّأ مساكن للحيوانات ، قبل خلقها ، واعتنى بتأمين حاجاتها، لا يمكن أن يهمل صنعة يديه وخاصة خائفيه الذين يتبعونه ببساطة وغيرة . إن من يسلم مشيئته لله في كل شيء ، لا يهتم بعدها بحاجات جسده وبالعذاب والشقاء بل يشتهي دوماً أن تبقى حياته خفية ويعيش في التواضع ، لا كخائف من الشدائد بل كمن يحسب التغرّب عن العالم لذيذاً وحلواً من أجل طهارة سيرته ، فيشقى بين الجبال والهضاب كالضال في أرض تسكنها الحيوانات الضارية ، ولا يرضى الراحة الجسدية والعيش المليء بالأدناس . إنه يسلم ذاته إلى الموت وينوح ويصلّي باستمرار كي لا يفقد حياته النقية مع الله ، وعندئذ ينال المعونة ممن له المجد والكرامة . فعسى أن يحفظنا أنقياء به ، ويقدسنا بنعمة الروح القدس إكراماً وتمجيداً لاسمه القدوس إلى دهر الدهور ، آمين .



المقالة السادسة والثمانون

في مواضيع مختلفة
سؤال وجواب

سؤال : هل يحسن الإبتعاد عن كل ما يثير الأهواء ؟ وهل يُعتبر هذا الهرب انتصاراً للنفس أو انكساراً لها ، بما أنها فضّلت الهرب على الحرب واختارت الراحة ؟

جواب : سنجيب عن هذا السؤال باختصار . يجب على الراهب أن يهرب كلياً من كل ما من شأنه أن يثير فيه الأهواء الرديئة حتى يقطع أسبابها الرديئة وكل ما يمكن أن يساهم في تقويتها ونموّها . أمّا إذا دعت الحاجة يوماً إلى مقاومتها وصراعها فعلينا أن لا نتخاذل بل أن نقاومها ، لا كمن يتسلّى ، بل بكل جدّ ومهارة . فعندما يهاجَم الراهب ، وهو في مشاهدة الروح ، عليه أن يعيد ذهنه من هناك إلى التأمل في الصلاح الطبيعي الذي وضعه الخالق في الطبيعة ، وإن كان الشيطان قد شوّه الحقيقة بغية الإختيار الرديء . وأقول أيضاً : إن على الراهب أن لا يهرب ، ليس من إزعاج الأهواء وحسب بل من إنزعاج حواسه أيضاً ، وأن ينـزل إلى إنسانه الداخلي ويبقى هناك وحيداً ، مداوماً على العمل في كرمة قلبه إلى أن توافق أعماله دعوته الرهبانية الداخلية والخارجية معاً . وهذا البقاء في الإنسان الداخلي يجعلنا نتحد كلياً وبمعرفة برجائنا المسيح الساكن فينا . فإذا استمر بقاء الذهن هناك وحيداً لا يكون هو الذي يحارب الأهواء بل النعمة ، مما يوقف تأثير الأهواء عليه .

سؤال : إذا فعل الإنسان شيئاً لتنقية نفسه فشكّ به الآخرون لعدم معرفتهم سيرته الروحية ، فهل ينبغي أن يترك هذه السيرة الإلهية أو أن يتمّم هدفه ولو بدا مضرّاً للناظرين ؟

جواب : إذا كان ما يفعله الراهب بغية تنقية ذهنه وبلوغه الطهارة موافقاً

لتقليد الآباء القديسين ، فإنه لا يتحمل مسؤولية شك الآخرين بل هم يتحملونها . فإذا تعفّف أو صام أو أغلق على نفسه أكثر منهم فهو لا يفعل ذلك بغية تشكيك الآخرين بل لتنقية ذهنه ومنفعة نفسه . أمّا أولئك فبلومهم إياه ، مع جهلهم هدف سيرته ، يضعون المسؤولية على عاتقهم بالفعل . إن حياتهم المتوانية لا تمكنهم من إدراك الهدف الروحي الذي صمّم عليه لتطهير نفسه . وقد كتب بولس المغبوط إلى أمثالهم قائلاً : « إن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة » (١ كو ١ : ١٨) . لماذا ؟ لأن كلمة الصليب حُسبت جهالة عندهم لأنهم لم يدركوا قوة الكلمة . فهل كان على بولس أن يصمت ؟ ها أن موضوع الصليب لا يزال عثرة وشكاً لليهود واليونانيين حتى اليوم ، فهل نصمت عن هذه الحقيقة كي لا يعثر أولئك ؟ إن بولس لم يصمت ، بل صرخ قائلاً : « أمّا أنا فحاشا لي أن أفتخر إلاّ بصليب يسوع المسيح » (غلا ٦ : ١٤) . إن هذا الإفتخار بالصليب الذي يذكره القديس الرسول ، لا يبتغي معثرة الآخرين ، بل إظهار عظمة قوة الصليب . فتمّم ، أيها القديس ، سيرتك حسب الهدف الذي صممت عليه لتبلغ الله وقابلها بالوصايا الإلهية وبما أخذته عن الآباء القديسين حتى لا يدينك ضميرك . وإذا اتهمك أحد ممن تعثّروا فلا تخف ، لأنه لا يمكن لمن يعمل من أجل الله في الخفاء أن يرضي جميع الناس أو أن يقنعهم على السواء .

فطوبى ، أيها العزيز ، للراهب الذي يسعى باجتهاد وبكل قوته وراء طهارة نفسه ويسير بوعي في الطريق الذي سار عليه آباؤنا وارتقوا درجاته بترتيب ونظام . فبالحكمة والصبر على الشدائد سيرتفع ويبلغ نهايته لا بالطرق الغريبة المبتدعة .

إن طهارة النفس هي الهبة الأولى لطبيعتنا ، وبدون التنقية من الأهواء لا تشفى النفس من أدران الخطيئة ، ولا تحصل على المجد الذي فقدته بالمعصية . فاذا استحق أحد الطهارة ، التي هي عافية النفس ، يستطيع ذهنه قبول الفرح بحس الروح ، ويصبح ابناً لله وأخاً للمسيح ، ولا يبقى عنده مجال لتحسس الحسنات والسيئات التي تعتريه .

ومن وضع قانوناً لنفسه أن يبقى في السكينة سبعة أسابيع أو أسبوعاً واحداً ، وفي نهايته خرج وخالط الناس بغية تعزية نفسه وأهمل الإخوة الذين في الضيق ، ظاناً أنه يحفظ القانون الأسبوعي ، هو إنسان قاس وعديم الشفقة . وذلك واضح

من تشامخه وعدم إستقامة رأيه ، إذ يزعم أنه لا يملك شيئاً وأنه أسمى بكثير من أن يتعاطى بالأشياء المادية ليصنع بها رحمة للإخوة .

من يزدري الضعيف لن يرى النور ، ومن يصرف وجهه عمّن هم في الشدة تظلم أيامه . ومن يحتقر صوت من هو في الشقاء يسبب العمى لأبناء بيته . لا نجدفنّ على اسم السكينة العظيم بجهل . فلكل سيرة وقتها ومكانها وميزتها ، وبذلك تعرف إن كانت أعمالها مقبولة لدى الله أم لا . بدون أعمال الرحمة ، باطل عمل الذين يحاولون بلوغ درجة الكمال . من كان ضعيفاً واحتاج مساعدة الآخرين ، فليتضع وليقاسم القريب أتعابه في الأوقات التي تحيط به التجارب ، فيكون عمل سكينته زاخراً بالفرح وبعيداً عن كل تشامخ الأبالسة وضلالها .

قال أحد القديسين العارفين : لا شيء يستطيع إنقاذ الراهب من شيطان الكبرياء ، وصيانة عفته من التهاب هوى الفسق ، مثل زيارة الناس المنطرحين على الأسرّة والمتضورين بشدة الألم .

إن عمل السكينة الملائكي يكون عظيماً عندما يتّحد بالتمييز بغية التواضع . فإذا كنّا نجهل التمييز نسلب ونخدع . أقول ذلك كي لا نهمل عمل السكينة ونزدريه . فإننا في كل مكان نشيد بها ، فلا أريد أن نكون الآن مناقضين لأقوالنا ، ولا أريد أن يتمسك أحد بقول من أقوالي دون فهم ويترك الباقي .

أذكر أنني قلت في أمكنة كثيرة ، إنه إذا مكث أحد الإخوة في قلايته بطالاً عن العمل كلياً ، فيجب أن لا يفكر بتركها بسبب الحاجة التي تتولد أحياناً عن ضعف الطبيعة ، وأن لا يعتبر أن العمل خارج القلاية أفضل من الهدوء داخلها . وأعني الترك النهائي لا الخروج منها بضعة أسابيع لبيع أشغالنا وشراء بعض الأمور التي يحتاجها قريبنا لمعيشته وراحته مما تعتبره أنت بطالة . أمّا إذا اعتبر أحد أنه أصبح كاملاً ومتسامياً عن الأرضيات لأنه يعيش مع الله بصورة دائمة ، وأنه ابتعد عن كل الأشياء المنظورة ، فلينسى الخروج لأنه حسناً يفعل .

إن العاملين بتمييز مستعينين بالله يكون عملهم عظيماً . فعسى أن يعطينا برحمته إتمام قوله : « عاملوا الناس مثلما تريدون أن يعاملوكم » (لو ٦ : ٣١) . فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يساعد قريبه بشيء منظور ، ولا أن يترجم محبته له

بالجسد ، يكفيه عندئذ أن يحفظ محبته له بالفكر وهذا ما يرضي الله ، خاصة إذا كان عمله في مكان القفر والسكينة سامياً جداً .

أمّا إذا كنّا نعجز عن إتمام كافة متطلبات السكينة فعلينا عندئذ أن نكمل النقص بإتمام العمل الجسدي الذي يؤمّن لحياتنا الراحة والطمأنينة ، حتى لا تجد حريتنا حافزاً إلى الخضوع للجسد . فعسى أن يعطينا الله معرفة إرادته كي نسير بموجبها دائماً ونبلغ راحته الأبدية بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذي له ينبغي كل مجد وإكرام وسجود ، الآن وإلى دهر الدهور التي لا نهاية لها ، آمين .



رسائل القديس إسحق السرياني

الرسالة الأولى

موجّهة إلى أخ يهوى السكينة

أيها الأخ الصالح ، لما كنت أعرفك محباً للسكينة ، ورأيت أن الشيطان الذي يعرف هدفك يحاول أن ينصب لك فخاخاً كثيرة بحجة فعل الخير ليشتتك ويصدك عن الفضيلة (فضيلة السكينة) المحتوية على الكثير من طرق الخير ، فسأكتب إليك ما اقتبسته من رجال حكماء في الفضيلة ومن الكتاب المقدس ومن الآباء ومن خبرتي الشخصية ، حتى أشدد شوقك الصالح بكلام مفيد كعضو مشارك لي . إن الإنسان الذي لا يزدري الكرامات والإهانات من أجل السكينة ولا يحتمل الهوان والهزء والضرر وحتى اللطمات ، ولا يصير سخرية ويحسب كجاهل وأحمق لمشاهديه ، لا يستطيع الثبات على هدف السكينة الصالح . فإنه إذا فتح الباب للأسباب مرة واحدة فقط ، لن ينفك عنه الشيطان حاملاً إليه بعضاً منها مصحوباً بالحجج الكثيرة فتقوده إلى لقاءات متواترة لا تحصى . فإذا كنت ، يا أخي ، تحب فضيلة السكينة ، الخالية من التشتت والتنقل والفراغ ، التي بواسطتها انتصر القدماء ، فستحقق رغبتك الممدوحة ، خاصة إذا تشبهت بآبائك ووضعت في ذهنك سيرة حياتهم . لقد أحبوا السكينة التامة ولم يهتموا بمحبة ذويهم وراحتهم الخاصة ، ولم يخجلوا من هربهم من ملاقاة الناس الشرفاء . وبالرغم من سلوكهم هذا ، فإن الحكماء وذوي المعرفة لم يعدّوهم مزدرين الإخوة أو مهملين ومتكبرين وضعفاء التمييز ، كما قال أحدهم في دفاعه عن السكينة والوحدة التي يفضّلها على لقاء الناس . قال إن الإنسان الذي علّمته الخبرة حلاوة السكينة في قلايته ، لا يزدري قريبه عندما يهرب من ملاقاته ، إنما يهرب لانجذابه بالثمر الذي جناه من السكينة . ثم أضاف : كيف نفسّر إذن هروب الأنبا أرسانيوس الذي لم يكن ينشرح لملاقاة أحد ؟ إن الأنبا ثيودوروس كانت له

لقاءات غير أنها كانت حادة كالسيف[1] ولم يكن يسلّم على أحد عندما يكون خارج قلايته. ذهب أحد الآباء مرة ليرى الأنبا أرسانيوس ففتح له معتقداً أنه خادمه. فلما شاهده سقط بوجهه على الأرض. فألحّ عليه أن ينهض ويباركه فيذهب. فأجابه القديس: لن أنهض قبل أن تغادر المكان. وبالفعل فإنه لم ينهض قبل مغادرته. كان يفعل ذلك لكي لا يعطي لزوّاره سبباً للعودة إليه.

إفْهم معنى القول ولا تظنن أنه كان يحابي الوجوه، أي يزدري الحقير ويكرّم الوجيه، بل كان يهرب من الجميع، الكبير والصغير، غير آبه بلقائهم ومحتملاً تعييراتهم من أجل شرف السكينة والصمت. يؤكد لنا ذلك ما حدث مع المغبوط رئيس الأساقفة ثيوفيلس عندما أراد أن يكرّم قاضي البلاد الذي كان يتمنى مشاهدة القديس أرسانيوس، فاصطحبه يوماً إليه مع وفد. فلما مثلوا أمامه جلس القديس قبالتهم دون أن يتفوّه بأية كلمة إكراماً لهم، علماً أن كثيرين كانوا يتمنون سماع كلامه. فرجاه رئيس الأساقفة أن يتكلم، فأجابهم بعد فترة قصيرة: أتحفظون كل ما أقوله لكم؟ فوعدوه بذلك. فقال: لا تقتربوا من المكان الذي تسمعون بوجود أرسانيوس فيه. أرأيت عظمة الشيخ ومدى احتقاره ملاقاة الناس؟ إنه الإنسان الذي اجتنى ثمار السكينة. هذا المغبوط لم يعتبر أنه كان أمام رجل ذي شهرة وأمام رئيس الكنيسة، بل فكّر فقط أنه قد مات عن العالم، وليس بإمكان الميت أن ينفع الأحياء بشيء. فلامه الأنبا مكاريوس لوماً مليئاً بالمحبة قائلاً: لماذا تهرب منّا؟ فأجابه الشيخ جواباً غريباً وشيّقاً: يعلم الله أني أحبكم لكن يستحيل عليّ أن أكون مع الله ومع الناس في وقت واحد. هذه المعرفة العجيبة لم يتعلّمها إلاّ من الصوت الإلهي الذي قال له: يا أرسانيوس إهرب من الناس تخلص.

لا يجوز للبطالين محبّي اللقاءات أن يتجرأوا على تشويه هذه الأقوال، وأن يهدموا ما قاله هذا القديس، متكلمين ضده ومعتقدين أن أقواله هي صياغة بشرية للدفاع عن السكينة. إنها تعليم سماوي. لا تظن أن هذه الأقوال قد قيلت له ليهرب من العالم ويبتعد عنه فقط، بل عن الإخوة أيضاً. فعندما ترك العالم وأتى

(١) قصيرة جداً.

ليسكن اللافرا[1] ، صلّى إلى الله أن يعلن له كيفية العيش الحسن وقال : أرشدني يا رب إلى سبيل خلاصي ، فأجيب بما لم يكن يتوقعه ، إذ أجابه الصوت السيدي ثانية : أرسانيوس ، أهرب واصمت واهدأ . ثم أضاف : إن رؤية الإخوة والتحدث معهم أمر مفيد جداً لكن لا ينفعك بمقدار ما ينفعك الهرب منهم .

عندما تقبّل المغبوط هذه الأمور من الإعلان الإلهي ، وهو لا يزال في العالم ، تركه هارباً منه . لكنه سمع الصوت ثانية وهو مع الإخوة فتأكد عندئذ أن الهرب من أهل الدنيا وحده لا يكفيه للحصول على حياة صالحة بل يلزمه الهرب من كل شيء . فمن يستطيع مقاومة الصوت الإلهي ؟ لقد قيل للقديس أنطونيوس بالإعلان : إذا كنت تشاء أن تعيش في السكينة فلا يكفي أن تذهب إلى طيبة[2] بل إلى البرية الداخلية . فإذا كان الله يأمرنا بالهرب من الجميع ويحب السكينة بهذا المقدار ، فليصبر إذن أولئك الذين يحبونه ، وليصمت كل من يختلق حججاً ويقول إن توافق الأمرين ممكن ، أي البقاء في السكينة والإقتراب من الناس . فإذا كان حفظ الذات والهرب من العالم أمرين ضروريين لأنطونيوس وأرسانيوس ، فما حال الضعفاء إذن ؟ وإذا كان العالم بأسره بحاجة إلى أقوالهما ومشاهدتهما ومساعدتهما ، وإذا كان الله سرَّ أن يعيشا في السكينة على أن يساعدا الأخوية كلها - وبالأحرى البشرية - فكم تكون حياة السكينة ضرورية حتى لمن لا يحفظون أنفسهم جيداً ؟

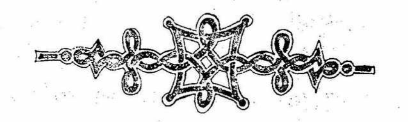
لقد عرفنا قديساً آخر كان أخوه مريضاً وحبيساً في قلاية أخرى ، وكان يمنع عنه عطفه طول مرضه دون أن يخرج لمشاهدته . فعندما قرب أوان خروجه من هذه الحياة أرسل إليه قائلاً : إنك لم تزرني إلى اليوم ، فتعال الآن لأراك قبل خروجي من العالم ، تعالى ولو في الليل فأقبّلك وأستريح . لكن ذلك المغبوط لم يفعل حتى في تلك اللحظة التي تتحرك فيها مشاعر الطبيعة - لمشاركة الآخرين - بما يتجاوز حدود الإرادة البشرية ، بل فكّر في ذاته قائلاً : إن خرجت لن أكون طاهر القلب أمام الله لأني أهملت زيارة الإخوة الروحيين وفضّلت الطبيعة (القرابة الدموية) على المسيح . فتوفي أخوه ولم يره .

---

(١) دير تعيش فيه جماعة رهبانية .

(٢) الصحراء المصرية حيث كانت الأديرة .

فلا يتعللنّ أحد بأفكاره بداعي الكسل ويدّعي استحالة هذه الأمور ، فيبيدها ويبطل سكينته رافضاً عناية الله به . فإذا كان القديسون قد تغلّبوا على الطبيعة القوية إلى هذا الحد ، وإذا كان المسيح يحب أن يُهمَل أبناؤه إكراماً للسكينة فأية ضرورة أخرى يستحيل عليك تركها إذا أحرجتك ؟ إن الوصية القائلة : أحبب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك أكثر من العالم وأكثر من الطبيعة ومتطلباتها (متى ٢٢ : ٣٧) تتم بالصبر في السكينة . والوصية التي تتكلم على محبة القريب تتضمن محبة الله . أتريد أن تملك محبة القريب في نفسك حسب الوصايا الإنجيلية ؟ ابتعد عنه فتلتهب فيك نار محبته وعندما تشاهده تفرح برؤيته كما برؤية ملاك من نور . أتريد أيضاً أن يتعطش إليك محبّوك ؟ لا تظهر لهم إلاّ أياماً قليلة ، لأن الخبرة هي بالحقيقة معلّمة الجميع . كن معافى . أمّا إلهنا فله النعمة والمجد إلى الدهور ، آمين .



الرسالة الثانية

موجّهة إلى أخ له بالجسد وبالروح

لست قوياً إلى هذا الحد أيها المغبوط ، ولعلك لا تعرف ضعفي . يبدو لي أنك تريد هلاكي ، إذ تطلب مني دائماً أن أراك لأنك تلتهب شوقاً إليّ ، وهذا ما لا يجب أن نهتم به . أخي ، لا تطلب مني ما يؤمّن للجسد الراحة والرغبة فقط ، بل أطلب ما يؤمّن خلاص نفسي . سنغادر هذه الحياة بعد زمن قصير . ألا تعلم أنني سأصادف في مجيئي إليك وفي رجوعي أشخاصاً كثيرين وأناساً متعددي الأنواع ؟ فهل تجهل أن الأسباب التي تولّد الأفكار ستزداد في نفسي بسبب هذه اللقاءات ، وأن الشوق سيوقظ الأهواء التي كانت قد هجعت قليلاً فاستراحت نفسي منها . لا تجهل هذا . إن رؤية أهل الدنيا تؤذي الراهب ، وأنت تعرف هذا . تأمل مقدار التغيّر الحاصل في ذهن من قضى زمناً طويلاً في السكينة ثم انفصل عنها فجأة ونظر وسمع ما لم يتعوّده . فإذا كان لقاء الرهبان بعضهم البعض يؤذي الراهب المجاهد الذي لا يزال يحارب ضد عدوه ، والذي لا تتفق حالته مع أحوالهم ، ففي أي بئر نقع وأي جهاد سيُطلب منّا كي ننقذ من مخالب العدو نحن الذين حصلنا على المعرفة بخبرة كثيرة ؟ لذلك لا تطلب مني أن أفعل هذا الأمر دون ضرورة . ولا يضلّنا أحد ويقول إن السماع والنظر لا يؤذياننا بشيء وإننا سنبقى بالفكر على ما نحن عليه سواء في البرية أم في العالم ، في قلايتنا أم خارجها ، وإننا لن نضطرب ، بسبب ليننا ، ولن نتغيّر ونميل نحو الشر ، ولن نحس بإزعاج الأهواء لنا إذا ما صادفنا الأشياء والتقينا بالأشخاص . إن الذين يتفوّهون بذلك لا يتأثرون بهذه الأمور ولو تخضبوا بالجراح ، أمّا نحن فلم نبلغ صحة النفس بعد ، فجراحنا ما زالت تفوح بالنتن ، وإذا تركت يوماً بلا علاج وضماد ترعاها الديدان .

الرسالة الثالثة

موجّهة إلى أحد أعزائه يعلّمه فيها ما يتعلق بأسرار السكينة

لقد اضطررت بداعي الواجب ، يا أخي ، أن أكتب لك عن متطلبات السكينة ، لأذكّرك بها حسب وعدي لأنني وجدتك مثبّتاً ذاتك على أساس السيرة الدقيقة وسالكاً حياة السكينة . سأرسم في ذاكرتك بكلام موجز كل ما سمعته عن الآباء المميّزين في السكينة ، وما كنت أحفظه في ذهني وأطبّقه وأختبره عن قرب . لكن يبقى عليك أن تقرأ هذه الرسالة بجدّ وأن تقترب من مضمونها وأن تقرأها بفهم وحكمة ، خلافاً لما تعوّدت عليه ، وأن تأخذها بمثابة نور لباقي مطالعاتك لما فيها من قوة كبيرة خفية ، لكي تتعلم كيفية السلوك في السكينة وطريقة العمل فيها وماهية أسرار عملها . إن البعض يستصغرون عمل البرّ وسط الناس ويفضّلون شدائد السكينة وجهادات حياة الهدوء والوحدة . فإذا كنت تودّ ، يا أخي ، أن تجد حياة منزهة عن الفساد في أيامك القصيرة ، فليكن دخولك إلى السكينة بتمييز . إفحص عملها ولا تسارع إليها بدافع من اسمها ، بل أدخل وعمّق وجاهد واجتهد لتصل مع جميع القديسين إلى معرفة عمقها وسمو سيرتها . كل عمل يقوم به الإنسان ، من بدايته حتى نهايته ، له هدف . والأمل يحث الذهن على تثبيت أساس هذا العمل ، أمّا الهدف فيشدد الذهن لاحتمال صعوباته ويمنحه تعزية برؤية تحققه . فالثابت في عمله يكون ذهنه أيضاً ثابتاً فيه حتى النهاية ، وهكذا عمل السكينة الشريف فإنه يكون ميناء للأسرار عندما يوجد هدف واعٍ في الذهن يراقب البناء في كافة تتطوراته حتى نهاية أعماله الطويلة الشاقة . وكما يراقب ربّان السفينة النجوم دائماً ، فإن المتوحد يظل مراقباً بناظره الخفي طريق مسيره على أساس الهدف الذي وضعه في ذهنه منذ اليوم الأول الذي نذر نفسه فيه للسير في بحر السكينة القاسي حتى يجد اللؤلؤة التي رمى بنفسه في عمق بحر السكينة الذي لا

يدنى منه من أجلها . إن الرجاء يخفف عنه ثقل العمل والمشقة المليئة بالأخطار التي تعترضه أثناء مسيره . ومن لا يضع هذا الهدف في نفسه في بدء سكينته يكون عمله دون تمييز ويشبه من يصارع الهواء ، ولن يتحرر من روح الضجر ما دام حياً . فهو مزمع إمّا أن يملّ من الثقل الرازح تحته فيُغلَب ويغادر السكينة نهائياً ، وإمّا أن يبقى فيها فتصبح قلايته سجناً له فيقلى فيها لجهله رجاء التعزية التي يولّدها عمل السكينة ، ويستحيل عليه أن يتضرع عند الحاجة بقلب متوجع أو أن يبكي أثناء الصلاة. وقد أشار إليها آباؤنا المفعمون بالرحمة والذين يحبون أبناءهم، في كتاباتهم من أجل أحبائهم الذين يحتاجونها في حياتهم.

قال أحدهم : إن ربحي من السكينة هو انعتاق ذهني من الإهتمامات التي تسبب له الحروب ، وانصرافه إلى العمل الأسمى كلما شعرت إني غريب عن المسكن الذي أعيش فيه .

وقال آخر : إني أسرع إلى السكينة حتى تحلو في نفسي عبارات المطالعة والصلاة ، وعندما يتوقف لساني عن قراءتها بفعل اللذة ، أسقط كالنائم ، بسبب تقلص حواسي ، مغموراً بمعانيها . وعندما يصفو قلبي من ضجة الذكريات بعد سكينة طويلة ، تتوافد إليّ فجأة ، وبشكل دائم ، أمواج الفرح النابعة من الذكريات الداخلية ليتنعم بها قلبي . وعندما تقترب من سفينة نفسي تنسيها الأقوال العالمية والحياة الجسدية وتغمرها بالعجائب الحقيقية داخل السكينة الإلهية .

وقال آخر : السكينة تقطع العلل والأسباب التي تجدد الأفكار ، وتعتّق داخل سورها الذكريات الماضية (الشريرة) وتذبلها . وعندما تذبل المواد القديمة يعود الذهن إلى نظامه الأول فيوجهها كما يشاء .

وقال آخر : إنك تعرف ماهية خفاياك من نوعية الأفكار التي تراودك باستمرار ، وليس من الأفكار العابرة والناجمة عن ظرف طارىء . لا يوجد انسانٌ لابسٌ جسداً يستطيع البقاء حراً من التحولات التي تطرأ على نفسه سواء كانت من الصالحات أم من السيئات . فإن كان كاملاً لا يتأثر بها إلاّ قليلاً ، وذلك لقوة طبيعته . أمّا إذا كان ضعيفاً فإنه ينجو من التحولات الكبيرة بسبب خميرة النعمة

الكامنة في طبيعتنا[1] .

وقال آخر : اتخذ سهر الليل الدائم عمل تنعم لك . فيه استطاع الآباء جميعهم أن يخلعوا الإنسان العتيق واستحقوا بذلك تجديد أذهانهم . إن النفس تحس خلال هذه الأوقات بالحياة الأبدية ، وبهذا الحس تخلع عنها ثوب الظلمة فتتقبل الروح القدس .

وقال آخر : عندما يرى أحد وجوهاً متنوعة ويسمع أصواتاً متعددة تختلف عن تأمله الروحي ، ويتحدث ويتعامل معها ، لا يعود بإمكانه التضرع ذهنياً ليرى نفسه في الخفاء ويتذكر خطاياه ، وينقي أفكاره ، ويتنبه للأمور الواردة إليه وينصرف سرياً إلى الصلاة .

وقال آخر : إن إخضاع الحواس لسلطة النفس أمر مستحيل بدون السكينة والابتعاد عن الناس . فالنفس العقلية عندما تكون متحدة وملتصقة بالحواس فعلياً ، تنجذب بها إلى الأسفل رغماً عنها ، خاصة إذا لم يكن الإنسان يقظاً في صلاته الخفية .

وقال أيضاً : آه ، ما أجمل السهر بيقظة في الصلاة والقراءة ! إنه يمنح النفس النعيم والفرح والابتهاج والنقاوة . وهذا ما يعرفه أولئك الذين يعيشون مع ذواتهم كل زمان حياتهم ويسيرون سيرة نسكية غاية في الشدة .

فضع ، أيها الإنسان الذي يحب السكينة ، أمام عينيك آراء وأقوال الآباء كهدف لك ووجّه طريق عملك إلى الدنو منها ، وميّز قبل كل شيء أياً منها يوافق هدفك لأنك بدونها لا تستطيع معرفة الحقيقة . وحاول أن تظهر بها ثباتك أكثر فأكثر .

---

(١) إن الإنسان الكامل الذي بلغ حالة آدم قبل المعصية ، يستطيع أن يتغلب على الفكر الأرضي بذاته لأنه يملك في داخله رؤية مجردة عن التعلق المادي ومنفصلة عن فكرة إدراك الخير والشر بطريقة حسية ومنطقية . ولهذا فإن آدم قبل سقوطه ، بسبب بساطته وحالة اللاهوى ، لم يدرك عريه ولاخجل من نفسه . فالإنسان الروحي الكامل إذا واجهته أمور حسية مانعة يستطيع التحرر منها بسهولة لأنه لم يتقبل الخطايا الكبيرة إطلاقاً ولم يفسح لها مجال التسرب إليه ، بل ظل محافظاً على نقاوة طبيعته وسلامتها وشرف أصالتها ، كابن للطبيعة التي خلقها الله .

في الصمت

إن الصمت هو سر الدهر الآتي ، أمّا الكلام فأداة هذا العالم . الإنسان الصوّام هو من يحاول جعل نفسه ، بالصمت والصلاة المتواصلة ، شبيهاً بالطبيعة الروحية (الملائكة) . عندما يحصر الإنسان ذاته في العمل الإلهي صامداً في الخفاء (في إنسانه الداخلي) فإنه يكتمل بهذه الأسرار : الصمت ، الصوم والصلاة ، ويكون عمله مليئاً بالأسرار الإلهية والقوات غير المنظورة وقدسية السلطة التي هي سيدة الخليقة . فإذا كان قوم قد كُرّسوا للدخول في الأسرار الإلهية فلأنهم قد خُتموا بختم الصمت . فمنهم من ائتُمنوا على إظهار أسرار بقيت مستورة في صمت الرب وذلك لتجديد حياة الكنيسة وإنعاشها ، لأنه لم يكن من اللائق أن تخدم أسرار كهذه ببطون متخمة وأذهان مشوّشة بسبب الفجور .

فالقديسون أنفسهم لم يتجرأوا على التكلم مع الله ، ولا على رفع أنفسهم إلى الأسرار الخفية إلاّ بأعضاء هزيلة ووجوه شاحبة بسبب الصوم ، وبذهن هادىء خال من الأفكار الأرضية . فبعد أن تتعب طويلاً في قلايتك ، حافظاً الوصايا وكابحاً حواسك عن كل لقاء ، حينئذ تظللك قوة السكينة فتحس أولاً بفرح معيّن - دون أن تعرف سببه - ثم يتوطد في نفسك بمرور الوقت فتنفتح عيناك لترى قوة الله في الخليقة وجمالها ، وفق مستوى طهارتك . وعندما يقاد ذهنك بأعجوبة هذه المشاهدة يتحد ليلك بنهارك متأملاً في عجائب خلائق الله المجيدة ، فيسلب حس الأهواء من نفسك بلذة هذه المشاهدة فتعبر إلى رتبتي الإعلانات العقلية[1] اللتين تأتيان بعد مرحلة الطهارة . فعسى أن يؤهلنا الله لها ، آمين .

---

(1) إن رتبتي الإعلانات العقلية هما : أولاً مشاهدة عجائب الطبيعة التي تأتي بعد مرحلة التنقية الذاتية ، وثانياً المشاهدة التي تتجاوز مستوى الطبيعة البشرية وفيها تفعل قوة الله .

الرسالة الرابعة

إلى الأب البار سمعان العجائبي الذي من القيصرية

إن رسالتك أيها القديس ليست بالكلام الذي كتبته بل في كونك رسمت وأظهرت لنا بواسطتها محبتك لنا كما في مرآة . وقد جاء كلامك معبّراً عن حسن ظنك بنا لعظيم محبتك ، تلك المحبة التي جعلتك تنسى حدود طاقتنا . وبدل أن نستدرك الأمر ونكتب إلى برّك لنتعلم الحقيقة منك - إذا كنّا مهتمين بخلاصنا - استدركتنا أنت بالكتابة ، بسبب محبتك العظيمة . فإننا نخشى أن يكون عملك هذا من باب محبة الحكمة . فإنك بأسئلتك الروحية الدقيقة ، التي ينبغي أن نسألكم نحن عنها ، توقظ نفسنا الغارقة في الكسل غرقاً شديداً . لكننا بتلك المحبة عينها ، التي جعلتك تنسى حدود طاقتنا ، نتجاوز مقدرتنا إلى حدّ نصبح معه أكثر انتباهاً إلى قدرة صلاتك من ضعف إمكانياتنا . لأنه عندما نتجاوز حدود قدرتنا وتسعى بدعائك إلى الله من أجلنا وصلواتك أن يستجيب لنا ، فثق أن الله سيعطيك ما تسأله بالصلاة لأنك خادمه الأمين .

سؤال : هل ينبغي حفظ وصايا الله كلها ؟ وهل ثمة سبيل إلى الخلاص من دونها ؟

جواب : أعتقد أنه لا ينبغي أن يسأل أحد سؤالاً كهذا . فالوصايا ، على كثرتها، يجب حفظها كلها، وإلاّ لما كان أعطاها المخلص. ويبدو لي أن المخلص لم يقم أو يتفوّه بشيء تافه دون غاية أو حاجة . إن غاية حضوره على الأرض هو تطهير النفس من الشر الناتج من المعصية الأولى وإعادتها إلى الحالة الطبيعية ، فأعطانا وصاياه المحيية أدوية مطهرة من شهواتنا .

وكما تُعطى الأدوية للجسد السقيم ، فكذلك تُعطى الوصايا للنفس

الخاطئة . ومن الواضح أن الوصايا قد وضعت نتيجة عوارض الأهواء لشفاء النفس المخالفة حسب قول الرب لتلاميذه : « من قبل وصاياي وعمل بها أحبني ومن أحبني أحبه أبي ، وأنا أحبه وأظهر له ذاتي وإليه نأتي ويكون عنده مقامنا » (يو ١٤ : ٢١) . وأيضاً : « إذا أحببتم بعضكم بعضاً يعرف الناس جميعاً أنكم تلاميذي » (يو ١٣ : ٣٥) . ويتضح من هذا القول إن النفس لا تستطيع أن تقتني المحبة ما لم تصبح صحيحة ومعافاة ، ولا يتم ذلك إلاّ بحفظ الوصايا .

حفظ الوصايا يبقى أدنى من المحبة الروحية . وبما أن كثيرين يحفظون الوصايا إمّا خوفاً من العذاب وإمّا حباً بالثواب ، وليس من أجل المحبة ، فقد نصح الرب أن تحفظ الوصايا من أجل المحبة لأنها تمنح النور للنفس ، فقال : « فليضيء نوركم قدّام الناس ليشاهدوا أعمالك الصالحة ويمجدوا أباك الذي في السموات » (متى ٥ : ١٦) . إن الأعمال الصالحة التي علّمها الرب لا تتجلّى في النفس إلاّ بحفظ الوصايا ، وهي ليست ثقيلة على محبّي الحقيقة : « « تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والرازحين تحت أثقالكم وأنا أريحكم . نيري هيّن وحملي خفيف » (متى ١١ : ٢٨ و٣٠) . أمّا عن حفظها كلها فقد أوصانا قائلاً : « فمن خالف وصية من أصغر هذه الوصايا وعلّم الناس أن يعملوا مثله ، عُدّ صغيراً في ملكوت السموات » (متى ٥ : ١٩) . فالنفس لا تستطيع أن تتنقى ما لم تحفظ الوصايا كأدوية منحها الرب للتحرر من الأهواء والزلات .

أنت تعلم أن الشر قد تسرّب إلينا بالمعصية ، فمن الواضح إذن أن صحة النفس لا تستعاد إلاّ بحفظ الوصايا . فينبغي علينا أن لا نشتهي أو نأمل الوصول إلى طهارة النفس قبل إتمام الوصايا أي قبل أن نسلك الطريق التي تؤدي إلى النقاوة . فلا تدّع أن الله قادر أن ينعم علينا بطهارة النفس قبل إتمام الوصايا . فهذا يدخل في أحكام الله وحده ، والكنيسة لم توصنا بمثله . إن اليهود عندما وصلوا إلى مدينتهم المقدسة أورشليم ، راجعين من بابل وشاهدوا عجائب الرب كانوا يسلكون طريقاً طبيعية معبّدة . أمّا حزقيال النبي فاختطف بطريقة تفوق الطبيعة وجاء إلى أورشليم وصار معايناً القيامة المستقبلية بالإعلان الإلهي . وهذا ما ينطبق على موضوع طهارة النفس ، فالبعض يحققونها بحفظ الوصايا سائرين في الطريق الشرعية المرصوفة ، أي بحياة ملأى بالأتعاب والدماء ، وآخرون يؤهّلون لها بموهبة

النعمة . والعجيب في الأمر أنه لا يُسمح لنا أثناء الصلاة أن نطلب الطهارة من النعمة مجاناً ، مهملين أعمال سيرتنا القائمة على حفظ الوصايا . فالغني الذي سأل الرب كيف يمكنني أن أرث الحياة الأبدية (لو ١٠ : ١٥) أجابه الرب بوضوح : إحفظ الوصايا . فقال : وما هي الوصايا ؟ ، فأجابه أن يبتعد أولاً عن الأعمال الشريرة ، مذكّراً إياه بالوصايا الطبيعية . لكنه عندما طلب مزيداً من المعرفة قال له : « إذا كنت تشاء أن تكون كاملاً فبع كل ما لك واعطه للفقراء واحمل صليبك واتبعني » (متى ١٩ : ٢١) ، لكي تموت عن كل ممتلكاتك وتستطيع العيش فيَّ . أخرج من عالم الأهواء العتيق وادخل العالم الجديد ، عالم الروح . انزع منك معرفة المناهج الكثيرة واخلع عنك الشرور وألبس معرفة الحق البسيطة . إن الرب عندما قال للغني : « احمل صليبك » (متى ١٦ : ٢٤) ، علّمنا أن نموت عن كل ما في العالم . وعندما رأى أن الإنسان القديم (الأهواء) قد مات فيه قال له : «تعال اتبعني». الإنسان العتيق لا يمكنه أن يسير في طريق المسيح كما قال بولس المغبوط: «لحم ودم لا يمكنهما أن يرثا ملكوت السموات والفساد لا يرث عدم الفساد» (١كو ١٥ : ٥٠)، و«اخلعوا الإنسان العتيق الذي أفسدته الأهواء لتستطيعوا أن تلبسوا الجديد» (ا ف ٤ : ٢٢) المتجدد على صورة خالقه بالمعرفة. وأيضاً: «إن الفكر الأرضي عدو لله» (رو ٨ : ٧) لأنه لا يخضع لناموس خالقه لأن الذي في الجسد يفكر في ما للجسد ولا يستطيع أن يرضي الله بالعقل الروحي. فأنت أيها العزيز إذا كنت تحب نقاوة القلب ونقاوة العقل الروحي، كما قلت، فالتصق بالوصايا السيدية كما قال سيدنا: «إذا كنت تحب الدخول إلى الحياة فاحفظ الوصايا» (متى ١٨ : ٨) حباً بمن وضعها لا خوفاً من العقاب ولا من أجل الثواب. إننا بتشوقنا إلى عمل البر النابع من قلبنا نتذوق حلاوة اللذة الكامنة فيه وليس بعمل البر وحده. إننا نكون خطأة بالفعل إذا لم نمقت الخطيئة ونتب عنها وليس إذا فعلناها فقط. لم يؤهل أحد لمشاهدة الروح قبل حفظه الوصايا وبلوغه نقاوة القلب سواء من القدماء أو المعاصرين. ومن لم يحفظ الوصايا ولم يسر على خطى الرسل المغبوطين لا يستحق أن يُدعى قديساً.

إن المغبوطين باسيليوس والغريغوريين[1] الذي قلت إنهم كانوا من محبّي

(١) باسيليوس الكبير وغريغوريوس النازينزي وغريغوريوس النيصصي .

البرية ومن أعمدة الكنيسة ونورشا ، كانوا يمدحون السكينة ، لكنهم لم يقبلوا إليها قبل إتمام الوصايا . لقد عاشوا أولاً في سلام وحفظوا الوصايا التي يجب أن يحفظها العائشون مع الناس ، وبهذا بلغوا طهارة النفس واستحقوا مشاهدة الروح . أؤمن بالحقيقة أنهم كانوا يستقبلون الغرباء ويزورون المرضى ويكسون العراة ويغسلون أرجل المتعبين ، وكانوا إذا سخّرهم أحد ميلاً يذهبون معه ميلين . وبعد أن حفظوا الوصايا التي كانوا يحتاجونها في مخالطتهم الآخرين ابتدأ ذهنهم يحس بالحركة الأولى وبالرؤى الإلهية السرية ، فأسرعوا بالخروج إلى سكينة البرية ومكثوا هناك مع إنسانهم الداخلي حتى أصبحوا « رؤيويين » . وهكذا لبثوا في مشاهدة الروح إلى أن دعتهم النعمة الإلهية إلى رعاية كنيسة المسيح .

أمّا عن قولك إن القديس باسيليوس الكبير كان يمدح تارة حياة الشركة وطوراً حياة الوحدة فأعتقد أن كل مجاهد يجد منفعة لنفسه في كل من هاتين الطريقتين في الحياة الرهبانية وذلك حسب قوته ووضعه وهدفه . فحياة الشركة كثيراً ما تكون مفيدة للأقوياء وأحياناً للضعفاء . ومثلها حياة البرية . صحيح النفس لا يؤذيه العيش مع الكثيرين إذا سهر على ذاته.، ليس من أجل منفعته الشخصية بل من أجل منفعة الآخرين ، لأنه دعي من الله باسم الآباء الآخرين . وكذلك الضعيف الذي لا يزال بحاجة إلى مزيد من حليب الوصايا من الأفضل له أن يعيش مع الكثيرين حتى يتروّض ويُصقل ويُمتحن في التجارب ويقع وينهض مع الآخرين ليحصل على صحة نفسه . لا بد للطفل من حليب أمه ، وللراهب من حليب الوصايا ليتمكن من الصمود والإنتصار على الأهواء واستحقاق الطهارة . ومثلها حياة البرية ، فإنها أحياناً تكون مفيدة للضعفاء وأحياناً للأقوياء ، وفائدتها للضعفاء تكمن في خلوّها من المواد الملهبة التي تنمّي الأهواء .

إن البرية تنوّم الأهواء ، ولكن ليس هذا هو المطلوب وحده ، بل الأفضل اقتلاعها نهائياً . وهذا يحصل بالنصر عليها كلما ثارت ، لأنها تنهض عندما يتوفر لها سبب للعمل من جديد .

ولكي تتحقق من أن البرية ليست وحدها التي تنوّم الأهواء ، انتبه أننا عندما نكون في حالة مرض شديد ندرك أن الأهواء لا تحاربنا بقوة . وأكثر من ذلك ، فهي

في أحيان كثيرة تتبادل الأدوار في حربها ضدنا ، فهوى الفسق مثلاً يتراجع لهوى المجد الباطل ، ويلطّف حدة شغف حب المجد وجنونه . إذاً فسبيلنا أن لا نسعى وراء البرية لأنها تنوّم الأهواء وحسب ، بل لأننا بلُجم حواسنا وتركنا الأمور الدنيوية كلها نحصل على الحكمة فيها ويتجدد فينا إنسان الروح الداخلي بالمسيح ونصبح معاينين لذواتنا في كل لحظة ويستيقظ ذهننا ويحفظ ذاته باستمرار لئلا يسلب منه ذكر الرجاء .

سؤال : لماذا يختار الرهبان السكينة مع العلم أن ربنا أمر أن تكون رأفتنا مماثلة لرحمة أبيه السماوي ؟

جواب : حسن أنك أخذت مثلاً من الإنجيل ونموذجاً للبحث في حياة السكينة العظمى . إننا نجلّ سؤالك ونقدّره كشيء ثمين . والحق أن الرب أمر بفعل الإحسان المماثل لعمل أبيه وجعل فاعليه مقرّبين منه . فنحن معشر الرهبان نكرّم السكينة دون أن نزدري الإحسان ، لكننا نبتعد قدر المستطاع عن الإهتمام والتشويش اللذين يسببهما لنا . لكن هذا لا يعني إننا نبتغي مقاومة الظروف التي تجبرنا على فعل الإحسان ، لكننا نهتم بالسكينة ونفضلها لأنها تساعدنا على تنقية نفوسنا بشكل أوفر لكي نقترب من الله . أمّا إذا استدعت الحاجة مساعدة أحد الإخوة فلا يجوز إهمال ذلك. فلنرغم ذواتنا باستمرار لكي نترأف داخلياً بكل طبيعة ناطقة . هذا ما يعلّمنا إياه الرب وهذه ميزة سكينتنا . وعلينا أن لا نكتفي بالرأفة الداخلية فقط بل أن نظهر محبتنا للقريب عملياً كلما دعت الحاجة وسنحت لنا فرصة مساعدته . وهذا يفرض على الذين لم يقطعوا أنفسهم عن اللقاءات نهائياً ، بل يخرجون كل أسبوع أو سبعة أسابيع مرة واحدة . يجب أن يُحسن هؤلاء إلى القريب مما عندهم لأنهم ليسوا محافظين على قوانين السكينة وليسوا عديمي القنية كلياً . أمّا إذا وجد بينهم من هو صلب وقاس وعديم الإنسانية فهذا يتظاهر بالسكينة أمام أعين الناس . يجب ألاّ ننسى أنه بدون محبة القريب لا يمكن للذهن أن يستنير في الصلاة والمحبة الإلهية . فأيّ راهب لا يقدِّم الأطعمة والملابس لقريبه إذا كان جائعاً أو عريان ؟ ومن هو الذي يفضّل بداعي شوقه إلى حياة السكينة ، الإنغلاق على محبة القريب إذا شاهد أخاه الذي من لحمه ودمه يئن من المرض ويشقى من التعب وهو بحاجة إلى من يفتقده ؟ فإذا كان أحد لا يملك ما يجود به فليترأف في ذهنه على

الأقل . لكن عندما تتوفر لدينا الأشياء فإن الله يطالبنا بفعل الإحسان وإتمامه عملياً . فإذا لم نملك شيئاً لسنا مجبَرين على الغرق في الإهتمام والتشويش من أجل الفقراء ، لكن عندما نملك نكون مطالبين . أمّا عندما نحفظ سيرتنا بعيدين عن مجاملة الناس والإختلاط بهم فلسنا مضطرين إلى مغادرة قلايتنا ومقامنا النسكي وإلى التجوّل في العالم بغية زيارة المرضى أو الإنشغال بمثل هذه الأعمال . فمن الواضح أنها تحدرنا من الأسمى إلى الأدنى . أمّا الساكن مع الآخرين أو في قلاية قريبة منهم والمستريح بأتعابهم فيجب إن كان مريضاً أو معافى أن يعاملهم بالمثل وأن لا يطلب الراحة التامة لنفسه . وعندما يرى أخاه الذي يحمل جسداً كجسده ويتزيّا بزيّ كزيّه في ضيق ، أو بالأحرى عندما يرى المسيح نفسه مطروحاً على الأرض ومضنوكاً بالتعب ويتخلى عنه بداعي حفاظه المزيّف على السكينة فلا شك أنه عديم الرحمة ، هو وكل من يحذو حذوه .

لا تذكّرني بيوحنا الطيبي ولا بأرسانيوس قائلاً : من منهما كان يهمل سكينته ليهتم بمثل هذه الأمور ؟ انتبه أن لا تقترب من جهادات أناس مثل هؤلاء . فإنك لو كنت بعيداً مثلهما عن كل راحة جسدية وكل لقاء بشري لسمح الله لك أن لا تتعاطى أموراً كهذه . لكنك لا تزال بعيداً عن مستوى كمالهما ، فلماذا تهمل الوصايا التي يجب أن تحفظها جيداً ، مدّعياً أنك تسلك سيرة القديسين العظماء وأنت بعيد عنها كل البعد ؟

لن أدع جانباً حادثة القديس مكاريوس الكبير التي كتبت لتبكيت أولئك الذين يزدرون الإخوة . ذهب هذا القديس مرة لزيارة أحد الإخوة المرضى . وبعدما وصل إلى هناك سأله القديس الكبير إذا كان بحاجة إلى شيء ، فأجابه المريض أنه يحتاج إلى خبز طازج (كانت عادة ذلك المكان أن يخبزوا مرة واحدة في السنة) . فنهض ذلك المغبوط في الحال وذهب من الاسقيط إلى الإسكندرية ، رغم عمره البالغ التسعين ، حاملاً في جبّته الخبز اليابس واستبدله بالطازج وقدّمه للأخ .

إن الأنبا أغاثون الذي كان رجلاً يمتاز عن جميع الرهبان في ذلك العصر بخبرته الواسعة ، قد فعل أعظم من ذلك مع أنه كان يفضّل الصمت والسكينة على كل شيء . ذهب هذا العجيب في أحد الأعياد إلى المدينة ليبيع شغل يديه ، فوجد

رجلاً غريباً مطروحاً في الشارع مريضاً . فاستأجر له بيتاً ومكث معه يعيله ويشتغل لينفق عليه . وبعد أن أعاله ستة أشهر شفي . لقد روي عنه أنه كان يقول : أفتش عن أبرص لأعطيه جسدي وآخذ جسده . هذه هي المحبة الكاملة .

إن الذين يخافون الله ، أيها العزيز ، يحفظون الوصايا برغبة وسهولة . وإذا دعت الحاجة أن يتمموها بالفعل فهم مستعدون أن يتحملوا بسرور كل خطر من أجلها . لقد ربط ربنا كمال حفظ الوصايا وعلّقه باثنتين منها ، بمحبة الله ومحبة صورته المخلوقة (الإنسان) . فالوصية الأولى تؤدي إلى مشاهدة الروح ، والثانية إلى المشاهدة والعمل معاً . فبما أن الطبيعة الإلهية بسيطة غير مركّبة غير منظورة ومكتفية بذاتها بالطبع ، فإن فعل الضمير (البسيط كبساطة العلة المسجوم لها لأنه غير مركب) لا يحتاج إلى عمل جسدي أو أفكار قوية أثناء تأمله بل يعمل بطريقة تفوق الحس الجسدي من خلال أحد أقسام الذهن .

أمّا الوصية الثانية التي هي محبة البشر فإنها تعالج بطريقة مزدوجة لأنها تشبه طبيعة الإنسان بازدواجها . وأقصد بهذا أن ما نتممه في ضميرنا بحال غير منظورة ينبغي أن نتممه بالجسد أيضاً ، ليس ظاهرياً فقط بل باطنياً أيضاً . وكل عمل نتممه في الظاهر يجب أن نتممه في ضميرنا أيضاً .

إن الإنسان مركب من نفس وجسد ، وبالتالي فإن اهتماماته كلها مزدوجة بما يتناسب مع تركيبه . ولما كان العمل يسبق المشاهدة في كل الأمور أصبح الإرتقاء إلى سمو المشاهدة مستحيلاً على الإنسان قبل إتمام العمل الذي يسبقها . فلا يجسرنّ أحد على الادّعاء أنه يستطيع أن يقتني محبة القريب في نفسه متغاضياً عن إتمامها جسدياً حسب قدرته كلما دعت الحاجة إلى ذلك . فبهذا الأسلوب يُعرف جليّاً إذا كانت المحبة ثابتة في المشاهدة . وعندما نصبح أمناء وصادقين في هذه الأمور ، حسب قدرتنا ، تُمنح نفوسنا القوة فتمتد نحو المعاني البسيطة (غير المركبة) التي تختص بالمشاهدة الالهية السامية وما يشبهها . أمّا إذا كان الإنسان لا يقدر أن يتمم محبة القريب جسدياً ، أي بالأعمال المركّبة ، فيكفيه أن يتممها فكرياً لكي يرضي الله ، خاصة إذا كان محافظاً على سمو السكينة وسيرتها حفاظاً جيداً .

أمّا إذا كنّا مقصرّين عن كل متطلبات السكينة فينبغي لنا عندئذ أن نقوم

بالعمل الحسي عوضاً عنها ، أي بالتعب الجسدي الذي يشكل بالنسبة لنا تكملة لراحة حياتنا حتى لا تجد حريتنا مبرراً لخضوعها واستعبادها للجسد ، فنتعب باسم الوحدة ونشقى باطلاً . فمن الواضح أن من انقطع عن الناس كلياً وترك الأمور الدنيوية ومات عنها وأصبح مجذوباً بالتأمل الإلهي برمته لا يجوز له أن يترك هذا الأمر ويسعى وراء خدمة الناس . لكن الذي وضع لنفسه قانوناً يتضمن الخروج من السكينة كل أسبوع أو سبعة أسابيع حتى يخالط الناس ويتعزى بهم ، فإنه إن أهمل إخوته الذين في الضيقات بحجة حفاظه على قانون السكينة ، سيكون فاقد الرحمة لأن تكبره وحججه الكاذبة جعلته لا يتنازل لمساعدة الإخوة وتقديم المعونة والإحسان لهم . لا نجدفنّ على اسم السكينة العظيم عن جهل . فلكل سيرة زمانها ومكانها وميزتها ، وهناك يُعرف إذا كانت مقبولة لدى الله أو لا . وبدون ذلك تكون أعمال الساعين وراء الكمال باطلة . فمن يرجو أن يحظى بالتعزية وافتقاد الآخرين له أثناء مرضه فليتضع وليشارك قريبه في أتعابه أثناء تجربته حتى يصير عمله مليئاً بالفرح في سكينته ومنزّهاً عن كل استكبار وضلال شيطاني . قال أحد القديسين ذوي المعرفة : لا شيء يمكن أن ينقذ الراهب من شيطان التكبر ويصون عفته أثناء استعار لهيب هوى الفسق فيه مثل زيارة الناس الذين يتضوّرون ألماً وضيقاً على فراش المرض .

إن عمل السكينة الملائكي يكون عظيماً جداً عندما يقرن بالتمييز من أجل التواضع . فعندما لا نعرف فإننا سنسلب ونخدع . لا أقول هذا ، يا إخوة ، كي نهمل عمل السكينة ونزدريه . فنحن نحض عليه ونشيد به في كل مكان ولن نناقض أقوالنا . فأرجو أن لا يأخذ أحد قولاً من أقوالي ويفصله عن غيره متمسكاً به دون فهم ووعي. أذكر أنني قلت في أمكنة كثيرة[1] ورجوت من يمكث بطالاً في السكينة أن لا يفضّل الخروج منها بسبب ضعفه ، معتبراً العمل خارجها أفضل له منها - ولست أعني بالخروج الترك النهائي للقلاية ، بل الخروج والعودة إليها بعد بضعة أسابيع لبيع أشغالنا وشراء بعض الحاجات التي تؤمّن راحة القريب ومعيشته - الأمر الذي تحسبه أنت بطالة وانشغالاً . أمّا إذا اعتبر أحد أنه أصبح كاملاً متسامياً عن كل ما هو أرضي وبعيداً عن كل الأشياء المنظورة بداعي اتحاده

(١) انظر المقالة ٨٦

بالله ، فلا ضرر أن يترك الخروج ويبقى في السكينة . إن عمل التمييز بالنسبة لهؤلاء الذين يستعينون بالله عظيم جداً . فعسى أن يعطينا الله برحمته قوة لنتمم قوله : « عاملوا الناس مثلما تريدون أن يعاملوكم » (لو ٦ : ٣١) . فله المجد والكرامة إلى دهر الدهور آمين .

وقد جاء في رسالتك أيضاً أن على الراهب الذي يحب الله أكثر من كل شيء أن يهتم بتنقية نفسه . حسناً قلت ، إذا استطعت ذلك . وبما أنك قلت إن النفس لن تقتني دالة في الصلاة ما لم تتغلّب على الأهواء أولاً ، فإنك تجعلني - رغم جهالتي - أحسب هاتين الفكرتين متناقضتين . فالنفس التي لم تتغلّب بعد على الأهواء لا يمكنها أن تهتم بالنقاوة . فإذا كانت لا تسير بموجب ناموس العدالة الروحية ، وتتخبط بأهوائها ، فلماذا تطلب منها أموراً أعلى منها ؟ إننا لا نستطيع أن نعرف محبة الإنسان من خلال ما يشتهي ولكننا نعرف شهوته من خلال ما يحب ، لأن المحبة حسب القانون الطبيعي تسبق الشهوة . فإذا لم يحب الإنسان أولاً لا يستطيع أن يشتهي . إن الأهواء باب موصد بوجه الطهارة ، وإذا لم يفتح الإنسان هذا الباب فلن يستطيع أن يدخل مكان القلب الطاهر والنقي . أمّا قولك إن النفس لا تملك دالة في الصلاة فصحيح . فالدالة لا تفوق التغلّب على الأهواء وحسب ، بل تفوق الطهارة نفسها . فالترتيب المؤكد هو التالي : الصبر الشديد يحارب الأهواء من أجل الطهارة ، وبالتغلّب على الأهواء تكتسب النفس الطهارة ، وبالطهارة الحقيقية يكتسب الذهن دالة في الصلاة .

أفلا يكون من الكبرياء والزهو أن نطلب من الله مجاناً أثناء الصلاة أن ينعم علينا بطهارة النفس التي خرج الراهب إلى البرية من أجلها ؟ فكما أن الابن ، أيها القديس ، يثق بأبيه ولا يلحّ عليه بالطلب قائلاً له : علّمني حرفة أو أعطني كذا وكذا ، هكذا ينبغي على الراهب أن يثق بالله ولا يكثر من طلباته ، لأنه يعرف أن الله يعتني به أكثر مما يعتني الأب بإبنه . فالجدير بنا أن نتضع وننوح على الأمور التي سببت لنا الزلات التي اقترفناها بدون إرادتنا ، بالفكر أو بالفعل ، وأن نردد بقلب منسحق قول العشّار : « يا الله إغفر لي أنا الخاطىء » (لو ١٨ : ١٣) وأن نعمل في الظاهر وفي الخفاء ما علّمنا إياه الرب : « متى فعلتم ما أمرتكم به فقولوا إننا عبيد بطالون لأننا لم نفعل إلاّ ما كان واجباً علينا » (لو ١٧ : ١٠) حتى يشهد

عليك ضميرك أنك عبد بطال وأنك بحاجة إلى الرحمة . فإنك تعرف أن الأعمال لا تفتح باب القلب المغلق بل الإنسحاق والتواضع ، خاصة عندما تتغلّب النفس على الأهواء بتواضع وليس بترفع . فالسقيم النفس يتضع أولاً ويهتم بشفائه وبعد ذلك يطلب أن يصير ملكاً . فالمملكة هي صحة النفس وطهارتها . إن الابن المريض لا يطلب من أبيه أن يجعله ملكاً ، بل أن يهتم بشفائه أولاً ، وبعد أن يشفى تصبح المملكة كلها له . وهكذا الخاطيء التائب فإنه بعد أن يحصل على صحة النفس يدخل مع الآب إلى بلاد الطبيعة الطاهرة (القلب) ويملك في مجد أبيه (ملكوت السموات في داخلكم) .

عندما نتذكر القديس بولس الرسول وهو يتكلم على زلاته ويضع نفسه في المكان الأخير ، قائلاً : « يسوع المسيح جاء إلى العالم ليخلّص الخطأة الذين أنا أوّلهم » (١ تي ١ : ١٥) و« لكني ما نلت الرحمة إلاّ ليظهر المسيح يسوع طول صبره أنا الذي كفر به واضطهده وشتمه لكن الله رحمني لأني كنت غير مؤمن لا أعرف ما أفعل » (١ تي ١٦ : ١٣) ، نتساءل متى قال ذلك ؟ طبعاً بعد جهاداته الكثيرة وأعماله الجبارة وبعد كرازته بإنجيل المسيح في كل العالم وبعد الميتات المتوالية والشدائد المتنوعة التي عاناها من اليهود والأمم . لكنه كلما تطلع إلى أعماله الماضية كان يحسب أنه لم يبلغ الطهارة وأنه لا يستحق أن يحصى حتى مع مصف التلاميذ ، ويقول : « لست مستحقاً أن أدعى رسولاً فقد اضطهدت كنيسة المسيح » (١ كو١٥ : ٩) . فقد تغلّب على الأهواء كما قال : « أقمع جسدي وأستعبده حتى لا أكون مرذولاً بعدما وعظت غيري » (١ كو ٩ : ٢٧) . فإذا زعمت أنه كان يقول ذلك ليظهر جهاداته العظيمة التي كابدها في أمكنة متعددة ، فسأتركه يقنعك : « إني لم أفعل ذلك بإرادتي ولا من ذاتي بل من أجل الكرازة » (٢ تي ٤ : ١٧) . وإذا تكلم بذلك من أجل منفعة المؤمنين كان يرفض كل فكر وكل افتخار ويهتف : « أنتم الذين اضطررتموني . إن ما أقوله هنا لا أقوله من أجل الرب بل أقوله كجاهل له الجرأة أن يفاخر » (٢ كو ١١ : ١٧ و١٢ : ١١) . هذا هو القانون العادل والصريح الذي وضعه أمامنا القديس بولس ، فلنحفظه إذن بغيرة ولا نكوننّ لجوجين على الله عندما نطلب منه الأمور السامية ولا يعطيها لنا لأن الله يعرف الآنية المختارة لخدمته . إن بولس المغبوط لم

يطلب ملكوت النفس حتى بعد دعوته بل قال : « أتمنى أن أكون مفروزاً عن المسيح من أجل إخوتي » (رو ٩ : ٣) . فكيف نتجاسر أن نطلب ملكوت النفس قبل الأوان الذي يعرفه هو ، ونحن لم نحفظ الوصايا بعد ولم نتغلّب على الأهواء ولم نف ديوننا ؟

فأرجوك أيها القديس أن لا تدع أفكاراً كهذه تتسرب إلى نفسك ، لأنه يجب علينا أن نقتني صبراً في التجارب أكثر من أي شيء آخر وأن نطلب من الله بقلب منسحق وفكر متضع غفران خطايانا واتضاع نفوسنا .

كتب أحد القديسين : من لا يحسب نفسه خاطئاً تكون صلاته غير مقبولة لدى الرب . فلا تظن أن الآباء عندما كتبوا عن طهارة النفس وصحتها ، وعن اللاهوى ، وعن المشاهدة ، قد فعلوا ذلك لكي يحثّونا على طلبها قبل أوانها . فقد كُتب: «إن ملكوت السموات لا يأتي بمشهد من أحد» (لو ١٧ : ٢٠). إن كل الذين فكروا هكذا تكبروا فسقطوا . أمّا نحن فسبيلنا أن نحرث أرض القلب بأعمال التوبة والسيرة التي ترضي الله . أمّا المواهب الإلهية فستأتي وحدها عندما تجد مكان القلب طاهراً وخالياً من الدنس . فتلك الأمور السامية الإلهية التي نطلبها بالمراقبة مرفوضة في كنيسة الله ، وكل الذين حصلوا عليها بهذه الطريقة تكبروا وسقطوا . إن هذا الأمر ليس دليلاً على محبتنا لله بل هو دليل على مرض نفوسنا . فكيف نتجاسر إذن على طلب الأمور السامية التي هي من أحكام الله ، بينما بولس الإلهي كان يفتخر بالضيقات معتبراً الإشتراك بآلام المسيح أسمى من المواهب ؟

وقد ورد في رسالتك أيضاً أن نفسك رغبت أن تحب الله ، لكنك لم تبلغها مع أنك تودّ ذلك بقوة . وتقول إن التوحد في البرية هو شوقك . لقد بيّنت بذلك أن طهارة القلب قد بدأت تتجلّى فيك وأن ذكر الله يتّقد داخلك باستمرار . إن هذا لعظيم بالفعل ، خاصة إذا كان هذا القول صحيحاً . غير أني كنت أودّ لو لم تكتب ذلك إذ لا علاقة له بموضوعنا . وحتى إذا كنت تخبرنا عنه على سبيل الإستفسار فالأمر لا يزال خارج الموضوع أيضاً . فكيف يتجرأ من قال إن نفسه لم تحصل بعد على الدالة في الصلاة لأنها لم تتغلب عن الأهواء ، أن يقول إن نفسه تودّ أن تحب الله ؟ إن وسيلة تحريك المحبة الإلهية في داخلك والتي تسعى في سبيلها

سرياً من خلال حياة الوحدة ، تتم بالتغلب على الأهواء . لقد قلت إنك لم تتغلب على الأهواء بعد ، وإن نفسك تودّ أن تحب الله ، فلا شك أن في الأمر تضارب ، فأنا لا أستطيع أن أفهم من يقول إنه لم يتغلب على الأهواء ولكنه يودّ أن يحب الله .

تقول إنك لم تحب بعد ، لكنك تودّ أن تحب . وهذا أيضاً صعب المنال ، خاصة إذا كانت النفس غير طاهرة . أمّا إذا كنت تنطق بهذه الأمور لمجرد الكلام فقط ، فلست أنت وحدك القادر أن يقول إنه يريد أن يحب الله بل كل إنسان يستطيع ذلك سواء كان مسيحياً أم غير مسيحي . مع العلم أن هذه الأقوال لا تحرك إلاّ اللسان فقط ، أمّا النفس فلا تدرك ولا تعي شيئاً مما يقال . إعلم أن هناك مرضى كثيرين لا يعلمون أنهم مرضى . إن الشر هو داء النفس والضلال هو فقدان الحقيقة ، ومعظم الناس - رغم إصابتهم بهذين المرضين - يعلنون أنهم أصحّاء يهنئهم الكثيرون . إذا لم تُشفَ النفس من الشر وتستعد حالتها الطبيعية السليمة التي كانت لها منذ البدء ، لتولد من الروح سليمة ، يستحيل على الإنسان أن يشتهي مواهب الروح التي تفوق الطبيعة . فما دامت النفس تعاني من مرض الأهواء لا يمكنها أن تحس بالمواهب الروحية ولا أن تعرف كيف تتمناها من ذاتها ، بل تتمناها من خلال ما تسمع عنها ومن الكتب . إن ما قلته سابقاً صحيح ، أي إنه على من يبتغون الكمال أن يحفظوا الوصايا كلها ، لأن عمل الوصايا الخفي يعيد القوة للنفس . وهذا الأمر لا يتم بسهولة . فقد كُتب : « لا غفران بدون إهراق دم » . فطبيعتنا حصلت أولاً على التجديد بتجسد المسيح واشتركت بآلامه وموته ، وبعد إهراق الدم تقدست وأصبح بإمكانها قبول الوصايا الجديدة الكاملة . فلو أعطيت لها هذه الوصايا قبل إهراق الدم والتقديس ، كما أعطيت في القديم ، لما كان باستطاعتها قلع جذور الشر منها قلعاً نهائياً . أمّا الآن فالأمر مختلف ، لأن تطبيق الوصايا الجديدة والروحية الذي تواظب النفس عليه باستمرار بمخافة الله يجددها ويقدسها ويشفي أعضائها كلها بحال سرّية . وهذا واضح من أن كل وصية تستطيع شفاء الهوى المسيطر على النفس بهدوء تام مهما كان نوعه وتجعل الشافي والمريض على السواء يشعران بفعلها نظير المرأة النازفة الدم .

• أنت تعلم أيها العزيز أن النفس إذا لم يشف جانبها الشهواني وتتقدس وتلتصق بحياة الروح بحال سرية ، لا تستطيع أن تحصل على الصحة ولا أن تتحرر

من الحزن الذي تسببه لها أمور العالم . إن شفاءها يتم بالنعمة الإلهية كما حصل للرسل المغبوطين الذين نالوا ملء المحبة بإيمانهم بيسوع . لكنها تشفى أحياناً من طريق الشريعة . فليعلم من تغلّب على الأهواء بحفظ الوصايا والتشدد في قيامه بأعمال السيرة الحقيقية ، إنه قد اقتنى صحة نفسه باتباع الشريعة وانفصل عن العالم وانقطع عن عاداته السيئة وتجدد روحياً كما كان قبلاً ووجد بالنعمة في مجال الروح في تأملات إنسانه الداخلي واستقبله عالم جديد بسيط غير مركب .

عندما يتجدد الذهن ويتقدس القلب تتحرك كل أفكار النفس حسب نظام العالم الجديد الذي دخله الذهن ، فيشتعل فيه أولاً شوق الإلهيات والتوق إلى مشاركة الملائكة والدخول إلى إعلانات أسرار معرفة الروح . وعندئذ يحس الذهن بمعرفته الروحية للمخلوقات وتشرق فيه مشاهدة أسرار الثالوث القدوس ويتجلى أمامه عمل التدبير المسجود له الصائر من أجلنا ، فيتحد بمعرفة رجاء الدهر الآتي اتحاداً كلياً .

فكّر في كل ما كتبته لك واعلم أنه لو كانت النفس قادرة أن تحب الله بالحقيقة وهي تقفل على نفسها داخل بلد الأهواء ، لما كانت بحاجة كثيرة إلى الإستفسار لتتعلم أسرار عالم الروح ، لأنه واضح أن المعرفة والإستفسارات لا تؤثر على الأهواء ولا تستطيع أن تفتح باب الطهارة الموصد أمامنا . لكن عندما تزول الأهواء من النفس يستنير الذهن ويثبت في موضعه الطبيعي النقي ولا يعود بحاجة إلى أسئلة ، لأنه يصبح قادراً على مشاهدة الخيرات التي فيه بوضوح . إن حواسنا الخارجية ليست بحاجة إلى علم أو إلى استفسار لتعرف طبيعة الأشياء الكائنة فيها . فكل حاسة تعرف بالطبيعة الشيء الذي تقع عليه (لا يوجد تعليم يتوسط بين الحس والمحسوس) . فمهما كلّمت الأعمى عن مجد الشمس والقمر وعن دوران الكواكب ولمعان الأحجار الكريمة لا يستطيع أن يدركها ويفهمها ويميّز جمالها إلاّ بالاسم فقط . أمّا لذة رؤيتها فتبقى بعيدة عن تمييزه وعن معرفته . وعلى هذا النحو تكون المشاهدة الروحية . فالذهن الذي يعاين أسرار الروح الخفية ، إذا كانت طبيعته سليمة ، يرى مجد المسيح جلياً دون تعليم أو استفسار ، ويتنعم بلذة أسرار العالم الجديد بحال تفوق حرية إرادته ، وذلك حسب حرارة إيمانه ورجائه

بالمسيح ، كما كتب بولس المغبوط : « لكن إذا كنّا نرجو ما لا نشاهده فبالصبر ننتظره » (رو ٨ : ٢٥) .

علينا إذن أن نثبت برجاء في إنساننا الداخلي ونمكث هناك وحيدين ونتأمل ببساطة حيث لا توجد انطباعات فكرية ولا رؤى مركبة أو معقدة . فالأشكال التي يراها الذهن تتوقف على كيفية تطلعه إليها . إن الإنسان عندما يتطلع إلى العالم الخارجي ، فإنه بمقدار ما يمعن النظر في تفاصيل الأشياء المتنوعة يجعل آثار صورها وظلالها تنطبع في ذهنه ، فتتحرك فيه أفكار مختلفة حسب كثرتها ونوعية تبدلها ، وبتحركها تختمه بختمها . لكن إذا تطلع الذهن إلى الإنسان الداخلي ، حيث يستحيل استعمال أي شيء لتبديل الأشكال ، وحيث لا وجود لما هو مركب وقابل للتقسيم بل المسيح هو الكل في الكل ، فمن الواضح أن يقبل المشاهدة البسيطة التي لا يمكن لشيء آخر سواها أن يعطر حاسة النفس بطيبه ويمنحها دالة في الصلاة . فهذه المشاهدة هي وحدها التي تغذي النفس . وعندما يطأ الذهن أرض معرفة الحقيقة لا يعود بحاجة إلى الإستفسار . فكما أن العين الجسدية لا تستفسر عن الشمس أولاً ثم تنظر إليها ، هكذا عين النفس لا تتفحص أولاً معرفة الروح ثم تشاهدها . وكذلك بالنسبة إلى المشاهدة السرية التي تتوق إليها أيها العزيز ، فهي لا تعلن للذهن قبل استعادة صحة النفس . أمّا النفس التي تبتغي معرفة الروح بالفحص والتدقيق فهي مصابة بالجهل . فبولس المغبوط عندما شاهد الأسرار الغامضة وسمع الأقوال غير المنطوق بها ، والتي لا يستطيع إنسان أن يخبّر عنها ، لم يقل إنه رآها وسمعها بالتعلم أو بوسيلة مادة أخرى (٢ كو١٢ : ٤) ، بل سُبي سبياً إلى بلد الروح وشاهد إعلان الأسرار .

فإذا كنت ، أيها القديس ، تحب الطهارة فلا تبالغ في علاقاتك وحبك للجميع بل أدخل إلى كرم قلبك واشتغل فيه واقلع الأهواء من نفسك وجاهد في أن لا تعرف شر إنسان . الطهارة تعاين الله ، ولا تشرق في النفس وتزهر فيها عن طريق الإستفسار بل بعدم معرفة شر أي إنسان . فإذا كنت تريد أن يصير قلبك مسكناً لأسرار العالم الجديد فاغتن أولاً بالأعمال الجسدية : بالصوم والسهر وعمل النسك والصبر ونزع الأفكار السيئة وغيرها . ثم أربط ذهنك بقراءة الكتاب المقدس والتأمل فيه . أكتب الوصايا وضعها أمام عينيك وجاهد ضد الأهواء كلما غلبت أو غُلبت . اتخذ الصلاة الدائمة والتقشف والتأمل وسائل لمحو كل صورة

وكل خيال باق فيك من القدم . عوّد ذهنك على التأمل باستمرار في أسرار تدبير المخلِّص ولا تهتم بالبحث عن المعرفة والمشاهدة اللتين يعجز الكلام عن وصفهما وتحديدهما مكانياً وزمانياً . واتبع حفظ الوصايا وقم بالأعمال التي تساهم في الطهارة . واطلب من الرب أن يهبك الصلاة حزناً متقداً على كل شيء ، كما أعطى ذلك لقلوب الرسل والشهداء والآباء لكي يرتوي قلبك منه وتؤهَّل لسيرة الذهن التي أولها ووسطها وكمالها الإنقطاع عن الكل في سبيل الإتحاد بالمسيح . وإذا كنت تشتهي مشاهدة الأسرار فطبّق الوصايا بنفسك فعلياً ولا تهتم بفحصها ومعرفتها . إن المشاهدة الروحية تفعل فينا في مكان الطهارة نفسه . فتعلّم أنت أولاً كيف تدخل إلى مكان أسرار الروح لأنه من هنا يجب أن تبدأ

مشاهدة الأسرار تسبقها الطهارة التي تقوم على حفظ الوصايا . أمّا المشاهدة فهي مشاهدة الذهن الروحية التي يعبّر عنها بالدهش وإدراك كل ما حصل وما سيحصل . المشاهدة هي معاينة الذهن المنذهل في تدبير الله الصائر من جيل وجيل . وهي إدراك مجده وفهم أمور العالم الجديد الصعبة التي ينسحق بها القلب ويتجدد ويغتذي كما يغتذي الأطفال بالمسيح بلبن الوصايا الجديدة الروحية وبصبر عديم الشر . فيسلك في أسرار الروح وفي إعلانات المعرفة ويعتاد عليها ، مرتقياً من معرفة إلى معرفة ومن إدراك إلى إدراك ، فيتعلم ويتقوى سرياً إلى أن يسمو بالمحبة ويتحد بالرجاء ويدخل الفرح إلى أعماقه ويرتفع إلى الله ويتكلل بمجد الطبيعة التي خُلق فيها قديماً .

هذه العطايا الروحية ترفع الذهن إلى إعلانات المعرفة وتجعله يقع وينهض ويَغلب ويُغلب ويُشوى في أتون القلاية ، فيتنقى ويصبح رحمة ويؤهَّل عملياً لمشاهدة الثالوث القدوس التي تتمناها أنت . إن الرؤى الطبيعية التي يسمو إليها الذهن ويعمل بها ويتروض فيها هي ثلاث : إثنتان منها تختصان بطبيعة المخلوقات ، الناطقة وغير الناطقة ، الروحية والجسدية ، أمّا الثالثة فتختص بالثالوث الأقدس . فالمشاهدة تتم أولاً في كل مخلوق يأتي إلى الخليقة ، ومن الخليقة يعبر الذهن إلى إعلان المعرفة . أمّا المخلوقات التي لا تقع تحت الحواس فتكون المشاهدة فيها عقلية . لكن الذهن يملك مشاهدة ذاتية يعاين بها نفسه ، وهي التي اتخذها الفلاسفة غير المسيحيين وسيلة لتخيّل الكائنات .

إن المشاهدة التي يملكها أبناء سر الإيمان (القديسون) تلتصق بالإيمان التصاقاً متيناً وترعى في روضة الكتاب المقدس الذي يضبط الذهن ويقيه من كل تشتت خارجي ويجعله يتحد بالمسيح كما حصل لباسيليوس وغريغوريوس ، ويجعلها تتذوق الأقوال السرية المدوّنة فيه . فبالإيمان نتقبّل الأقوال التي لا تدرك بالمعرفة . أمّا بالمشاهدة فنتقبّل معرفة تفوق الأقوال . لكننا لا نستطيع الحصول على هذه المعرفة إلاّ بعد التنقية . أمّا أسرار الروح التي تفوق المعرفة ولا تستطيع الحواس الجسدية أن تحس بها ، ولا عقلانية الذهن أن تدركها ، فقد وهبنا الله معرفة وجودها بالإيمان فقط ، حتى يحرك في داخلنا الرجاء والشوق إليها . بالإيمان نعترف أن الله هو رب وسيد وخالق الكل وصانعهم . وبالمعرفة ندرك أنه ينبغي علينا حفظ وصاياه . فالوصايا القديمة يحفظها الخوف فقط ، « لأن الروح الذي نلتموه لا يستعبدكم ويردّكم إلى الخوف » (رو ٨ : ١٥) ، أمّا وصايا المسيح فتحفظها المحبة : « إذا عملتم بوصاياي تثبتون في محبتي ، كما عملت بوصايا أبي وثبتّ في محبته » (يو ١٥ : ١٠) . إن الإبن لا يحفظ الوصايا خوفاً من أبيه بل محبة به . لذلك أوصانا أن نحفظها حباً به : « إذا كنتم تحبوني عملتم بوصاياي . وسأطلب من الآب أن يعطيكم معزّياً آخر يبقى معكم إلى الأبد » (يو ١٤ : ١٥ و١٦) . إنه يدعو حضور المعزي مواهب إعلانات أسرار الروح ، أي حلول الروح الذي قبله الرسل ، فحصلوا على كمال المعرفة الروحية . وقد وعدهم الرب أن يسأل الآب في إرسال المعزي لهم ليقيم معهم إلى الأبد بعد أن يحفظوا الوصايا ويصبحوا أنقياء . أرأيت كيف أن الذهن ، بحفظه الوصايا ، يؤهّل لنعمة المشاهدة السرية ولإعلان معرفة الروح ، وليس كما تظن حكمتك التي تدّعي أن حفظ الوصايا يمنح مشاهدة الأسرار التي تتم في السكينة .

فأتوسل إليك ، إن كنت قد شعرت في ذاتك أنك بلغت بلد المحبة ، أن تحفظ الوصايا الجديدة حباً بواضعها لا خوفاً منه ، كما قال بولس المغبوط عندما كان ملتهباً بالمحبة الإلهية : « فمن يفصلنا عن محبة المسيح ؟ أتفصلنا الشدة أم الضيق أم الإضطهاد ... ؟ » (رو ٨ : ٣٥) و« أنا على يقين أن لا الموت ولا الحياة ولا الملائكة ... تستطيع أن تفصلني عن محبة الله في ربنا يسوع المسيح » (رو ٨ : ٣٨ و٣٩) . وحتى لا يظن أحد أنه كان يبتغي أجراً عظيماً أو كرامة أو

موهبة روحية سامية ، كما تبتغي قداستك ، قال : « كنت أود أن أكون محروماً من المسيح حتى يتصالح معه إخوتي » (رو ٩ : ٣) . ولكي تتأكد أيضاً أنه لم يكن يسعى وراء المشاهدة السرية النسكية ، كما تسعى أبوّتك وراءها ، بل كان يتمنى تلك التي أهّل لها كثيرون بنعمة الله ، فاسمع ما يقول : « لو تكلمت بلغات الناس والملائكة ، ولا محبة عندي ، فما أنا إلاّ نحاس يطنّ وصنج يرنّ . ولو وهبني الله النبوة وكنت عالماً كل سر وكل علم ، ولي الإيمان لأنقل الجبال ، ولا محبة عندي ، فما أنا بشيء » (١ كو ١٣ : ١ و٢) . فالمحبة هي الباب الشرعي الذي يدخل منه الإنسان إلى هذه المشاهدة ، فإذا اقتنيناها نستطيع ولوجه . وإذا افترضنا أننا سننالها بالنعمة ، أي دون تعب ، فلا شك أننا لن نقتنيها أبداً ، لأن قنية القديسين الكبار وحصنهم وسيرتهم الإلهية هي المحبة . فعندما يقتني الراهب المحبة يملك قلبه السلام (القلب مسكن الله) ويفتح أمامه باب النعمة الذي يدخل منه الرب ويخرج ، كما قال له المجد : « أنا باب الحياة » (يو ١٠ : ٩) . فإذا دخل منه الإنسان يحيا ويجد مرعى لغذاء حياته الروحية حيث لا يقدر شر ولا ضلال أن يقاومه ، بل المحبة الإلهية تدخله وتخرجه من كل أبواب إعلانات المعرفة ومشاهدة الأسرار الإلهية ، شأن أبناء المسيح الأحرار. ولكي نتأكد من حقيقة هذا الكلام ، أي أن سيرة الذهن الروحية هي مشاهدة إلهية ، فاسمع بولس العظيم الذي يصرخ قائلاً : لست أرضى بالمشاهدة قبل أن أذوق طعم حزن المحبة الشرعي ، ولا أرنو إليها ، ولا أرغب بها أبداً قبل اقتنائي المحبة . وإن أعطيت لي مجاناً ، فأنا لن أدخل إليها إلاّ من الباب الطبيعي الذي هو المحبة . فينبغي أولاً أن أقتني المحبة التي تسبق مشاهدة الثالوث الأقدس ، وبعدها أحصل على مشاهدة الأمور الروحية بشكل طبيعي . إفهم حكمة بولس المغبوط ولاحظ كيف أنه ترك كل المواهب التي تعطى من النعمة مجاناً وسعى للحصول على جوهرها « المحبة » التي تقبل المواهب وتحفظها كما قال أحدهم : « إن موهبة مشاهدة المخلوقات قد أعطيت لموسى ولآخرين كثيرين ، لكن ليس بشكل جلي بل بالإعلانات . أمّا أنا الذي تعمّدت بالروح القدس وامتلأت بالنعمة فإنني أقبل يسوع الساكن فيّ بشكل حسّي ، لأن المسيح جدد طبيعتنا بأقنومه ، فلبسناه بالماء والروح واتحدنا به سرياً بحال لا توصف وأصبحنا أعضاء في جسده . أمّا هنا فبالعربون ، وأمّا في العالم الجديد فبمنحه الحياة للأعضاء الأخرى بشكل طبيعي » . فما بالك إذن تسعى

وراء المشاهدة التي أعلنها بولس الإلهي مستحيلة ما لم تسبقها المحبة .

أمّا قولك إن عمل الوصايا يمنعني عن المشاهدة ، فيتضح منه أنك ازدريت صحبة القريب وفضّلت المشاهدة راغباً في معاينتها حيث لا تشاهد . فنحن ، أيها الحكيم ، لا نستطيع الولوج إلى المشاهدة ما لم تعلن لنا ذاتها في الوقت المناسب . فكما أن النفس تبدأ بتقبل المعرفة وتحسس الأشياء المحيطة بها وتتعلمها يوماً بعد يوم ، حسب نموها وتقدمها ، كذلك الحال في الأمور الروحية حيث يبدأ الإنسان بتقبل المشاهدة الإلهية والحس الإلهي ويتعلمها تدريجياً حسب نموه في سيرة الذهن وحسب تقدمه ونجاحه . وعندما يبلغ بلد المحبة يعاين الروحيات في مكانها الخاص . لكنه إذا حاول كسْبها بالضغط على نفسه فلن تطيعه ، وإذا تجاسر بتكبر على مشاهدتها وإدراكها قبل الأوان فإنه يفقد بصره ويرى خيالات ورموزاً عوض الحقيقة . فإذا أخذت هذه الأمور كلها بعين الإعتبار ، أعتقد أنك ستتوقف عن السعي وراء مشاهدتك طالباً إياها قبل الأوان . لكن إذا كنت تزعم الآن أنك تشاهد فاعلم أن مشاهدتك ظل خيالي وليس مشاهدة حقيقية ، لأن كل شيء عقلي ، له صورة ومثال في مجال الخيال ، يكون أحياناً حقيقياً وأحياناً أخرى وهمياً ، كما هي الحال في الأشياء المركبة المحسوسة التي تكون مشاهدتها أحياناً وهمية وأحياناً حقيقية . فعندما تكون المشاهدة حقيقية يوجد نور ، ويشاهد الشيء المرئي بجانب الحقيقة . لكن إذا حصل العكس ، فعندئذ تشاهد العين الظل عوض الحقيقة . فالإنسان يشاهد أحياناً ماء حيث لا يوجد ماء ، ويشاهد أبنية عالية معلّقة في الهواء بينما هي في الحقيقة مبنية على الأرض . فاتخذ هذا التشبيه الذي من الأشياء المادية مقياساً لفهم الأمور العقلية والروحية .

فإذا لم تتنق بصيرة الذهن بحفظ الوصايا وأعمال سيرة السكينة ولم تقتبن نور المحبة بكمالها ولم تنمُ قامتها المتجددة بالمسيح ولم تقترب من سمو معرفة الطبائع الروحي حسب ترتيبها (المعرفة التي تحاول بواسطتها بلوغ سيرة الروح الملائكية) لا يستطيع الذهن أن يصير معايناً حقيقياً للإلهيات . فكل الصور التي يحاول الذهن التقاطها ليست سوى خيالات وهمية . وهذا ناجم عن عدم تنقيته لأنه لا يزال يشاهد أشياء بدل أخرى . إن طبيعة الحقيقة ثابتة دائماً ، لا تتبدل ولا تتحوّل

إلى أشكال متنوعة ، أمّا الصور الخيالية فتنجم عن ضعف الذهن ، وليس العكس .

وهذا ما حصل للفلاسفة الوثنيين الذين لم يتلقنوا من الله التعليم الحقيقي لمعرفة الأمور الروحية ، فبترفعهم وتشبثهم بآرائهم حاولوا معرفة الأمور من خلال جس النبض وحركات العقل ومعاني الأفكار ، وتكلموا عنها بطريقة غير لائقة وحوّلوا عبادة الإله الواحد إلى كثرة الآلهة ودوّنوها حسب آرائهم الخيالية معتبرين هذه الآراء المعوجة أساساً لنظرية علم الطبائع .

إن المشاهدة الحقيقية للطبائع المحسوسة وغير المحسوسة وحتى مشاهدة الثالوث الأقدس ذاتها تتم بإعلان المسيح الذي علّمها وأظهرها للناس عندما جدد بأقنومه الطبيعة البشرية وجعل لنا من نفسه طريقاً نعبرها إلى الحقيقة بوصاياه المحيية . إن الطبيعة البشرية لا تستطيع بلوغ المشاهدة الحقيقية إلاّ بخلع الإنسان العتيق ، إنسان الأهواء ، وبالصبر على الآلام والعمل والأحزان ، كما يخلع الطفل المولود حديثاً غشاء الرحم عنه . وعندئذ يستطيع الذهن أن يولد روحياً ويبرز في عالم الروح ويعاين وطنه .

إن مشاهدة المخلوقات مهما حلت تبقى ظلاً للحقيقة ، وحلاوتها ليست بعيدة عن حلاوة خيالات الأحلام . أمّا مشاهدة العالم الجديد الصائرة بإعلان الروح التي يتنعم بها الذهن روحياً فلا تختلف عن تلك التي كتب عنها بولس الرسول : « أعدّ الله للذين يحبونه كل ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر » (١ كو ٢ : ٩) . لقد أعلن الله هذه المشاهدة لقديسيه بواسطة روحه « لأن هذا الروح يفحص أعماق الله » (١ كو ٢ : ١٠) . هذه المشاهدة تكون بمثابة غذاء للذهن حتى يستطيع قبول مشاهدة أسمى من المشاهدة الأولى . فالمشاهدة تنتقل بالذهن من معاينة إلى أخرى حتى تدخله وطن المحبة الكاملة . المحبة بلد الروحيين ومقامها النفس الطاهرة . عندما يمكث الذهن في وطن المحبة تفعل فيه النعمة ويشعر بحاجته إلى مشاهدة الروح فيصير معايناً للأشياء الخفية . قلت إن نعمة إعلانات مشاهدة الذهن لها مصدران : الأول هو النعمة وسببها حرارة الإيمان ، أمّا الثاني فهو عمل الوصايا والطهارة . فبالنعمة أعطي إعلان

المشاهدة للرسل المغبوطين الذين لم يؤهّلوا له بتنقية ذهنهم بعمل الوصايا بل بحرارة إيمانهم . فقد آمنوا بالمسيح ببساطة وقوة وبقلب ملتهب غير متردد . وبعد أن أنهى عمل تدبيره الإلهي أرسل لهم الروح المعزي فطهّر ذهنهم وكمّله ، وأمات فيهم الإنسان العتيق ، إنسان الأهواء ، وأحيا فيهم الإنسان الجديد ، إنسان الروح . وبذلك قبلوا حس الأمرين (الحياة والموت) . وبالطريقة نفسها تجدد بولس سرياً واقتبل مشاهدة إعلان الأسرار ، لكنه لم يكتف بها ، رغم قبوله النعمة مجاناً ، بل سعى كل حياته حتى يفي ما أُعطي من نعمة قدر استطاعته مذ تكلم معه يسوع في الطريق ، كخاص به ، وأرسله إلى دمشق . لم يدوّن الكتاب أن يسوع تكلم معه علانية ، بل أن حنانيا قال له : « يا شاول أخي إن ربنا يسوع المسيح الذي ظهر لك في الطريق أرسلني إليك لكي تبصر عيناك وتمتلىء من الروح القدس » (اع ٩ : ١٧) . وبعدما عمّده امتلأ من الروح القدس . ومنذ تلك اللحظة بدأ يشعر بإعلانات الأسرار الخفية ، كما حصل للرسل القديسين عندما كلّمهم يسوع وهو بعد معهم قائلاً : « عندي كلام كثير أقوله لكم بعد ، لكنكم الآنَ لا تقدرون أن تحتملوه . فمتى جاء روح الحق أرشدكم إلى الحق كله وأخبركم بما سيحدث » (يو ١٦ : ١٢ و١٣) .

يتضح من هذا أن بولس المغبوط أهّل لإعلان الأسرار بعد اقتباله الروح القدس وتجدده به ، فبدأ يشاهد إعلانات روحية ويتنعم بها ويسمع أقوالاً غير منطوق بها ، ويعاين رؤى تفوق الطبيعة ، ويتمتع بمشاهدة القوات السماوية والأمور الروحية . فإنه لم يصعد إلى هناك بإرادته الذاتية ، كما يزعم هؤلاء الهراطقة المدعوون افخيتيين ، ـ فالصعود إلى هناك يستحيل على الذهن كلياً ـ بل سُبي سبياً بإعلانات الروح ، كما كتب في الرسالة إلى أهل كورنثوس لمعارضة الذين يضعون أنفسهم في مصف الرسل القديسين ، ويعتبرون تخيلات أفكارهم رؤى روحية . وقد حذا حذوهم كثير من الهراطقة المنتشرين في أمكنة متعددة أمثال أوريجنس وفالنتينوس وابن داشان ومركيّون ومانيس وغيرهم من زعماء الهراطقة القدماء من أيام الرسول إلى يومنا .

لما حاول بعض الناس الذين أفسدتهم الأوهام الشيطانية أن يفسدوا تعليم الرسل المغبوطين ، اضطر بولس الإلهي إلى دحض تبجحات الهراطقة الذين كانوا

يتفاخرون بأعمال الشيطان الخداعة التي تتراءى لهم ، وأخذ يسرد بتواضع وخوف شديدين قصة مشاهدته الإلهية ناسباً إياها إلى شخص آخر وقائلاً : « أعرف رجلاً مؤمناً بالمسيح خُطف قبل أربع عشرة سنة إلى السماء الثالثة . أبجسده ؟ لا أعلم . أم بغير جسده ؟ لا أعلم . الله يعلم . وإنما أعلم أنه خُطف إلى الفردوس وهناك سمع كلاماً لا يقدر بشر أن ينطق به ولا يجوز له أن يذكره » (٢ كو ١٢ : ٢ - ٥) . لقد كتب هذه الأمور وخبّر عنها لأنه رآها وسمعها . أمّا مضمون الأقوال وتفاصيل المشاهدة فلم يستطع أن يكتب عنها شيئاً ، لأن ذهنه كان مخطوفاً بإعلان الروح ، ولم يستطع نقل ما شاهده والتكلم عنه خارج مكانه مع أنه كان يريد ذلك ، لأنه لم يرها بعينيه الجسديتين . فالذهن لا يستطيع التعبير بالحواس الجسدية إلاّ داخل إطار المحسوسات وعن الشيء الذي يتقبّله من خلال الحواس الجسدية . أمّا ما يشاهده أو يسمعه أو يدركه بالروح فيعجز عن التعبير عنه عند رجوعه إلى الجسد ، ولا يستطيع أن يفعل أكثر من أن يتذكر ما شاهده فقط . أمّا كيف شاهد ، فهذا ما لا يستطيع إيضاحه .

وبهذا فُضحت المؤلفات الكاذبة المدعوة إعلانات والتي نشرها زعماء الهرطقات الفاسدون بأوهام الشياطين ، حيث يتكلمون على المساكن الفلكية ويقودون الذهن إليها لكي يتعلم من ذاته طريقة الولوج إلى السماء ويعرف الأمكنة المعدّة للدينونة ويميّز رتب القوات الملائكية . لا شك أن هذه الأقوال هي دليل ترنّح الذهن بخمر العجرفة وسلوكه في الضلال وارتباكه بأعمال الشياطين . ولهذا اتخذ بولس الرسول الصمت باباً وأغلقه بوجه كل نظرية إغلاقاً محكماً . ولو استطاع الذهن أن يعبّر عن المشاهدة لكان قد كتب عنها . فكل مشاهدة يعبّر عنها باللسان البشري تكون حصيلة تفكير عقلي نفسي وليس من فعل النعمة .

إن هذه الحرب كما تعلم ، أيها البار ، من خلال مراقبتك الهواجس الفكرية العميقة ، تتولّد داخل الرهبان ذوي الأفكار الحادة الذين يحاولون استقصاء الأمجاد الباطلة ويرغبون في استنباط أمور جديدة ويحبون الجدل .

فقد كان في الرّها راهب يُدعى مالباس وقع في هرطقة الأفخيتيين وكان يسلك سيرة نسكية شاقة محتملاً الأتعاب والشدائد . ويقال إنه كان تلميذاً

ليوليانوس العظيم منذ صباه وقد اصطحبه زمناً قصيراً إلى جبل سيناء ومصر فرأى الآباء العظماء هناك ومنهم القديس أنطونيوس وسمع منه أقوالاً روحية في الطهارة وخلاص النفس وفي مواضيع دقيقة حول الأهواء .

كان القديس يشرح هذه الأمور ويقول : إن الذهن لا يستطيع الحصول على مشاهدة أسرار الروح إلاّ بعد تنقيته ، وإن النفس تؤهّل للاهوى بالنعمة الإلهية بعد أن تخلع عنها الأهواء بعمل الوصايا وتستعيد سلامة طبيعتها الأولى . فلما سمع مالباس هذه الأقوال ، وهو بعد في ريعان الصبا ، التهب كالنار ورجع إلى مدينته وحب المجد متقد فيه . فاختار له منسكاً منفرداً وحبس نفسه فيه وابتدأ بالأعمال النسكية وتحمل الشدائد والصلوات الدائمة . وقبل أن يتعلم فن الحرب ضد أعداء الحقيقة وكشف ألاعيب المحارب وفضح حيله المضلّة التي يخدع بها الأقوياء ويحدرهم إلى الهلاك ، اشتعل فيه جنون المجد الباطل آملاً الوصول إلى تلك الأمور السامية التي سمعها . فاعتصم فقط بالأعمال والشدائد وعدم القنية والنسك والتعفف دون أن يهتم بإفناء نفسه واتضاعها وبانسحاق قلبه (وهما أساسيان في محاربة الشيطان وقهره) ، ولم يتذكر الكتاب القائل : « كلما فعلتم ما أمرتم به فقولوا إننا عبيد بطالون ولم نفعل إلاّ ما هو متوجب علينا » (لو ١٧ : ١٠) . بل كانت رغبته في الأمور السامية التي سمعها تلهب نار الخيلاء فيه ، وأعماله النسكية تزكيها . فبعد أن قضى زمناً طويلاً في هذه السيرة شاهده الشيطان عارياً من التواضع ولا يرغب إلاّ في الأسرار التي سمع بها ، فظهر له داخل فيض من النور غير المحدود وقال : أنا هو المعزي وقد أرسلت إليك من الآب لأجعلك أهلاً للمشاهدة التي تتمناها ، مكافأة على أتعابك ، ولأمنحك موهبة اللاهوى وأريحك من أعمالك المضنكة . ما أن انتهى ذلك المحتال الخبيث من كلامه حتى طلب منه أن يسجد له . فقبل ذلك الغبي وسجد له لأنه كان يجهل أساليبه ، فوقع في الحال أسيراً بين يديه . فأخذ يملأه بالخيالات الشيطانية بدل المشاهدة الإلهية وجعله بطالاً عن أعمال الحق ، ورفعه وهزأ به وسخر باللاهوى الباطل الذي كان يأمل به وقال له : منذ الآن ، لست بحاجة إلى العمل وقهر الجسد والجهاد ضد الأهواء والشهوات . وبهذا جعله زعيم الهراطقة الأفخيتيين . ثم فضح تعليمه الفاسد والغاش فطرده الأسقف مع أتباعه .

راهب آخر من المدينة نفسها يدعى اسيناس ، الذي نظّم ثلاث ترانيم ما تزال ترتل إلى الآن ، كان يسلك سيرة قاسية ويفرض على نفسه أعمالاً نسكية صعبة دون تمييز ، فنال مجداً بشرياً . لكن الشيطان أضلّ هذا الراهب وأطلقه من قلايته وأصعده إلى جبل يدعى ستوريوس وأراه عربات وأفراس وقال له : لقد أرسلني الله لآخذك إلى الفردوس نظير النبي إيليا . فخُدع بسبب جهله ، وما أن همّ بالصعود إلى العربة حتى تبددت الرؤية عنه فسقط على الأرض من علو شاهق ومات موتاً مخزياً .

لم أتكلم بهذه الأمور عبثاً ، بل لنتعلم بعض الأمور حتى لا نكون سخرية للشياطين المتعطشة إلى هلاك القديسين ، وأن لا نحاول ، قبل الأوان ، بلوغ الأمور السامية المتعلقة بسيرة الذهن (المشاهدة) حتى لا يهزأ بنا العدو الشرير ، لأني أرى اليوم شباناً ممتلئين بالأهواء يكثرون من الكلام ويؤلفون تعاليم حول أسرار اللاهوى دون خوف .

كتب أناس ممتلؤون بالأهواء إلى أحد القديسين يشرحون له أحوال المتجسمين واللامتجسمين ، وهم لا يختلفون كثيراً عن المرضى الذين يصفون أحوال الأصحاء . إن بولس المغبوط عندما شعر أن تلاميذه بدأوا يهملون الوصايا ، وأنهم يتوقون إلى مشاهدة الأسرار التي لا تحصل إلاّ بعد التنقية ، قبل أن يتغلّبوا على أهوائهم قال لهم : « اخلعوا عنكم أولاً إنسان الأهواء القديم ثم اطلبوا أن تلبسوا الجديد المتجدد بمعرفة الأسرار على مثال الخالق » (أف ٤ : ٢٢ - ٢٤) . لكن لا تطلبوا تلك المشاهدة التي أعطيت لي وللرسل بقوة فعل النعمة « لأن الله يرحم من يشاء ويقسّي قلب من يشاء » (رو ٩ : ١٨) . فهل يقدر أحد أن يقف أمام وجهه وأن يقاوم مشيئته ؟ إنه ، أحياناً ، يهب مجاناً ، وأحياناً يطالب بالأعمال والطهارة معاً ، وأحياناً لا يمنح الطهارة في هذه الحياة حتى بعد العمل بل يحفظها إلى أوانها . وهذا نراه أيضاً في مغفرة الخطايا . إنه يمنح المعمودية مجاناً دون أن يطلب منّا شيئاً سوى الإيمان ، أمّا التوبة عن الخطايا ، بعد المعمودية ، فلا يقبلها مجاناً ، بل يطلب معها أتعاباً وضيقات وأحزان الندم ودموعاً وعويلاً وبعد ذلك يغفر . فاللص باعترافه له وهو على الصليب نال الغفران وملكوت السموات ، أمّا المرأة الخاطئة فقد طلب منها الإيمان مع الدموع ، وطلب من الشهداء والمعترفين

بالإضافة إلى الإيمان القلبي الضيقات والعذابات والتمشيط[1] والميتات المتنوعة .

وبما أن قداستك مقتنع بهذه الأمور وأمثالها فانتبه للأولى والأخيرة (ما قبل المشاهدة وما بعدها) ، ولا تطلب المشاهدة قبل أوانها بل اجتهد في أعمال التوبة ما دمت مرتبطاً بالجسد ، وصارع الأهواء ، وكن صبوراً في عمل الوصايا ومحترساً من خداع الشياطين ومن الذين يكرزون بالكمال الثابت والتام في هذا العالم المتقلقل المليء بالأهواء لأنه مستحيل حتى على الملائكة القديسين الذين يخدمون الآب والروح والذين ينتظرون التجديد الثاني ليعتقوا من عبودية الفساد إلى حرية مجد الأبناء (رو ٨ : ٢١) . فهل يمكن أن يكون كمال تام في هذه الحياة التي تشرق فيها الشمس أحياناً ثم تغيب ، ويكون الجو صافياً ثم يتعكر ، ويشملها الفرح أحياناً ثم يليه الحزن ؟ إن من يفكّر عكس هذا تكون حصته كما قال أحد القديسين ، مع الذئاب .

فليوطد الله سيرتنا في حياه الحق وفي تعليمه المقدس ، وله المجد والعزة والجلال الآن وكل أوان وإلى الدهور التي لا منتهى لها ، آمين .



(١) نوع من التعذيب .

خدمـة

القديـس اسحق السرياني

في اليوم الثامن والعشرين من أيلول
نقيم تذكار أبينا المتوشح بالله إسحق
السرياني أسقف نينوى

في صلاة المساء الصغرى

نرتل البرصوميّات الأربع التالية :

باللحن الثاني

لمّا تقبَّلتَ في قلبكْ ، النارَ اللاهيولية ، بحبّكَ للمسيح ، عندها تبعته ، في ريعان صباكْ ، أيها الكليُّ الغبطة ، اسحق البار ، جاحداً العالم ، بكلِّ ميوله ، لهذا ، بالامساك الشديدِ ، ظهرتَ ناسكاً شريفاً ، قاطعاً الأهواءَ من جذورها .

إذ بالعشقِ المقدّسِ انجرَحَتْ نفسُكَ أيها البارُ ، في سيرة السكينةِ ، رُحتَ على الأثرِ إلى مكانٍ قفر ، وبالحقيقةِ ظهرتْ ، ملاكاً بالجسدْ ، ساطعاً بمجد الروح الذي لا يزول . لهذا ، للنساك أضحيت ، مرشداً بالقولِ والفعلِ ، يا معلماً متوشحاً بالله .

عندما لنينوى أصبَحْتْ ، أسقفاً برضى الروح ، أيها البارْ ، عندها لقّنتَ المؤمنين كراع شريف ، الناموسَ الخلاصيَّ ، لعهدِ النعمةْ ، الذي من أجله كرّستَ ذاتكَ ن. لهذا ، للجميع ظهرتَ ، صورة للسيرةِ الفضلى ، وللإنجيلِ الإلهيّ متمّماً .

صرتَ للنساكِ مرشداً ، في فهم الأسرار الإلهية ، بغية الكمالْ ، بنقاء السيرة مزيّناً لامعاً ، يتدفق منك التعليم ، والحكمة الإلهية ، التي تقودنا إلى السبيل الفضيل . فيا اسحقُ المنجع الخصب ، وللاهوى إناء ، وللطالبين شفاعاتك ملبيٌ .

أيها الآب البار ، لما انفصلت عن الأمور المادية ، خضت بحر النسك بشوق حار . وإذ ضارعت بالجسد الماديّ الملائكة الذين لا جسد لهم ، استحققت رؤية اللاهيوليين ، مشجعاً بخبرتك الجميع على اقتناء الأمور الفضلى . لهذا تشفع من أجل المعيّدين لتذكارك ، واحفظهم سالمين من مكائد العدو ، طالباً للجميع الرحمة الإلهية .

الآن

يا والدة الإله المباركة ، احفظي عبيدك لكي نمجّدك يا رجاء نفوسنا .

يا نور بهياً . . . والبروكيمينون ، وأهلنا يا رب . . .

الابستيخن باللحن الثاني

إفرح يا منارة ، مشعّة للنسّاك ، أيها البار إسحق ، وللنساك كافة كوكباً على شبه الله .

استيخن : كريم بين يدي الرب موت باره .

منذ بدء الصبا ، كرّستَ للرب ذاتك ن ، بالسكينة ظهرت ، للروح المعزي ، آنية مقدّسة .

استيخن : طوبى للرجل الخائف الرب .

هب فهماً لذهني ، لأدرك بدعاك ، معرفة الخلاص ، التي في كتابك ، دونتها أيها البار .

المجد

لما كنزتَ يا اسحق ، إشعاعاً سرياً ، من الثالوث الأقدس ، فأنت تلهب فينا الشوق إلى تعاليمك .

انقذي من الجهل ، ومن روح التواني ، ومن الضجر نفسي ، أيتها الفتاة ، وخلصيني يا طاهرة .

من ثم ، الآن أطلق عبدك . . .
والطروبارية في صلاة المساء الكبرى .
والحل .

في صلاة الغروب الكبرى

بعد مزمور الغروب نقرأ طوبى للرجل ثلاثة مزامير فقط . وعلى يا رب إليك صرخت نرتل القطع الست التالية باللحن الرابع .

لما التهبتَ بنار محبة المخلص منذ شبابك ، غادرت كل تعلّق بالعالم وتبعت السيد باجتهاد شديد . وإذ أمتَّ معقول الجسد بالجهادات النسكية ، ظهرت مستودعاً للاهوى بجملتك . لذا نطوّبك جميعنا يا أبانا إسحق المحكَّم من الله ، كمرشد إيانا إلى كمال الفضائل .

أيها الآب لما انجرحت بشوق الهدوء الإلهي ذهبت إلى برية مقفرة وسكنت فيها مسروراً . وبمناجاتك لله اتحدت به بقلب طاهر غاية في النقاوة ، وأصبحت بذلك ملهماً به وإذ امتلأت بالنور الإلهي الذي يفوق العقل صرت معلماً حكيماً للمتوحدين ومرشداً إلى سيرة أسمى الذين يقبلون بأمانة تعاليمك النيّرة يا أبانا المتوشح بالله إسحق .

إذ صرت أيها التقديس المغبوط كوكباً ومعلماً ومرشداً للهادئين ومثالاً ممتازاً لهم . فإنك ترفع أفكارنا إلى السلوك في حياة الكمال . وكلامك الحكيم الملهم به من الله ، هو مثل الندى النازل من حرمون على صهيون كما كتب ، وكمثل المن الإلهي والخمرة اللاهيولية التي تبهج نفوسنا وتقربها للرب أيها الكلي الغبطة إسحق .

لقد أعطيت قلبك للخالق برغبة تحركات ذهنك ،ووجهتها إليه كلها أيها المتأله العقل . وبالإمساك والسيرة الملائكية سموت إلى أقصى اللاهوى ، فأصبحت مليئاً بإشراق الروح المعزي ساراً الله أيها الكلي الغبطة إسحق .

إن أقوالك أيها المغبوط هي كتاب مثل روضة تعطّر حواسنا وعقولنا بشذى أزهار تعاليمك ، وتطرد بقوة الروح الإلهي نتانة الأهواء والضجر من نفوسنا . فإذ قد عشت سيرة ملائكية ، فأنت تقود أذهاننا إلى الأفضل أيها المغبوط إسحق .

يا رئيس الكهنة الملهم من الله ، لقد صرت بالنسك متألهاً بجملتك ، فأصبحت راعياً لكنيسة نينوى يا إسحق الكلي الغبطة ، لكن بما أنك قد تذوقت الخيرات الإلهية في السكينة رجعت إلى البرية وسكنت هناك ، منقياً ذهنك بالعمل والتأمل ومناجياً الله أيها الأب القديس .

المجد باللحن الثامن

أيها البار لما أحرقت شوكة الأهواء بنار النسك ، حصلت على ثمر الفضيلة ، وإذ اتكلت على الله في إزالة المادة عن ذهنك قبلت مواهب الأفعال الإلهية في نفسك فأصبحت متألهاً بجملتك . وإذ أبرزت من خلال سيرتك المواهب التي منحتها من المسيح ، ظهرت معلماً للمتوحدين بمثالك الخاص . فالآن يا أبانا إسحق لا تكفَّ عن الابتهال إلى المسيح لكي ينير أذهاننا بنور المعرفة الإلهية .

الآن

إن ملك السماوات ، باتخاذه من العذراء النقية جسداً ، وورود منها ، لأجل محبته للبشر ، على الأرض ظهر ومع الناس تصرّف . وهو ابن واحد بعد الولادة ذو طبيعتين ، وليس ذا اقنومين . لهذا ، اذ نبشر به بشارة حقيقية أنه إله تام وإنسان تام ، نعترف بالمسيح أنه هو إلهنا . فتوسلي إليه أيها الأم التي لا عريس لها أن يرحم نفوسنا

يا نوراً بهياً . . .، والبروكيمينون والقراءات التالية :

- حكمة سليمان الحكيم (٣ : ١ - ٩) .
- حكمة سليمان الحكيم (٥ : ١٥ - ٦ : ١) .
- حكمة سليمان الحكيم (٤ : ٧ - ١٥) .

في الليتين

باللحن الأول

إفرح يا محفل المتوحّدين متهللاً ، يا من اخترت حمل النير الإلهي . لقد اذخرت إسحق المتوشح بالله أستاذاً عملياً واختصاصياً في سيرة النسك . لأنه إذ صار عاملاً لكمال الفضيلة ، فهو يرشدنا بأمانة إلى مصاعد عقلية وبه نصير وكأننا حصلنا على ثمر عود الحياة ، دائسين حيل العدو ومكائده . لهذا نعيّد روحياً لتذكاره المقدس ممجدين المسيح الواهب لنا بواسطته الرحمة الإلهية .

باللحن الثاني

لما خُضتَ سيرة النسك حصلت عاشقاً لجمال الهدوء من كل نيتك أيها المغبوط إسحق . لأنك إذ عكفت عليه طرحت كل الاهتمامات الأرضية المضنكة . وبانطلاقك خارج الجسد والعالم بالصلاة الحارة والانتباه الشديد ، اتحدت بالله ونلتَ منه بواكير الحياة المستقبلة . فإذ تناجي الله دائماً وسط النور الإلهي طارداً قتام الأهواء وتائقاً إلى العلويات ، فأنت تلهب أذهاننا بها ، يا خادم الله الصفيّ .

باللحن الثالث

لقد نقلك الله من سيرة النسك إلى رعاية النفوس والاهتمام بها أيها الأب إسحق الكلي الغبطة . وإذ صرت راعياً لكنيسة نينوى برزت فيها بحق كعامل صفي لانجيل المسيح . لأنك جعلت ذاتك قدوة في كل بر لرعيتك المختارة . وإذ ظهرت مزكى في كلا الأمرين ، كرئيس كهنة بار وكناسك متوشح بالله ، نلت مكافأة أتعابك متمماً سيرتك حسناً . فبما أن لك الدالة تشفع من أجل المكرمين إياك .

باللحن الرابع

أيها الأب البار ، إذ قد حرثت أرض القلوب البائرة ، قاطعاً منها بمنجل أقوالك أشواك الأهواء كلها ، بذرت فيها بذار الفضيلة الصالح . لأن واهب الحكمة لما سكن فيك ، منحك أقوال الحياة الأبدية وجعلك بارزاً بالأعمال الإلهية الحكيمة .

المجد باللحن ذاته

لنكرم يا محافل المتوحدين رئيس الكهنة البار والناسك المتوشح بالله ، الفائض بالنعمة الإلهية . فإنه إذ قد تنقى ذهنه بالهدوء الأسمى ، ظهر آلة للروح القدس مُقنعاً الجميع بالتفتيش عن الجوهرة الصالحة ، ومقت الأمور المعوجّة . والآن بما أنه يتنعم في السماوات ، فهو يتشفع على الدوام من أجل نفوسنا .

الآن

يا والدة الإله المباركة ، إحفظي عبيدك لكي نمجدك يا رجاء نفوسنا .

في الابستيخن
البروصوميات التالية باللحن الخامس

إفرح أيها الشريف إسحق ، يا ذا الحياة الملائكية رائداً ، في ذهنك قد صمّمت ، أن تسلك مثلهم ، فأرضيت الله ببرارة . ومن ثم ، أمتّ تحركات الأهواء ، ففزت باللاهوى والاستنارة ، التي بها بزغ نورك ككوكب . لهذا نغبطك ، معلماً شريفاً ، ومربياً ممتازاً للحياة في المسيح . فالتمس غفراناً وخلاصاً ورحمة للجميع .

كريم بين يدي الرب موت باره

إفرح أيها الشريف إسحق ، يا استاذاً للسكينة ملهماً ، التي جاهدت فيها ،

لتنقي ذاتك ، من أمور المادة بسيرة النسك . فظهرت بجملتك ، قلباً مرتقياً ، قابلاً للنور بحال لا يوصف . لهذا اجتزت بالجسد ، الغمام الفائق الضياء ، مكلماً جهاراً الخالق بذهنك . فابتهل إليه أن يمنحنا نحن أيضاً نور نعمة اللاهوت أيها الأب .

طوبى للرجل الخائف الرب

إفرح أيها القديس إسحق ، يا مثالاً للمتوحدين ومرشداً ، وقدوة في الإمساك ، وفي الصلاة القلبية ، وصورة فضلى في الأحوال النسكية كلها . وإذ عملت أولاً ، كما قال مخلصنا ، لذا تعلّم السلوك الطاهر بنقاوة سيرتك الكاملة . لهذا امنحنا دائماً القوة من العلاء ، كما تقول أيها الأب ، لنرضي الرب إلهنا . حتى إذا ما بلغنا إلى النهاية نرث ملك المسيح .

المجد باللحن الثاني

هلموا نمدح بالنشائد والتسابيح إسحق المتوشح بالله ، المساوي الملائكة بالسيرة النسكية ، والمشابه الله بالفضيلة . لأنه مثل السروة المخصبة المروية بمياه الدموع ، يحمل بفعل الروح القدس ثمراً لذيذاً ويقدمه لكنيسة المسيح . وهو يتشفع على الدوام إلى المسيح واهب النور ، لكي يمنحنا صفحاً وغفران الزلات .

الآن . . .

عليك وضعت كل رجائي يا والدة الإله فاحفظيني تحت ستر وقايتك .

ثم الآن أطلق عبدك . . .

الطروبارية باللحن الخامس

أيها الأب المحكم من الله ، لما استنرت بأشعة الفضائل ، ظهرت بسيرتك في المسيح كوكباً ساطعاً بالروح ، فأنت ترشد حقيقة بتعاليمك الملهمة من الله ، إلى طريق الخلاص الذين يمدحونك أيها الأب كخادم شريف للمسيح .

الآن . . .

إفرحي يا باب الرب الممتنع العبور فيه . افرحي يا سوراً وستراً للمسارعين إليك . إفرحي أيتها الميناء الهادىء التي لم تعرف زواجاً ، الوالدة بالجسد خالقك وإلهك ، فلا تكفّي متوسلة من أجل المسبّحين والساجدين .

والحل .

في صلاة السحر

بعد السيتخولوجيا الأولى نرتل الكاثسما التالية : باللحن الأول

أشرقت من سورية ككوكب ساطع ، وبارشادك ألهبت رهط الرهبان ، وحللت دجى أهوائنا يا أبانا إسحق ، كونك ابناً للنور والنهار . لذا نبتهج مقيمين تذكارك الحامل الضياء مرنمين لك .

والدية

لما تجسّد الإله منك أيتها الفتاة ، بحال تفوق الطبيعة ، أنقذت العالم من اللعنة القديمة ، وأعدت إلى البهجة جميع الذين يمجدون ولادتك المتعذر وصفها ، ويسبحونك بما أنك أم الرب وعذراء كلية الطهر .

بعد الستيخولوجيا الثانية الكاثسما باللحن الثالث

إن النور اللاهيولي الذي سكن فيك أظهرك منارة للهدوء لا تنطفىء أيها المتوشح بالله اسحق . لهذا فإنك تلهب أذهاننا بتعاليمك الإلهية أيها البار . فتشفع إلى المسيح الإله أن يمنحنا الرحمة العظمى .

والدية

إن الذي خلق الكل من العدم بقي غير متحوّل لما أخذ جسداً من دمائك

الكلية الطهر وأنقد من اللعنة القديمة الهاتفين إليك بقلب ثابت ، إفرحـي أيتهـا الكلية الطهر العذراء والدة الإله يا غفران البشر وخلاصهم .

بعد البوليئاليون الكاثسما التالية باللحن الثامن

بما أنك اتكلت على الله من كل قلبك وأرضيته أيها المتوشه بالله ، جعلت ذهنك بعمـل النسـك مسكنـاً للاشعاعـات الإلهية . فأنـت توزع الجوائـز على الجميع . لهذا نمدحك مقيمين تذكارك الشريف ، بما أنك معلم مرشد أيها الأب البار إسحق . فتشفع إلى المسيح الإله أن يمنحنا صفـح الـزلات نحـن المعيّدين لتذكارك المقدس بشوق .

والدية

أيتها الكلية الطهر ، يا من ولدت بالجسد بحال لا توصف مخلص الجميع ومبدعهم . أنقذيني من جنون العدو وأميتي عقليتي الأرضية ، ووجهي نفسي إلى السماء برغبة . لأنك يا والدة الإله أنت شفيعتنا وسترنا وخلاصنا ، نحن الهاتفين إليك دائماً بإيمان يا طاهـرة ، إفرحـي يا سرور الأنـام ومليكة الملائكة ومجدهـم وملتمسة الغفران للمؤمنين .

الأنديفون باللحن الرابع « منذ شبابي . . . »
والبروكيمنون : كريم بين يدي الرب موت باره (مرتين)
استيخن : طوبى للرجل الخائف الرب .
الانجيل : أنظر ٥ ك١ للقديس سابا . والمزمور الخمسين.
المجد : بشفعات القديس البار وطلباته . . . .
الآن : بشفاعات والدة الاله . . . .

الايذيوميلا باللحن السادس

إرحمني يا الله . . .

لما زُكيت كعامل لوصايا الله جحدت رفاهية الجسد عاكفـاً على الجهـادات

لما تسربلت بالنعم السماوية أيها البار ، صرت مقتدياً بالملائكة في سيرتك . فأقوالك الخلاصية تتدفق من شفتيك باستمرار مثل حلاوة سرمدية أيها الأب .

لما تحررت من الأثقال الجسدية أيها البار ، آثرت السكنى في البرية متحداً بالله بالنسك الشديد والصلاة والصوم . لهذا غدوت مسكناً للروح الإلهي .

والدية

أيتها الفتاة ، يا من ولدت الإله وأزلت الخطيئة القديمة ، جددي ذهني بنعمتك أيتها العذراء ، وأزيلي عنه عتاقة الأهواء المؤلمة إياي .

كاثسما باللحن الرابع

أيها الحكيم ، يا منارة للهدوء مستضاءة من الله ، التي ترسل إلى البعيد نور حياة الفضيلة الذي لا يغرب . لهذا نحن معشر المتوحدين نمجدك ككوكب إلهي مستمعين لتعاليمك المتوشحة بالنور يا إسحق المحكم من الله .

والدية

أيتها العذراء الطاهرة أم الإله ، تضرعي دائماً إلى المسيح إلهنا المتجسد منك أن يمنحنا برحمته التي لا تحدّ غفران الزلات وحل الذنوب الصعبة التي في هذا العمر . لأننا نلتجىء إليك بإيمان يا أم الله .

الأودية الرابعة

أيها الحكيم اسحق ، إن محافل المتوحدّين إذ يرتشفون ماء من أنهار تعاليمك الشريفة يجتنون ثمار الإمساك النقي والصلاة الخشوعية ونعم اللاهوى ، ويرتلون المجد لقدرتك يا محب البشر .

لما تسربلت بالنعم السماوية أيها البار ، صرت مقتدياً بالملائكة في سيرتك . فأقوالك الخلاصية تتدفق من شفتيك باستمرار مثل حلاوة سرمدية أيها الأب .

لما تحررت من الأثقال الجسدية أيها البار ، آثرت السكنى في البرية متحداً بالله بالنسك الشديد والصلاة والصوم . لهذا غدوت مسكناً للروح الإلهي .

والدية

أيتها الفتاة ، يا من ولدت الإله وأزلت الخطيئة القديمة ، جددي ذهني بنعمتك أيتها العذراء ، وأزيلي عنه عتاقة الأهواء المؤلمة إياي .

كاثسما باللحن الرابع

أيها الحكيم ، يا منارة للهدوء مستضاءة من الله ، التي ترسل إلى البعيد نور حياة الفضيلة الذي لا يغرب . لهذا نحن معشر المتوحدين نمجدك ككوكب إلهي مستمعين لتعاليمك المتوشحة بالنور يا إسحق المحكم من الله .

والدية

أيتها العذراء الطاهرة أم الإله ، تضرعي دائماً إلى المسيح إلهنا المتجسد منك أن يمنحنا برحمته التي لا تحدّ غفران الزلات وحل الذنوب الصعبة التي في هذا العمر . لأننا نلتجىء إليك بإيمان يا أم الله .

الأودية الرابعة

أيها الحكيم اسحق ، إن محافل المتوحدّين إذ يرتشفون ماء من أنهار تعاليمك الشريفة يجتنون ثمار الإمساك النقي والصلاة الخشوعية ونعم اللاهوى ، ويرتلون المجد لقدرتك يا محب البشر .

لما اتحد ذهنك بالله وناجيته مناجاة عميقة ، وشاهدته مشاهدة تفوق الإدراك ، امتلأت نوراً أيها البار ، فظهرت حاملاً النور وعموداً للسكينة ومنارة كثيرة الأضواء للمتوحدين أيها المتوشح بالله .

لقد تعبدت لله في السكينة أيها البار ، كمنزه عن الجسد . فأهلك المسيح لنعم كثيرة . فامنحني منها قطرة صغيرة أنا الهاتف المجد لقدرتك يا محب البشر .

والدية

يا والدة الإله لما ولدت الإله الفائق الإدراك بدون ذرع ولا فساد ، حللت بولادتك حكم حواء . لهذا أنقذيني أيتها العذراء من الحكم أنا أيضاً في ساعة الدينونة .

الأودية الخامسة

لما رفعت ذهنك النقي إلى جمال المسيح أيها البار ، ظهرت في سيرتك غريباً عن الدنيويات . لهذا فأنت تشجع الجميع للتغاضي عن الفاسدات وشوق السرمديات .

لقد ظهرت معلماً وصورة للسيرة الملائكية أيها الأب المتوشح بالله اسحق. فلهذا أظهرتك نعمة الروح راعياً شريفاً ورئيس كهنة حكيماً لكنيسة المسيح .

أيها المتوشح بالله إسحق . إذ تلقنت في حياتك الأمور الفضلى ، غدوت راعياً شريفاً لنينوى . وبشرت بالإنجيل للجميع جهاراً ، منقياً النفوس من الأدناس .

والدية

أيتها الطاهرة ، يا من ولدت الحياة الأبدية ألتجىء إليك أنا الذي مُتّ بخدعة الأفعى وأشراكها . فأحيي ذهني بمعونتك المحيية وارشديني إلى حياة لا عيب فيها .

أيها المغبوط ، لقد زيّنت حلّة رئاسة الكهنوت بالحرص الدقيق على الوصايا الإلهية ، يا إسحق الملهم من الله . فلهذا اتخذك المخلص مسكناً له .

لما اتجهتَ بسيرتك إلى مشتهى الأمور الفضلى ، ظهرت رئيس كهنة وباراً حقيقياً لناموس النعمة ، شارحاً للجميع الوصايا الإلهية .

لما زيّنت الحكمة الروحية بالعمل ظهرت معلماً للمتوحدين حاراً ، ومرشداً إيانا بتعاليمك وأعمالك إلى الكمال أيها البار إسحق .

والدية

أيتها الطاهرة ، إذ ولدت بالجسد الإله الفائق الجوهر ، وأنهضت طبيعة الأنام من السقطة ، معيدة إياها إلى سموّ شرفها القديم . لهذا نمجدك .

القنداق

أيها المغبوط اسحق ، لقد أظهرت بسيرتك الملائكية آلة شريفة للمعزي ، ومثالاً للمتوحدين في كل شيء . وبما أنك مسكن للنعمة الإلهية التمس لنا نعمة ونوراً سماوياً نحن الهاتفين إليك : إفرح أيها الأب المحكم من الله.

البيت

لقد ظهرت بسيرتك النسكية ملاكاً بالجسد أيها الأب الكلي الغبطة اسحق المتوشح بالله ، وسلّمتنا بفمك الملائكي أقوالاً خلاصية التي بها نهتدي إلى حياة أسمى صارخين إليك :

افرح يا كوكباً وارداً من سماء سورية .
افرح يا منارة السكينة .

افرح يا من سموت على الأفكار الأرضية .
افرح يا شريك النور السماوي .
افرح يا فماً يقطر عسلاً بالتعاليم الروحية .
افرح يا من امتلأت بالحكمة الإلهية الممنوحة لك .
افرح يا من تنقذ المؤمنين من شر الأهواء .
افرح يا خادماً للمسيح حاراً .
افرح يا معلماً متفوهاً بالإلهيات .
افرح يا اسحق المتوشح بالله .
افرح يا مرشدنا الملهم من الله .
افرح أيها الأب المحكّم من الله .

في اليوم الثامن والعشرين من هذا الشهر نقيم تذكار أبينا البار المتوشح بالله اسحق السوري إسقف مدينة نينوى .

إكرامك دين علينا يا ذا البر والقداسة اسحق فسيرنا في هذا السبيل مُسدَّد بنور هُداك . في الثامن والعشرين منه لمجدك السرمدي ننشد .

السيرة المنفصلة

إن أبانا البار القديس اسحق المتوشح بالله والنجم السماوي الساطع هو سوري الأصل . وُلد في نينوى[1] من أبوين لا يُعرَف عنهما شيء .

ترك هذا البار العالم وكل ما فيه هو وأخوه وهو في ريعان الشباب ، وانخرط في مصف رهبان دير مار متى ، الذي كان يعيش فيه آنئذ عدد كبير من الرهبان الذين كانت سيرتهم تشبه سيرة الملائكة ولبس الاسكيم الرهباني فيه .

وبعدما مارس هذا القديس الحياة الرهبانية العملية هناك وبلغ إلى درجة سامية في الفضيلة تولّد فيه شوق لحياة السكينة العميقة وأخذ قلبه يشتعل بجمر السيرة النسكية المنعزلة . فترك دير الشركة وذهب إلى البرية وعاش متوحداً في قلاية منفردة ليتسنى له التأمل والاتحاد بالله .

وفي تلك الأثناء تسلّم أخوه رئاسة الدير وأخذ يراسله باستمرار متوسلاً إليه الرجوع إلى الدير الذي عاش فيه حياته الأولى . لكن عشقه الشديد للبرية لم يدعه يتخلّى عنها إطلاقاً . ورغم أنه لم يذعن إلى توسلات أخيه[2] الذي كان يشدد على قضية رجوعه إلى الدير ، لم يستطع التهرب من دعوة الآب السماوي (التي تمت من خلال رؤيا إلهية) ولا رفض رسامة كنيسة النينويين ورعاية سفينتها وتوجيهها .

فترك البرية التي كان قلبه ملتهباً بحبها وأتى إلى نينوى ورسم اسقفاً وتسلّم مهمة رعاية كنيستها . هذا لأنه لم يكن من اللائق أن يبقى السراج مخفياً تحت المكيال ، ولكن ليوضع على المنصة الرعائية لتشعّ فضائله للجميع . لكن ضوءه لم يستغرق طويلاً حتى غرب . وعلى ما يبدو ، لم يكن العالم مستحقاً له . وهذا ما

---

(١) قرب مدينة الموصل العراقية .

(٢) انظر الرسالة الثانية .

حصل بالذات للقديس غريغوريوس اللاهوتي الذي ترك أسقفية ساسيمون حال انتخابه ورسامته أسقفاً عليها .

إن هذا التصرّف ليس بأمر مُعاب وإن بدا لأعين محبي الله فيه شيء من الغرابة وعدم الثبات . لكن هذه هي حال رجال الكمال والفضيلة . هؤلاء الرجال وأمثالهم لا شك أنهم منارات روحية لا عيب فيها . وهذا ما يؤكده بولس الرسول إذ يقول « الروحي يحكم في كل شيء وليس يحكم فيه أحداً » (١ كو ٢ : ١٦) .

وفي يوم من الأيام بعد تسلّمه عصا الرعاية بينما كان في مبنى الأسقفية جاء إليه إثنان ، أحدهما دائن والثاني مديون . وكان الأول يطالب الثاني بالدين الذي عليه ، رغم أن الثاني كان يعترف له به . وإذ لم يكن متوفراً لديه المال طلب من الأول أن يمهله وقتاً قصيراً من الزمن ليؤمّن له المال المطلوب . فانتفض الدائن وقال للقديس ، إن لم يفي هذا الرجل الدين اليوم فإني سأشتكيه إلى القاضي . فأجابه القديس وقال ، اسمع يا بني ، ما دام الإنجيل يوصينا بعدم مطالبة الأشياء المغتصبة ذاتها ، ألا ترى أنه حريّ بك أن تهمل مديونك يوماً واحداً ليؤمّن لك مالك ؟ فأجابه ذاك العاتي المستبد : دع الآن جانباً ما يقوله الإنجيل .

فلما سمع القديس هذا الكلام قال في نفسه ماذا جئت لإعمل هنا ما دام هؤلاء الناس لا يسمعون لوصايا الإنجيل ؟ وبعدما تذكر حياته الهدوئية الأولى البعيدة عن الاضطرابات ورأى نفسه مشتتاً بمسؤوليات الأسقفية ، وقارن بينهما ترك منصبه وتوجّه إلى البرية المعشوقة راجعاً إلى قلايته وقضى فيها بقية حياته مجاهداً بثبات ضد الشياطين ومتطلبات الجسد[١] .

أمّا سموّ فضيلته البارزة من خلال سيرته وآثاره ، ومستوى كماله ، ونسبة تمتعه بالنعمة الإلهية أثناء حياته في الجسد ، فلا يُستطاع وصفها كما يجب ، « لأن ذاك الذي لم يشاهد الشمس بعينيه ، كما يقول ، لا يستطيع أن يخبّر عن ضوئها ولا أن يحسّ بنورها بمجرّد سماعه عنها ، هكذا تكون حال الذي لم يتذوق بنفسه حلاوة الأعمال الروحية » (مقالة ٢٣) .

---

(١) من الأرجح أن يكون هذا الحدث حجة لتركه وليس سبباً .

فقبل تذوقه لهذه النعمة مرّ في مرحلة تجارب قاسية مُحّص تمحيصاً شديداً كما يُمحص الذهب في البوتقة . يقول : « بعدما امتحنت زمناً طويلاً من اليمين واليسار وجرّحني العدو جراحاً كثيرة من الطرفين واستؤهلت لمعونات كثيرة بحال سرّية اقتبست خبرة على مرّ الزمان وتعلمت هذه الأمور من خلال خبرتي ومؤازرة النعمة » (م ٢٦) .

لكنه بالرغم من موهبته الكبرى لم يعتبر ذاته المرجع الوحيد للخبرة الروحية . بل كان متيقناً من أن خبرة الآباء هي التي تشكل المقياس الصحيح لها ، بالإضافة إلى خبرته الشخصية المستنيرة بالروح القدس . ولهذا أتى تعليمه سليماً وخارقاً بسهمه أعماق النفس البشرية المتعبدة ومُحلّ إياها بعذوبة ألفاظه المشبعة بالروح . يقول : « لقد كتبت هذه الأمور لذكري وتذكر كل من يقرأ هذا الكتاب ، لأني اتخذتها من رؤى الكتاب المقدس ومن أفواه صادقة ومن خبرتي القليلة » (م ١٥) .

لقد كتب عن هذه الأمور بتواضع عميق ، بعيداً عن كل دوافع الظهور ، الظهور الذي حاربه الآباء محاربة شديدة لأنهم اعتبروا حب الظهور داءً قتالاً للنفس ، ولهذا اتخذوا نكران النفس وإخفائها سلاحاً ضده . واعتبروا الصمت مستودعاً لكنوز الروح القدس . لهذا حسب القديس نفسه جاهلاً عندما أرغمته المحبة على الكتابة للآخرين . لكنه رغم ذلك لم يخرج عن قانون الصمت والسكينة ، بل جاءت كتابته تعبيراً صامتاً عن سرّ الحياة المستقبلة أكثر منها شرحاً عن أمور هذه الحياة . يقول : « لقد صرت جاهلاً ، أيها الإخوة لأني لم أستطع حفظ السرّ مكتوماً ، بل تصرّفت كمن لا عقل له حباً في إفادة الإخوة . لأن المحبة الحقيقية هي المحبة التي يستحيل عليها إبقاء أي شيء مكتوماً دون أن تكشفه لمحبيها . لأني أحياناً كثيرة كلما كنت أكتب هذه الأمور كانت أصابعي تتلاشى فوق الورقة ولا أستطيع احتمال اللذة المنسكبة في قلبي والمسكّنة حواسي » . وهذا مما يدلّ على كمال فضيلته التي جعلت قلبه يشتعل بحب الإخوة ، أو بالأحرى بحب الإنسان ، رغم بعده عن العالم ودفعته إلى إطفاء ظمأه بمياه تعاليمه الصافية الحية . بهذا غدا معلماً واستاذاً للرهبان وميناء خلاصياً للجميع .

أمّا بالنسبة لتاريخ مولده ، فيرجح أنه وُلد في السنة ستة آلاف منذ إنشاء العالم ، وهذا مستند غالباً على كلامه عن الشياطين حيث يقول : « فالذي يتهيأ لتعليم الشياطين التي تحاربنا منذ ستة آلاف سنة . . . » (م ٣٣) .

ويتبيّن من كلامه هذا أن السنة الـ ٦٠٠٠ آلاف كانت قد بلغت إلى نهايتها عندما كتب هذه المقالة .

ويمكننا أيضاً أن نعرف تاريخ ميلاده بشكل أدق من الرسالة التي بعثها إلى سمعان الذي في الجبل العجيب الذي عاش خمساً وسبعين سنة من السنة الرابعة لعهد الملك يوستينوس الكبير ، أي من السنة الخمسمئة والإحدى والعشرين للمسيح إلى السنة الخامسة عشرة لعهد مافريكيوس ، أي في السنة الخمسمئة والستة والتسعين .

ويبدو أن القديس سمعان عندما صعد على العمود لممارسة حياته النسكية كان وقتئذ لا يزال شاباً . لأن القديس اسحق ، كما يظهر من نصّ الرسالة قد كتب له إرشادات في قوانين النسك الإبتدائية قبل صعوده على العمود . من هنا يستنتج أن القديس اسحق لمعت شهرته في النصف الأول من القرن السادس .

إن هذا الرجل البار الذي استؤهل لصفات إلهية بنعمة الله ، غدا معلماً بارعاً للرهبان ومرشداً خبيراً للحياة المسيحية الروحية المغبوطة . فقد كتب مقالات روحية مليئة بالحكمة التي تحلي نفوس القارئين بحلاوة النعمة الإلهية وتقودهم إلى كمال الفضيلة المسيحية الصحيحة .

فبشفاعته أيها المسيح الإله إرحمنا وخلصنا . آمين .

الأودية السابعة

لقد برز ضياء نورك بين المتوحدين مثل شمس ساطعة، وبأشعة تعاليمك أيها الأب تضيء الصارخين بإيمان: مبارك أنت يا إله آبائنا.

أيها الأب اسحق الحكيم، إن محفل المتوحدين الوقور يعرفك مرشداً متوحشاً بالله، وهادياً الى سيرة فضلى وقانوناً للنسّاك أيها البار.

لقد ارتفعت بالروح الى رؤية الأمور السرّية التي تفوق العقل، وشاهدت اسرار مجد الله، متأهلاً بالاشتراك بها وصارخاً مبارك أنت يا إله آبائنا.

والدية

أيتها الفتاة، نقيّ قلبي من الأدناس التي سبّبها لي العدوّ، واغسليها بمياه رحمتك الغزيرة، وبدّدي القتام عن ذهني لأشاهد النور الساطع منك.

الأودية الثامنة

لقد عشت سيرة ملائكية أيها الكليّ الغبطة اسحق، وبإماتة الأهواء والسكينة اجتنيت بواكير الحياة الآتية. فأنت الآن في الأعالي تهتف مع الملائكة، يا فتية باركوا، يا كهنة سبّحوا، ويا شعوب ارفعوا المسيح الى الأدهار.

لما سكبت الصلوات والتضرّعات بجهد اتحدت بالله بذهنك الطاهر، فظهرت مغبوطاً ومليئاً بالنعمة الإلهية منذ شبابك. وإذ تسكن الآن في الأعالي متحرراً من المادة تتنعم بالأمور التي تفوق الوصف.

لقد اتشحت بالحلّة الكهنوتية أيها البار اتّشاحاً شريفاً، وأظهرتها بأتعابك البارة والفضائل النسكية أكثر بهاءً. فأنت الآن يا اسحق المتوشح بالله تقرّب للرب

مع رؤساء الكهنة القديسين ومحافل الأبرار ذبيحة التسبيح السرية اللاهوتية.

والدية

أيتها العذراء السيدة لقد أرضعت كأمٍّ الرب الذي ولدته وحملتِه كطفل حافظة ختوم البتولية سالمة حتى وبعد الولادة يا مريم والدة الإله. فتوسلي اليه أن يهب صفح المآثم للذين يسبّحون مجدك الذي لا يوصف.

الأودية التاسعة

إن اسحق فرْعُ سورية العظيم في الأبرار والنسّاك، والإستاذ المتوشح بالله، والكاتب البارع للأسرار، والمعلّم الفاضل للمتوحدين. فليُقرَّظ باستحقاق، لأنه يتشفع الى الله، لكي يمنحنا الرحمة الإلهية.

أيها البار، لقد خُضتَ جهادات النسك الشريفة، واقتبست منها حكمة النسك بجملتها، وأصبحت تلميذاً كما يليق بالله، داحضاً سفسطات العدو، ومعلّماً إيانا أن نهرب منها بحكمة لنحيا سيرة الفضيلة كما يليق.

لقد انتقلت الى المجد الحقيقي الذي كنت تعبّر عنه بأقوالك أولاً. فأنت تشاهد الآن وجهاً لوجه بهاء المسيح الفائق الادراك، يا فخر الأبرار اسحق. فلا تكفَّ عن التوسل من أجلنا نحن المادحين إياك بشوق.

والدية

أيتها الأم العذراء المنزهة عن الزواج، يا من ولدت الإله بالجسد، نجيني من الآلام وانقذي نفسي الكثيرة الخطايا من التحجر الصعب وأضيئي ذهني بنور التوبة لأسبّحك أيتها الممجدة دائماً.

الاكسبستيلاري باللحن الثاني

لما نقيت ذهنك بالجهادات النسكية، مقصياً عنه الأهواء، امتلأت نوراً
لاهوتياً. فأنت تضيء الجميع بأشعة نور تعاليمك، وبما أنك تممت مشيئة الرب
أيها البار، فأنت تعلّمنا الأمور الفضلى.

والدية

يا والدة الإله العذراء، يا من ولدت بالجسد صانع الخليقة بحال تفوق
الطبيعة ولبثت منزهة عن الفساد بعد الولادة. أنقذيني من فساد الأهواء
بصلاحك العزيز وخلصيني أنا عبدك.

في الأينوس نرتل البروصوميات الأربع التالية باللحن الثامن

أيها الأب اسحق المغبوط، لقد عشقت الحياة المغبوطة منذ نشأتك، من كل
جوارحك، إذ مقتّ العالم كلّه. وإذ أمتّ الذهنية الأرضية ظهرت آنية ثمينة
للروح، طارداً قتام النفس ومقصياً إياه الى بعيد، بكلام النعمة، الذي وُهبت
إياه.

أيها الأب اسحق القديس، لقد جنّحت ذهنك، بعشق السكينة، إلى
السماء الثالثة، جاحداً ذاتك وماقتاً. وفي الكمال إياناً مؤدباً، بالثاوريات الإلهية
والأعمال. لذلك نكرّمك، كمعلّم حكيم وزعيم، محتفلين بتذكارك المقدس
الشريف.

أيها الأب اسحق الحكيم، لقد أُقمت على نينوى المدينة، رئيساً وراعياً
بمشيئة الله ورضاه، وللجميع أظهرت أن يحفظوا وصايا عهد النعمة الجديد،
مظهراً الأدب، بمثالك الشريف للجميع، وبأقوال الخلاص، للضابط الكل.

إنك مساوي الملائكة، أيها الدائم الذكر، في حياة البرية، في تمجيدك لله،

بالرياضة النسكية وإذ بلغت الى ما فوق العالم، أصحيت باراً لا مثيل لك. لهذا فابتهل من أجلنا نحن المعيّدين لتذكارك الشريف، المتلألىء بالأنوار.

المجد باللحن الثامن

أيها الأب البار، لقد طرحت عن نفسك صُوَر الأشياء الزائلة بترتيب سيرتك على أساس الخوف الإلهي. وبالسكينة والإمساك واليقظة، رسمت في ذهنك صورة سيرتك النسكية. فأنت تروي الجميع بتعاليمك الخلاصية من ينبوع قلبك الفيّاض. فيا أيها الأب اسحق، بما أنك ماثل لدى الثالوث المثلث الأنوار، أنقذنا من قتام الأهواء المدلهمّ.

الآن... ثم والدية

السيدة تقبّلي تضرعات عبيدك وأنقذينا من كل شدة وحزن.

المجدلة الكبرى والطروبارية والحل.

في القداس

ترتل التيبيكات والمكارزمي مع الأوديتين، الثالثة والسادسة من قانون القديس.

الرسالة والإنجيل للقديس سابا

الكينونيكون: تذكار الصدّيق يكون مؤبداً.

ميغالينار يون:

إفرح يا قانوناً شريفاً للهدوء، إفرح يا معلّماً حكيماً للمتوحدين، إفرح يا من تمنح بكلامك مواهب النعمة لكل واحد، أيها الأب البار.